«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم

محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام: ٥٥٠٠
رقم التصنيف: ٢٢٤١٢ ٣

« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز
في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الخامس

٨٧١

تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري   السيد عبد العال السيد إبراهيم

محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

الطبعـــة الأولى

الدوحـــة : رجب ١٤٠٣ / إبريل ـ نيسان ١٩٨٣

« تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعـد عن البدع ..... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » .

(ابن تيميـة)

« لمَّا رجع النَّاسُ إلى التَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أبو محمد عبـد الحق بن عطيـة من المتأخرين بالمغـرب ، فلخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلـدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الخامس

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ
أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

اللّام في قوله : [لَتَجِدَنَّ] لامُ الابتداءِ ، وقال الزجّاج : هي لامُ قَسَم ، ودخلتْ هذه النونُ الثَّقيلةُ لتفصل بين الحال والاستقبال [(١)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا خبر مطلق منسحبٌ على الزمن كلِّه ، وهكذا هو الأَمر حتّى الآن ، وذلك أن اليهود مَرَنُوا [(٢)] على تكذيب الأَنبياءِ وقَتْلهم ،

(١) يرى ابن عطية أن اللام لام الابتداء ، ويخالفه أبو حيان في « البحر » ، ورأي الزجاج أنها لام قسم ، أما قوله : « ودخلت هذه النون ... » فهذا هو رأي الخليل وسيبويه ، وليس من رأي الزجاج أو قوله كما قد يُفهم من الكلام .

(٢) مَرَن على الشيء : تعوَّد تناوله بدون حياءٍ أو خجل . « المعجم الوسيط – مرن » – والكلمة دقيقة في وصف اليهود .

ودَرِبُوا العُتُوّ والمعاصي[(١)] ، ومَرَدُوا[(٢)] على استشعار اللعنة وضَرْبِ الذلة والمسكنة ، فهم قد لَحجت[(٣)] عداوتهم ، وكَثُرَ حسدهم ، فهم أشد الناس عداوةً للمؤمنين ، وكذلك المشركون عَبَدَةُ الأَوثان من العرب ، والنِّيران من المجوس ، لأَنَّ الإِيمانَ إِيَّاهم كَفَّر ، وعروشَهم ثَلَّ[(٤)] وبيَّن أَنهم ليسوا على شيءٍ من أَوَّلِ أَمرهم ، فلم يبْق لهم بقيَّة ، فعداوتُهم شديدة .

والنصارى أَهل الكتاب يقضي لهم شرعُنا بأَن أَول أَمرهم صحيح لولا أَنهم ضلوا ، فهم يعتقدون أَنهم لم يضلوا ، وأَن هذه المِلَّة لم تنْسخ شرعهم[(٥)] ، ويُعظمون من أَهل الإِسلام من استشعروا منهم صحَّةَ دِين ، ويستهينون مَن فهموا منه الفسق ، فهُمْ إِذا حاربوا فإِنَّما

---

(١) (دَرِبَ) على وزن (فرح) لا تتعدى بنفسها ، يقال: درِب به دَرَباً ودُرْبَةً : اعتاده وأُولع به ، ودرب على الشيء : مرنَ وحذِق . ولعلَّ الخطأ في الأصول من النساخ ، والدليل على ذلك أن أبا حيَّان قد نقل عبارة ابن عطية هكذا : « وذلك أنهم مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم ، وعلى العتُو والمعاصي ... الخ » بدون جملة (ودَربوا) . والعتُو : الاستكبار ومجاوزة الحد .

(٢) (مَرَد) : جاوز حدَّ أمثاله في الطغيان ، أو بلغ غاية يخرج بها من جملتهم ، وفي التنزيل العزيز : (مَرَدُوا على النِّفاقِ) .

(٣) لحجت العداوة : يريد تمكنت من صدورهم ، ومنه : لَحَجَ السيف في غمده بمعنى : نشب فيه ولم يخرج . (المعجم الوسيط) .

(٤) أصل التعبير : « لأن الإيمان كفَّر إيَّاهم ، وثَلَّ عروشهم » فقدم المفعول في الجملتين ، ومعنى (ثَلَّ عرشَه) أذهب سلطانه ، يقال : ثلَّ الدار : هَدَمَهَا ، وثلَّ الكثيب ثلاًّ : هال تُرْبَه . (اللسان)

(٥) يريد بالملَّة : ملَّة المسلمين ، فالنصارى يعتقدون أن الإسلام لم ينسخ شريعتهم — وقد جاء في بعض النسخ (الآية) بدلا من (الملَّة) .

حرْبُهم أَنفةٌ وكسب لا أَن شرعهم يأْخذهم بذلك ، وإذا سالموا فسلمهم صافٍ ، ويُعين على هذا أَنهم أُمة شريفة الخلق ، لهم الوفاءُ والخلال الأَربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم [١] ، وتأَمل أَن النبي صلى الله عليه وسلم سُرَّ حين غلبت الروم فارس ، وذلك لكونهم أَهلَ كتاب ، ولم يُرد عليه الصلاة والسلام أَن يستمر ظهور الروم ، وإنما سُرَّ بغلبة أَهل كتاب لأَهل عبادة النار ، وانضاف إلى ذلك أَن غلب العدو الأَصغر وانحصرت شوكة العدوّ الأَكبر المخوف على الإسلام .

واليهود – لعنهم الله – ليسوا على شيءٍ من هذا الخُلُق ، بل شأْنُهم الخُبْث واللَّيُّ بالأَلسنة ، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يبغيك هو الغوائل [٢] إلا الشاذَّ القليل منهم مِمَّن عسى أَن تخصص بأَدب وأُمور غير ما عُلّم أَولا .

ولم يصف الله تعالى النصارى بأَنهم أَهل وُدٍّ ، وإنما وصفهم بأَنهم أَقرب من اليهود والمشركين ، فهو قرب مودة بالنسبة إلى متباعدين .

---

(١) روى مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» عن موسى بن علي عن أبيه قال : قال المُسْتَوْردُ القُرَشِي عند عمرو بن العاص : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقوم الساعة والروم أكثر الناس ، فقال له عمرو : أبْصِر ما تقول ، قال : أقول ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لئن قلتَ ذلك إنَّ فيهم لخصالا أرْبعاً : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد معصية ، وأوشكهم كَرَّةً بعد فَرَّة ، وخيرهم لِمِسْكين ويتيم وضعيف ، وخامسةٌ حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك» .

(٢) أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماخلا يهودي بمسلم إلا همّ بقتله ، وفي لفظ : إلا حدّث نفسه بقتله .
(الدر المنثور ٢–٣٠٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿الَّذينَ قَالوا إنَّا نَصَارى﴾ إشارةٌ إلى أَن المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم من النصارى ليسوا على حقيقة النَّصرانية ، بل كونُهم نصارى قولٌ منهم وزعْم .

وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسينَ وَرُهْباناً﴾ معناه : ذلك بأَن منهم أهلَ خشية وانقطاع إلى الله وعبادةٍ وإِن لم يكونوا على هدى ، فهم يميلون إلى أَهل العبادة والخشية ، وليس عند اليهود ولا كان قط أَهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا ، بل هم مُعَظِّمون لها ، متطاولون في البنيان وأُمور الدنيا حتى كأَنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فلذلك لا يُرى فيهم زاهد .

ويقال : قِسٌّ بفتح القافِ وبكسرها وقسِّيس ، وهو اسم أَعجمي عرّب ، والقَسُّ في كلام العرب : النميمة ، وليس من هذا (١) .

وأَما الرهبان فجمع راهب ، وهذه تسمية عربية ، والرَّهْب : الخوف ، ومن الشواهد على أَن الرهبان جمْعٌ قول الشاعر :

---

(١) القسِّيس : العالم ، وأصله من قَسَّ إذا تتبَّع الشيء فطلبه ، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم :

يُمْسين مِنْ قَسِّ الأذى غَوافِــــلاَ لا جَعْبَــــرياتٍ وَلا طَهَــــاملا

والجعبريات : القصار ، واحدتها : جَعْبَرة ، والطَّهامل : الضخام مع قبح الخِلقة ، واحدتها : طَهْملة . والقَسُّ أيضاً : رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم ، وجمعه قسوس وقسِّيس ، على مثال : شَرٌّ وشرِّير ، ويجمع قسيس تكسيراً على قساوسة بإبدال إحدى السينين واواً . (راجع : لسان العرب ــ والقرطبي ، وفتح القدير) .

رُهْبانُ مدْيَنَ لوْ رَأَوْكِ تَنَزَّلُوا ... والعُصْمُ مِن شَعَفِ العُقُولِ الفادِرُ (١)

وقد قيل : الرهبان اسم مفرد ، والدليل عليه قول الشاعر :

لو عايَنَتْ رُهْبانَ دَيْرٍ في القُلَلْ ... تحدَّر الرُّهْبانُ يَمْشي وَنَزَل (٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويروى : ويَزِلّ بالياء من الزلل ، وهذه الرواية أبلغ في معنى غلبة هذه المرأة على ذهن هذا الراهب . ووصف الله تعالى النصارى بأنهم لا يستكبرون ، وهذا بيّن موجود فيهم حتى الآن ، واليهودي

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة مطلعها :

طَرِبَ الحَمَامُ بِذي الأراكِ فَهَاجَني ... لا زلْتَ في غَلَلٍ وَأَيْكٍ نَاضِرِ

والخطاب في قوله : « لو رأوك » لمن خاطبها في البيت السابق على البيت الذي استشهد به ابن عطية : « يا أم طلحةَ مالقينا مثلكم » ، والعصم : الوعول ، وإنما سميت عُصْماً لبياضٍ في أيديها ، والفادرُ : المُسِنُّ منها ، وجمعه : فُدُور ، والعُقُول : المتحرزة في شعف الجبال ، وشعف كل شيء : أعلاه ، يقول : لو أن رهبان مدين المعروفين بالنسك والتصون رأوك لنزلوا من صوامعهم ، وكذلك الوعول المسنة التي اعتصمت في أعالي الجبال .

(٢) روى صاحب اللسان البيت هكذا :

لوْ كَلَّمَتْ رُهْبَانَ دَيْرٍ في القُلَلْ ... لانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَسْعَى فَنَزَلْ

ولم ينسبه ، بل قال : أنشد ابن الأعرابي ، وكذلك رواه في التاج . ورواه في تفسير القرطبي : « لَوْ أبْصَرَتْ ... في الجبل »،وكذلك رواه في « فتح القدير » ، أما في « البحر» فقد رواه كما رواه ابن عطية ، والقلل : جمع قلة وهي قمة الشيء وأعلاه ، وإذا كان الرهبان جمعاً كما هو المشهور فالمفرد راهب ، والفعل رهبَ ، والتَّرَهُّب هو التعبد في صومعة ، قال النابغة :

لَوْ أنَّهَا عَرَضَتْ لأشْمَطَ راهِبٍ ... عَبَدَ الإلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنَا لِرُؤْيَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا ... ولَخَالَه رَشَداً وإنْ لَمْ يَرْشُدِ

والصرورة : الذي لم يأت النساء .

متى وجد غروراً طغى وتكبر ، وإنما أذلهم الله وأضرعتهم الحمى ، وداسهم كلكل الشريعة ، ودينُ الإسلام أعلاه الله .

وذكر سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن عباس أن هذه الآية نزلت بسبب وفْد بعثهم النجاشيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليروْه ويعرفوا حاله ، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي أن نَعْش النَّجاشي كُشف للنبي صلى الله عليه وسلم فكان يراه من موضعه بالمدينة ،وجاء الخبر بعد مدة أن النجاشي دفن في اليوم الذي صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، وذكر السُّدي أنهم كانوا اثني عشر ، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً . وقال أبو صالح : كانوا سبعة وستين رجلا ، وقال سعيد بن جُبير : كانوا سبعين ، عليهم ثيابُ الصوف ، وكلهم صاحب صومعة ، اختارهم النجاشي الخيِّر فالخيِّر ، وذكر السدي أن النجاشي خرج مهاجراً فمات في الطريق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لم يذكره أحد من العلماء بالسيرة .

وقال قتادة : نزلت هذه الآيات في قوم كانوا مؤْمنين ثم آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفرق الطبري بيْن هذين القولين وهما واحد .

وروى سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم : «ذلِك بأَنَّ منْهم صِدِّيقين ورُهْبانا»[1] .

وقوله تعالى: ﴿وإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسولِ تَرَى أَعْيُنَهُم﴾ الآية ، الضمير في [سَمِعُوا] ظاهِرُه العموم ، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤُلاءِ القادمين مِن أَرض الحبشة ، إِذ هم عرفوا الحق وقالوا : آمنا ، وليس كل النصارى يفعل ذلك ، وصدْر الآية في قُرْب المودة عام فيهم ، ولا يتوجه أَن يكون صدر الآية خاصاً فيمن آمن ، لأَنَّ من آمن فهو من الذين آمنوا وليس يقال فيه : «قالوا : إنا نصارى» ، ولا يقال في مؤمنين : «ذلك بأَن منهم قسِّيسين» ، ولا يقال : «إِنهم أَقرب مودة» ، بل مَنْ آمن فهو أَهل مودة محضة ، فإِنما وقع التخصيص

---

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله ، وابن أبي شيبة في مسنده ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، والحارث بن أُسامة في مسنده ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبزار ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه — عن سلمان أنه سئل عن قوله : ﴿ ذلِكَ بأَن مِنْهُم قِسِّيسِينَ ورُهْبَاناً ﴾ قال : الرهبان الذين في الصوامع ، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُم صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانا » ، ولفظ البزار : دع القسِّيسين : أَقْرَأَني رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ] ، ولفظ الحكيم الترمذي : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم : [ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ] فأَقرَأَني : « ذلِكَ بأَنَّ مِنْهُم صِدِّيقِينَ » . (الدر المنثور ٢—٣٠٤) .

من قوله تعالى : [وإذا سَمِعوا] ، وجاءَ الضمير عامًّا إذْ قد تُحمد الجماعة بفعل واحد منها ، وفي هذا استدعاءٌ للنصارى ولطفٌ من الله تعالى بهم ، ولقد يوجد فيض الدموع غالباً فيهم وإن لم يؤْمنوا[(١)] .

وروي أَن وفداً من نجران قدم على أَبي بكر الصديق في شيءٍ من أُمورهم ، فأَمر مَنْ يقرأُ القرآن بحضرتهم ، فبكوا بكاءً شديداً ، فقال أَبو بكر : هكذا كنا ولكن قست القلوب .

وروي أَن راهباً من رهبان ديارات الشام نظر إِلى أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورأَى عبادتهم وجِدَّهم في قتال عدوهم فعجب من حالهم وبكى وقال : ما كان الذين نُشروا بالمناشير على دِين عيسى بأَصبر من هؤُلاءِ ولا أَجَدَّ في دينهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالقوم الذين وُصفوا بأَنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعوا ما عنده ، فلما رأَوه قرأَ عليهم القرآن ، وهو المراد بقوله : ﴿ما أُنْزِلَ إِلى الرَّسول﴾ فاضت أَعينهم بالدمع من خشية القلوب .

---

(١) هذا تعليل لطيف مقبول ، وقد اتفق القرطبي مع ابن عطية في أن المدح لمن آمن من النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم دون من أصرّ منهم على كفره ، قال : ولهذا قال: ﴿وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُون﴾ أي عن الانقياد إلى الحق .

والرؤية في الآية رؤية العين ، و [تَفيضُ] حالٌ من (الأَعين)[١] ، و[يَقُولُون] حالٌ أيضاً ، و [آمَنَّا] معناه : صدقنا أن هذا رسولك ، والمسموع كتابك . والشاهدون : محمد وأُمته . قاله ابن عباس ، وابن جريج ، وغيرهما .

وقال الطبري : لو قال قائلٌ : معنى ذلك : مع الشاهدين بتوحيدك من جميع العالَم من تقدم ومن تأَخر لكان ذلك صواباً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا معنى قول الطبري ، وهو كلام صحيح ، وكأَن ابن عباس رضي الله عنهما خصَّصَ أُمة محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الآية[٢] .

---

(١) معنى [تَفيض من الدَّمْع] أنها تمتلئ فتفيض ، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، وقد جعل الأعين تفيض والفائض إنما هو الدمع قصداً للمبالغة ، كقولهم : دمعت عينُه ، قال امرؤُ القيس :

ففاضَتْ دموعُ العيْن مِني صَبَابَةً على النَّحْر حتى بَلَّ دَمْعي مِحْمَلي

و(من) في [مِنَ الدَّمْع] قال فيها أبو البقاء : يمكن أن تكون لابتداء الغاية، أي : فيضها من كثرة الدموع ، ويمكن أن تكون حالا ، والتقدير : تفيض مملوءة من الدمع مما عرفوا من الحق . وقال بعضهم (مِنْ) بمعنى الباء ، أي : تفيض بالدمع . و(مِن) في [مِمَّا عرفوا مِنَ الحَقِّ] بيانيَّة ، والمعنى : كان الفيض ناشئاً من معرفة الحق . قاله أبو حيان في «البحر المحيط» نقلا عن الزمخشري في «الكشاف» وعن غيره .

(٢) قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ هي الآية (١٤٣) من سورة البقرة ، وكأنما هي حجة ابن عباس في تخصيص أُمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنها هي المرادة بقوله تعالى هنا : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين﴾ ،ولكن هناك آراء أُخرى ، ومعنى [اكْتُبْنَا] اجعلنا كما قال القرطبي فيكون بمنزلة ما قد كُتب ودُوِّن .

قوله عزّ وجل :

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قولهم : [وَمَا لَنَا] توقيف لأَنفسهم ، أَو محاجَّة لمن عارضهم من الكفار بأَن قال لهم : آمنتم وعجلتم ، فقالوا : وأَي شيءٍ يصدنا عن الإِيمان وقد لاح الصواب وجاء الحق المنير ؟ [وَمَا لَنَا] ابتداءٌ وخبر و [لا نُؤْمِنُ] في موضع الحال ، ولكنها حال هي المقصد وفيها الفائدة ، كما تقول : «جاء زيد راكباً» وأَنت قد سُئِلت : «هل جاء ماشياً أَو راكباً» . ؟

وفي مصحف ابن مسعود : «وما لَنَا لا نُؤْمن بالله وما أَنزل إِلينا رَبُّنَـا» .

[وَنَطْمَعُ] تقديره : ونحن نطمع ، فالواو عاطفة جملة على الجملة ، لا عاطفة فعل على فعل ، والقوم الصالحون : محمد وأَصحابه ، قاله ابن زيد وغيره من المفسرين .

ثم ذكر الله تعالى ما أَثابهم به من النعيم على إِيمانهم وإِحسانهم .

ثم ذكر حال الكافرين المكذبين وأنهم قرناءُ الجحيم(١)، والمعنى قد علم من غير ما آيةٍ من كتاب الله أَنه اقترانٌ لازم دائم أَبدي .

وقوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ الآية . قال أَبو مالك ، وعكرمة ، والنخعي ، وأَبو قلابة ، وقتادة ، والسدي ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وغيرهم : إنها نزلت بسبب جماعة من أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بلغت منهم المواعظ وخوف الله إلى أَن حرَّم بعضهم النساءَ ، وبعضهم النوم بالليل والطيب ، وهمَّ بعضهم بالاختصاء ، وكان منهم علي بن أَبي طالب ، وعثمان بن مظعون . قال عكرمة : ومنهم ابن مسعود ، والمقداد ، وسالم مولى أَبي حذيفة . وقال قتادة : رفضوا النساءَ واللحم وأَرادوا أَن يتخذوا الصوامع ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَخذوا الشِّفار(٢) ليقطعوا مذاكرهم ، وطوّل السدي في قصة الحولاءِ امرأَة عثمان بن مظعون مع أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم وإخبارها بأَنه لم يلم بها ، فلما أُعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحالهم قال : (أَمَّا أَنا فأَقوم وأَنام ، وأَصوم وأُفطر ، وآتي النساءَ ، وأَنال الطيّب ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)(٣) .

---

(١) الجحيم : النار الشديدة الاتقاد ، يقال : جَحَمَ فلان النار إذا شدّد إيقادها ، ويقال لِعَيْن الأسد : جَحْمَة ، لِشدّة اتقادها .

(٢) الشِّفار : جمع شَفْرة ، وهي ما عُرِّض وحُدِّد من الحديد كحد السيف والسكين ، وتجمع أيضاً على شَفْر .

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، =

قال الطبري : وكان فيما يُتْلى : «من رغب عن سنتك فليس من أُمتك ، وقد ضلَّ سواءَ السبيل» .

وقال ابن زيد : سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف، فانقلب ابن رواحه وضيفه لم يتعش ، فقال لزوجته : ما عشيته ؟ قالت : كان الطعام قليلا فانتظرتك ، فقال : حبَسْتِ ضيفي من أَجلي ، طعامُك علي حرام إن ذقته ، فقالت هي : وهو عليَّ حرام إنْ ذقتُه إن لم تذقه ، وقال الضيف : وهو علي حرام إن ذقتُه إن لم تذوقوه ، فلما رأى ذلك ابن رواحه قال : قرِّبي طعامك ، كلوا باسم الله ، فأَكلوا جميعاً ، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَخبره فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَحسنت ، ونزلت هذه الآية[1] .

وأَسند الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما أَن الآية نزلت بسبب رجل أَتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني إذا

= ولفظُهُ: قال: (نزلَتْ في رهط من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكني أصوم وأُفطر ، وأُصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني . » (الدر المنثور — وفتح القدير) — وزاد في فتح القدير : « وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذِكْر أن ذلك سبب نزول الآية .»

(١) قال الشوكاني عن هذا الأثر : « أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم » ، ثم قال : « وهذا أثر منقطع ، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصِّديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا ».

أصبْتُ من اللحم انتشرت وأَخذتني شهوتي فحرمت اللحم ، فأَنزل الله هذه الآية [(١)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والطيبات في هذه الآية : المُسْتَلَذَّات ، بدليل إِضافتها إلى [ما أَحلَّ] ، وبقرينة ما ذُكر من سبب الآية .

واختلف المتأَولون في معنى قوله : [وَلا تَعْتَدُوا] ـ فقال السدي ، وعكرمة ، وغيرهما : هو نَهْي عن هذه الأُمور المذكورة من تحريم ما أَحلَّ الله وشرع ما لم يأْذن به ، فقوله :[وَلا تَعْتَدُوا] تأْكيد لقوله : [لا تُحَرِّموا] . وقال الحسن بن أَبي الحسن : المعنى : ولا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله ، فالنهْيانِ على هذا تضمَّنا الطرفين فكأَنه قال : لا تتشددوا فتحرموا حلالا ، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً . وقد تقدم القول في معنى : [لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ] غير مرة .

---

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن عدي في الكامل ، والطبراني ، وابن مردويه ــ عن ابن عباس . (الدر المنثور ٢ـ٣٠٧).

والأحاديث في ذلك كثيرة ، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السِّرِّ ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بالُ أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكني أَصوم وأُفطر ، وأَنام وأَقوم ، وآكل اللحم ، وأَتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني .

قوله عز وجل :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

[كُلُوا] في هذه الآية عبارة عن : تمتعوا بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك ، وخصَّ الأكل بالذكر لأنه أعْظَم المقصود[١] وأخص الانتفاعات بالإنسان .

والرزق عند أهل السنة : ما صحَّ الانتفاع به ، وقالت المعتزلة : الرزق : كل ما صحَّ تملُّكه ، والحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، ويرد عليهم بأنه يلزمهم أن آكل الحرام ليس بمرزوق من الله تعالى ، وقد خرَّج بعض النبلاء أن الحرام رزق من قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٢] قال: فذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام ، وردَّ أبو المعالي في الإرشاد على المعتزلة بأنهم إذا قالوا : الرزق ما تملك فيلزمهم أن ما ملك فهو الرزق ، وملك الله تعالى للأشياء لا يصح أن يقال فيه : إنه رزق له.

(١) جاء في بعض النسخ : لأنه عظم المقصود ، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما نقله القرطبي عن ابن عطية رحمه الله .

(٢) من الآية (١٥) من سورة (سبأ) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الذي أَلزم غير لازم فتأَمَّلْه . وباقي الآية بيِّن .

وقد تقدم القول في سورة البقرة في نظير قوله تعالى : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ . وقوله تعالى : ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ معناه : شدَّدْتم.

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو : [عَقَّدْتُم] مُشَدَّدة القاف ، وقرأَ عاصم – في رواية أَبي بكر – ، وحمزة ، والكسائي : [عَقَدتم] خفيفة القاف ، وقرأَ ابن عامر : [عَاقَدْتُم] بأَلف على وزْن فاعلتم . قال أَبو علي : من شدد القاف احتمل أَمرين : أَحدهما أَن يكون لتكثير الفعل لأَنه خاطب جماعة ، والآخر أَن يكون (عقَّد) مثل (ضعَّف) لا يراد به التكثير ، كما أَن ضاعف لا يراد به فعلٌ من اثنين ، ومن قرأَ [عَقَدْتم] فخفف القاف جاز أَن يراد به الكثير من الفعل والقليل . وعقد اليمين كعقد الحبل والعهد ، وقال الحطيئة :

قومٌ إِذَا عَقَدوا عَقْداً لِجَارِهِمَ ... شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فوْقَهُ الكَرَبا(١)

ومن قرأَ [عاقَدْتُمْ] فيحتمل ضربين : أَحدهما أَن يكون كطارقت النعل ، وعاقبت اللص ، والآخر أَن يراد به فاعلت الذي يقتضي فاعليْن كأَن المعنى : يؤاخذكم بما عاقدتم عليه الأَيْمان ، ويُعدى (عاقد) بـ (عَلَى) لما هو في معنى (عاهد) ، قال الله تعالى : ﴿ومن أَوفى بما عاهَدَ

(١) قال الحطيئة هذا البيت يمدح قوماً بأَنهم عقدوا لجارهم عهداً فوفوا به ولم يخفروه ، والعِنَاج : خيْطٌ أو سيْر يُشد في أسفل الدلْو ثم يُشد في عروتها ، والكَرَب : الحبل الذي يشد على الدلْو بعد الحبل الأول (واسمه : المتين) فإذا انقطع المتين بقي الكرب . وقيل في المعاني غير هذا ، وهذه أمثال ضربها الحطيئة لإيفائهم بالعهد . على أنه مما يؤيد ما ذهبنا إليه أن العرب تقول : دلوٌ مُكَرْبَة : ذات كَرَب . (اللسان) . وقد سبق شرح هذا البيت في أول سورة المائدة عند تفسير قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ .

عَلَيْه اللهَ ﴾[(١)] ، وهذا كما عُديت ﴿نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاة﴾[(٢)] بـ (إلى) ، وبابها أن تقول : ناديت زيداً ، ﴿وناديْناهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَن﴾[(٣)] لكن لما كانت بمعنى : دعوت إلى كذا كقوله تعالى : ﴿ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ﴾[(٤)] عُدّيت (نادى) بـ (إلى) ، ثم يتسع في قوله تعالى : «عاقدتم عليه الأَيمان» فيحذف الجار ويصل الفعل إلى المفعول ، ثم يحذف من الصلة الضمير الذي يعود على الموصول ، وتقديره : «يُؤَاخذكم بما عقدتموه الأَيمان» كما حذف من قوله تعالى : ﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر﴾[(٥)] .

والأَيمان : جمع يمين وهي الأَلِيَّة[(٦)] ، سميت يميناً لما كان عرفهم أن يصفقوا بأَيمان بعضهم على بعض عند الأَلِيَّة . وقوله تعالى : [فَكَفَّارَتُه] معناه : فالشيءُ الساتر على إثم الحنث في اليمين إطعامُ ، والضمير على الصناعة النحوية عائد على [مَا][(٧)] ، وتحتمل [مَا]

(١) من الآية (١٠) من سورة (الفتح) .
(٢) من الآية (٥٨) من سورة (المائدة) .
(٣) من الآية (٥٢) من سورة (مريم) .
(٤) من الآية (٣٣) من سورة (فصلت) .
(٥) من الآية (٩٤) من سورة (الحجر) .
(٦) الأَليَّةُ : اليمين ، والأَلِيَّةُ بكسر اللام وتشديد الياء المفتوحة ، والجمع : ألايا . أمَّا الألْيَة بسكون اللام وفتح الياء فهي العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم . (المعجم الوسيط).
(٧) وضّح أبو حيان هذا الكلام لأن عبارة ابن عطية هذه توحي بأن الضمير عائد على [ما] على الاحتمالين مع أن قوله بعد ذلك — «وهو عائد مع المعنى ... الخ» يخالف هذا ، قال أبو حيان في «البحر» : «والضمير في [فَكَفَّارَتُهُ] عائد على [ما] إن كانت موصولة اسمية ، وهو على حذف مضاف ، وإن كانت مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من المعنى وهو إثم الحنث وإن لم يجر له ذكر صريح لكن يقتضيه المعنى» — وهذا هو الذي أراده ابن عطية ولم تؤده عبارته بدقة .

في هذا الموضع أن تكون بمعنى الذي ، وتحتمل أن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إثم الحنث ، ولم يجر له ذكر صريح ولكن المعنى يقتضيه .

و﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ معناه : إشباعهم مرة ، قال الحسن بن أبي الحسن : إنْ جَمعَهم أَشبعهم إشباعة واحدة ، وإن أَعطاهم أَعطاهم مَكُّوكاً مَكُّوكا[(١)] ، وحكم هؤلاءِ أَلا يتكرر واحد منهم في كفارة يمين واحدة ، وسواءٌ أَطعموا أَفراداً أَو جماعة في حين واحد ، ولا يُجزئُ في شيءٍ من ذلك ذمّيٌّ وإن أُطعم صبي فيعطى حظ كبير ، ولا يجوز أَن يُطعَم عبد ولا ذو رحم تلزم نفقته ، فإن كان ممن لا تلزم المكفر نفقته فقد قال مالك : لا يعجبني أَن يطعمه ، ولكن إن فعل وكان فقيراً أَجزأَه ، ولا يجوز أَن يُطْعَم منها غني ، وإن أُطعم جهلا بغناه ففي «المدونة» وغير كتاب أَنه لا يجزئْ ، وفي «الأَسدية» أَنه يجزئُ .

واختلف الناس في معنى قوله : [مِنْ أَوْسَطِ] ـ فرأَى مالك رحمه الله وجماعة معه هذا التوسط في القدر ، ورأَى ذلك جماعة في الصنف ، والوجه أَن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف ، فرأَى مالك أَن يطعم المسكين بالمدينة مُدّاً بمد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك رطل وثلث من الدقيق وهذا لضيق المعيشة بالمدينة ، ورأَى في غيرها أَن يتوسع ،

---

(١) المَكُّوكُ : مِكْيالٌ قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد ، قيل : يسع صاعاً ونصف صاع .

ولذلك استحسن الغداءَ والعشاءَ ، وأفتى ابن وهب [(١)] بمصر بمدٍّ ونصف، وأشهب بمُدٍّ وثلث ، قال ابن المواز : ومُد وثلث وسَطٌ من عيش أهل الأَمصار في الغداءِ والعشاءِ ، قال ابن حبيب [(٢)] : ولا يجزئ الخبز قَفَاراً [(٣)] ، ولكن بإدام [(٤)] زيت أو لبن أو لحم أو نحوه ، وفي شرح ابن مزين أن الخبز القَفَار يجزئ ، ورأى من يقول «إن التوسط في الصنف» إنما هو في الصنف أن يكون الرجل المكفر يتجنب أدنى ما يأْكل الناس في البلد ، وينحط عن الأَعلى ، ويكفر بالوسط من ذلك ، ومذهب «المدونة» أن يراعي المكفِّر عيشَ البلد ، وفي كتاب ابن المواز أن المراعَى عيشهُ في أهله الخاصُّ به [(٥)] .

---

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري ، فقيه من الأئمة ، من أصحاب مالك ، جمع بين الفقه والحديث والعبادة ، من كتبه : الجامع في الحديث ، والموطأ في الحديث أيضاً ، وكان حافظاً ثقة ، عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم بيته ، مولده ووفاته بمصر (ت ١٩٧ هـ) — (الوفيات ، والتهذيب) .

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي ، عالم الأندلس وفقيهها ، سكن قرطبة ، وزار مصر ، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بقرطبة ، كان عالماً بالتاريخ والأدب ، رأسا في فقه المالكية ، له تصانيف كثيرة ، قيل : تزيد على الألف ، منها : «حروب الإسلام ، طبقات الفقهاء والتابعين ، تفسير موطأ مالك» ، قال عنه ابن لبابة: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، (معجم البلدان — الديباج — تاريخ علماء الأندلس) .

(٣) القَفَارُ من الخبز : غير المأدوم .

(٤) الإدَامُ : مايُستمرأ به الخبز ، والجمع : أُدُم .

(٥) الوَسَط هنا منزلة بين منزلتين ، ونصفا بين طرفين ، ومنه الحديث : (خير الأمور أوسطها) . روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سَعة ،وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة ، فنزلت : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ فدل هذا على أن الوسط : ما كان بين شيئين .

وكأَن الآية ـ على التأْويل الأَول ـ معناها : من أَوسط ما تُطعمون أَيها الناس أَهليكم في الجملة من مدينة أَو صِقْع ، وعلى التأْويل الثاني معناها : من أَوسط ما يطعم شخص أَهله . وقرأَ الجمهور : [أَهْليكمْ] وهو جمع أَهل على السلامة ، وقرأَ جعفر بن محمد : [مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهاليكُمْ] ، وهذا جمع مكسر ، قال أَبو الفتح : أَهال بمنزلة : لَيَالٍ كأَن واحدها : أَهلاتٌ وليلاتٌ ، والعرب تقول : أَهلٌ وأَهْلَة ، ومنه قول الشاعر :

وأَهْلَةِ وُدٍّ قَدْ تَبَرَّيْتُ وُدَّهُمْ . . . . (١)

ويُقال : ليلةٌ وليْلاه ، وأَنشد ابن الأَعرابي :

في كُل ما يوم ٍ وكُلِّ ليْــلاه حتَّى يَقــولَ مَنْ رآهُ إذْرآهْ
يا وَيْحَهُ مِنْ جَمَلٍ ما أَشْقاهْ (٢)

---

(١) البيت لأبي الطَّمَحان القَيْني ، وهو شاعر إسلامي اسمه : حنظلة بن الشرقي ، والبيت بتمامه :

وأَهْلَةِ وُدٌّ قد تَبَرَّيْتُ وُدَّهــم وَأَبْلَيْتُهُمْ في الحمْدِ جُهْدي ونائِلي

ومعنى (تَبَرَّيْتُ) : تعرضت لودهم وبذلتُ في ذلك طاقتي من نائل ، وهذه هي رواية اللسان ، ورواية التاج « بذلي ونائلي » .

(٢) قال في اللسان : وحكى ابن الأعرابي : « ليْلاة » ، وأنشد :

في كُلِّ يوْمٍ ما وكُلِّ ليْلاهْ
حتَّى يقولَ كُلُّ راءٍ إذا رآهْ
يا وَيْحَهُ مِنْ جَمَلٍ ما أَشْقاهْ

وتأمل الاختلاف في الرواية ، فهي : « في كلِّ يوم ٍ ما » بدلا من « في كلِّ ما يوْمٍ » — وهي أيضاً : « كلُّ راءٍ إذا رآه » بدلا من « من رآه إذ رآه » ، ورواية ابن جني في المحتسب مثل رواية اللسان .

وقرأ الجمهور : [أَوْ كِسْوتهم] بكسر الكاف ، يراد به كسوة الثياب . وقرأ سعيد بن المسيّب ، وأبو عبد الرحمن ، وإبراهيم النَّخعي: [أَو كُسْوَتهم] بضم الكاف . وقرأ سعيد بن جبير ، ومحمد بن السميفع اليماني [أَو كَإِسْوَتهم] من الأسوة ، قال أَبو الفتح : كأَنه قال : أَو بما يكفي مثلهم ، فهو على حذف مضاف بتقدير : أَو ككفاية أُسوتهم . قال : وإن شئت جعلت الأُسوة هي الكفاية فلم تحتج إلى حذف مضافٍ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، والقراءة مخالفة لخط المصحف ، ومعناها على خلاف ما تأَول أَهل العلم من أَن الحانث في اليمين بالله مخير في الإطعام أَو الكسوة أَو العتق ، والعلماءُ على أَن العتق أَفضل ذلك ، ثم الكسوة ، ثم الإطعام ، وبدأَ الله تعالى عباده بالأَيسر فالأَيسر ، ورُبَّ مُدَّة ومسغبة يكون فيها الإطعام أَفضل من العتق ، لكن ذلك شاذ وغير معهود ، والحكم للأَغلب .

واختلف العلماءُ في حدِّ الكسوة ـ فراعى قوم نفس اللفظة ، فإذا كان الحانث المكفر كاسياً والمسكين مكسوّاً حصل الإجزاءُ ، وهذه رتبة تتحصل بثوب واحد ، أَي ثوب كان بعد إجماع الناس على أَن القلنسوة بانفرادها لا تُجزئ في كفارة اليمين . قال مجاهد : يجزئ في كفارة اليمين ثوب واحد فما زاد ، وقال الحسن : الكسوة : ثوب لكل مسكين ، وقاله طاوس ، وقال منصور : الكسوة : ثوب قميص

أَو رداءٌ أَو إزار ، وقاله أَبو جعفر ، وعطاء ، وابن عباس ، وقال : وقد تجزئ العباءة في الكفارة ، وكذلك الشملة ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : تجزئ العمامة في كفارة اليمين ، وقال مجاهد : يجزئ كل شيءٍ إلا التُّبَّان[1] . ورُوي عن سلمان رضي الله عنه أَنه قال : «نعم الثوبُ التُّبان» ، أَسنده الطبري ، وقال الحكم بن عتبة : تجزئ عمامة يلف بها رأْسه . وراعى قوم معهود الزيّ والكسوة المتعارفة ، فقال بعضهم : لا يجزئ الثوب الواحد إلا إذا كان جامعاً مما قد يُتَزَيَّا به كالكساءِ والملحفة ، قال إبراهيم النَّخعي : يجزئ الثوب الجامع ، وليس القميص والدرع والخمار ثوباً جامعاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

قد يكون القميص الكامل جامعاً وزِيّاً ، وقال بعضهم : الكسوة في الكفارة : إزار وقميص ورداءٌ ، قاله ابن عمر رضي الله عنهما ، وروي عن الحسن ، وابن سيرين ، وأَبي موسى الأَشعري أَن الكسوة في الكفارة ثوبان لكل مسكين ، وعلَّق مالك رحمه الله الحكم بما يجزئ في الصلاة ، وهذا أَحسن نظر ، فقال : يجزئ في الرجل ثوب واحد ، وقال ابن حبيب : يكسى قميصاً أَو إزارا يبلغ أَن يلتف به مشتملا ، وكلام ابن حبيب تفسير ، قال مالك : تكسى المرأَةُ درعاً وخماراً ، وقال ابن القاسم في «العتبية» : وإن كسا صغير الإناث فدرع وخمار

---

(١) التُّبَّان ــ بضم التاء وتشديدها : سراويل صغير مقدار شبر يستر العوة المغلظة ، قيل : يكون للملاحين ، ومنه حديث عمار (أنه صلى في تُبَّان وقال : إني ممثون) ، يعني أنه يشتكي من المثانة . وفي حديث عمر : (صلى رجل في تُبَّان وقميص) (النهاية في غريب الحديث والأثر ــ لابن الأثير) .

كالكبيرة ، والكفارة واحدة لا يُنقص منها لصغير ، قال عنه ابن المواز : ولا تعجبني كسوة المراضع بحال ، فأَما من أُمر بالصلاة فيكسوه قميصاً ويجزئه ، قال ابن المواز من رأْيه : بل كسوة رجل كبير وإلا لم يجزئ ، قال أَشهب : تعطى الأُنثى إذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل ويجزئ ، وقاله ابن الماجشون .

قوله : ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير : الإخراج من الرق ، ويستعمل في الاسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها ، فمنه قوله تعالى عن أُم مريم : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَافي بَطْني مُحَرَّراً﴾[1] أَي من شغوب[2] الدنيا ، ومن ذلك قول الفرزدق :

أَبَنِي غُدانَةَ إِنَّني حَرَّرْتكُـــــمْ فَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةَ بن جِعَـــالِ[3]

أَي حررتكم من الهجاء ، وخصَّ الرقبة من الإنسان إذ هو العضو الذي فيه يكون الغل والتوثق غالباً من الحيوان ، فهو موضع الملك فأُضيف التحرير إليها .

واختلاف الناس في صفة المعْتَق في الكفارة كيف ينبغي أَن يكون ؟ فقالت جماعة من العلماءِ : هذه رقبة مطلقة لم تقيد بإِيمان فيجوز في كفارة اليمين عتق الكافر ، وهذا مذهب الطبري وجماعة من العلماءِ ، وقالت فرقة : كل مطلق في القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد في

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (آل عمران) .

(٢) الشَّغَب : تهيُّج الشر وإثارةُ الفتن والاضطراب .

(٣) حرَّره : أعتقه ، والفرزدق يريد أنه حررهم من الهجاء الذي كان سيضع منهم ويضر بأحسابهم ومكانتهم ، وقد فعل هذا عن قدرة .

عتق الرقبة في القتل الخطإ ، فلا يجزئ في شيء من الكفارات كافر ، وهذا قول مالك رحمه الله وجماعة معه[١] ، وقال مالك رحمه الله : لا يجزئ أعمى ولا أبرص ولا مجنون . وقاله ابن شهاب وجماعة ، وفي الأعور قولان في المذهب ، وكذلك في الأصم وفي الخصي . وفي العلماء من رأى أن جميع هذا يجزئ ، وفرّق النّخعي فجوز عتق من يعمل أشغاله وخدمته ، ومنع عتق من لا يعمل كالأعمى والمقعد والأشل اليدين . قال مالك رحمه الله : والأعجمي عندي يُجزئ من قصر النفقة ، وغيْرُهُ أحب إلي ، قال سحنون : يريد بعد أن يجيب إلى الإسلام ، فإن كان الأعجمي لم يُجب إلا أنه ممن يُجبر على الإسلام كالكبير من المجوس والصغير من الحربيين الكتابيين فقال ابن القاسم : يجزئ عتقه وإن لم يسلم ، وقال أشهب : لا يُجزئ حتى يُسلم ، ولا يجزئ عند مالك من فيه شعبة حرية كالمدبر وأم الولد ونحوه .

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ معناه : لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة من الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة . واختلف العلماءُ في حدّ هذا العادم الوُجْد حتي يصح له الصيام ــ فقال الشافعي رحمه الله وجماعة من العلماء : إذا كان المكفِّر لا يملك إلا قوته وقوت عياله يومه وليلته

(١) الرأي الأول وهو جواز عتق الكافر هو رأي أبي حنيفة رضي الله عنه ــ وأما الرأي الثاني وهو وجوب أن تكون الرقبة المعْتَقَة مؤْمنة (وهو رأي مالك) فدليله غير ما ذكر ابن عطية أن التحرير هنا قُربة واجبة فلا يكون الكافر محلا لها كالزكاة . واشترط المالكية ــ مع الإيمان ــ أن تكون كاملة ليس فيها شرك لغيره لقوله تعالى: ﴿ فتَحْرِيرُ رقَبَة ﴾ وبعض الرقبة ليس برقبة ، واشترطوا كذلك أن تكون سليمة لأن النص يوجب أن تكون كاملة ، والمعيبة بمرض أو عجز غير كاملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يعتق امرأً مسلماً إلا كان فكاكه من النار كل عضو منه بعضو منه حتى الفرج بالفرج) .

فله أَن يصومُ ، فإن كان عنده زائداً على ذلك ما يطعم عشرة مساكين لزمه الإطعام ، وهذا أَيضاً هو مذهب مالك وأَصحابه ، قاله مالك في «المدونة» : لا يُجزئه الصيام وهو يقدر على أَحد الوجوه الثلاثة . وروي عن ابن القاسم أَن من تَفضُل له نفقة يوم فإنه لا يصوم . وقال ابن المواز : ولا يصوم الحانث حتى لا يجد إلا قوته أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه . وقال ابن القاسم في كتاب ابن مزين : إن كان لحانث فضْل عن قوت يومه أَطعم إلَّا أَن يخاف الجوع ، أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه . وقال سعيد بن جبير : إن لم يكن له إلَّا ثلاثة دراهم أَطعم . وقال قتادة : إذا لم يكن له إلا قدر ما يكفِّر به صام ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : إذا كان له درهمان أَطعم . وقال الطبري : وقال آخرون : جائز لمن لم تكن عنده مائتا درهم أَن يصوم وهو ممن لا يجد . وقال آخرون : جائز لمن لم يكن عنده فضل على رأْس ماله الذي يتصرف به في معاشه أَن يصوم .

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب : «فَصِيَامُ ثلاثَةِ أَيَّام مُتَتَابِعَاتٍ» ، وكذلك عبد الله بن مسعود ، وإبراهيم النَّخعي ، وقال بذلك جماعةٌ من العلماءِ منهم مجاهد وغيره ، وقال مالك رحمه الله وغيره : إن تابَع فحسن وإنْ فَرَّق أَجزأَ .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأَشياءِ الثلاثة .

وقوله تعالى : [إِذَا حَلَفْتُمْ] معناه : ثم أَردتم الحنث أَو وقعتم فيه ، وباقي الآية وَصَاة وتوقيف على النعمة والإِيمان .

قوله عزَّ وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾

الخطاب للمؤمنين جميعاً لأَن هذه الأَشياء شهوات وعادات قد تُلبِّس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس ، فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين (١) .

فأَما الخمر فكانت لم تحرم بعد ، وأَما المَيْسر ففيه قمار ولذة للفارغ من النفوس ونفع أَيضاً بوجه ما ، وأَما الأَنصاب وهي حجارة يذكون عندها لفضل يعتقدونه فيها ، وقيل : هي الأَنصاب المعبودة كانوا يذبحون لها وعندها في الجاهلية ، فإِن كانت المرادة في هذه الآية الحجارة التي يذبح عندها فقط فذلك لأَنه كان في نفس ضَعَفَة المؤمنين شيءٌ من تعظيم تلك الحجارة ، وهذا كما قالت امرأَة الطفيل ابن عمرو الدوسي لزوجها : أَتخاف على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟ و« ذو الشرى » صنم لدوس . وإِن كانت المرادة في هذه الآية الأَصنام

---

(١) نقل القرطبي هذه العبارة عن ابن عطية أو غيره هكذا : « إذا كانت شهوات وعادات تَلَبَّسوا بها في الجاهلية وغلبت على النفوس ، فكان نَفِيٌّ منها في نفوس كثير من المؤمنين » . ومعنى نَفِيّ : بقيَّة .

فإنما قرنت بهذه الأُمور لِيَبين النقصُ في هذه إذْ تُقرن بالاصنام ، ولا يتأَول أَنه بقي في نفس مؤْمن شيءٌ من تعظيم الأَصنام والتَلَبُّس بها حتى يقال له : اجتنبه . وأَما الأَزلام فهي الثلاثة التي كان أَكثر الناس يتخذونها ، في أَحدها لا ، وفي الآخر نعم ، والآخر غفل ، وهي التي حبسها سراقة بن جعشم حين اتبع النبي صلى الله عليه وسلم في وقت الهجرة ، فكانوا يعظمونها ، وبقي منها في بعض النفوس شيءٌ ، ومِنْ هذا القبيل هُوَ[١] الزجر بالطير ، وأَخذ الفأْل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم ، وقد يقال لسهام الميسر أَزلام ، والزلم : السهم ، وكان من الأَزلام أَيضاً ما يكون عند الكهان ، وكان منها سهام عند الأَصنام وهي التي ضرب بها على عبد الله بن عبد المطلب أَبي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عند قريش في الكعبة أَزلام فيها أَحكام ذكرها ابن إسحق وغيره فأَخبر الله تعالى أَن هذه الأَشياء رجس ، قال ابن زيد : الرجس : الشَّر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

كل مكروه ذميم[٢] ، وقد يقال للعذاب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : رجس : سخط ، وقد يقال للنَّتن وللعذرة والأَقذار رِجْس ، والرجز : العذاب لاغير ، والركْس : العذرة لا غير ، والرجس يُقال للأَمرين ، وأَمر الله تعالى باجتناب هذه الأُمور ، واقترنت

(١) نقل القرطبي هذه العبارة عن ابن عطية هكذا : «قال ابن عطية : ومن هذا القبيل هَوَى الزجر بالطير...» .

(٢) هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الرجس .

بصيغة الأَمر في قوله: [فَاجْتَنِبُوهُ] نصوصُ الأَحاديث وإجماع الأُمة، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإجماع الأُمة، وقد تقدم تفسير لفظة الخمر ومعناها وتفسير الميْسر في سورة البقرة، وتقدم تفسير الأَنصاب والاستسقام بالأَزلام في صدر هذه السورة.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات – فقال أَبو ميسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أَجلها، ودعا إلى الله في تحريمها، وقال: اللَّهم بيّن لنا فيها بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات، فقال عمر: انتهينا انتهينا(١). وقال مصعب بن سعد بن أَبي وقاص عن أَبيه سعد قال: صنع رجل من الأَنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأَنصار وقريش، فقال كل فريق: نحن خير منكم، فأَخذ رجل من الأَنصار لَحْيَ جمل فضرب به أَنف سعد ففزره، فكان سعد أَفزر الأَنف، قال سعد: ففي نزلت هذه الآية إلى آخرها(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل تحريم الخمر في قبيلتيْن من الأَنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عربدوا، فلما صحوا جعل كل واحد منهم يرى الأَثر بوجهه ولحيته وجسده فيقول: هذا فعل

(١) رواه ابن جرير عن أبي ميسرة من عدّة طرق. (تفسير الطبري).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والنحاس في ناسخه – عن سعد بن أبي وقاص. (الدر المنثور).

هذا واللَّحْي بفتح اللام وسكون الحاء: العظم الذي فيه الأسنان من كل ذي لحي – وهما لحيان. وفَزَر: شقّ.

بني فلان ، فحدث بينهم في ذلك ضغائن ، فنزلت هذه الآيات في ذلك[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأَمْر الخمر إنما كان بتدريج ونوازل كثيرة ، منها قصة حمزة حين جبَّ الأَسنمة ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : وهل أَنتم إلا عبيد أَبي ؟[٢] ومنها قراءة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في صلاة المغرب : قل يـأَيها الكافرون ، أَعبد ما تعبدون ، فنزلت : ﴿يَـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ الآية[٣] ، ثم لم تزل النوازل تَحْزِب[٤] الناسَ بسببها حتى نزلت هذه الآية ، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل ، إنما كانت خمرهم من خمسة أَشياءِ : من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير ، والأُمة مجمعة

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي – عن ابن عباس . (الدر المنثور ٢–٣١٥) .

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد – وخلاصته أن علياً رضي الله عنه ربط ناقتين له أمام دار أحد الأنصار ، وكان حمزة في الدار يشرب الخمر ، فثار حمزة إلى الناقتين فجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما ، وأخبر عليّ النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق حتى دخل على حمزة فتغيظ عليه فرَجَّع حمزة بصره فقال : هل أنتم إلا عبيد لأبي ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقهقر حتى خرج عنهم . وكان ذلك قبل تحريم الخمر . (المسند ١–١٤٢)

(٣) أخرج عبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسّنه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، والحاكم وصححه – عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « صنعَ لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت : (قل يأيُّها الكافرون ، لا أعْبُدُ ما تعْبُدُونَ . « ونحن نعبد ما تعبدون ») . فأنزل الله : ﴿ يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تعْلَمُوا ما تَقولُون ﴾ . (الدر المنثور ٢–١٦٥). والآية ﴿يأيُّها الَّذين آمَنُوا لاتَقْرَبُوا﴾ هي رقم (٤٣) من سورة (النساء)

(٤) حَزَبَهُ الأمْرُ : اشتد عليه ونابَهُ ، وفي الحديث : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبَه أمْر صلى) .

على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيءُ ، وأكثر الائمة على أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، ولأبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إباحة مالا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب ، وهو مذهب مردود ، وقد خرج قوم تحريم الخمر من وصفها ب [رجْسٌ] ، وقد وصف تبارك وتعالى في آية أُخرى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس ، فيجيءُ منذلك أن كل رجس حرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر .

والاجتناب أن يُجعلَ الشيءُ جانباً أو ناحية .

ثم أعلم تبارك وتعالى عباده أن الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسبب الخمر وما يعتري عليها بين المؤْمنين ، وبسبب الميسر إذ كانوا يتقامرون على الأموال والأهل ، حتى ربما بقي المقمور حزيناً فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة ، فإنْ لم يصل الأمر إلى حدِّ العداوة كانت بغضاء ، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) [(١)] ، وباجتماع النفوس والكلمة يُحمى الدين ويُجاهد العدو . والبغضاءُ تنقض عُرى الدين وتهدم عماد الحماية ، وكذلك أيضاً يريد الشيطان أن يصد المؤْمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات ، فالخمر والميسر والقمار كله من أعظم آلاته

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة . (الجامع الصغير) .

في ذالك . وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وعيد في ضمن التوقيف زائد على معنى (انتهوا) .

ولما كان في الكلام معنى (انتهوا) حسن أن يعطف عليه [وَأَطِيعُوا] ، وكرر [أَطِيعُوا] في ذكر الرسول تأْكيداً ، ثم حذر تعالى من مخالفة الأَمر ، وتوعد مَنْ تولَّى بعذاب الآخرة ، أَي : إِنما على الرسول أَن يبلغ ، وعلى المرسل أَن يعاقب أَو يثيب بحسب ما يُعصى أَو يطاع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس ، والبراءُ بن عازب ، وأَنس ابن مالك أَنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : يا رسول الله ، كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأْكل الميسر ؟ ونحو هذا من القول ، فنزلت هذه الآية [١] .

---

(١) أخرجه الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور ٢ــ٣٢٠) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نظير سؤالهم عمن مات على القبلة الأُولى ، ونزلت : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[١] ،ولما كان أمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيَّل قوم نقص من فاته ،وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحدّ العظيم من الذم أشفق قوم وتخيلوا نقص من مات على هذه المذمات ، فأعلم تبارك وتعالى عباده أن الذم والجُناح إنما يلحق من جهة المعاصي ، وأُولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرَّم بعد ، بل كانت هذه الأشياءُ مكروهة لم يُنَص عليها بالتحريم ، والشرع هو الذي قبَّحها وحسَّن تجنبها ، والجُناح : الإثم والحرج ، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية ،والنسبة التي تترتب للعاصي.

و[طَعِمُوا] معناه : ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب ، وقد يُستعار للنوم وغيره ، وحقيقته في حاسة الذوق .

والتكرار في قوله : [اتَّقَوْا] يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها ، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم ، وذهب بعض المفسرين إلى أن يعين المراد بهذا التكرار ـ فقال قوم :

الرتبة الأُولى : هي اتقاءُ الشرك والكبائر ، والإيمان على كماله وعمل الصالحات .

والرتبة الثانية : هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة .

والرتبة الثالثة : هي الانتهاءُ في التقوى إلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك . وهو الإحسان .

(١) من الآية (١٤٣) من سورة (البقرة) .

وقال قوم : الرتبة الأُولى لماضي الزمن ، والثانية للحال ، والثالثة للاستقبال .

وقال قوم : الاتقاءُ الأَّول هو في الشرك والتزام الشرع ، والثاني في الكبائر ، والثالث في الصغائر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليست هذه الآية وقفـاً على من عمل الصالحات كلها واتقى كل التقوى ، بل هي لكل مؤمن وإن كان عاصياً أَحياناً إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أَن يوصف بأَنه مؤمن عامل للصالحات ، مُتَّق في غالب أَمره ، محسن ، فليس على هذا الصنف جُناح فيما طعم مما لم يحرم عليه .

وقد تأَول هذه الآية قُدامَةُ بنُ مظْعُون الجُمَحيّ من الصحابة رضي الله عنه ، وهو ممن هاجر إلى أَرض الحبشة مع أَخويه عثمان وعبد الله ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً ، وعُمِّرَ ، وكان ختن[(١)] عمر بن الخطاب خال عبد الله وحفصة ، ولَّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين ، ثم عَزَلَه لأَن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر ، فقال له عمر : ومن يشهد معك ؟ فقال : أَبو هريرة ، فجاءَ أَبو هريرة فقال له عمر رضي الله عنه : بم تشهد ؟ قال : لم أَره يشرب ، ولكن رأَيته سكران يقيءُ ، فقال

---

(١) الخَتَن : كل من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها — وقد ذكر ابن عطية أنه خال عبد الله وحفصة ابني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

له عمر : لقد تنطعت في الشهادة ، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه فقدم ، فقال الجارود لعمر : أَقم على هذا كتاب الله ، فقال له عمر رضي الله عنه : أَخصم أَنت أَم شهيد ؟ قال : بل شهيد ، قال : قد أَديت شهادتك ، فصمت الجارود ، ثم غدا على عمر فقال : أَقم على قدامة كتاب الله ، فقال له عمر : ما أَراك إلا خصماً ، وما شهد معك إلا رجل واحد ، فقال الجارود : إني أنشدك الله ، قال عمر : لتمسكن لسانك أَو لأَسوءَنَّك ، فقال الجارود : ما هذا والله يا عمر بالحق أَن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءَني ، فقال أَبو هريرة رضي الله عنه : إن كنت تشك في شهادتنا فأَرسل إلى ابنة الوليد فسلها ، وهي امرأَة قدامة ، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله ، فأَقامت الشهادة على زوجها ، فقال عمر لقدامة : إني حادُّك فقال : لو شربتُ كما يقولون لم يكن لك أَن تحدني. قال عمر : لم ؟ قال : لأَن الله تعالى يقول : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ الآية ، فقال له عمر رضي الله عنه : أَخطأْت التأْويل ، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرَّم عليك ، ثم حدَّه عمر ، وكان مريضاً ، فقال له قوم من الصحابة : لا نرى أَن تجلده مادام مريضاً ، فأَصبح يوماً وقد عزم على جلده ، فقال لأَصحابه : ما ترون في جلد قدامة ؟ قالوا : لا نرى ذلك ما دام وجعاً ، فقال عمر : لأَن يلقى الله وهو تحت السياط أَحبُّ إليَّ من أَن أَلقاه وهو في عنقي ، وأَمر بقدامة فجُلد ، فغاضب قدامة عمر وهجره إلى أَن حجَّ عمر وحجَّ معه قدامة مغاضباً له

فلما كان عمر رضي الله عنه بالسقيا [١] نام ثم استيقظ فقال : عجِّلوا عليَّ بقدامة ، فقد أتاني آت في النوم فقال : سالِمْ قدامة فإنه أخوك ، فبعث في قدامة فأبى أن يأتي ، فقال عمر : جُرُّوه إن أبى ، فلما جاء كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا ، قال أيوب بن أبي تميمة : لم يحد أحد من أهل بدر في الخمر غيره [٢] .

وقوله تعالى: ﴿يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أي : ليختبرنكم ليرى طاعتكم من معصيتكم ، وصبركم من عجزكم عن الصيد ، وكان الصيد أحد معايش العرب العاربة ، وشائعاً عند الجميع منهم مستعملا جداً ، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام أو الحرم كما ابتلى بني إسرائيل في ألا يعتدوا في السبت [٣] .

و[مِن] يحتمل أن تكون للتبعيض فالمعنى : من صيد البرّ دون البحر ، ذهب إليه الطبري وغيره ، ويحتمل أن يكون التبعيض في حالة الحرمة إذ قد يزول الإحرام ويُفارق الحرم ، فصيد بعض هذه الاحوال بعض الصيد على العموم ، ويجوز أن تكون لبيان الجنس ، قال الزجاج : وهذا كما تقول : لأَمتحننك بشيءٍ من الرزق ، وكما

---

(١) السُّقيا بضم السين : موضع بين المدينة ووادي الصفراء . (عن معلق تفسير القرطبي) .

(٢) ساق القرطبي هذا الخبر قائلا : «وذكر الحميديُّ عن أبي بكر البَرْقانيِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم الجارُود ... الخ» . وفي نهاية الخبر قال القرطبي : «وهو صحيح» .

(٣) نزلت هذه الآية عام الحديبية ، وأقام صلى الله عليه وسلم بالتنعيم فكان الوحش والطير يغشاهم وهم محرمون ، وقيل : كان بعضهم أحرم وبعضهم لم يحرم ، فإذا عرض صيد اختلفت أحوالهم واشتبهت الأحكام .

قال تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[١]. وقوله : [بِشيْءٍ] يقتضي تبعيضاً ما ، وقد قال كثير من الفقهاء : إن الباء في قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [٢] أعطت تبعيضاً ما .

وقرأ ابن وثاب ، والنخعي : [يَنالُهُ] بالياء منقوطة من تحت ، وقال مجاهد : الأيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر ، والرماح تنال كبار الصيد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر أن الله تعالى خص الأيدي بالذكر لأنها عُظْم[٣] المتصرف في الاصطياد ، وهي آلة الآلات ، وفيها تدخل الجوارح والحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك ، وخص الرماح بالذكر لأنها عُظم ما يجرح به الصيد ، وفيها يدخل السهم ونحوه ، واحتج بعض الناس على أن الصيد [٤] للآخِذ لا المثير بهذه الآية ، لأن المثير لم تنل يده ولا رماحه بعد شيئاً .

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الحج) .

(٢) من الآية (٦) من سورة (المائدة) .

(٣) يريد أن معظم التصرف يكون بها .

(٤) المراد بالصيد : المصيد ، وقال في «البحر المحيط» : «والمراد بالصيد المأكول ، لأن الصيد يطلق على المأكول وغير المأكول ، قال الشاعر :

صَيْــدُ الملوكِ أرانِـبٌ وثعـالِـبٌ ... وإذا رَكِبْتُ فصَيْدِيَ الأبْطَالُ

وقال زهير :

لَيْثٌ بِعَثَّر يَصْطادُ الرِّجــالَ إذا ما ... كذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أقْرانِه صَدَقَا

ولهذا قال أبو حنيفة : إذا قتل المُحْرِم ليثاً أو ذئباً ضارياً أو ما يجري مجراه فعليه الجزاء بقتلــه .»

وقوله تعالى : [لِيَعْلَمَ] معناه : ليستمر علمه عليه وهو موجود ، إذ عَلِمَ تعالى ذلك في الأزل . وقرأ الزهري : [لِيُعْلِم اللهُ] بضم الياءِ وكسر اللام ، أي : لِيُعْلِم عباده .

و [بِالْغَيْبِ] قال الطبري : معناه : في الدنيا حيث لا يرى العبد ربّه فهو غائب عنه ، والظاهر أن المعنى : بالغيب من الناس ، أي في الخلوة ، فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه ، وقد خفي له لو صاد ، ثم توعد تعالى من اعتدى بعد هذا النهي الذي يأتي وهو الذي أراد بقوله : [لَيَبْلُوَنَّكُمْ] وأشار إليه قوله : [ذَلِكَ] . والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

الخطاب لجميع المؤْمنين ، وهذا النهي هو الابتلاءُ الذي أعلم به قولُه قبلُ : [لَيَبْلُوَنَّكُمْ] ، والصيد مصدر عومل معاملة الأسماءِ فأُوقع على الحيوان المصيد ، ولفظ الصيد هنا عام ، ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله في الحرم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خمْسٌ فواسق

يقتلن في الحرم . الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور)[١] ، ووقف مع ظاهر هذا الحديث سفيان الثوري ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيء سوى ما ذكر ، وقاس مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم ، ورآه داخلا في اللفظ فقال : للمحرم أن يقتل الأسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها ، فأما الهِرُّ والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم ، وإن قتلها فَدَا ، وقال أصحاب الرأي : إن بدأ السبعُ المحرمَ فله أن يقتله ، وإن ابتدأه المحرم فعليه قيمته ، وقال مجاهد ، والنَّخعي : لا يقتل المُحرم من السباع إلا ما عدا عليه ، وقال ابن عمر : ما حل بك من السباع فحل به ، وأما فراخ السبع الصغار قبل أن تَفْرس[٢] ، فقال مالك في « المدونة » : لا ينبغي للمحرم قتلها ، قال أشهب في كتاب « محمد » : فإن فعل فعليه الجزاءُ ، وقال أيضاً أَشهب ، وابن القاسم : لا جزاءَ عليه ، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر المحرمين بقتل الحيات ، وأجمع الناس على إباحة قتلها ، وثبت عن عمر رضي الله عنه إباحة قتل الزنبور لأنه في حكم العقرب ، وقال مالك : يطعم قاتله شيئاً ، وكذلك قال مالك

---

(١) روى مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة ، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (خمس فواسق تقتلن في الحل والحرم : الحية ، والغراب الأبقع ، والفأرة ، والكلب العقور ، والحديا) — وروى مثله أبو داود عن أبي هريرة ، وروى مثله أيضاً الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه في « الجامع الصغير » .

(٢) يقال : فَرَسَ الأسد فريسته — فرساً : صادها وقتلها ، وفَرّس الذبيحة : كسر عنقها قبل موتها .

فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه ، وقال أَصحاب الرأي : لاشيءَ على قاتل هذه كلها . وأما سباع الطير فقال مالك : لا يقتلها المحرم وإن فعل فَدَا ، وقال ابن القاسم في كتاب «محمد» : وأحب إلي ألا يقتل الغراب والحدأة حتى يؤْذياه ، ولكن إن فعل فلا شيءَ عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأَفعى والرُّتَيْلا (١) ، وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أَو بالحال ، وفرض الجزاءُ على من قتله .

و[حُرُم] جمع حَرَام ، وهو الذي يدخل في الحَرَم أو في الإحرام . وحَرَام يقال للذكر والأُنثى والاثنين والجميع .

واختلف العلماءُ في معنى قوله : [مُتَعَمِّداً] ـ فقال مجاهد ، وابن جريج ، والحسن ، وابن زيد : معناه : متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه ، فهذا هو الذي يُكفِّر ، وكذلك الخطأُ المحض يكَفِّر ، وأَما إن قتله متعمداً ذاكراً لإحرامه فهذا أَجَلُّ وأَعظم من أَن يُكَفِّر ، وقال مجاهد : قد حل ولا رخصة له ، وقاله ابن جُريج ، وحكى المهدوي وغيره أَنه بطل حَجُّه ، وقال ابن زيد : هذا يوكل إلى نقمة الله . وقال جماعة من أَهل العلم منهم ابن عباس ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والزهري ، وطاوس ، وغيرهم : المتعمد هو القاصد للقتل الذاكر لإحرامه ، وهو يُكَفِّر ، وكذلك الناسي والقاتل خطأً يكَفِّران . . قال الزهري :

---

(١) الرُّتَيْلاء : ضرب من العناكب ـ ويقال فيها أيضاً : رُتَيْلَى . (المعجم الوسيط)

نزل القرآن بالعمد ، وجرت السنة في قتله خطأً أنهما يكفران ، وقال بعض الناس : لا يلزم القاتل خطأً كفارة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [فَجَزَاءُ مِثْلِ ما] بإضافة الجزاء إلى [مِثْلِ] وخفض [مِثْلِ] . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم : [فَجَزَاءٌ] بالرفع [مِثْلُ] بالرفع أيضاً ، فأما القراءة الأُولى ومعناها : فَعَلَيْه جزاءُ مثل ما قتل ، أي قضاؤه وغرمه ، ودخلت لفظة (مثل) هنا كما تقول : «أنا أُكرم مثلك» وأنت تقصد بقولك : «أنا أُكرمك» ، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(١) ، التقدير : كمن هو في الظلمات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل قوله تعالى : [فَجَزَاءُ مِثْلِ] أن يكون المعنى : فعليه أن يجزى مثل ما ، ثم وقعت الإضافة إلى المثل الذي يجزي به اتساعاً .

وأما القراءة الثانية فمعناها : فالواجب عليه ، أو فاللازم له جزاءٌ مثلُ ما ، و [مِثْلُ] على هذه القراءة صفة لـ [جَزَاءٌ] ، أي : فجزاءٌ مماثلٌ .

وقوله تعالى : [مِنَ النَّعَمِ] صفة لـ [جَزَاء] على القراءتين كلتيهما .

وقرأ عبد الله بن مسعود : [فَجَزاؤُهُ مِثْل ما] بإظهار هاءٍ يحتمل أن تعود على الصيد أو على الصائد القاتل ، وقرأ أبو عبد الرحمن :[فَجَزَاءٌ]

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام) .

بالرفع والتنوين [مِثْلَ ما] بالنصب ، وقال أَبو الفتح : [مِثْلَ] منصوبة بنفس الجزاءِ ، أَي : فعليه أَن يجزي مثلَ ما قتل .

واختلف العلماءُ في هذه المماثلة ، كيف تكون ؟

فذهب الجمهور إلى أَن الحَكَمَيْن ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخِلقة وعِظَم المرأى فيجعلون ذلك من النَّعَم جزاءَه ، قال الضحاك ابن مُزاحم ، والسدي ، وجماعة من الفقهاءِ : في النَّعامة وحمار الوحش ونحوه بَدَنَةٌ ، وفي الوعل والأَيل ونحوه بقرة ، وفي الظبي ونحوه كبش ، وفي الأَرنب ونحوه ثنية من الغنم ، وفي اليربوع حَمَلٌ صغير ، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام ، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإِن شاءَ تصدق به ، وإِن شاءَ صام لكل صاع يوماً ، وإِن أَصاب بيْض نعام فإِنه يحمل الفحل على عدد ما أَصاب من بكارة الإِبل ، فما نتج منها أَهداه إِلى البيت ، وما فسد منها فلا شيءَ عليه فيه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

حكم عمر رضي الله عنه على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة ، وحكم هو وعبد الرحمن بن عوف ، قال قبيصة : فقلت له : يا أَمير المؤْمنين ، إِن أَمْره أَهون من أَن تدعو من يحكم معك ، قال : فضربني بالدرة حتى سابقتُه عدواً ثم قال : أَقتلت الصيد وأَنت محرم ثم تغمض[(١)] الفتوى ؟ وهذه القصة في «الموطأ» بغير هذه الأَلفاظ ، وكذلك روي

(١) أغْمض السلعة : استحط من ثمنها لرداءتها ، وفي التنزيل ﴿ولَسْتُمْ بآخِذيهِ إلا أنْ تُغْمِضوا فيه﴾ فعمر رضي الله عنه يريد هنا : إنك تحط من شأن الفتوى وتقلل منها .

أنها نزلت بصاحب لقبيصة ، وقبيصة هو راويها فيهما ، والله أعلم ، وأما الأرنب واليربوع ونحوهما فالحكم فيهما عند مالك أن يقوم طعاماً ، فإن شاءَ تصدق به ، وإن شاءَ صام بدل كل مُدٍّ يوماً ، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاءِ إنما هو كله يومٌ بدل مُدٍّ ، وعند قوم : بَدَل صاع ، وعند قوم : بَدَل مُدَّيْن . وفي حمام الحرم عند مالك شاةٌ في الحمامة ، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم ، وأما بيْض النعام وسائر الطير ففي البيضة عند مالك عُشْر ثمن أُمّه ، قال ابن القاسم : وسواءٌ كان فيها فرخ أم لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارخاً بعد الكسر ، فإن استهل ففيه الجزاءُ كاملا كجزاء كبير ذلك الطير ، قال ابن المواز : بحكومة عدليْن ، وقال ابن وهب : إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعُشْر ثمن أُمّه ، وإن لم يكن فصيام يوم أَو مُدٌّ لكل مسكين .

وذهبت فرقة من أَهل العلم[1] منهم النَّخعي ، وغيره إلى أَن المماثلة إنما هي في القيمة ، يُقَوَّم الصيد المقتول ثم يشتري بقيمته نِدَّهُ[2] من النعم ثم يهدي ، وردَّ الطبري وغيره على هذا القول .

والنَّعَم: لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم إذا اجتمعت هذه الأَصناف ، فإذا انفرد كل صنف لم يُقل نعَم إلا للإبل وحدها ، وقرأَ الحسن :

(١) هذا هو الرأي الثاني في معنى « المماثلة » وأنها في « القيمة » ، وأما الرأي الأول وهو المماثلة في الخلقة فقد ذكره من قبل عند قوله : « فذهب الجمهور إلى أن الحَكَمَيْن ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخلقة وعِظَم المرأى» .

(٢) النِّدُّ : المثيل والنظير ، يقال : هو نِدُّه ، وهي نِدُّ فلانة ، والجمع : أنداد ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً ﴾ .

[مِن النَّعْم] بسكون العين وهي لغة ، والجزاءُ إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه بحكم لفظ الآية ، وذلك في «المدونة» ظاهر من مسأَلة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار ، قال : لا جزاءَ عليه ، وقصر القرآن هذه النازلة على حَكَمَيْن عدلين عالمين بِحُكم النازلة وبالتقدير فيها ، وحكم عمر وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وأمر أَبا جرير البجلي أَن يأْتي رجلين من العدول ليحكما عليه في عنز من الظباءِ أَصابها ، قال : فأَتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ تيساً أَعفر ، ودعا ابنُ عمر ابنَ صفوان ليحكم معه في جزاءٍ ، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاءُ الأَمصار .

وقال ابن وهب رحمه الله في «العتبية» : من السُّنَّة أَن يخَيِّر الحكَمان من أَصابَ الصيد كما خيَّره الله في أَن يُخرج هدياً بالغ الكعبة ، أَو كفارة طعام مساكين ، أَو عدل ذلك صياماً ، فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه نظيراً لما أَصاب ما بينهما وبين أَن يكون عدل ذلك شاة لأَنها أَدنى الهدي ، فما لم يبلغ شاة حكما فيه بالطعام ، ثم خير في أَن يطعمه أَو يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً ، وكذلك قال مالك في «المدونة» : إذا أَراد المصيب أَن يطعم أَو يصوم وإن كان لما أَصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً لا دراهم ، قال : وإن قوموه دراهم واشتُري بها طعام لرجوت أَن يكون واسعاً . والأَول أَصوب ، فإن شاءَ أَطعمه وإلا صام مكانه لكل مُدٍّ يوماً وإن زاد ذلك على شهرين أَو ثلاثة .

وقال يحيى بن عمر من أصحابنا : إنما يُقال : كمْ من رجل يشبع من هذا الصيد ؟ فيعرف العدد ، ثم يُقال : كم من الطعام يشبع هذا العدد ؟ فإن شاءَ أخرج ذلك الطعام ، وإن شاءَ صام عدد أمداده .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن احتاط فيه ، لأَنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة ، فبهذا النظر يكثر الإطعام ، ومن أهل العلم من يرى أَلا يتجاوز في صيام الجزاءِ شهران ، قالوا : لأَنها أَعلى الكفارات بالصيام .

وقوله تعالى: ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ يقتضي هذا اللفظ أَن يُشْخص بهذا الهدي حتى يبلغ ، وذكرت الكعبة لأَنها أُم الحرم ورأْس الحُرْمَة ، والحرم كله مَنحر لهذا الهدي ، فما وقف به بعرفةَ من هذا الجزاءِ فينحر بمنى ، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أَن يدخل من الحِلِّ ، لابد أَن يجمع فيه بين حِلٍّ وحَرَم حتى يكون بالغاً الكعبة .

وقرأَ عبد الرحمن الأَعرج: ﴿هَدِيًّا بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ بكسر الدال وتشديد الياءِ . و[هَدْياً] نصب على الحال من الضمير في [بِهِ] ، وقيل : على المصدر ، و [بالِغَ] نكرة في الحقيقة لم تزل الإِضافة عنه الشياع ، فتقديره : «بالغا الكعبة» حذف تنوينه تخفيفاً ، وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [أَوْ كفَّارَةٌ] منوناً [طَعَامُ مَساكينَ] برفع [طَعامُ] وإضافته إلى جمع المساكين . وقرأَ نافع ، وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين ، وخفض

الإطعام على الإضافة ، و [مساكينَ] بالجمع ، قال أَبو علي : إعراب [طَعام] في قراءَة من رفعه أَنه عطف بيان ، لأَن الطعام هو الكفارة ، ولم يضف الكفارة لأَنها ليست للطعام ، إنما هي لقتل الصيد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الكلام كله مبني على أَن الكفارة هي الطعام ، وفي هذا نظر ، لأَن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاءِ الطعام ، فالكفارة غير الطعام لكنها به ، فيتجه في رفع الطعام البدل المحض[1] ، وتتجه قراءَة من أَضاف الكفارة إلى الطعام على أَنها إضافة تخصيص ، إذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي ، أَو كفارة طعام ، أَو كفارة صيام . وقرأَ الأَعرج وعيسى بن عمر : [أَو كفارةٌ] بالرفع والتنوين ، [طعامُ] بالرفع دون تنوين [مِسكين] على الإفراد ، وهو اسم جنس .

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء : القاتل مُخَيَّر في الرتب الثلاثة وإن كان غنياً ، وهذا عندهم مقتضى [أَوْ] . وقال ابن عباس وجماعة : لا ينتقل المكفر من الهدي إلى الطعام إلا إذا لم يجد هدياً ، وكذلك لا يصوم إلا إذا لم يجد ما يطعم ، وقاله إبراهيم النخعي ، وحماد بن أَبي سليمان ، قالوا : والمعنى : أَو كفارة طعام إن لم يجد الهدي.

---

(١) أعرب أبو علي [طعام] في قراءة الرفع أنها عطف بيان ، لأن الطعام هو الكفارة ، قال في « البحر المحيط »: « وهذا على مذهب البصريين ، لأنهم شرطوا في البيان أن يكون في المعارف لا في النكرات ، فالأولى أن يعرب بدلا » . لكن ابن عطية رد رأي الفارسي من ناحية أخرى إذ قال : إن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاء الطعام ، فالكفارة غير الطعام ، لكنها تكون بالطعام ، وعلى هذا فالصواب أن يعرب [طعام] بدلا لا عطف بيان .

ومالك رحمه الله ـ وجماعة معه ـ يرى أن المقوم إنما هو الصيد المقتول ، يقوم بالطعام كما تقدم ، وقال العراقيون : إنما يقوم الجزاءُ طعاماً ، فمن قتل ظبياً قوم الظبي عند مالك ، وقوم عدله من الكباش أو غير ذلك عند أبي حنيفة وغيره . وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤُه من النَّعَم ، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به ، وإن لم يجد قُوِّم الجزاءُ دراهم ، ثم قُوِّمت الدراهم حنطة ، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً ، قال : وإنما أُريد بذكر الطعام تَبْيينُ أَمر الصوم ، ومن يجد طعاماً فإنما يجد جزاءً ، وأَسنده أَيضاً عن السدي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإنه ينافره ، والهدي لا يكون إلا في الحرم كما ذكرنا قبل .

واختلف الناس في الطعام ـ فقال جماعة من العلماءِ : الإِطعام والصيام حيث شاءَ المكفِّر من البلاد ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح وغيره : الهدي والإِطعام بمكة ، والصوم حيث شئت .

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَاماً﴾ ، قرأَ الجمهور بفتح العيْن ، ومعناه : نظير الشيءِ بالموازنة والمقدار المعنوي . وقرأَ ابن عباس ، وطلحة بن مصرف ، والجحدري : [أَوْ عِدْلُ] بكسر العيْن ، قال أَبو عمرو الداني : ورواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الناس : العَدْلُ بالفتح : قدر الشيء من غير جنسه ، وعِدْلُه بالكسر قدره من جنسه ، نسبها مكي إلى الكسائي وهو وهم ، والصحيح عن الكسائي أنهما لغتان في المثل ، وهذه المنسوبة عبارة معترضة ، وإنما مقصد قائلها أن العِدل بالكسر قدر الشيء موازنة على الحقيقة كعِدْلي البعير ، وعَدله : قدره من شيء آخر موازنة معنوية ، كما يقال في ثمن فرس : هذا عَدله من الذهب ، ولا يتجه هنا كسر العين فيما حفظت . والإشارة بـ [ذلِكَ] في قوله : ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام ، وعلى هذا انبنى قول من قال من الفقهاء : الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصواع أو أنصافها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك . ويحتمل أن تكون الإشارة بـ [ذَلِك] إلى الصيد المقتول ، وعلى هذا انبنى قول من قال من العلماء : الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن قتل المحرم ظبياً فعليه شاةٌ تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، وإن قتل أيلا (١) فعليه بقرة ، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً ، فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش فعليه بَدَنة ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً .

---

(١) الأيِّلُ : الوَعِلُ ، والجمع : أيايِل وأيائِل — والهمزة فيه مثلثة ، قال ذلك في القاموس ، تكون مضمومة مثل خُلَّب ، ومفتوحة مثل سَيِّد ، ومكسورة مثل قِنَّب ، ويكون للذكر والأنثى كما ذكره صاحب التاج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم لابن عباس رضي الله عنهما قول غير هذا آنفاً حكاهما عنه الطبري مسندين ، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان . وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَاماً﴾ قال : يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة .

وقوله تعالى : ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ، الذوق هنا مستعار كما قال تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ (١) وكما قال : ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ (٢) ، وكما قال أبو سفيان : «ذُقْ عُقَقُ» (٣) ، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان ، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس (٤) ، والوبال : سوءُ العاقبة ، والمرعى الوبيل هو الذي يُتأذَّى به بعد أكله (٥) ، وعبَّر بـ [أَمْرِهِ] عن جميع حاله من قتْل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تعبه بالصيام .

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان) .

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (النحل) .

(٣) قال في «النهاية في غريب الحديث والأثر» : إنّ أبا سفيان مرّ بحمزة قتيلا فقال له : «ذُقْ عُقَقُ» أراد : ذُق القتل يا عاقّ قومه ، قال : وعُقَق : معدول عن عاق للمبالغة كغُدَر من غادر ، وفُسَق من فاسق .

(٤) ومن المجاز في الذوق أيضاً الحديث : (إنّ الله يبغض الذواقين والذواقات) كلما تزوج أو تزوجت مدّ عينه أو مدّت عينها إلى أخرى أو آخر — ذكره في «أساس البلاغة» ، ومنه الحديث الشريف أيضاً : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً) .

(٥) ويقال : طعام وبيلٌ بمعنى ثقيل ، ومنه قول طرفة :

فَمَرَّتْ كهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ عقيلةُ شَيْخٍ كالوَبيلِ يلَنْدَدِ

الكهاةُ والجُلالة : الناقة السمينة . فهو شيخ وبيل : أي ثقيل . ويلندد : أي شديد الخصومة .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ـ فقال عطاءُ بن أبي رباح وجماعة معه : معناه : عفا الله عما سلف في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرمة ، ومَنْ عاد الآن في الإسلام فإن كان مُسْتَحِلاً فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم ، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط ، قالوا : وكلما عاد المحرم فهو مكفِّر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويخاف المتورعون أن تبقى النقمة مع التكفير ، وهذا هو قول الفقهاءِ مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : المحْرِم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه فإنه يكفِّر في كل مرَّة ، فأَما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة ، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير ، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه ، ويقال له : ينتقم الله منك ، كما قال الله ، وقال بهذا القول شريح القاضي ، وإبراهيم النَّخعي ، ومجاهد . وقال سعيد بن جبير : رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول منه رضي الله عنه وعظ بالآية ، وهو ـ مع ذلك ـ يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفِّر ، لكنه خشي مع ذلك بقاءُ النقمة .

وقال ابن زيد : معنى الآية : ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل هذا الصيد قبل هذا النهي والتحريم ، قال : وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للقتل فهذا لا يحكم عليه ، وهو موكول إلى نقمة الله ، ومعنى قوله : [مُتَعَمِّداً] في صدر الآية أي : متعمداً للقتل ناسياً للحرمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم ذكر هذا الفصل .

قال الطبري : وقال قوم : هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه ، وأسند إلى زيد بن المعلى أن رجلا أصاب صيداً وهو محرم فتجوز له عنه ، ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي [١] خوف من له بصيرة ، ومن خاف ازدجر ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من خاف أَدْلَج ، ومن أَدْلَج بلغ المنزل) [٢] .

---

(١) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا، ولعله يريد : تقتضي الواحدة منهما — أو لعلّ الصواب : يقتضي بالياء في أوله ليرجع الضمير إلى كلمة (تنبيه) فيصير المعنى : تنبيه يقتضي .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، والحاكم في مستدركه — عن أبي هريرة ، وهو بتمامه : (من خاف أدْلج ، ومن أدْلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية: ألا إن سلعة الله هي الجنة)— قال عنه في الجامع الصغير (حَسَن) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

هذا حكم بتحليل صيد البحر ، وهو كل ما صيد من حيتانه ، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال ، والصيد هنا أيضاً يراد به المصيد ، وأُضيف إلى البحر لما كان منه بسبب . والبحر : الماءُ الكثير ملحاً كان أَو عذباً ، وكل نهر كبير بحر .

واختلف الناس في معنى قوله : [وطَعَامُهُ] ـ قال أَبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم : هو ما قذف به وما طفا عليه ، لأَن ذلك طعام لا صيد ، وسأَل رجل ابن عمر عن حيتان طرحها البحر فنهاه عنها ، ثم قرأَ المصحف فقال لنافع : الحقه فمُره بأَكلها فإِنها طعامُ البحر ، وهذا التأْويل ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (هو الطهور ماؤُه ، الحِلُّ ميتَتُه) (١) . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والشافعي ، وأصحاب السنن الأربع ، وصححه البخاري ، والترمذي ، وابن حبان ـ (تفسير ابن كثير) .

النَّخعي وجماعة : طعامه كل ما ملح منه وبقي ، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً ، وإنما الصيد الغريض[١] ، وقال قوم : طعامه مِلْحُه الذي ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه . وكره قوم خنزير الماء . وقال مالك رحمه الله : أنتم تقولون خنزير ، ومذهبه إباحته .

وقول أبي بكر وعمر هو أرجح الأقوال ، وهو مذهب مالك .

وقرأ ابن عباس ، وعبد الله بن الحارث : [وطُعْمه] بضم الطاء وسكون العين دون ألف ، و [متاعاً] نصب على المصدر ، والمعنى : متعكم به متاعاً تنتفعون به وتأْتدمون . و[لكم] يريد حاضري البحر ومُدُنه ، [ولِلسَّيَّارَةِ] المسافرين ، وقال مجاهد : أهل القرى هم المخاطبون ، والسيارة : أهل الأمصار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه يريد أهل قرى البحر ، وأن السيارة من أهل الأمصار غير تلك القرى يجلبونه إلى الأمصار .

واختلف العلماء في مقتضى قوله : ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ ــ فتلقَّاه بعضهم على العموم من جميع جهاته فقالوا : إن المحرم لا يحل له أن يصيد ، ولا أن يأْمر بصيد ، ولا أن يأْكل صيداً صِيد من أجله ولا من غير أجله[٢] ، ولحم الصيد بأي وجه كان حرام على المحْرم .

---

(١) الغريض : الطريُّ من اللحم والتمر ، وكل أبيض طريّ . (المعجم الوسيط) .

(٢) التعبير المألوف ، والتركيب الصحيح أن يقال : « صيد من أجْله أو من أجْل غيره » فتأمل.

وروي أَن عثمان حجَّ ، وحجَّ معه عليٌّ بن أَبي طالب ، فأُتي عثمان بلحم صيد صاده حلالٌ فأَكل منه ، ولم يأْكل علي ، فقال عثمان : والله ما صدنا ولا أَمرنا ولا أَشرنا ، فقال علي: ﴿وحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾[1] . وروي أَن عثمان استعمل على العروض أَبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقيب[2] فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه فطبخهن وقدمهن إليه ، وجاءَ علي بن أَبي طالب فنهاهم عن الأَكل ، وذكر نحو ما تقدم ، قال : ثم لما كانوا بمكة أُتي عثمان فقيل له : هل لك في علي ؟ أُهدي له تصفيف حمار فهو يأْكل منه ، فأَرسل إليه عثمان يسأَله عن أَكل التصفيف ، وقال له : «أَما أَنت فتأْكل ، وأَما نحن فتنهانا» ، فقال له علي : «إنه صيد عام أَول وأَنا حلال فليس عليَّ بأَكله بأْس ، وصيد ذلك -يعني اليعاقيب- وأَنا محرم وذبحن وأَنا حرام» . وروي مثل قول عليٍّ عن ابن عباس ، وابن عمر ، وطاوس ، وسعيد بن جبير .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرى بأْساً لِلْمُحْرِم أَن يأْكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه ، وسئل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ – عن الحارث ابن نوفل .

(٢) اليعاقيب : مفردها يَعْقوب ، وهو الذكر من الحَجَل والقَطَا ، وهو مصروف لأنه عربي لم يُغير ، قال الشاعر :

* عالٍ يُقَصِّر دونَه الْيَعْقوبُ *

قال ابن بري : «وقد ذكر الجوهري هذا البيت شاهداً على أن اليعقوب ذكر الحَجَل ، والظاهر أنه ذكر العُقاب» . (اللسان – عقب)

أبو هريرة عن هذه النازلة فأفتى بالإباحة ، ثم أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له : لو أفتيت بغيرِ هذا لأوجعتُ رأسك بهذه الدرة ، وسأل أبو الشعثاء ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه المسألة فقال له : كان عمر يأكله ، قال : قلت : فأنت ؟ قال : كان عمر خيراً مني ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما صيد أو ذُبح وأنت حلالٌ فهو لك حلال ، وما صِيد أو ذُبح وأنت حرام فهو عليك حرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وروى عطاءٌ عن كعب قال : أقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله ، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك فقال : قد أمّرته عليكم حتى ترجعوا ، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، والزبير بن العوام ، وهو الصحيح لأن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلالٌ والنبي عليه الصلاة والسلام محرم (١) .

---

(١) هذا الحديث صحيح ، وهو قاطع في هذا الموضوع ، ولهذا نورده بطوله . أخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم — عن أبي قتادة (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حاجّاً فخرجوا معه ، فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة ، فقال : خذوا ساحل البحر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحل البحر ، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم ، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُر وحش ، فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتانا ، فنزلوا فأكلوا من لحمها ، فقالوا : نأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمها ، فلما أتوا =

قال الطبري : وقال آخرون : إنما حرم على المحرم أن يصيد ، فأما أن يشتري الصيد من مالكٍ له فيذبحه فيأكله فذلك غير مُحَرَّم ، ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن اشترى قطاً وهو بالعرج (١) فأكله فعاب ذلك عليه الناس .

ومالك رحمه الله يُجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان لم يصده من أجل المُحْرم ، فإن صيد من أجله فلا يأكله ، وكذلك قال الشافعي ، ثم اختلفا إن أكل ، فقال مالك : عليه الجزاءُ ، وقال الشافعي : لا جزاءَ عليه .

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [وَحَرَّمَ] بفتح الحاء والراء مشددة . [صَيْدَ] بنصب الدال ، [ما دُمْتُم حَرَمًا] بفتح الحاء ، المعني : وحرَّم الله عليكم . و [حَرَماً] يقع للجميع والواحد كرضىً وما أشبهه ، والمعنى : مادمتم محرمين ، فهي بالمعنى كقراءة الجماعة بضم الحاء والراء .

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله ، إنا كنا أحرمنا ، وقد كان أبو قتادة لم يحرم ، فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً ، فنزلنا فأكلنا من لحمها ، ثم قلنا : إنا نأكل لحم صيد ونحن محرمون ، فحملنا ما بقي من لحمها . قال : أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها ؟ قالوا : لا ، قال : فكلوا ما بقي من لحمها) .
(الدر المنثور ٢-٣٣٣) .

(١) العَرْج بفتح العين وسكون الراء : قرية جامعة في وادٍ من نواحي الطائف ، إليها ينسب العرجيّ الشاعر ، وهي أول تهامة ، وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلا ، وهي في بلاد هذيل ، ولذلك يقول أبو ذؤيب :

هُمُ رجَعوا بالعَرْج والقَوْمُ شُهَّدٌ هوازنُ تَحْدوها حماةٌ بَطَارقُ

(معجم البلدان ـ عرج)

ولا يختلف في أنَّ ما لا زوال له من الماءِ أنه صيد بحر ، وفيما لا زوال له من البَرّ أَنه صيْد بَرّ ، واختلف فيما يكون في أحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر - فقال مالك رحمه الله ، وأبو مجلز ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم : كل ما يعيش في البَرّ وله فيه حياة فهو من صيد البَرّ إن قتله المُحْرم وَداهُ ، وذكر أبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماءِ فهي لا محالة من صيد البحر ، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في «المدونة» فإنه قال : الضفادع من صيد البحر ، وروي عن عطاء بن أبي رباح خلاف ما ذكرناه ، وهو أنه راعى أكثر عيش الحيوان ، سئل عن ابن الماءِ أَصَيْدُ بَرّ أم صيد بحر ؟ فقال : حيث يكون أكثر فهو منه ، وحيث يفرخ فهو منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب في ابن ماءٍ أنه صيْد بَرّ طائر يرعى ويأكل الحب .

وقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم ، ثم ذكَّر تعالى بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير .

ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحَرَم والحُرْمة بالإحرام من أجل الكعبة ، وأنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل ذكر تعالى في قوله سبحانه: ﴿جَعَلَ اللهُ﴾ الآية ما سنَّه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه

الجاهلية الجهلاء من التزامهم أَن الكعبة قوام ، والهدي قوام ، والقلائد قوام ، أَي أَمْر يقوم للناس بالتأْمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم ، فلما كانت تلك الأُمة لا ملِك لها جعل الله هذه الأَشياءَ كالملك لها ، وأَعلم تعالى أَن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه ، ويدل على مقدار هذه الأُمور في نفوسهم أَن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحُلَيس ، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال : هذا رجل يعظم الحرمة فالْقَوْهُ بالبُدْن مشعرة ، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه وقال : ما ينبغي أَن يُصد هؤلاءِ ورجع عن رسالتهم (١) .

و[جَعَل] في هذه الآية بمعنى صيَّر ، و [الْكَعْبَةَ] بيت مكة ، وسمي كعبة لتربيعه ، قال أَهلُ اللغة : كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة ، ومنه قول الأَسْوَدِ بنِ يَعْفُر :

أَهْل الخورنَقِ والسَّديرِ وبَـــارِقٍ والْبَيْتِ ذي الْكَعَبَاتِ مِنْ سِنْدادِ (٢)

قالوا : كانت فيه بيوت مربعة ، وفي كتاب سير ابن إسحق أَنه كان

---

(١) الحُلَيْس بضم الحاءِ وفتح اللام بعدها ياءٌ ساكنة هو ابن علقمة من بني الحارث ابن عبد مناف ، وقد رجع من غير أن يُبَلِّغ رسالة قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم . راجع سيرة ابن هشام ففيها الخبر كاملا .

(٢) الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر بالعراق ، والسدير : قصر ذو ثلاث شعب ، وقيل : كانت له قبة في ثلاث قباب متداخلة . وبارق : موضع قريب من الكوفة ، والسنداد : نهر — قال في اللسان : «كل بيت مربع فهو عند العرب : كعبة ، وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يُسَمُّونه الكَعَبات ، وقيل: ذي الكَعَبات ، وقد ذكره الأسودُ بن يَعْفُر في شعره» . وذكر البيت . ويلتقي مع كلام اللسان قول ابن عطية هنا بعد البيت : «قالوا : كانت فيه بيوت مربعة» .

في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية . وقال قوم : سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأَرض ، ومنه : كَعَبَ ثدي الجارية ، ومنه : كعْب القدم ، ومنه : كعوب القناة .

و [قِيَاماً] معناه : أَمر يقوم للناس بالأَمنة والمنافع كما الملِك قوام الرعية وقيامهم ، يقال ذلك بالياءِ كالصيام ونحوه ، وذلك لخفَّة الياءِ فتستعمل أَشياء من ذوات الواو بها ، وقد يستعمل القوام على الأَصل ، قال الراجز :

- قِوَامُ دُنْيا وَقِوَامُ دِين -

وذهب بعض المتأَولين إلى أَن معنى قوله تعالى: ﴿قِياماً لِلنَّاسِ﴾ أَي : موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبدات وضبط النفوس في الشهر الحرام ، ومع الهدي والقلائد .

وقرأَ ابن عامر وحده : [قِيَما] دون أَلف ، وهذا إما على أَنه مصدر كالشِّبَع ونحوه ، وأُعِلَّ فلم يجر مجرى عوض وحول من حيث أُعل فعله ، وقد تُعلُّ الجموع لاعتلال الآحاد ، فأَحرى أَن تُعل المصادر لاعتلال أَفعالها ، ويحتمل [قِيَماً] أَن تحذف الأَلف وهي مُرادة ، وحكم هذا أَن يجيءَ في شعر وغير سَعَة . وقرأَ الجحدري : [قَيِّماً] بفتح القاف وشد الياء المكسورة .

و [الشَّهْر] هنا اسم جنس ، والمراد الأَشهر الثلاثة بإجماع من العرب ، وشهر مُضَر [(١)] وهو رجب الأَصم ، سمي بذلك لأَنه كان

---

(١) يسمى شهر رجب : شهر مضر ، أو : رجب مضر إضافة إليهم لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، فكأنهم اختصوا به . (اللسان) .

لا يُسمع فيه صوت الحديد ، وسموه مُنْصِل الأَسنة لأَنهم كانوا ينزعون فيه أَسنة الرماح ، وهو شهر قريش ، وله يقول عوف بن الأَحْوَص :

وشَهْرِ بَني أُمَيَّـــــةَ والْهَدايـــا إذا سيقت مُضَرِّجهَا الدِّمـاءُ(١)

وسمَّاه النبي عليه الصلاة والسلام شهر الله ، أَي : شهر آل الله ، وكان يقال لأَهل الحرم : آل الله ، ويحتمل أَن يسمى شهر الله لأَن الله سنَّه(٢) وشدده إذ كان كثير من العرب لا يراه .

وأَما الهدي فكان أَماناً لمن يسوقه لأَنه يعلم أَنه في عبادة لم يأْت لحرب ، وأَما القلائد فكذلك كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد من لحاءِ السَّمُرِ أَو غيره شيئاً فكان ذلك أَماناً له ، وكان الأَمر في نفوسهم عظيماً مكنه الله حتى كانوا لا يقدر من ليس بمحرم أَن يتقلد شيئاً خوفاً من الله ، وكذلك إذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم .

وقوله تعالى : [لِلنَّاسِ] لفظ عام ، وقال بعض المفسرين : أَراد العرب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لهذا التخصيص . وقال سعيد بن جبير : جعل الله هذه الأُمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً ، ثم شدد ذلك بالإسلام .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى أَن جعل هذه الأُمور قياماً ، والمعنى : فعل ذلك لتعلموا أَن الله تعالى يعلم تفاصيل أُمور السموات والأَرض ، ويعلم مصالحكم أَيها الناس قبل وبعد ، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم .

(١) يرجع نسب الشاعر إلى قيس بن عيلان بن مضر ، وهو هنا يقسم بشهر رجب وبالهدي أن يظل وفيّاً لصاحبته خولة أبد الدهر .

(٢) في بعض النسخ : لأن الله متَّنَه ، وهذ يتفق مع ما في تفسير القرطبي .

وقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام عموماً تامّاً في الجزئيات ودقائق الموجودات ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [1] ، والقول بغير هذا إلحاد في الدين وكفر .

ثم خوف تعالى عباده ورجّاهم بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ الآية ، وهكذا هو الأمر في نفسه حري أن يكون العبد خائفاً عاملا بحسب الخوف متقيا متأنسا بحسب الرجاء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ إخبار للمؤمنين ، فلا يتصور أن يقال : هي آية موادعة منسوخة بآيات القتال ، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق ، فإنه إذْ قد عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ ، والله تعالى ــ بعد ذلك ــ يعلم ما ينطوي عليه صدره ، وهو المجازي ــ بحسب ذلك ــ ثواباً أو عقاباً .

---

(١) من الآية (٥٩) من سورة (الأنعام) .

والبلاغ مصدر من : بلغ يبلغ ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلِّغ إليهم .

وقوله : ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي﴾ الآية ، لفظ عام في جميع الأُمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها ، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسُن له عاقبة ، والطَّيِّب ولو قل نافع جميل العاقبة . وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والَّذي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إلا نَكِدا﴾[1] ، والخبث هو الفساد الباطن في الأَشياءِ حتى يظن بها الصلاح ، والطيب وهو بخلاف ذلك ، وهكذا هو الخبث في الإِنسان ، وقد يراد بلفظة خبيث في الإِنسان فساد نسبه ، فهذا لفظ يلزم قائله ــ على هذا القصد ــ الحدُّ.

وقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولي الأَلْبَابِ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتَقَد والعمل ، وخص أُولي الأَلباب بالذكر لأَنهم المتقدمون في ميز هذه الأُمور ، والذين لا ينبغي لهم إهمالها مع أَلبابهم وإدراكهم ، وكأَن الإِشارة بهذه الأَلباب إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد .

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عنْ أَشْيَاءَ﴾ الآية ، اختلف الرواة في سببها ــ فقالت فرقة منهم أَنس بن مالك وغيره :

---

(١) من الآية (٥٨) من سورة (الأعراف) ، وينظر إلى الآية أيضاً قوله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كالمُفْسِدِينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالْفُجَّارِ﴾ ــ وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .

نزلت بسبب سؤال عبد الله بن حذافة السهمي [(١)] ، (وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر مغضباً فقال : لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلا أخبرتكم به ، فقام رجل فقال : أين أنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في النار ، فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يُطعن في نسبه فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي الحديث مما لم يذكر الطبري : (فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك سالمٌ مولى أبي شيبة ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجثا على ركبتيه وقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، نعوذ بالله من الفتن ، وبكى الناس من غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلت هذه الآية بسبب هذه الأسئلة) [(٢)] .

---

(١) هو عبد الله بن حُذافة بن قيس القرشي — يقال : شهد بدراً وكانت فيه دُعابة ، في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت: ﴿يأَيُّها الَّذين آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمْر مِنْكُمْ﴾ في عبد الله بن حذافة ،بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سريَّة ، وقال ابن يونس : شهد فتح مصر ، وتوفي بها ودفن بمقبرتها . ولما قال : من أبي يا رسول الله ؟ قال : أبوك حذافة قالت له أُمه : ما سمعت بابن أعق منك ، آمنتَ أن تكون أُمك قارفت ما يقارف نساءُ الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ، قال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقتُ به .

(٢) الحديث مروي من طرق كثيرة ، منها ما رواه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طريق قتادة — عن أنس في قول الله تعالى : ﴿يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم﴾ أن الناس سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر ، فقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به ، فلما سمع القوم ذلك أرموا، وظنوا أن ذلك بين =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وصعود رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر مغضباً إنما كان بسبب سؤالات الأعراب والجهال والمنافقين ، فكان منهم من يقول : أين ناقتي ؟ وآخر يقول : ما الذي ألقى في سفري هذا ؟ ونحو هذا مما هو جهالة أو استخفاف وتعنيت .

وقال علي بن أبي طالب ، وأبو هريرة ، وأبو أُمامة الباهلي ، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين – في لفظهم اختلاف والمعنى واحد – : (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : أَيُّها الناس ، كتب عليكم الحج ، وقرأ عليهم : ﴿ولِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1] قال علي رضي الله عنه : فقالوا : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فسكت ، فأعادوا ، قال : لا ، ولو قلت نعم لوجبت ، وقال أبو هريرة : فقال عكاشة بن محصن ، وقال مُرّة : فقال محصن الأسدي ، وقال غيره : فقام رجل من بني أسد ، وقال بعضهم : فقام أعرابي فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فسكت رسول الله

= يدي أمر قد حضر ، فجعلت ألتفت عن يميني وشمالي فإذا كل رجل لافٌ ثوبه برأسه يبكي ، فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، مَنْ أبي ؟ قال : أبوك حذافة ، وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، ونعوذ بالله من سوء الفتن ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط ، قال قتادة : وإن الله يريه مالا ترون ، ويسمعه مالا تسمعون ، قال : وأنزل عليه : ﴿يأَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ الآية ... الخ (الدر المنثور ٢–٣٣٤) .

(١) من الآية (٩٧) من سورة (آل عمران) .

صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من السائل ؟ فقيل : فلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لم تطيقوه ، ولو تركتموه لهلكتم) فنزلت هذه الآية بسبب ذلك[1] .

ويُقوي هذا حديثُ سعد بن أبي وقاص أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : (إن أعظم المسلمين على المسلمين جرماً من سأل عن شيءٍ لم يحرم فحُرم من أجل مسألته)[2] .

وروي عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية بسبب قوم سألوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة ونحو هذا من أحكام الجاهلية ، وقاله سعيد بن جُبير[3] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي أنه لما بيَّن الله تعالى في هذه الآيات أمر الكعبة والهَدْي والقلائد ، وأعلم أن حُرْمتها هو الذي جعلها ، إذ هي أُمور نافعة قديمة من لدن عهد إبراهيم عليه السلام ــ ذهب ناسٌ من العرب إلى السؤال عن سائر أحكام الجاهلية ليروا هل تلحق بتلك أم لا ، إذ كانوا قد

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ــ عن أبي هريرة ، (والسائل عكاشة) وأخرجه ابن حبان أيضاً ــ (والسائل رجل) وأخرج مثله ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ــ عن أبي أُمامة الباهلي ، (والسائل رجل من الأعراب) (الدر المنثور ٢ــ٣٣٥) .

(٢) أخرجه الشافعي ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن المنذر ــ عن سعد بن أبي وقاص ، وأوّله : (أعظم المسلمين في المسلمين جرماً ...) فتأمل الفرق بين الروايتين . (الدر المنثور ٢ــ٣٣٦) ــ وقد قال أبو الفرج الجوزيّ : « هذا محمول على من سأل عن الشيء عنتاً وعبثاً فعُوقب بسوء قصده بتحريم ما سأل عنه ، والتحريم يَعُم .

(٣) قال القرطبي : رواه مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما . (تفسير القرطبي)

اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بيْن ما هو من عند الله وما هو من تلقاءِ الشيطان والمُغَيِّرين لِدِين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره ، وفي عمرو بن لُحَيٍّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأيته يجر قُصْبَه في النار وكان أول من سَيَّب السَّوائب) (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُلحت عليه الأَعراب والجهال بأَنواع من السؤالات حسبما ذكرناه ، فزجر الله تعالى عن ذلك بهذه الآية .

و[أَشْياءَ] : اسم جمع لشيءٍ ، أَصله عند الخليل وسيبويه شيئاءُ مثل فَعْلاءُ قلبت إلى لَفْعاء لِثِقَل اجتماع الهمزتين ، وقال أَبو حاتم : أَشياءُ وزنها أَفعال وهو جمع شيءٍ وترك الصرف فيه سماعٌ ، وقال الكسائي : لم ينصرف أَشْياءُ لشبه آخرها بآخر حمراء ولكثرة استعمالها ، والعرب تقول : أَشْياوات كما تقول : حمراوات ، ويلزم على هذا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده هكذا : (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبَه في النار ، وكان أول من سيَّب السوائب وبحر البحيرة) . ورواه عن أبي هريرة . كما في الجامع الصغير ، وقال عنه : وهو صحيح ، لكن ابن الأثير قال في النهاية : وفيه (رأَيتُ عَمْرو بن لُحَيٍّ يجر قُصْبَه في النار) ثم قال : « القُصْب بالضم : المِعَى ، وجمعه : أَقْصاب ، وقيل : القُصْبُ اسم للأمعاء كلها ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء ، ومنه الحديث (الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة كالجار قُصْبَه في النار) .» اهـ. وهو ما يتفق مع لسان العرب في شرحه لمعنى قُصْب . وهو ما يتفق أيضاً مع رواية البخاري . والسائبة : المهملة التي كانت تُسَيَّبُ في الجاهلية لنذر أو نحوه .

أَلَّا ينصرف (أَسماءُ) لأَنهم يقولون : أَسماوات [١] ، وقال الأَخفش : أَشياءُ أَصلها أَشْيئاءُ على وزن أَفعلاء ، استثقل اجتماع الهمزتين فأُبدلت الأُولى ياءً لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياءُ استخفافاً ، ويلزم على هذا أَن يكون واحد الأَشياء شيِّئاً مثل هَيِّن وأَهْوِناءُ [٢] .

وقرأَ جمهور الناس : [إِنْ تُبْدَ] بضم التاء وفتح الدال وبناء الفعل للمفعول ، وقرأَ مجاهد : [إِنْ تَبْدُ] بفتح التاء وضم الدال على بناء الفعل للفاعل ، وقرأَ الشَّعْبي : [إِنْ يَبْدُ لكُمْ] بالياءِ من أَسفل مفتوحة والدال مَضمومة [يَسُؤْكُمْ] بالياءِ من أَسفل ، أَي : يُبْده الله لكم .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : لا تسأَلوا عن أَشياءَ في ضمن الإِخبار عنها مساءَةٌ لكم ، إِما لتكليف شرعيٍّ يلزمكم ، وإِما لخبر يسوءُ ، كما قيل للذي قال : أَين أَنا ؟ ولكن إِذا نزل القرآن بشيءٍ وابتدأَكم ربكم بأَمر فحينئذ إِن سأَلتم عن تفصيله وبيانه بُيِّنَ لكم وأُبْدي .

---

(١) قال الزجاج : وقد أجمع البصريون وأكثر الكوفيين على أن قول الكسائي خطأٌ في هذا ، وألزموه ألا يصرف أبناء وأسماء — (عن لسان العرب)

(٢) جاء في لسان العرب تعقيباً على رأي الأخفش هذا : «قال أبو إسحق : وهذا القول أيضاً غلط ، لأن (شيئاً) فَعْلٌ ، وفَعْلٌ لا يجمع أفعلاء ، فأما هيْنٌ فأصله هيِّنٌ فجمع على أفعلاء كما يجمع فعيل على أفعلاء ، مثل : نَصيبٌ وأنصباء». وهذا هو معنى قول ابن عطية : «ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شَيِّئاً مثل هيِّن وأهْوناء» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالضمير في قوله : [عَنْها] عائد على نوعها ، لا على الأُولى التي نهى عن السؤال عنها .

وقال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وعفا من غير نسيانٍ عن أشياء فلا تبحثوا عنها .

وكان عبيد بن عُمير يقول : إن الله أحلَّ وحرَّم ، فما أحلَّ فاستحلوا ، وما حرَّم فاجتنبوا ، وترك بين ذلك أشياء لم يُحلَّها ولم يُحَرِّمها ، فذلك عفو من الله عفاه ، ثم يتلو هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل قوله تعالى : ﴿وإنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أن يكون في معنى الوعيد ، كأنه قال : لا تسألوا ، وإن سألتم لقيتم عبء ذلك وصعوبته ، لأنكم تتكلَّفون وتستعجلون علم ما يسوؤكم كالذي قيل له : إنه في النار .

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْها﴾ تركها ولم يعرف بها ، وهذه اللفظة التي هي [عفا] تؤيد أن (الأشياء) التي هي في تكليفات الشرع . وينظر إلى ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : (إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل)[١].

و ﴿غَفُورٌ حَليمٌ﴾ صفتان تناسب[٢] العفو وترك المباحثة ، والسماحة في الأمور .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، ومالك في الموطأ ، وورواه ابن ماجة والدارمي .
(٢) هكذا في النسخ التي بين أيدينا ، وهي من سهو النساخ .

وقرأ عامة الناس : [قَدْ سَأَلَها] بفتح السين ، وقرأ إبراهيم النَّخعي : [قَدْ سِالها] بكسر السين ، والمراد بهذه القراءة الإمالة ، وذلك على لغة من قال : سِلْت تسال ، وحَكَى عن العرب : «هما يتساولان» فهذا يعطي أَن هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة [٢] ، فالإمالة إنما أُريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في (سِلْت) كما جاءت الإمالة في (خاف) لمجيءِ الكسرة في خاءِ (خِفت) .

ومعنى الآية أَن هذه السؤَالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحات ومباحثات ، قد سأَلتها قبلكم الأُمم ثم كفروا بها . قال الطبري : كقوم صالح في سؤَالهم الناقة ، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة ، وقال السدي : كسؤَال قريش أَن يجعل الله لهم الصفا ذهباً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإنما يتجه في قريش مثالاً سؤُالُهم آيةً ، فلما شُقَّ لهم القمر كفروا ، وهذا المعنى إنما يقال لمن سأَل النبي عليه الصلاة والسلام : أَين ناقتي ؟ وكما قال له الأَعرابي : ما في بطن ناقتي هذه ؟ فأَما من سأَله عن الحج: أَفي كل عام هو؟ فلا يفسر قوله : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قومٌ﴾ الآية بهذا ولا مثله ، بل بأَن الأُمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أَنبيائها ، ثم لم تَفِ بما كلفت .

---

(١) عبارة «البحر المحيط» في هذه النقطة هي : «وقرأ إبراهيم النَّخعي بكسر السين من غير همز ، يعني بكسر الإمالة ، وجعل الفعل من مادة (سين وواو ولام) لا من مادة (سين وهمزة ولام) ، وهما لغتان ذكرهما سيبويه ، ومن كلام العرب : هما يتساولان بالواو ، وإمالة النَّخعي (سال) مثل إمالة حمزة (خاف) .» وهي أوضح من عبارة ابن عطية .

قوله عز وجل :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم ، أخبر تعالى في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنّه لعباده ، والمعنى : ولكن الكفار فعلوا ذلك ، إذ أكابرهم ورؤساؤهم كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره يفترون على الله الكذب ، ويقولون : هذه قربة إلى الله وأمر يرضيه ، وأكثرهم – يعني الأتباع – لا يعقلون ، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالا بغير حجة .

و [جَعَلَ] في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنى : خلق الله ، لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها ، ولا هي بمعنى : صيَّر ، لعدم المفعول الثاني ، وإنما هي بمعنى : ما سَنَّ ولا شرع ، فتعدَّت تعدِّي هذا الذي هي بمعناه إلى مفعول واحد .

والبحيرة : فعيلة بمعنى مفعولة ، وبَحَر : شَقَّ ، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أُذنها نصفين طولا ، فهي مبحورة ، وتركت ترعى وتَرِدُ الماءَ ولا ينتفع منها بشيءٍ ، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساء

ويحل للرجال [١] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون ، وقال مسروق : إذا ولدت خمساً أو سبعاً شقُّوا أُذنها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده آذان النوق ، فلكلٍّ سُنَّة ، وهي كلها ضلال ، قال ابن سيدة : ويقال: البحيرة هي التي خُلِّيت بلا راع ، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أرى أن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر ، وعلى هذا يجيءُ قول ابن مُقْبل :

فيه مِنَ الأَخْرج الْمُرْتَاع قَرْقَرَةٌ هَدْرَ الدَّيامِيِّ وَسْطَ الْهَجْمَةِ البُحُرِ [٢]

فإنما يريد النوق العظام وإن لم تكن مُشَقَّقَة الآذان .

---

(١) وقيل أيضاً : لم يركب ظهرها ، ولم يُجَزّ وبرها ، ولم يَشْرب لبنها إلا ضيف ، فهي:

مُحَرَّمَةٌ لا يَطْعَمُ الناسُ لَحْمَهَا ولا نَحْنُ في شَيْءٍ كذاكَ البحَائِرُ

(٢) هذا البيت أنشده شَمِر كما قال في « اللسان » لابن مقبل شاهداً على أن بَحيرة تُجْمع على بُحُر ، والضمير في (فيه) يعود على مكان معين . والأخرج : من نعت الظليم ، قال الليث : هو الذي سواده أكثر من بياضه كلون الرماد ، والمرتاع : الخائف الشديد الفَزَع . والقَرْقَرَةُ : الهدير . والهَدْرُ : مصدر للفعل هَدَرَ على وزن ضرب . والدَّيامِيّ: جماعة الإبل — (وفي رواية الزّيامِيّ) ، والهَجْمَةُ : الجماعة الضخمة من الإبل ، والبُحُر بضمتين جمع بحيرة . يقول: في هذا المكان قرقرة عالية تصدر عن هذا الظليم الخائف المرتاع كأنها هدير جماعة ضخمة من الإبل وسط مجموعة كبيرة من البُحُرُ التي شُقَّت آذانها . وتركت بدون راع فمضت ترعى وتهدر حيث تشاء .

وروى الشعبي ، عن أَبي الأَحوص ، عن أَبيه قال : (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : أَرأَيْتَ إِبلَكَ ؟ أَلست تنتجها مسلمة آذانها ، فتأْخذ الموسى فتقطع آذانها ، فتقول : هذه بُحُرٌ ، وتقطع جلودها فتقول : هذه صرم ، فتُحَرِّمها عليك وعلى أَهلك ؟ قال : نعم ، قال : فإن ما آتاك الله لك حِلٌّ ، وساعد الله أَشَدّ ، وموسَى الله أَحَدّ)[1] .

والسائبة : هي الناقة التي تُسيَّب للآلهة ، والناقة أَيضاً إذا تابعت ثنتي عشرة إناثاً ليس فيهن ذكر سُيِّبت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَكْثَم بن الجون الخزاعي : (يا أَكْثَم ، رأَيْت عَمْرو بنَ لُحَيٍّ بن قمْعَةَ بن خندق يجُرُّ قُصْبَه في النَّار ، فما رأَيت أَشبه به منك ، قال أَكثم : أَيضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا ، إنك مؤمن وإنه كافر ، هو أَول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام ، ونصب الأَوثان ، وسيَّب السوائب)[2] ، وكانت السوائب أَيضاً في العرب كالقُرْبة عند المَرض يُبرأُ منه ، والقُدوم من السفر ، وإذا نزل بأَحدهم أَمْر يشكر الله عليه تقرّب بأَن يُسَيِّب ناقة فلا ينتفع

---

(١) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات — عن أبي الأحوص . وفي آخر الحديث شرح أبو الأحوص المعنى ، وفسَّر الكلمات التي في الآية وهي : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . (الدر المنثور ٢—٣٣٧) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه — عن أبي هريرة (الدر المنثور ٢—٣٣٨) .

منها بلبن ولا ظَهْر ولا غيره . يرون ذلك كعِتْق بني آدم[١] ، ذكره السدي وغيره ، وكانت العرب تعتقد أَن مَن عَرَض لهذه النوق فأَخذها أَو انتفع منها بشيءٍ فإِنه تلحقه عقوبة من الله .

والوصيلة : قال أَكثر الناس : إن الوصيلة في الغنم . قالوا : إِذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أَو خمسة فإِن كان آخرها جَدْيا[٢] ذبحوه لبيت الآلهة ، وإِن كانت عَنَاقا[٣] استَحْيَوها[٤] ، وإِن كان جَدْي وعَنَاق استَحْيوهما وقالوا : هذه العَناق وصلت أَخَاها فمنعته من أَن يُذبح ، وعلى أَن الوصيلة في الغنم جاءَت الروايات عن أَكثر الناس . وروي عن سعيد بن المسيب أَن الوصيلة من الإِبل ـ كانت الناقة إِذا ابتكرت بأُنثى ثم ثَنَّت بأُخرى قالوا : وصلتْ أُنْثَيَيْن ، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم أَو يذبحونها ، شك الطبري في إِحدى اللفظتين .

---

(١) قال عكرمة : السائبة : البعير ـ تُسَيَّب بنذر يكون على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغه منزله أن يفعل ذلك ، فلا تُحبس عن رعي ولا ماءٍ ، ولا يركبها أحد ، قال الشاعر :

وسائبةٍ لله تَنْمــي تَشَكُّراً   إنِ اللهُ عافَى عامِراً أوْ مُجَاشِعا

وقيل : السائبة هي المُخَلاة لا قيد عليها ، ولا راعي لها ، فاعل بمعنى مفعول ، نحو : « عيشة راضية » ، أي : مَرضية ، من سابت الحَيّةُ وانسابت ، قال الشاعر :

عَقَرْتُمْ ناقَةً كانتْ لِرَبِّي   وسائبَةً فَقُومُوا لِلْعِقَابِ

(٢) الجَدْيُ : الذكر من أولاد الماعز ، جمعه : أَجْدٍ ، وجداءٌ ، وجديان .

(٣) العَناق : الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول ، وجمعه : أعْنُق ، وعُنُقٌ ، وعُنوقٌ .

(٤) استَحْياه : تركه حيّاً فلم يقتله ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ .

وأَما الحامي فإنه الفحل من الإبل إذا ضرب في الإبل عشر سنين ، وقيل : إذا وُلد من صُلْبه عشر ، وقيل : إذا وُلد من وَلَد ولده قالوا : حمى ظهره فسيّبوه لم يركب ولا سخر في شيء(١) ، قال علقمة لمن سأله في هذه الأَشياء : ما تريد إلى شيء كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب ؟ وقال نحوه ابن زيد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وجملة ما يظهر من هذه الأُمور أَن الله تعالى قد جعل هذه الأَنعام رفقاً لعباده ، ونعمة عدَّدها عليهم ، ومنفعةً بالغة ، فكان أَهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع ، ويذهبون نعمة الله فيها ، ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإبل . وبهذا فارقت هذه الأُمور الأَحباس والأَوقاف ، فإن المالك الذي له أَن يهب ويتصدق له أَن يصرف المنفعة في أَي طريق من البرِّ ، ولم يَسُدَّ الطريق إليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة .

وقال أَبو حنيفة وأَصحابه : لا تجوز الأَحباس والأَوقاف ، وقاسوا على البحيرة والسائبة ، والفرق بيِّن ، ولو عَمَد رجل إلى ضيعة له فقال : هذه تكون حبساً لا يُجْتَنى ثمرها ، ولا تُزْرع أَرضها ، ولا يُنْتَفَع منها بنفع لجاز أَن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة . وأَما الحبس البيِّن طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا ، وحسبك بأَن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مالٍ له :

---

(١) يؤيد هذا قول الشاعر :

حماهَا أبو قابوسَ في عزِّ مُلْكِهِ كما حمى أولادَ أولاده الفَحْلُ

(اجعله حبساً لا يباع أصله) ، وحَبَس أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام[١] .

وقوله تعالى : ﴿ولَكِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ الآية ، وقد تقدم أن المفترين هم المبتدعون ، وأن الذين لا يعقلون هم الأتباع ، وكذلك نص الشعبي وغيره ، وهو الذي تعطيه الآية ، وقال محمد بن أبي موسى : الذين كفروا وافتروا هم أهل الكتاب ، والذين لا يعقلون هم أهل الأوثان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير من انتزع ألفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنى ، وعما تأخر أيضاً من قوله: ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ ، والأول من التأويلين أرجح .

والضمير في قوله : [قِيلَ لَهُمْ] عائد على الكفار المستنين بهذه الأشياء ، و [تَعَالَوا] نداءٌ بيِّن ، هذا أصله ، ثم استعمل حيث البِرُّ وحيث ضده ، و ﴿إلَى ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ يعني القرآن الذي فيه التحريم الصحيح ، و [حَسْبُنَا] معناه : كفانا ، وقوله : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾

---

(١) روي أن أبا يوسف رجع عن قول أبي حنيفة في ذلك لما حدثه ابن عُلَيَّة ، عن ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يتصدق بسهمه بخيبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (احبس الأصل وسبِّل الثَّمرة) ، أي : اجعلها وقفاً وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه .

وقد قال القرطبي : «إن المسألة إجماع من الصحابة ، وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابراً رضي الله عنهم كلهم وقفوا الأوقاف ، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة ومشهورة» .

ألف التوقيف دخلت على واو العطف ، كأنهم عطفوا بهذه الجملة على الأُولى والتزموا شنيع القول ، فإنما التوقيف توبيخٌ لهم كأنَّهم يقولون بعده : نعم ولو كانوا كذلك .

وقوله تعالى : ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ، اختلف الناس في تأْويل هذه الآية ــ فقال أَبو أُمية الشعباني : سأَلت أَبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال : لقد سأَلتَ عنها خبيراً ، سأَلت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ائتمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، فإذا رأَيت دنيا مؤَثرة ، وشُحّاً مطاعاً ، وإعجاب كل ذي رأْي برأْيه ، فعليك بخويصة نفسك ، وذر عوامهم فإن وراءكم أَياماً أَجر العامل فيها كأَجر خمسين منكم)[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو التأْويل الذي لا نظر لأَحد معه ، لأَنه مستوف للصلاح ، صادر عن النبي عليه الصلاة والسلام .

ويظهر من كلام أَبي بكر الصديق رضي الله عنه أَنه بَلَغَه أَن بعض الناس تأَوَّل الآية أَنها لا يلزم معها أَمر بمعروف ولا نهي عن منكر ، فصعد المنبر فقال : أَيها الناس ، لا تغتروا بقول الله : ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيقول أَحدكم : عليَّ نفسي ، والله لتأْمرون بالمعروف ،

(١) أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، والبغوي في معجمه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب ــ عن أبي أُمية الشعباني . (الدر المنثور ٢ــ٣٣٩) (وفتح القدير ٢ــ٨٤).

ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فَلَيَسُومُنَّكُم سوءَ العذاب [(١)].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس هذا بزمان هذه الآية ، قولوا الحق ما قُبل منكم ، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم[(٢)]

وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن : لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأْمر ولم تنه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : (ليبلغ الشاهد الغائب) ، ونحن شهدنا فيلزمنا أن نُبلغكم ، وسيأْتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل [(٣)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجُملة ما عليه أهل العلم في هذا أن الأَمر بالمعروف متعيِّن متى رجي القبول ، أو رجي ردُّ المظالم ولو بعنْف ما لم يخف المرءُ ضرراً يلحقه في خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين ، إما بِشَقِّ عصا ، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس ، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم بحُكْم واجب أن يوقف عنده .

وقال سعيد بن جبير : معنى هذه الآية : ﴿يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره ، ولا يضركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتم .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والسعدني ، وابن منيع ، والحميدي في مسانيدهم ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأبو يَعْلى ، وغيرهم كثيرون ، ومع اختلاف في الألفاظ . (الدر المنثور . وفتح القدير) .

(٢) هذا جزء من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد ، ونعيم بن حماد في الفتن ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم كثيرون . (فتح القدير)

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عمر . (الدر المنثور ٢—٣٤٠) .

وقال ابن زيد : معنى الآية : يأَيُّها الَّذين آمنوا من أَبناءِ أُولئك الذين بَحَروا البحَيرة وسيَّبوا السوائب عليكم أَنفسكم في الاستقامة على الدين ، ولا يضركم ضلال الأَسلاف إذا اهتديتم ، قال : وكان الرجل إذا أَسلم قال له الكفار : سفَّهت آباءَك وضلَّلْتهم وفعلت وفعلت ، فنزلت الآية بسبب ذلك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولم يقل أَحد ـ فيما علمت ـ إنها آية موادعة للكفار ، وكذلك لا ينبغي أَن يعارض بها شيءٌ مما أَمر الله به في غير ما آية ، من القيام بالقسط والأَمر بالمعروف ، قال المهدوي : وقد قيل : هي منسوخة بالأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ولا يعلم قائله .

وقال بعض الناس : نزلت بسبب ارتداد بعض المؤْمنين وافتتانهم ، كابن أَبي سرح وغيره ، فقيل للمؤْمنين : لا يضركم ضلالهم .

وقرأَ جمهور الناس : [لا يَضُرُّكم] بضم الضاد وشد الراءِ المضمومة ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [لا يضُرْكم] بضم الضاد وسكون الراءِ ، وقرأَ إبراهيم : [لا يضِركم] بكسر الضاد ، وهي كلها لغات بمعنى : ضرَّ يضُر ، وضار يضور ويضير .

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ الآية . تذكير بالحشر وما بعده ، وذلك مُسَل عن أُمور الدنيا ومكروهها ومحبوبها . وروي

عن بعض الصالحين أنه قال : ما من يوم إلا يجيءُ الشيطان فيقول : ما تأْكل ؟ وما تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول له : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فمن فكر في مرجعه إلى الله فهذه حاله .

قوله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قال مكي بن أبي طالب رضي الله عنه : هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل مافي القرآن ، إعراباً ومعنى وحكماً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كلام من لم يقع له الثَّلَج [1] في تفسيرها ، وذلك بيِّن من كتابه رحمه الله ، وبه نستعين .

(١) ثَلَجت النفس بالشيء : رضيت به وارتاحت واطمأنت إليه ، وقيل : عرفته وسُرَّت به .

لا نعلم خلافاً أَن سبب هذه الآية أَن تميماً الداري ، وعدِيَّ ابن بدَّاءٍ كانا نصرانيَّيْن سافرا إلى المدينة يريدان الشام لتجارتهما ، قال الواقدي : وهما أَخوان ، وقدم المدينة أَيضاً ابن أَبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً ، فخرجوا رفاقة ، فمرض ابن أَبي مارية في الطريق ، قال الواقدي : فكتب وصية بيده ودسَّها في متاعه ، وأَوصى إلى تميم وعدِي أَن يوديا رَحْلَه ، فأَتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه ، ووجد أَولياؤُه من بني سهم وصيته مكتوبة ، ففقدوا أَشياءَ قد كتبها فسأَلوهما عنها فقالا : ما ندري ، هذا الذي قبضناه له ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية الأُولى ، فاسْتَحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العصر ، فبقي الأَمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إناءٍ عظيم من فضة مُخَوَّص بالذهب(١) ، فقيل لمن وُجد عنده : من أَين صار لكم هذا الإِناءُ ؟ فقالوا : ابتعناه من تميم الداري وعدِي بن بدَّاءٍ ، فارتفع في الأَمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فنزلت الآية الأُخرى ، فأَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجليْن من أَولياءِ الميِّت أَن يحلفا . قال الواقدي : فحلف عبد الله ابن عمرو بن العاص ، والمطلب بن ابي وداعة ، واستحقا .

وروى ابن عباس عن تميم الداري أَنه قال : برئَ النَّاس من هذه الآيات غيري وغير عديّ بن بداءٍ ، وذكر القصة ، إلا أَنه قال : وكان معه جام(٢) فضة يريد به الملك ، فأَخذته أَنا وعدي ، فبعناه

(٢) مُخَوَّص بالذهب : أي عليه صفائح من الذهب مجدولة على هيئة خوص النخيل .
(٣) الجام : إناءٌ .

بـألف وقسمنا ثمنه ، فلما أَسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تـأَثَّمت من ذلك ، فأَتيت أَهله فأَخبرتهم الخبر ، وأَدَّيْت إليهم خمسمائة ، فوثبوا إلى عدي فأَتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه ، ونزعت من عديٍّ خمسمائة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

تختلف أَلفاظ هذه القصة في الدواوين ، وما ذكرته هو عمود الأَمر ، ولم يصح لعديٍّ صُحبة فيما علمت ولا ثبت إسلامه ، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأَخرين ، وضعَّف أَمره ، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة .

وأَما معنى الآية من أَولها إلى آخرها فهو أَن الله تعالى أَخبر المؤْمنين أَن حكمه في الشهادة على الموصِي إذا حضره الموت أَن تكون شهادة عدليْن ، فإن كان في سفر ــ وهو الضرب في الأَرض ــ ولم يكن معه من المؤْمنين أَحد فَلْيُشْهِد شاهديْن ممن حضره من أَهل الكفر ، فإذا قدما وأَدَّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أَنهما ما كذبا ولا بدَّلا ، وأَن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله ، وحُكم بشهادتهما ، فإن عُثر ــ بعد ذلك ــ على أَنهما كذبا أَو خانا ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أَولياءِ الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما . هذا معنى الآية على مذهب أَبي موسى الأَشعري ، وسعيد بن المسيب ، ويحيي بن يَعْمر ، وسعيد بن جُبَير ، وأَبي مجْلز ، وإبراهيم ، وشُرَيْح ،

وعُبَيدة السلمانيّ ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وابن عباس ، وغيرهم ، يقولون : معنى قوله : [مِنْكُمْ] من المؤْمنين ، ومعنى [مِنْ غَيْرِكُمْ] من الكفار ، قال بعضهم : وذلك أن الآية نزلت ولا مؤْمن إلا بالمدينة ، وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أهل الكتاب وعبدة الأَوثان وأنواع الكفـرة .

واختلفت هذه الجماعة المذكورة ـ فمذهب أَبي موسى الأَشعري وشريح وغيرهما أَن الآية مُحْكَمَة ، وأَسند الطبري إلى الشعبي أَن رجلا حضرته المنية بدقوقا[1] ، ولم يجد أَحداً من المؤْمنين يشهده على وصيَّته ، فأَشْهَدَ رجلين من أَهل الكتاب ، فقدما الكوفة ، فأَتيا أَبا موسى الأَشعري فأَخبراه وقدما بتركته ، فقال أَبو موسي الأَشعري : هذا أَمر لم يكن بعد الذي كان في مدة النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم أَحلفهما بعد صلاة العصر ، وأَمضى شهادتهما .

وأَسند الطبري عن شريح أَنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ولا تجوز أَيضاً في الوصية إلا إذا كانوا في سفر .

---

(١) دَقوقا ودقوقاء (مقصورة وممدودة) : مدينة معروفة بين إربل وبغداد ـ هكذا قال ياقوت في «معجم البلدان» ثم قال : لها ذكر في الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدي بن أبي صمَام :

شبابٌ أطاعوا اللهَ حتّى أحَبَّهـم ... وكُلُّهُمُ شار يخـافُ ويَطْمَـعُ
فلمَّا تَبَوَّوْا مِنْ دقُوقا بمنـزلٍ ... لميعادِ إخوانٍ تداعـوا فأَجْمعـوا

ومذهب جماعةٍ ممن ذكر أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وأَشْهِدوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ﴾[١] وبما استند إليه إجماع جمهور الناس على أن شهادة الكافر لا تجوز

وتأَول جماعةٌ من أَهل العلم الآية على غير هذا كله ، قال الحسن ابن أَبي الحسن : وقوله تعالى : [مِنْكُمْ] يريد من عشيرتكم وقرابتكم ، وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة . وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس ، وابن شهاب ، قالوا : أَمر الله بإشهاد عدلَيْن من القرابة إذ هم أَلحن[٢] بحال الوصية وأَدرى بصورة العدل فيها ، فإن كان الأَمر في سفر ولم تحضر قرابة أُشْهِد أَجْنَبِيَّان ، فإذا شهدا فإن لم يقع ارتياب مضت الشهادة ، وإن ارتيب أَنهما مالا بالوصية إلى أَحد أَو زادا أَو نقصا حَلَفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما ، فإن عُثر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إثْم حَلَف وليَّان من القرابة ، وبطلت شهادة الأَولَيْن[٣] .

---

(١) من الآية رقم (٢) من سورة (الطلاق) .

(٢) يُفهم من (أَلحن) أنهم أعرف بالوصية ، إذ يقال : لَحِن القولَ عنه : فهمه — ويقال : أَلحن فلاناً القولَ : أفهمه إيَّاه ، وفي بعض النسخ : « إذ هم أحق بحال الوصية » وهو ما يطابق عبارة أبي حيان في « البحر المحيط » .

(٣) يؤيد هذا الرأي النحاس بدليل لغوي ، يقول : وهذا ينبني على معنى غامض في العربية ، وذلك أن معنى (آخَر) في العربية يكون من جنس الأول ، تقول : مررت بكريم وكريم آخر ، ولا تقول : مررت بكريم وخسيس آخر ، فوجب من هذا أن يكون قوله : ﴿أو آخَران من غيركُم﴾ أي: عَدْلان ، ومعنى هذا أنهما من المسلمين لا من الكفار ، لأن الكفار لا يكونون عدولا ،فيصح على هذا قول من قال : [مِن غيركُمْ] من غير =

وقال بعض الناس : الآية منسوخة ، ولا يحلف شاهد ، ويذكر هذا عن مالك بن أنس ، والشافعي ، وكافة الفقهاء .

وذكر الطبريُّ رحمه الله أن هذا التخالف الذي في الآية إنما هو بحسب التداعي ، وذلك أن الشاهدين الأَوَّلين إنما يحلفان إذا ارْتيب ، وإذا ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فتلزمهما اليمين ، لكن هذا الارتياب إنما يكون في خيانة منهما . فإن عُثر بعد ذلك على أنهما استحقا إثماً نظر ، فإن كان الأمر بَيِّناً غُرِّما دون يمين وليَّيْن ، وإن كان بشاهد واحد أو بدلائل تقتضي خيانتهما أو ما أشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدَّعيان مع ما قام لهما من شاهد أو دليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا هو الاختلاف في معنى الآية وصورة حكمها .

ولنرجع الآن إلى الإعراب والكلام على لفظة لفظة من الآية ، ولنقصد القول المفيد ، لأن الناس خلَّطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً ، وذكْر ذلك والردُّ عليه يطول ، وفي تبيين الحق الذي تتلقاه الأَذْهان بالقبول مقنع ، والله المستعان .

قوله : ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ، قال قوم : الشهادة هنا بمعنى الحضور ، وقال الطبري : الشهادة بمعنى اليمين ، وليست بالتي تُؤَدَّى .

= عشيرتكم من المسلمين. قال القرطبي تعليقاً على ذلك : « وهذا معنى حسن من جهة اللسان ، على أنه قد عورض بأن في أول الآية : ﴿يأيُّها الَّذين آمَنوا﴾ فخوطب الجماعة من المؤْمنين ». ومعنى هذا أن قوله : [مِنْ غَيْرِكُم] يقتضي أن يكون المقصود « من غير المؤمنين » مادام الخطاب للمؤْمنين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لِتُؤَدَّى[١]. ورفْعها بالابتداء والخبر في قوله : [اثْنَانِ] . قال أبو علي : التقدير : شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه . وقدَّره غيره أولا ، كأنه قال : «مقيم شهادة بينكم اثنان».

وأُضيفت الشهادة إلى (بيْنَ) اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملة الأسماء ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[٢] .

وقرأ الأعرج ، والشعبي ، والحسن : (شَهَادَةٌ] بالتنوين [بَيْنَكُمْ] بالنصب ، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءة السبعة . وروي عن الأعرج ، وأبي حيْوة : [شهادةً] بالنصب والتنوين [بينَكُم] نصباً ، قال أبو الفتح : التقدير : «ليقم شهادةً بينَكُم اثنان» .

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ معناه: إذا قرب الحضور ، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميِّت ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ

(١) جاءت (شهد) في القرآن بمعان مختلفة ــ بمعنى (قضى) كقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ﴾ ، وبمعنى (أقرَّ) كقوله سبحانه : ﴿والملائكةُ يشهدون﴾ . وبمعنى (حلف) كما في اللِّعان ، وبمعنى (وصى) كقوله تعالى: ﴿يأيُّها الَّذين آمنُوا شهادةُ بينكم﴾ ــ وهذا على رأي من يرى أنها هنا بمعنى (وصَّى) .

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الأنعام) ــ وقد قيل : الأصل (ما بينكم) فحذفت (ما) وتمت الإضافات على السعة كقوله تعالى: ﴿هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي : ما بيني وبينك ، وكقول الشاعر :

تُصافِحُ مَن لاقَيْتَ لي ذا عداوةٍ صفاحاً ، وعنِّي بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي

أي: ما بين عينيك، ومن الإضافة على السعة قوله تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ ، أي : مكركم في الليل والنهار .

الْقُرْآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ﴾[١] ، وكقوله :﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾[٢] ، وهذا كثير ، والعامل في [إذا] المصدر الذي هو [شَهَادَةُ] ، وهذا على أن تجعل [إذا] بمنزلة (حين) لا تحتاج إلى جواب ، ولك أن تجعل [إذا] في هذه الآية المحتاجَةَ إلى جواب لكن استُغني عن جوابها بما تقدم في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إذ المعنى : إذا حضر أحدكم الموتُ فينبغي أن يشهد .

وقوله : [حِينَ الْوَصِيَّةِ] ظرف زمان والعامل فيه [حَضَر] ، وإن شئت جعلته بدلاً من [إذا] ، قال أبو علي : ولك أن تعلقه بـ [الْمَوْت] ، ولا يجوز أن تعمل فيه [شهادةُ] لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه .

وقوله : [ذَوَا عَدْلٍ] صفة لقوله [اثْنانِ] ، و [مِنْكُمْ] صفة أيضاً بعد صفة .

وقوله تعالى : [مِنْ غَيْرِكُمْ] صفة لـ [آخَرَانِ] ، و [ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ] معناه : سافرتم للتجارة ، تقول : ضربتُ في الأرض أي : سافرت للتجارة ، وضربتُ الأرض : ذهبت فيها لقضاءِ حاجة الإنسان ، وهذا السفر كان كالذي يمكن أن يعدم فيه المؤْمن مؤْمنين ، فلذلك خُصَّ بالذكر ، لأن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤْمنين .

قال أبو علي : قوله : [تَحْبِسُونَهُمَا] صفة لـ [آخَرانِ] ، واعترض بين الموصوف والصفة بقوله : [إِنْ أَنْتُمْ] إلى [الْمَوْتِ] ، وأفاد

(١) من الآية (٩٨) من سورة (النحل) .
(٢) من الآية (١) من سورة (الطلاق) .

الاعتراض أَن العدول إلى آخَرَيْن من غير المِلّة أَو القرابة حسب اختلاف العلماءِ في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه ، واستغني عن جواب [إنْ] لما تقدم من قوله : ﴿أَوْ آخَرانِ من غَيْرِكُمْ﴾ .

وقال جمهور العلماءِ : الصلاة هنا صلاة العصر ، لأَنه وقت اجتماع الناس ، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيمن حلف على سلعته ، وأَمر باللعان فيه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما هي بعد صلاة الذِّمِّيِّين (١) ، وأَما العصر فلا حرمة لها عندهما .

والفاءُ في قوله : [فَيُقْسِمَانِ] عاطفة جملة على جملة ، لأَن المعنى تم في قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾ ، قال أَبو علي : وإن شئت لم تقدر الفاءَ عاطفة جملة على جملة ، ولكن تجعله جزاءً كقول ذي الرمّة :

وإنْسَانُ عَيْني يَحْسِرِ الماءَ تـارَةً فَيَبْدو وتارات يَجِمُّ فَيَغْرَقُ (٢)

تقديره عندهم : إذا حَسَرَ بدا ، فكذلك إذا حبستموهما أَقْسما .

وقوله : [إِنِ ارْتَبْتُمْ] شرط لا يتوجَّه تحليف الشاهدَيْن إِلَّا به ، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين ، أَما إنه يظهر من حكم أَبي موسى تحليف الذِّمِّيِّين أَنه باليمين تكْمُل شهادتُهما وتنفذ الوصية لأَهلها وإن لم يرتب . وهذه الريبة ـ عند من لا يرى الآية منسوخة ـ تترتب في الخيانة وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهم دون بعض ،

---

(١) لأن الشاهدين في هذه الحالة من أهل الذمة ، وصلاتهم لها عندهما حُرمة وقداسة.

(٢) إنسان العيْن : ناظرها . وحسَر الشيءُ حُسوراً : انكشف ، وحسر الشيءَ : أزاله ، وجمَّ : اجتمع وكثُر ـ يقول : إذا حسر الدمع وانكشف ظهر إنسان عينه ، وإذا تجمَّع الماءُ وكثُر غرق فيه فلا يظهر .

وتقع مع ذلك اليمين عنده ، وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلا بأن يكون الارتياب في خيانة ، أو تَعَدٍّ بوجه من وجوه التعدي ، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة .

والضمير في قول الحالفيْن: ﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ عائد على القسم ، ويحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى ، قال أبو علي : يعود على تحريف الشهادة . وقوله : [لا نَشْتَرِي] جواب ما يقتضيه قوله : ﴿فَيُقْسِمَانِ باللهِ﴾ لأن القسم ونحوه يتلقى بما تتلقى به الأيمان ، وتقدير [بِهِ ثَمَناً] أي : ذا ثمن ، لأن الثَّمن لا يُشترى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[1] معناه: ذا ثَمَن . ولا يجوز أن يكون [نَشْتَرِي] في هذه الآية بمعنى نبيع ، لأن المعنى يبطله ، وإن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع .

وخص ذا القربى بالذكر لأن العرف ميل الناس إلى قراباتهم ، واستسهالهم في جنب نفعهم مالا يستسهل .

وقوله تعالى: ﴿وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أضاف [شهادة] إليه تعالى من حيث هو الآمر بإقامتها الناهي عن كتمانها . وقرأ الحسن والشعبي : [ولا نَكْتُمْ] بجزم الميم[2] ، وقرأ علي بن أبي طالب ، ونعيم بن

(١) من الآية (٩) من سورة (التَّوْبة) .

(٢) القراءة بجزم الميم من [نَكْتُمْ] على معنى أنهما ينْهيان نفسيهما عن كتمان الشهادة . والعلماء يقولون : إن دخول (لا) الناهية على المتكلم قليل ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما خرَجْنا منْ دمَشْقَ فلا نَعُـــدْ لها أبداً ما دامَ فيها الجراضيــــمُ

ميسرة ، والشعبي - بخلاف عنه - : [شَهادةً] بالتنوين [اللهَ] نصب بـ [نَكْتُم] ، كأَن الكلام : «ولا نكتُم اللهَ شهادةً» . قال الزهراوي : ويحتمل أَن يكون المعنى : «ولا نكتم شهادةً واللهِ» ثم حذفت الواو ونصب الفعل إيجازاً . وروى يحيى بن آدم عن أَبي بكر بن عيَّاش : [شهادةً] [أَللهِ] بقطع الأَلف دون مدٍّ وخفض الهاءِ ، ورويت أَيضاً عن الشعبي وغيره أَنه كان يقف على الهاءِ من (الشهادة) بالسكون ، ثم يقطع الأَلف المكتوبة من غير مدٍّ كما تقدم ، وروي عنه أَنه كان يقرأُ [آللهِ] بمدِّ أَلف الاستفهام في الوجهيْن ، أَعني بسكون الهاءِ من (الشهادة) وتحريكها منونة منصوبة ، ورويت هذه التي هي تنوين (الشهادة) ومدّ أَلف الاستفهام بعد عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، قال أَبو الفتح : أَما تسكين هاءِ [شهادة] والوقف عليها واستئناف القسم فوجْه حسن ، لأَن استئناف القسم في أَول الكلام أَوقر له وأَشد هيبة أَن يدرج في عرض القول . وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، وعبد الله بن حبيب ، والحسن البصري - فيما ذكر أَبو عمرو الداني - : [شهادةً] بالنصب والتنوين [آللهِ] بالمدِّ في همزة الاستفهام التي هي عِوَض من حرف القسم [آنـّا] بمد أَلف الاستفهام أَيضاً دخلت لتوقيف أَو تقرير لنفوس المقسمين ، أَو لمن خاطبوه . وقرأَ ابن مُحَيْصِن : [لَمِلَّاثِمينَ] بالإِدغام .

وقوله تعالى : [فَإِنْ عُثِرَ] استعارة لما يُوقَع على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد أَن لم يُرْج ولم يُقْصد ، وهذا كما يقال : على الخبير سقطت ، ووقعت على كذا ، قال أَبو علي : والإِثم هنا : اسم الشيء

المأْخوذ ، لأَن آخذه بِأَخْذه آثم فسمي إِثْماً كما سُمِّي ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمَة ، قال سيبويه : المظلمة اسم ما أُخذ منك ، وكذلك سمي هذا المأْخوذ باسم المصدر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر هنا أَن الإِثم على بابه وهو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد مواقعتهما لتحريف الشهادة أَو لأَخذ ما ليس لهما أَو نحْو ذلك .

و [اسْتَحَقَّا] معناه : استوجباه من الله وكانا أهلا له ، فهذا استحقاق على بابه ، إنه استيجاب حقيقة ، ولو كان الإِثم الشيء المأْخوذ لم يقل فيه استحقا لأَنهما ظلما وخانا فيه ، فإنما استحقا منزلة السوء وحكم العصيان ، وذلك هو الإِثم .

وقوله تعالى : [فآخران] أَي : فإذا عُثر على فسادهما فالأَوْلَيان باليمين وإقامة القضية آخران من القوم الذين هم ولاةُ الميت ، واستحق عليهم حظهم أَو ظهورهم أَو مالهم أَو ما شئت من هذه التقديرات .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والكسائي : [اسْتُحِقَّ] مضمومة التَّاءِ ، و [الأَوْلَيان] على التثنية لـ (أَوْلى) ، وروى قُرَّة عن ابن كثير : [اسْتَحق] بفتح التَّاءِ [الأَوْلَيان] على التثنية ، وكذلك روى حفص عن عاصم ، وقرأَ حمزة وعاصم في رواية أَبي بكر [اسْتُحق] بضم التاءِ [الأَوَّلِين] على جمع (أَوَّل) ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن [استَحق] بفتح التاءِ [الأَوَّلان] على تثنية (أَوّل) ،

وقرأ ابن سيرين [الأَوَّلَيْن] على تثنية (أَوَّل) ، ونصبهما على تقدير : الأَوَّلِيْن فالأَوَّلين في الرتبة والقربى (١) .

قال أَبو علي في قراءة ابن كثير ومن معه(٢) : لا يخلو ارتفاع [الأَوْليان] من أَن يكون على الابتداءِ وقد أُخِّر ، فكأَنه في التقدير : «والأَوْليان بأَمر الميت آخران يقومان» فيجيءُ الكلام كقولهم : «تميميٌّ أَنا» ، أَو يكون خبر ابتداءٍ محذوف كأَنه : «فآخران يقومان مقامهما هما الأَوْلَيان» ، أَو يكون بدلا من الضمير الذي في [يَقُومانِ] ، أَو يكون مسنداً إلى [استُحق] ، وأَجاز أَبو الحسن فيه شيئاً آخر وهو أَن يكون [الْأَوْلَيَانِ] صفة لـ [آخَران] لأَنه لما وصف خصص ، فوصف من أَجل الاختصاص الذي صار له (٣) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ثم قال أَبو علي بعد كلامه هذا : فأَما ما يُسند إليه [اسْتُحِقَّ] فلا يخلو من أَن يكون : الأَنصباءَ ، أَو الوصية ، أَو الإثم . وسمي المأْخوذ إثماً كما يقال لما يؤْخذ من المظلوم: مَظْلَمة ، ولذلك جاز أَن

---

(١) قال النحاس : والقراءتان لحن ، لا يقال في مُثَنّى مُثَنَّان — ويريد بالقراءتين قراءة الحسن وقراءة ابن سيرين — نقل ذلك القرطبي .

(٢) وهي قراءة [استُحِقَّ] بضم التاءِ ، و[الأَوْلَيَان] مثنى (أَوْلَى) .

(٣) اختار النحاس أن يكون [الأَوْلَيَان] بدلا من قوله : [فَآخَران] ، وهو أصلا إعراب ابن السَّرِيّ ، وهو بدل المعرفة من النكرة ، وهو جائز ، قيل : لأن النكرة إذا أُعيد ذكرها صارت معرفة كقوله تعالى: ﴿كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْبَاحٌ﴾ ثم قال: ﴿المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ﴾ ، ثم قال : [الزُّجَاجَةُ] .

يستند إليه [اسْتُحِقَّ] ، ثم قال بعد كلام : فإن قلت : هل يجوز أَن يُسند [اسْتُحِقَّ] إلى [الأَوْلَيَان] ؟ فالقول أَن ذلك لا يجوز ، لأَن المستحق إنما يكون الوصية أَو شيئاً منها ، وأَما الأَولَيَان بالميت فلا يجوز أَن يستحقا فيسند [اسْتُحَقَّ] إليهما .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا الكلام نظر ، ويجوز عندي أَن يسند [اسْتُحِقَّ] إلى [الأَوْلَيَان] ، وذلك أَن أَبا علي حمل لفظة الاستحقاق على أَنه حتميقي فلم يُجَوِّزه إلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة ، وإنما يُسْتحق حقيقة النَّصيب ونحوه ، ولفظة الاستحقاق في الآية إنما هي استعارة وليست بمعنى «استحقا إثما» فإن الاستحقاق هنا حقيقة ، وفي قوله [اسْتُحق] مستعار ، لأَنه لا وجه لهذا الاستحقاق إلا الغلبة على الحال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقرابته أَو لأَهل دينه ، ف [اسْتُحِقَّ] هنا كما تقول لظالم يظلمك : هذا قد استحق عليّ مالي أَو منزلي بِظُلْمه ، فَتُشَبِّهُهُ بالمستحق حقيقة ، إذ قد تسور تسوره وتملك تملكه ، وكذلك يقال : فلان قد استحق زمنه شغل كذا إذا كان الأَمر قد غلبه على أَوقاته ، وهكذا هي [اسْتُحِقَّ] في الآية على كل حالٍ وإن أُسندت إلى الأَنصباء ونحوه ، لأَن قوله [اسْتُحق] صلة لـ [الَّذين] و [الَّذين] واقع على الصنف المناقض للشاهدَيْن الجائرَيْن ، فالشاهدان ما استحقَّا قط في هذه النازلة شيئاً حقيقة استحقاق ، وإنما تسورا تسور المستحق ، فلنا أَن نقدر [الأَوْلَيان] ابتداءً وقد أُخِّر ، فيسند [اسْتُحِقَّ] ـ على هذا ـ إلى المال أَو النصيب

ونحوه على جهة الاستعارة ، وكذلك إذا كان [الأَوْلَيان] خبر ابتداءٍ ، وكذلك على البدل من الضمير في [يقومانِ] ، وعلى الصفة على مذهب أَبي الحسن ، ولنا أَن نقدر الكلام بمعنى : من الجماعة التي غابت وكان حقُّها والمبتغى أَن يحضر وليُّها ، فلما غابت وانفرد هذا الموصي استحقت هذه الحال ـ وهذان الشاهدان من غير أَهل الدين ـ الولاية وأَمر الأَوْلَيَيْن على هذه الجماعة ، ثم بني الفعل للمفعول على هذا المعنى إيجازاً . ويقوي هذا الغرض أَن تعدّي الفعل بـ [عَلَى] لما كان باقتدار وحمل هيئته الحال ، ولا يقال : استحق منه أَو فيه إلا في الاستحقاق الحقيقي على وجهه ، وأَما استحق عليه فيقال في الحَمْل والغلبة والاستحقاق المستعار . والضمير في [عَلَيْهم] عائد على كل حال في هذه القراءة على الجماعة التي تناقض شاهِدَي الزور الآثمَيْن ، ويحتمل أَن يعود على الصنف الذين منهم شاهد الزور على ما نُبَيِّنُه الآن إن شاءَ الله في غير هذه القراءة .

وأَما رواية قُرَّة عن ابن كثير [استَحق] بفتح التاءِ فيحتمل أَن يكون [الأَوْلَيان] ابتداءً أَوْ خبر ابتداءٍ ، ويكون المعنى : من الجمع أَو القبيل الذي استحق القضية على هذا الصنف الشاهد بالزور ، والضمير في [علَيْهم] عائد على صنف شاهدي الزور .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأْويل تحويم وتحليق وصنعة في [الذين] ، وعليه ينبني كلام أَبي عليّ في كتاب الحجة ، ويحتمل أَن يكون المعنى: من

الذين استحق عليهم القيام ، والصواب من التأويلين أن الضمير في [عَلَيْهم] عائد على [الَّذين] ، و [الأَوْليان] رفع بـ [اسْتَحَقَّ] وذلك متخرج على ثلاثة معان : (١)

أَحدها أَن يكون المراد من الذين استحق عليهم مالَهم وتركتَهم شاهدا الزور ، فسَمَّى شاهدَي الزور أَوْلَيَيْن من حيث جعلتهما الحالُ الأُولى كذلك ، أَي صيَّرهم عدَمُ الناس أَوْلى بهذا الميت وتركته فجارا فيها .

والمعنى الثاني أَن يكون المراد من الجماعة الذين حق عليهم أَن يكون منهم الأَوليان ، فاستحق بمعنى : حق ووجب ، كما تقول : هذا بناءٌ قد استحق بمعنى حق ، كعجب واستعجب ونحوه .

والمعنى الثالث أَن يجعل [اسْتَحق] بمعنى سعى واستوجب ، فكأَن الكلام : فآخران من القوم الذين حضر أَوليان منهم فاستحقا عليهم حقهم ، أَي : استحقا لهم وسعيا فيه واستوجباه بأَيْمانهما وقرباهما ، ونحو هذا المعنى الذي يعطيه التعدي بـ (على) قولُ الشاعر :

أَسْعَى على حيّ بَني مـــــالك كلُّ امرئٍ في شأْنه ساعِــي (٢)

وكذلك في الحديث : (كنت أَرعى عليهم الغنم) في بعض طرق

---

(١) خرَّج ابن عطية قراءة فتح التاء في [استَحق] و [الأَوْلَيان] بالتثنية هذه التخريجات الثلاثة ، أما الزمخشري فقال : « معناه : من الورثة الذين استَحَقَّ عليهم أَوْليان من بينهم بالشهادة أن يُجَرِّدوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين» . وقال بعضهم : المفعول محذوف ، أي : « من الذين استحق عليهم الأَوليان وصيَّهما » .

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب ــ والرواية فيه : أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مالِكٍ . وقد شرح معنى التعدية بـ (على) فيه فقال : فلان يسعى على عياله ، أي : يتصرف لهم .

حديث الثلاثة الذين ذكر أحدهم برّه بأبويه حين انحطت عليهم الصخرة [١].

وأما قراءة حمزة [٢] فمعناها : من القوم الذين استُحق عليهم أَمرُهم ، أي : غُلبوا عليه ، ثم وصفهم بأنَّهم أوَّلون ، أي : في الذكر في هذه الآية ، وذلك في قوله : ﴿اثْنانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿أَوْ آخَرَانِ منْ غَيْرِكُمْ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَيُقْسمانِ باللهِ﴾ يعني الآخريْن اللَّذين يقومان مقام شاهدي التحريف ، وقولهما: ﴿لَشَهادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي : لَمَا أَخْبرنا نحن به وذكرناه من نَصِّ القضية أَحق مما ذكراه أَوَّلا وحرَّفا فيه ، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ نحن في قولنا هذا ولا زدنا على الحدّ . وقولهما : ﴿إنَّا إذاً لَمِنَ الظَّالِمينَ﴾ تبرٍّ في صيغة الاستعظام والاستقباح للظلم ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما — ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وهو حديث طويل ومشهور . وابن عطية أمين حين يقول : « في بعض طرق حديث الثلاثة » لأن الجملة التي نقلها لا توجد في كل الطرق .

(٢) قراءة حمزة ومعه عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه : [اسْتُحق] بضم التّاء ، و[الأوَّلِين] جمع (أوَّل) .

ونلاحظ أن ابن عطية قد أطال في إعراب هذه الآية ، وكذلك فعل أبو حيّان في « البحر المحيط » ، وقد قال الزجاج : أصعب ما في القرآن من الإعراب قوله: ﴿مِنَ الَّذينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهم الأوْليان﴾ . وحتى في الأحكام فإن الآية تحتاج إلى إعمال فكر ودقة نظر ، وقد قال عمر رضي الله عنه : هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام ، يريد قوله تعالى : ﴿فَإن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إثْماً﴾ .

ومع ذلك فنحن مع صاحب المنار حين لا يوافق علماء اللغة على ما ذهبوا إليه من وجود صعوبات في الإعراب ، أو معضلات في فهم الأحكام ، و « القرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها ، فهو أصل الأصول ، فما وافقه فهو مقبول ، وما خالفه فهو مردود مرْذول » وبالله التوفيق .

قوله عز وجل :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

الإشارة بـ [ذلِكَ] هي إلى جميع ما حدَّ الله قبل من حبس الشاهديْن من بعد الصلاة لِلْيَمين ، ثم إن عُثر على جورهما رُدَّت اليمين وغُرِّما ، فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل ، لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة ، ثم يخافون الفضيحة وردَّ اليمين . هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما .

ويظهر من كلام السدي أن الإشارة بـ [ذَلِكَ] إنما هي إلى الحبس من بعد الصلاة فقط ، ثم يجيءُ قوله تعالى : ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ بإزاء [فَإِنْ عُثِرَ] الآية.

وجمع الضمير في [يأْتوا] و [يَخَافوا] إذ المراد صنف ونوع من الناس ، و [أَوْ] في هذه الآية على تأْويل السدي بمنزلة قولك : «تجيئُني يا زيد أَو تُسخطني» ، كأَنك تريد : وإلا أَسخطتني ، فكذلك معنى الآية : ذلك أَدنى أَن يأْتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا ردَّ الأَيمان ، وأَما على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما فالمعنى : ذلك الحكم كله أَقرب إلى أَن يأْتوا ، وأَقرب إلى أَن يخافوا .

وقوله تعالى : [عَلَى وَجْهِهَا] معناه : على جهتها القويمة التي لم تبدل، ولا حُرِّفت .

ثم أَمر تعالى بالتقوى التي هي الاعتصام بالله ، وبالسمع لهذه الأَوامر المُنْجية ، وأَخبر أَنه لا يهدي القوم الفاسقين من حيثُ هم فاسقون ، وإلا فهو تعالى يهديهم إذا تابوا ، ويحتمل أَن يكون لفظ [الفاسقين] عاماً والمراد الخصوص فيمن لا يتوب .

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ ذهب قوم من المفسرين إلى أَن العامل في [يومَ] ما تقدم من قوله : [لا يَهْدي] ، وذلك ضعيف . ورصف الآية وبراعتها إنما هو أَن يكون هذا الكلام مستأْنفاً والعامل مقدرا ، إما : اذكروا ، وإما : تذكروا ، وإما : احذروا ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع .

والإِشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة ، وخصَّ الرسل بالذكر لأَنهم قادة الخَلْق ، وفي ضمن جَمْعهم جمع الخلائق ، وهم المكلَّمون أَولا .

و [مَاذَا أُجِبْتُم] معناه : ماذا أَجابت به الأُمم من إِيمان أَو كفر وطاعة أَو عصيان ؟ وهذا السؤَال للأَنبياءِ الرسل إنما هو لتقوم الحجة على الأُمم . ويبتدئ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور .

واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام: ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ ـ فقال الطبري : ذهلوا عن الجواب لهول المطلع . وذكر عن الحسن أَنه قال : لا علم لنا من هول ذلك اليوم ، وعن السدي : نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فقالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلا آخر شهدوا على قومهم . وعن مجاهد أَنه قال : يفزعون فيقولون : لا علم لنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وضعّف بعض الناس هذا المنزع بقوله تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُم الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [(١)] ، والأنبياء في أشد أهوال يوم القيامة وحالة جواز السراط يقولون : سلِّم ، سلِّم ، وحالهم أعظم وفضل الله عليهم أكثر من أن تذهل عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معنى الآية : لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا حسن ، كأن المعنى : لا علم لنا يكفي وينتهي إلى الغاية .

وقال ابن جريج : معنى [ماذا أُجِبْتُم] : ماذا عملوا بعدكم ؟ وماذا أحدثوا ؟ فلذلك قالوا : لا علم لنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى حسَنٌ في نفسه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ، لكن لفظة [أُجِبْتُمْ] لا تساعد قول ابن جريج إلا على كره ، وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي ، لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى وردّ الأمر إليه ، إذ قوله : [ماذا أُجِبْتُمْ] لا علم عندهم في جوابه إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم ، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاقٍ ونحوه ، وكذلك ينقصهم ما كان بَعْدَهم

(١) من الآية (١٠٣) من سورة (الأنبياء) .

من أُمتهم ، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال ، فرأَوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط .

وقرأَ أَبو حَيْوة : [ماذا أَجَبْتُمْ] بفتح الهمزة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾

يحتمل أَن يكون العامل في [إِذْ] فعلاً مضمراً تقديره : اذكر يا محمد إِذ جئتهم بالبينات ، و [قال] هنا بمعنى : يقول ، لأَن ظاهر هذا القول أَنه في القيامة تقدمةً لقوله : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ ، وذلك كلُّه إِحكام لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم أُلوهية عيسى

ويحتمل أَن تكون [إِذْ] بدلا من قوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ﴾ .

ونعمةُ الله على عيسى هي بالنبوة وسائر ما ذكر وما علم مما لا يُحصى ، وعددت عليه النعمة على أُمَّة إِذ هي نعمة صائرة إِليه وبسببه كانت .

وقرأ جمهور الناس : [أَيَّدتك] بتشديد الياءِ ، وقرأ مجاهد ، وابن محيصن: [آيَدْتك] على وزن فاعلتك ، ويظهر أَن الأَصل في القراءَتين [أَيَّدْتُك] على وزن أَفعلتك ثم اختلف الإعلال ، والمعنى فيهما : قَوَّيتك من الأَيْدِ ، وقال عبد المطلب :

الحمد للهِ الأَعزّ الأَكْـــرَم أَيَّدنا يومَ زحوف الأَشرم[١]

وروح القُدُس هو جبريل عليه السلام ، وقوله : [في الْمَهْدِ] حال ، كأَنه قال : صغيراً ، [وكهْلا] حال أَيضاً معطوفة على الأَول ، ومثله قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَو قَاعِداً أَو قَائِماً﴾[٢] والكهولة من الأَربعين إلى الخمسين ، وقيل : هي من ثلاثة وثلاثين ، و[الكتاب] في هذه الآية : مصدر كتب يكتب ، أَي : علمتك الخط ، ويحتمل أَن يريد اسم جنس في صحف إبراهيم وغير ذلك ، ثم خص بعد ذلك التوراة والإنجيل بالذكر تشريفاً . [والحكمة] هي الفهم والإدراك في أُمور الشرع ، وقد وهب الله الأَنبياءَ منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوى .

وقوله تعالى : [وإذْ] في هذه الآية حيثما تكررت فهي عطف على الأُولى التي عملت فيها [نعمتي] .

---

(١) الأشرم هو أبرهة الحبشي صاحب الفيل ، وزحوف : مصدر زحف – يقال : زحف : زحفا وزحوفا وزحفانا . فإذا استعملت في الجيش دلت على المشي إلى العدوّ في ثقل بسبب كثرة العدد .

(٢) من الآية (١٢) من سورة (يونس) .

و[تَخْلُقُ] معناه : تقدر وتُهَيِّئُ تقديراً مستوياً متقناً ، ومنه قول الشاعر :

وَلأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يفْري(١)

أي : يُهَيِّئُ ويقدر ليعمل ويكمل ثم لا يفعل ، ومنه قول الآخر :

مَنْ كانَ يخْلُقُ مـا يَقـــو لُ فحيلتي فيه قليلــــة (٢)

وكان عيسى عليه السلام يصور من الطين أمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أمام الناس فتحيا وتطير بإذن الله ، وقد تقدم هذا القصص في «آل عمران» .

وقرأ جمهور الناس : [كَهَيْئَةِ] بالهمز ، وهو مصدر من قولهم : هاءَ الشيءُ يهاءُ إذا ثبت واستقر على أمر حسن . وقال اللحياني : ويقال : يهيءُ . وقرأ الزهري : [كهيَّة] بتشديد الياءِ من غير همز ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [كهَيْئَةِ الطائر] .

والإذن في هذه الآية كيف تكرر معناه : التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاءِ الناس إلى الإيمان .

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى المزني يمدح هرم بن سنان ، والمعنى : إنه إذا قدر شيئاً قطعه وأمضاه لمضاءِ عزمه وقوة إرادته . راجع ص ٢٢٢ من الجزء الأول .

(٢) أنشد المبرد هذا البيت في الكامل ، ونسبه لبعض المحدثين ، وقبله بيت آخر يقول :

لِيَ حيلَـــةٌ فيمَنْ يَنِـــمُ وليْسَ في الكَذّابِ حيلَـهْ

ونسب البيتين في (معجم الأدباء) إلى منصور بن إسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر المصري الضرير . ونمَّ بيْن القوم : حرّشَ وأغرى ، ونمَّ الحديث : سعى به ليوقع فتنة بين الناس . راجع الجزء الأول صفحة ٢٢٢ .

وقوله تعالى : [فَتَنْفُخُ فيها] هو النفخ المعروف من البشر ، وإنما جعل الله الأَمر هكذا ليظهر تلبُّس عيسى بالمعجزة وظهورها منه ، وهذا كطرح موسى عليه السلام العصا ، وكإيراد محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ، وهذا أَحد شروط المعجزات ، وقوله : [فيها] بضمير مؤَنث مع مجيءِ ذلك في (آل عمران) : [فَتَنْفُخُ فيه] بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه . قال مكي : هو في (آل عمران) عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة . قال : ويصح عكس هذا . وقال غيره : الضمير المذكر عائد على الطين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطيْر ولا على الطين ولا على الهيئة ، لأَن الطين أَو الطائر الذي يجيءُ الطين على هيئته لا نفخ فيه البَتَّة ، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية ، وكذلك الطين المذكور في الآية إنما هو الطين العام ، ولا نفخ في ذلك ، وإنما النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبتها يد عيسى عليه السلام ، فالوجه أَن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة ، وذلك أَن قوله : ﴿وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يقتضي صوراً أَو أَجساماً أَو أَشكالا ، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي تقتضيه [تخلُق] . ولك أَن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل ، لأَن المعنى : وإذ تخلق من الطين مثل هيئة . ولك أَن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوِّز

أَن يكون اسماً في غير الشِّعر ، وتكون الكاف في موضع نصب صفة للمصدر المراد ، تقديره : وإذ تخلق خلقاً من الطين كهيئة الطير .

وقرأ عبد الله بن عباس : [كهَيْئة الطَّيْر فتنفخها فيكون] ، وقرأ الجمهور [فتكون] بالتاءِ من فوق ، وقرأ عيسى بن عمر : [فيها فيكون] بالياءِ من تحت ، وقرأ نافع وحده : [فَتَكونَ طَائِراً] ، وقرأ الباقون : [طَيْراً] بغير أَلف ، والقراءَتان مستفيضتان في الناس ، فالطير : جمع طائر ، كتاجر وتجْر ، وصاحب وصحْب ، وراكب وركْب . والطائر : اسم مفرد ، والمعنى على قراءَة نافع : فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات طائرا .

قال أَبو علي : ولو قال قائل : إن الطائر قد يكون جمعاً كالحامل والباقر فيكون على هذا معنى القراءَتيْن واحداً لكان قياساً ، ويقوي ذلك ما حكاه أَبو الحسن من قولهم : طائرة ، فيكون من باب : شعيرة وشعير ، وتمرة وتمر .

وقد تقدم القول في الأَكمه والأَبرص ، وفي قصص إحيائه الموتى في (آل عمران) ، و [تُخْرِجُ الْمَوْتَى] معناه : من قبورهم ، وكفُّ بني إسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه حين أَحاطوا به في البيت مع الحواريين ، ومن أَول ما منعه الله منهم هو الكف إلى تلك النازلة الآخرة ، فهنالك ظهر عِظَم الكف ، والبيِّنات : هي معجزاته وإنجيله وجميع ما جاءَ به .

وقرأ ابن كثير وعاصم هنا وفي (هود والصَّف) : [إلَّا سِحْر] بغير ألف ، وقرأ حمزة والكسائي في المواضع الأربعة (١) : [ساحر] بألف ، فمن قرأ (سحراً) جعل الإشارة إلى البينات والحديث وما جاء به ، ومن قرأ (ساحراً) جعل الإشارة إلى الشخص إذ هو ذو سحر عندهم ، وهذا مُطَّرد في القرآن كله حيثما ورد هذا الخلاف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ هو من جملة تعديد النعمة على عيسى ، و [أَوْحَيْتُ] في هذا الموضع إما أن يكون وحي إلهام أو وحْي أَمر ، كما قال الشاعر :

.... أَوْحَى لها الْقَرار فاسْتَقَرَّتِ (٢)

---

(١) نلاحظ أن المواضع التي ذكرها ابن عطية هنا ثلاثة هي كما قال : «هنا ، وفي هود والصف .» والموضع الرابع هو قوله تعالى في الآية (٢) من سورة (يونس) : ﴿إنَّ هذا لَساحِرٌ مُبين﴾ . ولعله سقط من النساخ . وإثبات الألف على إرادة اسم الفاعل ، وحذفها على إرادة المصدر .

(٢) هكذا في الأصول (أوحى) . والبيت للعجاج ، وتمامه كما رواه القرطبي :

بإذنه الأرض وما تعنَّتِ وَحَى لها القرارَ فاسْتَقَرَّتِ

وبالجملة فهو إلقاءُ معنى في خفاءٍ أَوصله تعالى إلى نفوسهم كيف شاءَ .

والرسول ـ في هذه الآية ـ عيسى عليه السلام ، وقول الحواريين : [واشْهَدْ] يحتمل أن يكون مخاطبة منهم لله تعالى ، ويحتمل أن يكون لعيسى عليه السلام ، وقد تقدم تفسير لفظة [الحواريين] في آل عمران .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ الآية ، اعتراض أَثناءَ وصف حال قول الله لعيسى يوم القيامة ، مضمن الاعتراض إخبار محمد عليهالصلاة والسلام وأُمته بنازلة الحواريين في المائدة ، إذ هي مثال نافع لكل أُمة مع نبيِّها يقتدى بمحاسنه ويزدجر عما ينقد منه من طلب الآيات ونحوه .

وقرأَ جمهور الناس: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياءِ ورفع الباءِ من [ربُّك] ، وهي قراءَة السبعة حاشا الكسائي ، وهذا ليس لأَنهم شكوا في قدرة الله على هذا الأَمر ، لكنه بمعنى : هل يفعل تعالى هذا ؟ وهل تقع منه إجابة له ؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد : هل تستطيع أَن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأُ ؟ فالمعنى : هل يخف عليك ؟ وهل تفعله ؟ أَما إن في اللفظة بشاعة بسببها قال عيسى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، وبسببها مال فريق من الصحابة

= ورواه في اللسان :

وَحَى لها القرارَ فاسْتَقَـرَّتِ وشَدَّهَـا بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ

ورواهُ الألوسي هكذا :

الحمْدُ لله الَّذي اسْتَقَلَّـتِ بإذْنِهِ السَّمَاءُ واطْمَأَنَّـتِ
أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فاسْتَقَـرَّتِ

وغيرهم إلى غير هذه القراءة ، فقرأ علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وابن عباس ، وعائشة ، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم أجمعين : ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاءِ ونصب الباءِ من [ربّكَ] ، والمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربَّك ؟ قالت عائشة رضي الله عنها : كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

نزَّهتهم عائشة رضي الله عنها عن بشاعة اللفظ ، وإلا فليس يلزمهم منه جهل بالله تعالى على ما قد تبيَّن آنفا ، وبمثل هذه القراءة قرأ الكسائي وزاد أنه أدغم اللام في التاءِ ، قال أبو علي : وذلك حسن ، و[أَنْ] في قوله : [أَنْ يُنَزِّلَ] على هذه القراءة متعلقة بالمصدر المحذوف الذي هو : سؤال ، و [أَنْ] مفعول به ، إذ هو في حكم المذكور في اللفظ وإن كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنى إلا به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يمكن أن يستغنى عن تقدير (سؤال) على أن يكون المعنى : هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك أو بأثرتك عنده ونحو هذا ؟ فيردُّك المعنى ولابد إلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ .

والمائدة فاعلة من (مادَ) إذا تَحَرَّك ، هذا قول الزجاج ، أو من (مادَ) إذا مارَ وأطعم كما قال رؤبة :

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ــ عن عائشة رضي الله عنها . (فتح القدير) .

تُهْدَى رُؤُوسُ المُتْرَفِين الْأَنداد إلى أَمير الْمُؤْمنينَ الْمُمْتَـاد[١]

أَي الذي يُستطعم ويُمتاد منه .

وقول عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ تقريرٌ لهم ، كما تقول : افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً ، ولا خلاف أَحفظه في أَن الحواريين كانوا مؤْمنين ، وهذا هو ظاهر الآية .

وقال قوم : قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأَمر قبل علمهم بأَنه يُبرئُ الأَكمه والأَبرص ويُحيي الموتى .

ويظهر من قوله عليه السلام : [اتَّقُوا اللهَ] إنكار لقولهم ذلك وذلك على قراءَة من قرأَ : [يَسْتَطِيع] بالياءِ من أَسفل متوجه على أَمرين : أَحدهما بشاعة اللفظ ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلى سخط الله بها ، والنبوات ليست مبنية على أَن تتعنت ، وأَما على القراءَة الأُخرى فلم ينكر عليهم إلا الاقتراح وقلة طمأْنينتهم إلى ما قد ظهر من آياته ، فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا : نريد أَن نأْكل منها فنشْرُف على العالم .

---

(١) على أن يكون (الممتاد) مُفْتَعَل معناه ــ كما وضح ابن عطية ــ المتفضل على الناس ، وهو المستَعْطي المسؤول ، أما (مائدة) على فاعلة فهي في المعنى مفعولة ، وهي مثل : عيشة راضية ، بمعنى مرضية ، وقد قال الفارسي : « لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعامٌ وإلا فهي خوان » . عن (اللسان) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لأَن هذا الأَكل ليس الغرض منه شبع البطن .

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ معناه : يسكن فكرنا في أَمرك بالمعاينة لأَمر نازل من السماءِ بأَعْيُننا ، [وَنَعْلَمَ] علم الضرورة والمشاهدة أَن قد صدقتنا فلا تعترضنا الشُّبَه التي تعرض في علم الاستدلال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبهذا يترجح قول من قال : كان هذا قبل علمهم بآياته . ويدل أَيضاً على ذلك أَن وحي الله إِليهم [أَن آمنوا] إِنما كان في صدر الأَمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأَوا الآيات واستمروا وصدوا ، وهلك من كفر . وقرأَ سعيد بن جبير : [ويُعلم] بالياءِ مضمومة على ما لم يُسَمَّ فاعله .

وقوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ معناه : من الشاهدين بهذه الآية ، الناقلين لها إِلى غيرنا ، الداعين إِلى هذا الشرع بسببها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وروي أَن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أَن عيسى عليه السلام قال لهم مرة : هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله ، ثم إِن سأَلتموه حاجة قضاها ؟ فلما صاموها قالوا : يا معلم الخير ، إِن حق من عمل عملا أَن يطعم ، فهل يستطيع ربك ؟ فأَرادوا أَن تكون المائدة عيد ذلك الصوم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ذكر الله تعالى عن عيسى أنه أجابهم إلى دعاءِ الله في أمر المائدة ، فروي أنه لبس جبة شعر ورداءَ شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو.

و [اللّٰهُمَّ] عند سيبويه أصلها : يا الله، فجعلت الميمان بدلا من (يا) و [رَبَّنَا] منادى آخر ، ولا يكون صفة لأن (اللّهم) يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير .

وقرأ الجمهور : [تكونُ لَنا] على الصفة للمائدة ، وقرأ ابن مسعود والأعمش : [تَكُنْ لَنَا] على جواب [أَنْزِلْ] .

والعيد : المجتمع واليوم المشهود ، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه ، وهو من : عاد يعود ، فأصله الواو ، ولكن لزمته الياءُ من أجل كسرة العين[١] .

---

(١) وهذا كما في الميزان والميقات والميعاد . وقد قيل : إن العيد واحد الأعياد ، وقد جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد ، وقيل : للفرق بينه وبين أعواد الخشب .
وسمي يوم الفطر ويوم النحر عيداً لأنه يعود كل سنة . وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف =

وقرأ جمهور الناس : [لِأَوَّلِنَا وآخِرِنا] ، وقرأ زيد بن ثابت ، وابن محيصن ، والجحدري : [لِأُولانا وأُخْرَانا][1] . واختلف المتأولون في معنى ذلك ـ فقال السدي ، وقتادة ، وابن جريج ، وسفيان : [لِأَوَّلِنا] معناه : لأَوَّل الأُمة ثم لمن بعدهم حتى لآخرها يتخذون ذلك اليوم عيداً ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن المعنى : يكون مجتمعاً لجميعنا أَوَّلنا وآخرنا ، قال : وأَكل من المائدة حين وضعت أَوّل الناس كما أَكل آخرهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالعيد ـ على هذا ـ لا يراد به المستدير .

وقوله : ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي : علامة على صدقي وتشريفي ، فأَجاب الله دعوة عيسى وقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم شرط عليهم شرطه المتعارف في الأُمم أَنه من كفر بعد آية الاقتراح عُذِّب أَشد عذاب .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم : [إِنِّي مُنَزِّلُها] بفتح النون وشد الزَّاي ، وقرأ الباقون : [مُنْزِلها] بسكون النون ، والقراءتان

= تشبيها بالعِيد ،وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه فيقال : إبلٌ عِيدِيَّة ، قال رذاذ الكلبيّ :

ظلَّت تجوبُ بها البلدانَ ناجيــة عِيدِيَّةٌ أُرْهِنَتْ فيها الدّنانيــرُ

(١) قال صاحب «البحر المحيط» : انَّثوا على معنى الأمة والجماعة .

متجهتان ، نزّل وأَنْزَل بمعنى واحد ، وقرأ الأعمش ، وطلحة بن مصرف: ﴿قال اللهُ إني سَأُنْزِلُها عَلَيْكُمْ﴾ .

واختلف الناس في نزول المائدة ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن ، ومجاهد : إنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استعفوها فلم تنزل ، قال مجاهد : فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لئلا يسأَلوا هذه الآيات وقال جمهور المفسرين : نزلت المائدة ، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك ـ فروى الشعبي عن أَبي عبد الرحمن السُّلَمي قال : نزلت المائدة خبزاً وسمكاً ، وقال عطية : المائدة سمكة فيها طعم كل طعام ، قال ابن عباس : نزل خوان عليه خبز وسمك يأْكلون منه أَينما نزلوا إذا شاؤُوا ، وقاله وهب بن منبه . قال إسحق بن عبد الله : نزلت المائدة عليها سبعة أَرغفة وسبعة أَحوات ، قال : فسرق منها بعضهم فرفعت . وقال عمار بن ياسر : سأَلوا عيسى عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد ، فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم ما لم تخبئوا أَو تخونوا فإن فعلتم عذبتم ، قال : فما مضى يوم حتى خبؤُوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير ، وقال ابن عباس في المائدة أَيضاً : كان طعام ينزل عليهم حيثما نزلوا ، وقال عمار بن ياسر : نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة . وقال ميسرة : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليها الأَيدي بكل طعام إلا اللحم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكثَّر الناس في قصص هذه المائدة بما رأيت اختصاره لعدم سنده ، وقال قوم : لا يصح ألا تنزل المائدة لأن الله تعالى أخبر أنه منزلها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ ، وسائغ ما قال الحسن(١) ، أما إن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعة منهم فمسخهم الله خنازير ، قاله قتادة وغيره ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أشد الناس عذاباً يوم القيامة مَن كفر مِن أصحاب المائدة ، والمنافقون ، وآل فرعون ، ويذكر أن شمعون رأس الحواريين قال لعيسى عليه السلام حين رأى طعام المائدة : يا روح الله ، أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة ؟ قال عيسى عليه السلام : ألَم ينهكم الله عن هذه السؤالات ؟ هذا طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ، بل هو بالقدرة الغالبة ، قال الله له : كن فكان ، وروي أنه كان على المائدة بقول سوى الثوم والكرات والبصل ، وقيل : كان عليها زيتون وتمر وحب ورمان .

---

(١) قد يقال إن رأي الجمهور أرجح ، وما ذكره ابن عطية من أن الخبر مقرون بشرط ليس بلازم ، فإنما هو في الحقيقة حكم متفرع عما بعد الإنزال ، أو مترتب عليه ، والله قد وعَد ، والله لا يخلف وعده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول ـ فقال السدي وغيره : لمَّا رفع الله عيسى عليه السلام إليه قالت النصارى ما قالت ، وزعموا أن عيسى أَمرهم بذلك ، فسأَله تعالى حينئذ عن قولهم فقال : [سُبْحانَكَ] الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فيجيءُ [قال] على هذا متمكنة في المضي ، ويجيءُ قوله آخرا : ﴿وإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أَي بالتوبة من الكفر ، لأَن هذا قاله عيسى عليه السلام وهم أَحياءٌ في الدنيا .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، وجمهور الناس : هذا القول من الله إنما هو في يوم القيامة ، يقوله الله له على رؤُوس الخلائق ، فيرى الكفار تَبَرِّيه منهم ، ويعلمون أَن ما كانوا فيه باطل (١)

(١) قال القرطبي : « وهذا القول أصح ، ويدل عليه ما قبله من قوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ وما بعده ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ »،وعلى هذا تكون =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و [قال] ـ على هذا التأويل ـ بمعنى : يقول . ونزول الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأمر وثبوته ، وقوله آخرا : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ معناه : إن عذبت العالم كله فبحقك ، وإن غفرت وسبق ذلك في علمك فلأنك أهل لذلك ، لا معقب لحكمك ولا منازع لك . وليس المعنى أنه لابد من أن تفعل أحد هذين الأمرين ، بل قال هذا القول مع علمه بأن الله لا يغفر أن يشرك به ، وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسى ، وهو توقيف لهُ يتبيَّن منه بيان ضلال الضالين .

و [سُبْحَانَكَ] معناه : تنزيهاً لك عن أن يقال هذا وينطق به .

وقوله: ﴿ما يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ﴾ الآية نفيٌ يعضده دليل العقل ، فهذا ممتنع عقلا أن يكون لبشر محدث أن يدعي الألوهية ، وقد تجيءُ هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إمكانه ، ومنه قول الصديق رضي الله عنه : «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم» . ثم قال : ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فوفق الله عيسى عليه السلام لهذه الحجة البالغة . وقوله: ﴿تَعْلَمُ ما في نَفْسِي﴾

= (إذْ) في قوله: ﴿وإذْ قَالَ اللهُ﴾ بمعنى (إذا) كقوله تعالى: ﴿ولَوْ تَرَى إذْ فَزِعُوا﴾، وكما هي في قول أبي النجم :

ثُمَّ جزاهُ اللهُ عَني إذْ جَزَى جَنَّاتِ عَدْنٍ في السَّمواتِ العُلا

يعني : إذا جزى . وقال أبو عبيدة : إذ زائدة ، وقال صاحب «البحر» : والظاهر أنها على أصل وضعها ، وأن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع ، ولا يؤول بيقول .

بإحاطة الله به ، وخص النفس بالذكر لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات ، والمعنى : إن الله يعلم ما في نفس عيسى ويعلم كلَّ أمره مِمَّا عسى ألا يكون في نفسه ، وقوله: ﴿وَلا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ﴾ معناه : ولا أعلم ما عندك من المعلومات وما أحطت به . وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإيجاز ، وهذا ينظر من طرف خفي إلى قوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾[١] ، ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٢] ، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية ، إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة ، ثم أقر عليه السلام لله تعالى بأنه علام الغيوب ، والمعنى : ولا علم لي أنا بغيب فكيف تكون لي الألوهية ؟ ثم أخبر عما صنع في الدنيا وقال في تبليغه ، وهو أنه لم يتَعَدَّ أمر الله في أن أمرهم بعبادته وأقرَّ بربوبيته ، و [أنْ] في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب[٣] ، ويصح أن تكون بدلا من [ما][٤] ، ويصح أن تكون في موضع خفض على تقدير : بأن اعبدوا الله ، ويصح أن تكون بدلا من الضمير في [به] .

ثم أخبر عليه السلام أنه كان شهيداً ما دام فيهم في الدنيا . ف [ما] ظرفية .

---

(١) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران) .
(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .
(٣) وهي في هذا مثلها في قوله تعالى : ﴿وانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُم أَنِ امْشُوا﴾ .
(٤) في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿إلا ما أَمَرْتَني بِهِ﴾ ، أي : ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به وهو أن اعبدوا ... الخ .

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي : قبضتني إليك بالرفع والتصيير في السماءِ [١] ، والرقيب : الحافظ المراعي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه الآية ـ على قول من قال : «إن توقيف عيسى عليه السلام كان إثر رفعه» ـ مستقيمة المعنى ، لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياءٌ في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافون .

وهي ـ على قول من قال : «إن التوقيف هو يوم القيامة» ـ بمعنى : إن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق الملك ما شئت لا اعتراض عليك ، ﴿وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بتوبة كما غفرت لغيرهم فإنك أَنت العزيز في قدرتك ، الحكيم في أفعالك ، لا تُعارض

---

(١) قال الحسن : الوفاة في كتاب الله عزَّ وجلَّ على ثلاثة أوجه : وفاة الموت ، وذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ يعني وقت انقضاء أجلها . ووفاة النوم، قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذي يَتَوَفَّاكُمْ باللَّيْلِ﴾ يعني : الذي ينيمكم ، ووفاة الرفع ، قال الله تعالى : ﴿يا عيسى إنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ .

على حال ، فكأنه قال : إن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك ، وإن يكن مغفور لهم فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله .

وهذا عندي هو القول الأرجح[١] ويتقوى بما بعده ، وذلك أن عيسى عليه السلام لما قرر أن الله تعالى له أن يفعل في عباده ما يشاءُ من تعذيب ومغفرة أظهر الله لعباده ما كانت الأنبياءُ تخبرهم به كأنه يقول : هذا أَمْرٌ قد فرغ منه ، وقد خلص للرحمة من خلص ، وللعذاب من خلص ، فقال تبارك وتعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله تعالى ، وكل ما كان[٢] أتقى فهو أدخل في العبارة ، ثم جاءت هذه العبارة مشيرة إلى عيسى في حاله تلك وصدقه فيما قال فحصل له بذلك في الموقف شرف عظيم وإن كان اللفظ يعمُّه وسواه ، وذكر تعالى ما أعد لهم برحمته وطوله إلى قوله : ﴿ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾ .

---

(١) روى الإمام أحمد عن جسرة العامرية عن أبي ذرٌّ رضي الله عنه قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إنْ تُعَذِّبْهُم فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ، مازلت تقرأُ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إنِّي سألتُ ربِّي عز وجلّ الشَّفاعةَ لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً » . اهـ . ورواه النسائي عن أبي ذر أيضاً .

(٢) الظاهر أنه أراد أن يقول : « وكل من كان » ، ولكنه استعمل (ما) مكان (من) توسعا ، ويمكن أن تكون ما ظرفاً منصوباً لكن هذا يقتضي أن تكتب هكذا « وكلما كان أتقى » أي المؤمن .

وقرأَ نافع وحده : [هَذَا يَوْمَ] بنصب [يومَ] ، وقرأَ الباقون بالرفع على خبر المبتدأْ الذي هو [هذا] و [يَوْمُ] مضاف إلى [يَنْفَع]، والمبتدأُ والخبر في موضع نصب بأَنه مفعول القول ، إذ القول يعمل في الجمل ، وأَما قراءَة نافع فتحتمل وجهين : أَحدهما أَن يكون [يومَ] ظرفاً للقول ، كأَن التقدير : قال الله هذا القصص أَو الخبر يومَ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي معنى يزيل رصف الآية وبهاءَ اللفظ .

والمعنى الثاني أَن يكون ما بعد [قالَ] حكاية عما قبلها من قوله لعيسى إشارة إليه ، وخبر [هذا] محذوف إيجازاً ، وكأَن التقدير : قال الله هذا المقتص يقع أَو يحدث يومَ ينفع الصادقين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والخطاب ـ على هذا ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته ، وهذا أَشبه من الذي قبله ، والبارع المتوجه قراءَة الجماعة .

قال أَبو علي : ولا يجوز أَن تكون [يومَ] في موضع رفع على قراءَة نافع لأَن هذا الفعل الذي أُضيف إليه معرب ، وإنما يكتسى البناءَ من المضاف إليه إذا كان المضاف إليه مبنياً نحو: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ﴾(١) ، ولا يشبه قول الشاعر : (٢)

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (المعارج) : [يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدي مِنْ عَذَابِ يَوْمئذٍ بِبَنِيهِ] والشاهد فيها أن (يوم) أُضيف إلى مبني .

(٢) هو النابغة . وقبله يقول :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبرةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ ودامِعُ

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ عَلَى الصِّبا   وقلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازع؟ (١)

لأَن الماضي الذي في البيت مبني ، والمضارع الذي في الآية معرب .

وقرأ الحسن بن العباس الشامي : [هَذَا يَوْمٌ] بالرفع والتنوين .

وقوله تعالى: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمواتِ﴾ الآية – يحتمل أَن يكون مما يقال يوم القيامة ، ويحتمل أَنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته . وعلى الوجهين ففيه عضد ما قال عيسى : «إن تعذب الناس فإنهم عبادك» على ما تقدم من تأْويل الجمهور .

كمل تفسير سورة المائدة والله المستعان

وهو حسبي ونعم الوكيل

(١) أنشد هذا البيت الكسائي والشاهد فيه إضافة (حين) إلى الفعل وبنائها معه على الفتح . ومعنى (وازع) كافٌ وزاجرٌ عن الوقوع في الأخطاء و (على) بمعنى (في) .

والقضية في إعراب [يومَ] في قراءة نافع بالنصب أن الكوفيينَ يقولون : هو مبني على الفتح في محل رفع خبر لـِ [هذا] – وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية ، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة . أما البصريون فيقولون : لا يجوز ذلك إلا إذا كان الفعل المضاف إليه فعلا ماضياً كما في بيت النابغة ، أما إذا كان فعلا مضارعاً فلا يجوز لأنه معرب . وفي التفاسير المختلفة تخريجات كثيرة لهذه القراءة .

وهذا خلاف نحوي لا يجوز أن نحكم به على القرآن فنقوي قراءة ونضعف أُخرى تبعاً لآراء النحويين ، إنما نأخذ القراءة الصحيحة الثابتة على أنها أساسٌ يُعتمد عليه ولا يحتاج إلى تعليل نحوي يقويه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأنعام

قيل : هي كلها مكية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت بمكة ليلا جملةً إلا ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ في غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ (١) .

وقال الكلبي : الأَنعام كلها مكية إلا آيتيْن نزلتا بالمدينة في فنحاص اليهودي ، وهي (٢): ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذي جَاءَ بِهِ موسَى﴾

(١) أرقام هذه الآيات من هذه السورة هي على الترتيب المذكور كما يأتي : (١٥١) و (٩١) و (٩٣) و (٩٣) و (١١٤) و (٢٠) ــ ونلحظ أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ من آية واحدة هي الآية رقم (٩٣) من السورة ومع ذلك فإن الخبر المروي عن ابن عباس يعدُّ كلا منهما آية .

(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا . ولم يذكر الثانية لأنها مرتبطة بها .

مع ما يرتبط بهذه الآية ، وذلك أن فنحاصاً قال : «ما أنزل الله على بشر من شيء» .

وقال ابن عباس : نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك لهم زَجَل[١] يَجْأَرون بالتسبيح .

وقال كعب : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام [الحَمْدُ لله] إلى [يَعْدِلُونَ] ، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ ، وقيل : خاتمتها ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ إلى ﴿تَكْبِيراً﴾[٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الأنعام من نجائب القرآن[٣].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضى ربه[٤] .

---

(١) زَجَل : صوتٌ رفيع عال . والخبر أخرجه أبو عبيد ، وابن الضريس في فضائلهما ، والطبراني ، وابن مردويه ، (الدر المنثور ٢–٢١٤) .

(٢) وهي خاتمة سورة (الإسراء) .

(٣) نجائب القرآن ونواجبه : أفاضل سوره . عن «النهاية» لابن الأثير .

(٤) قال القرطبي : «قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة ، لأنها في معنى واحد في الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات تردّ على القدرية .»

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

هذا تصريح بأَن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأَجمعه ، لأَن الأَلف واللام في [الْحَمْد] لاستغراق الجنس ، فهو تعالى له الأَوصاف السنية ، والعلم والقدرة والإِحاطة والإِنعام ، فهو أَهل للمحامد على ضروبها ، وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأَنه على النعم .

ولما ورد هذا الإِخبار تبعه ذكر أَوصافه الموجبة للحمد وهي الخلق للسموات والأَرض قوام الناس وأَرزاقهم . و [الأَرض] هنا للجنس ، فإِفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها .

والبادي من هذا الترتيب أَن السماءَ خلقت من قَبْل الأَرض ، وقد حكاه الطبري عن قتادة ، وليس كذلك لأَن الواو لا ترتب المعاني ، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أَن الله تعالى خلق الأَرض ولم يَدْحها ، ثم استوى إِلى السماءِ فخلقها ، ثم دحا الأَرض بعد ذلك .

و[جَعَل] ها هنا بمعنى خَلَق ، لا يجوز غير ذلك ، وتأَمل لِمَ خصت السموات والأَرض بـ [خَلَقَ] والظلمات والنور بـ [جَعَلَ] [1] ؟

---

(١) وضح ذلك الزمخشري فقال : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التصْيير كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور ، ﴾ =

وقال الطبري : [جَعَل] هذه هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول : جعَلْتُ أَفعل كذا ، فكأَنه قال : وجعل إظلامها وإنارتها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا غير جيّد لأَن (جَعَل) إذا كانت على هذا النحو فلا بد أَن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أَفعال المقاربة ، كقولك : «كاد زيد يموت» «وجعل زيد يجيءُ ويذهب» ، وأَما إذا لم يرتبط معها فعلٌ فلا يصح أَن تكون تلك التي ذكر الطبري[1] .

وقال السدي ، وقتادة ، والجمهور من المفسرين : الظلمات : الليل ، والنور : النهار . وقالت فرقة : الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان .

= لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة،والنور من النار ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ . اه . وقال القرطبي : «الخَلْق يكون بمعنى الاختراع وبمعنى التقدير ، وكلاهما مراد هنا ، وذلك دليلٌ على حدوثهما» ، ثم قال : «وذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض» ، وكأنه يوحي بأن التعبير عن خلق الجواهر يكون بالفعل (خَلَق) ، وأن التعبير عن خلْق الأعراض يكون بالفعل (جَعَل) ، وإن كان لم يصرح بذلك .

(١) معنى ذلك أن (جَعَل) التي ذكرها الطبري من أفعال المقاربة التي تدخل على المبتدأ والخبر ، وأما (جَعَلَ) التي في الآية فإنَّها تعدَّت إلى مفعول واحد ، فهما متباينتان في المعنى والاستعمال . وقد قال الزمخشري : «جَعَلَ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ،وإلى مفعولَيْن إذا كان بمعنى صيَّر كقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ »—وقد تعقبه أبو حيَّان صاحب «البحر المحيط» في تمثيله لهذه الأخيرة فقال : «وما ذكره من أن (جَعَلَ) بمعنى صيَّر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ﴾ لايصح ، لأنهم لم يُصيِّروهم إناثاً ، وإنما قال بعض النحويين : إنها بمعنى سَمَّى» . اه . وحكى الثعلبي أن بعض أهل المعاني قال : (جَعَلَ) هنا زائدة ، والعرب تزيدها في الكلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بيِّن في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة ، وهذا هو طريق اللغز الذي برئ القرآن منه ، والنور أيضاً هنا للجنس فإفراده بمثابة جمعه [(١)] .

وقوله تعالى : [ثُمَّ] دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبيَّن ، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان ، أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني ؟ أي : بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثُمَّ) .

و [الَّذينَ كَفَرُوا] في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله ، قال قتادة : هم أهل الشرك خاصة ، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب ، إلا أن السابق من حال النبي صلى الله عليه وسلم أن الإشارة إلى عبدة الأوثان لمجاورتهم له ، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية[(٢)] ، ويقال : المانَنِيَّة العابدين للنور ،

---

(١) وهذا كقوله سابقاً : « والأرض هنا للجنس ... الخ » — ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا﴾ وقول الشاعر :

كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا ... فإنَّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خميصُ

أي : ذو مخمصة وجدب .

(٢) مذهب ينسب إلى رجل اسمه (ماني) ولد في ولاية مسين ببابل عام ٢١٥ أو ٢١٦ بعد ميلاد المسيح ، وقد أخذ عن النصرانية عقيدة التثليث ، وعن الزردشتية فكرة الأصلَيْن: =

القائلين : إن الخير من فعل النور ، وإن الشر من فعل الظلام ، وقول ابن أبزي : «إن المراد أهل الكتاب» بعيد .

و [يَعْدِلُونَ] معناه : يسوون ويمثلون ، وعدل الشيء قرينه ومثيله ، والمانوية مجوس ، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو : (القدرية مجوس هذه الأمة) [١] ، ومعناه الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس ، وموضع الشبه هو أن المجوس تقول : الأفعال خيْرها خلْق النور ، وشرُّها خلْق الظلمة ، فجعلوا خالقاً غير الله ، والقدرية تقول : الإنسان يخلق أفعاله ، فجعلوا خالقاً غير الله تعالى عن قولهم ، وذهب أبو المعالي إلى أن التشبيه بالمجوس إنما هو لقول القدرية : إن الخير من الله ، وإن الشر ليس منه ولا يريده ، وإنما قلنا في الحديث : «إنه تغليظ» لأنه قد صرَّح أنهم من الأمة ، ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يضفهم إلى الأمة ، وهذا كله إن لو صح الحديث ، والله الموفق .

= النور والظلمة ، وكان يعتقد بتناسخ الأرواح ، وللمانوية تنظيم دقيق ، وهيكل جماعتهم يقوم على خمس طبقات متسلسلة أهمها : أبناء العلْم ، وأبناء العقل ، وأبناءُ الفطنة ، وآخر الطبقات : «السماعون» وهم سواد الناس ، وقد لقي ماني مصرعه على يد بهرام – ارجع إلى كتاب «مروج الذهب للمسعودي» ١–٢٥١ وكتاب : «إيران في عهد الساسانيين» لكريستنس ص ١٧١ .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، والحاكم في مستدركه – عن ابن عمر ، وهو بتمامه : (القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) – قال عنه السيوطي في الجامع الصغير : «حديث صحيح» .

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ الآية ، قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : المعنى : خلق آدم من طين ، والبشر من آدم فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ . وحكى المهدوي عن فرقة أنها قالت : بل المعنى أن النطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها من طين ثم يقلبها الله نطفة ، وذكره مكي والزهراوي . والقول الأول أليق بالشريعة ، لأن القول الثاني إنما يترتب على قول من يقول بأن الطين يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة ، وذلك مردود عند الأصوليين .

واختلف المفسرون في هذين الأجلين ـ فقال الحسن بن أبي الحسن ، وقتادة ، والضحاك : [أَجَلاً] أجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته ، و (الأجل المسمى عنده) من وقت موته إلى حشره ، ووصفه بـ (مُسَمًّى) عنده لأنه استأثر بعلم وقت القيامة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [أَجَلاً] الدنيا و [أَجَلٌ مُسَمًّى] الآخرة . وقال مجاهد : [أَجَلاً] الآخرة ، و [أَجَلٌ مُسَمًّى] الدنيا ، بعكس الذي قبله ، وقال ابن عباس أيضاً : [أَجَلاً] وفاة الإنسان بالنوم ، و [أَجَلٌ مُسَمّي] وفاته بالموت . وقال ابن زيد : الأجل الأول هو في وقت أخذ الميثاق على بني آدم حين استخرجهم من ظهر آدم ، وبقي أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا . وحكى المهدوي عن فرقة : [أَجَلاً] ما عرف الناس من آجال الأهلة والسنين والكوائن ، و [أَجَلٌ مُسَمّى] قيام الساعة ، وحكى أيضاً

عن فرقة : [أَجَلاً] مسمى[١] : ما عرفناه من أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، و [أَجَلٌ مُسَمًّى] الآخرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وينبغي أن تتأمل لفظة [قَضَى] في هذه الآية فإنها تحتمل معنيَيْن ، فإن جعلت بمعنى : قدَّر وكتب ، ورجعت إلى سابق علمه وقدره فنقول : إن ذلك ولابد قبل خلقه آدم من طين ، وتخرج [ثُمَّ] من معهودها في ترتيب زمنَيْ وقوع القَضِيَّتَيْن ، ويبقى لها ترتيب زمنَيْ الإخبار عنه ، كأنه قال : أخبركم أنه خالقكم من طين ثم أخبركم أنه قضى أجلاً ، وإن جعلت [قَضَى] بمعنى : أوجد وأظهر ، ويرجع ذلك إلى صفة فعل فيصح أن يكون خلق آدم من طين قبل إظهار هذا الأجل وإبدائه ، وتكون [ثُمَّ] على بابها في ترتيب زمنَيْ وقوع القَضِيَّتَيْن .

و [تَمْتَرون] معناه : تشكُّون ، والمِرْيةُ : الشَّك .[٢]

وقوله : [ثُمَّ أَنْتُمْ] على نحو قوله : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ في التوبيخ على سوء الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج .

---

(١) هكذا بالنسخ التي بين أيدينا — ولفظة [مُسَمَّى] ليس لها موضع هنا لعلها من زيادة النساخ ، وكلمة [مُسَمًّى] معناها : معلوم ، و [عِنْدَه] يعني مذكور في اللوح المحفوظ ، أو هي مجاز عن علمه ولا يراد المكان .

(٢) من التماري على مذهب الشّك قوله تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى﴾ .

قوله عزَّ وجَلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله تعالى في الأَماكن مستحيل ، وكذلك مماسَّته للأَجرام أَو محاذاته لها أَو تحيُّزُه في جهة لامتناع جواز ذلك عليه تبارك وتعالى، فإذا تقرر هذا فبيِّن أَن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وفِي الأَرْضِ﴾ ليس على حدّ قولنا: «زيد في الدار» بل هو على وجه من التأْويل آخر ، قالت فرقة : ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنى ، كأَنه قال : وهو الله المعبود في السموات وفي الأَرض ، وعبَّر بعضهم بأَن قدَّر: هو الله المدبِّر للأَمر في السموات وفي الأَرض ، وقال الزجاج : [في] متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالى من المعاني ، كما يقال : «أَمير المؤْمنين الخليفة في المشرق والمغرب».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي أَفضل الأَقوال وأَكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى ، وإيضاحه أَنه أَراد أَن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أَي : الذي له هذه كلها في السموات وفي الأَرض ، كأَنه قال : وهو الخالق الرازق المحيي المحيط في السموات وفي الأَرض ، كما تقول :

زيد السلطان في الشام والعراق ، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالا ، وإذا كان مقصد قولك : زيد الآمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت (السلطانَ) مقام هذه كان فصيحاً صحيحاً ، فكذلك في الآية أقام لفظة [الله] مقام تلك الصفات المذكورة .

وقالت فرقة : [وَهُوَ اللهُ] ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده ، ثم استأْنف ، وتعلق قوله : [في السَّموات] بمفعول [يَعْلَم] ، كأَنه قال : وهو الله يعلم سرَّكم وجهرَكم في السموات وفي الأَرض ، فلا يجوز ـ مع هذا التعلُّق ـ أَن يكون [هُوَ] ضمير أَمر وشأْن لأَنه يرفع [الله] بالابتداء ، و [يَعْلَم] في موضع الخبر ، وقد فرَّق [في السَّموات وفي الأَرْض] بين الابتداء والخبر ، وهو ظرف غريب من الجملة ، ويلزم قائلي هذه المقالة أَن تكون المخاطبة بالكاف في قوله : ﴿سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ﴾ لجميع المخلوقين الإنس والملائكة ، لأَن الإنس لا سرَّ ولا جهر لهم في السماء ، فترتيب الكلام على هذا القول : «وهو الله يعلم يا جميع المخلوقين سركم وجهركم في السموات وفي الأَرض» .

وقالت فرقة: [وهُوَ] ضمير الأَمر والشأْن ، و ﴿اللهُ في السَّموات﴾ ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده ، ثم ابتدأَ ، كأَنه قال : «ويعلم في الأَرض سركم وجهركم»[1] ، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم

---

(١) هذا رأي أبي علي ، وقد علل أبو حيان هذا الاتجاه بقوله : « لأنه إذا لم يكن ضمير الشأن كان عائداً على الله تعالى فيصير التقدير : « الله الله » فينعقد مبتدأ وخبر من اسمين متحدين لفظاً ومعنى ولا نسبة بينهما إسنادية ، وذلك لا يجوز » اه .

مخاطبة الملائكة فهو مُخَلِّص من شبهة الكون في السماءِ بتقدير حذف (المعبود) أَو (المدبِّر) على ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكم وجَهْرَكُمْ ويَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ﴾ خبر في ضمنه تحذيرٌ وزَجْر، و [تَكْسِبُونَ] لفظ عامٌّ لجميع الاعتقادات والأَفعال والأَقوال .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ الآية . [مَا] نافية و [مِنْ] الأُولى هي الزائدة التي تدخل على الأَجناس بعد النفي ، فكأَنها تستغرق الجنس[1] ، و [مِن] الثانية للتبعيض ، والآيةُ : العلامة والدلالة والحجة ، وقد تقدم القول في وزنها في صدر الكتاب ، وتضمنت هذه الآية مذمَّة هؤلاءِ الذين يعدلون بالله سواه بأَنهم يُعرضون عن كل آية ترد عليهم ، ثم اقتضت الفاءُ في قوله [فَقَدْ] أَن إعراضهم عن الآيات قد أَعقب أَن كذبوا بالحق وهو محمد عليه الصلاة والسلام وما جاءَ به ، ثم توعدهم بأَن يأْتيهم عقاب استهزائهم ، و [مَا] بمعنى الذي ، ويصح أَن تكون مصدرية ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره : يأْتيهم مضمن أَنباءِ القرآن الذي كانوا به يستهزئُون ، وإن جعلت [ما] مصدرية فالتقدير : يأْتيهم نبأُ كونهم مستهزئين ، أَي : عِقاب يُخْبَرُونَ أَنه على ذلك الاستهزاءِ ، وهذه العقوبات التي تُوُعِّدوا بها تعم عقوبات الدنيا كبدر وغيرها وعقوبات الآخرة .

---

(١) معنى الزيادة أن ما بعد (من) معمول لما قبلها ، فتكون (آية) فاعلا بالفعل (تأتي) ، فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام كانت (مِنْ) لتأكيد الاستغراق نحو : «ما في الدار من أحد» ، وإن كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق ويجوز أن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت دالة على الاستغراق نحو : «ما قام من رجل».

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا حَضٌّ على العبرة ، والرؤْية هنا رؤْية القلب ، و [كَمْ] في موضع نصب بـ [أَهْلَكْنَا] .

والقرن : الأُمة المقترنة في مدة من الزمان ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (خير الناس قرني) الحديث[١] . واختلف الناس في مدة القرن ـ كم هي ؟ فالأَكثر على أَنها مائة سنة ، ويرجح ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَرَأَيْتُم ليلتكم هذه فإن على رأْس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأَرض أَحدٌ) قال ابن عمر رضي الله عنهما : يريد أَنها تخْرِم[٢] ذلك القرن ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بِشْر :[٣] (تعيش قرناً) فعاش مائة سنة .

(١) الحديث رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي عن ابن مسعود ، ونصه : (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) وفي بعض الروايات (خيركم)

(٢) بمعنى أنها تنهي ذلك القرن وتفنيه . والحديث في البخاري، وفي مسند الإمام أحمد.

(٣) هكذا في الأصول وضبطه محقق القرطبي (بُسْر) بالباء المضمومة والسين ، وعبد الله ابن بشر الحمصي ذكره البغوي في الصحابة ، وعبد الله بن بُسْر النصري ذكره أبو زرعة الدمشقي في الصحابة ، ولا نقطع بصحة الاسم خصوصاً وأن المصادر ذكرت أيضاً عبد الله بن بُسْر المازني ، ولم تحدد أي الثلاثة هو صاحب الحديث ، وروى ابن الأثير الحديث في النهاية : «أنه مسح على رأس غلام» ، ولم يذكر اسمه .

وقيل : القرن ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : ستون ، وتمسك هؤُلاءِ بالمعترك[١] ، وحكى النقاش أربعين ، وذكر الزهراوي في ذلك أَنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحكى النقاشُ أَيضاً ثلاثين ، وحكى عشرين ، وحكى ثمانية عشر . وهذا كله ضعيف ، وهذه طبقات وليست بقرون ، إنما القرن أَن يكون وفاة الأَشياخ ثم ولادة الأَطفال ، ويظهر ذلك من قوله تعالى : [ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ][٢] ، وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بها أَشار ابن الماجشون في «الواضحة» في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً ، وقيل : القرن الزمن نفسه ، وهو على حذف مضاف تقديره : «من أَهل قرن» ، والضمير في [مكَّنّاهمْ] عائد على القرن ، والمخاطبة في [لَكُمْ] هي للمؤْمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس ، فكأَنه قال : مالم نمكن يأَهل هذا العصر لكم ، فهذا أَبْيَن ما فيه ، ويحتمل أَن يقدر في الآية معنى القول لهؤُلاءِ الكفرة ، كأَنه قال : يا محمد قل لهم : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ، وإِذَا أَخبرت أَنك قلت لغائب أَو قيل له أَو أَمرت أَن يقال فَلَكَ في فصيح كلام العرب أَن تحكي الأَلفاظ المقولة بعينها فتجيءُ بلفظ المخاطبة ، ولك أَن تأْتي بالمعنى في الأَلفاظ بذكر غائب دون مخاطبة .

(١) إشارة إلى الحديث : « مُعتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » ، قال في الجامع الصغير : رواه الحكيم عن أبي هريرة ، ورمز له بالضعف .

(٢) الآية (٣١) من سورة (المؤْمنون) .

والسماءُ : المطر ، ومنه قول الشاعر :

إذا نَزَلَ السَّماءُ بِأَرْضِ قَومٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كانوا غِضَاباً(١)

و[مِدْرَاراً] بناءُ تكثير كمذكار ومئناث ، ومعناه : يدر عليهم بحسب المنفعة ، لأن الآية إنما سياقها تعديد النعم ، وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإهلاك ، وتحتمل الآية أن تُراد السماءُ المعروفة على تقدير : وأرسلنا مطر السماءِ لأن (مدراراً) لا يوصف به إلا المطر .

وقوله تعالى : [فَأَهْلَكْنَاهُمْ] معناه : فَعَصَوْا وكفروا فأهلكناهم . [وَأَنْشَأْنَا] اخترعنا وخلقنا ، وجمع [آخرينَ] حملا على معنى القرن .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

لما أَخبر عنهم عزَّ وجلَّ بأَنهم كذبوا بكل ما جاءَهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمّنه أَنه لو جاءَهم أَشنع مما جاءَ لكذبوا أَيضاً ، والمعنى : [لو نزلنا] بمرأى منهم [عليك كتاباً] أَي كلاماً مكتوباً [في قرطاس] ، أَي في صحيفة ، ويقال : قُرطاس بضم القاف ، [فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ] يريد أَنهم بالغوا في مَيْزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا : هذا سحر مبين .

---

(١) ينسب هذا البيت لمعوّد الحكماء — معاوية بن مالك — وسمّي بذلك لقوله :

أُعوِّد مِثْلها الحُكَماءَ بعْدي إذا ما الحَقُّ في الحدثان نابا

وقد روي البيت : « إذا سقط السَّماءُ » بدلا من « إذا نزل... » .

ويشبه أَن سبب هذه الآية اقتراح عبد الله بن أَبي أُمية وتَعَنُّته إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « لا أُومن لك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه : من ربِّ العزة إلى عبد الله بن أُمية ، يأْمرني بتصديقك ، وما أراني مع هذا كنت أُصدقك » ، ثم أَسلم بعد ذلك عبد الله وقتل شهيداً في الطائف .

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية حكاية عمن تَشَطَّط من العرب بأَن طلَبَ أَنْ ينزل مَلَك يُصدق محمداً في نبوته ، ويعلم عن الله عزَّ وجلَّ أَنه حق ، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾، وقال مجاهد : معناه : لقامت القيامة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقال قتادة ، والسدي ، وابن عباس رضي الله عنهما : في الكلام حذف تقديره : ولَوْ أَنزلنا ملكاً فكذبوا به لقضي الأَمر بعذابهم ولم يُنْظروا حسبما سلف في كل أُمة اقترحت بآية وكذبت بعدأَن أُظهرت إليها ، وهذا قول حسن .

وقالت فرقة : [لَقُضِيَ الأَمْرُ] أَي : لماتوا من هوْل روْية المَلَك في صورته ، ويُؤَيد هذا التأْويل ما بعده من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ فإن أَهل التأويل مجمعون على أَنَّ ذلك لأَنهم لم يكونوا يطيقون روْية المَلَك في صورته ، فالأَوْلى في قوله: ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أَي : لماتوا من هول روْيته .

و [يُنْظَرُونَ] معناه : يُؤَخَّرون ، والنظرة : التأْخير .

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ الآية ــ. المعنى: إنا لو جعلناه مَلَكاً لجعلناه ولابُدَّ في خَلْق رجل لأَنهم لا طاقة لهم على رؤية المَلَك في صورته، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يؤَيد هذا المعنى الحديثُ الوارد عن الرجلين اللَّذيْن صعدا على الجبل يوم بدر ليريا ما يكون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين فسمعا حسّ الملائكة وقائلا يقول في السماء: «أَقدم حيزوم»[١] فمات أَحدهما لهول ذلك، فكيف برؤْية ملَك في خلقته؟ ولا يُعارَض هذا برؤْية النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام وغيره في صورهم لأَن النبي عليه الصلاة والسلام أُعطي قوة غير هذه كلها[٢]. صلى الله عليه وسلم.

[وَلَلَبَسْنَا] أَي: لخلطنا عليهم ما يخلطون به على أَنفسهم وعلى ضعفتهم، أَي: لفعلنا لهم في ذلك ملْبساً يُطَرِّق لهم[٣] إلى أَن يلبسوا به، وذلك لا يحسن. ويحتمل الكلام مقصداً آخر، أَي: للبسنا نحن عليهم كما يلبسون على ضعفتهم، فكنا ننهاهم عن التلبيس ونفعله

---

(١) حَيْزُوم: فرس جبريل عليه السلام، وأَقدم بفتح الهمزة هو أمر بالإقدام، وهو التقدم في الحرب. والإقدام الشجاعة، وقد تكسر همزة إقدم، ويكون أمراً بالتقدم لاغير، والصحيح الفتح من أَقدم. قاله ابن الأثير في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(٢) يريد: غير قوة البشر، وقد وضح ذلك أبو حيان في «البحر» حين نقل عبارة ابن عطية هذه.

(٣) يريد: يُسَهِّل لهم السير في هذا الأمر، يقال: طرَّق طريقاً بمعنى: سهَّله حتى طرقه المارة، وطرَّق له: جعَل له طريقاً ــ «المعجم الوسيط».

بهم ، ويقال : لَبَس الرجل الأَمر يلبِسه لبساً إذا خلطه . وقرأ ابن محيصن : [ولَبَّسنا] بفتح اللام وشد الباء .

وذكر بعض الناس في هذه الآية أنها نزلت في أهل الكتاب ، وسياق الكلام ومعانيه يقتضي أنها في كفار العرب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قرئ : [ولَقَدُ] بضم الدال للضمة بعد الساكن الذي بعد الدال ، وقرى بكسر الدال على عرف الالتقاء . وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بالأُسوة في الرسل ، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين ، وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين .

و [حاق] معناه : نزل وأحاط ، وهي مخصوصة في الشر ، يقال : حاق يحيق حيْقاً ، ومنه قول الشاعر :

فَأَوْطَأَ جُرْدَ الخيْل عُقْر ديارِهم وحاقَ بِهِمْ مِن بأْس ضبَّةَ حائِقُ [1]

---

(١) لم نعثر على قائل هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا ، ولم يستشهد به من المفسرين إلا صاحب « البحر المحيط » ، والفرس الأجرد : القصير الشعر ، وإذا وصف بذلك فالمعنى أنه سبَّاق ، وعقر الدار : وسَطُها . والحَيْقُ : ما حاق بالإنسان من مكر أو سوءِ عمل يعمله =

وقال قوم : أَصل حاق : حق فبدلت القاف الواحدة كما بدلت النون في : تظنَّنت [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

و [ما] في قوله : ﴿مَا كَانُوا﴾ يصح أَن تكون بمعنى الذي ، ويصح أَن تكون مع الفعل بتأْويل المصدر كأَنه قال : استهزاؤُهم . وهذه كناية عن العقوبة كما تهدد إنساناً فتقول : سيلحقك عملك ، والمعنى : عاقبته . و [سَخِروا] معناه : استهزؤُوا .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ الآية حضٌّ على الاعتبار بآثار من مضى مِمَّن فعل فعلهم ، وقال : [كان] ولم يقل : (كانت) لأَن تأْنيث العاقبة ليس بحقيقي ، وهي بمعنى الآخِرِ والمآل .

ومعنى الآية : سيروا وتَلَقَّوا ممن سار ، لأَن تحصيل العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى حِسِّ العيْن .

= فينزل ذلك به، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ،ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه : «أخرجني ما أجد من حاقِ الجوع» ، وحديث علي كرم الله وجهه : «تخوَّفْ من الساعة التي من سار فيها حاق به الضُّرُّ» .

(١) فقيل فيها : تظنَّيْتُ ــ وقد قال ابن عطية : «وهذا ضعيف» لأنها دعوى لادليل على صحتها كما قال أبو حيَّان في «البحر» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

قال بعض أهل التأْويل : في الكلام حذف تقديره : ﴿قُلْ لِمَنْ مَا في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ؟ فإذا تَحيَّروا ولم يجيبوا ﴿قُلْ لِلهِ﴾ . وقالت فرقة : المعنى أَنه أَمر بهذا السؤال فكأَنهم لَمَّا لم يُجيبوا ولا تيقنوا سأَلوا فقيل له : [قُلْ لِلهِ] . والصحيح أَن الله عزَّ وجلَّ أَمر محمداً عليه الصلاة والسلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أَحد ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه ، وجاءَ ذلك في لفظ استفهام وتقرير في قوله: ﴿لِمَنْ مَا في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ . والوجه في المحاجة إذا سأَل الإنسان خصمه بأَمر لا يدافعه الخصم فيه أَن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة ، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه : كيف قال الله في كذا ؟ ثم تسبقه أَنت إلى الآية فتنصُّها عليه ، فكأَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : يأَيُّها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السموات والأَرض ؟ ثم سبقهم فقال : لِله ، أَي : لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أَحد .

ثم ابتدأ يخبر عنه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معناه: قضاها وأنفذها ، وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تتضمن كتب الرحمة ، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة وجميع الناس في الدنيا ، منها : (إن الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض ، فبها تتعاطف البهائم ، وترفع الفرسُ رجلها لئلا تطأ ولدها ، وبها تتعاطف الطير والحيتان ، وعنده تسع وتسعون رحمة ، فإذا كان يوم القيامة صيّر تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثّها في عباده) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فما أشقى من لم تَسَعْهُ هذه الرحمات ، تغمدنا الله بفضل منه .

ومنها حديث آخر : (إن الله عزّ وجلّ كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي) (٢) ويروى (نالت غضبي)

---

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والبيهقي في الأسماء والصفات – عن سلمان مع اختلاف في الألفاظ ، وأخرج مثله عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم – عن سلمان أيضاً ، ونصه : (إنّا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض ، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون ، وبها تحن الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تَيْعَر الشاةُ (أي : تصيح) ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع) . (الدر المنثور – وفتح القدير) .

(٢) هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من طريق الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة . (الدر المنثور – وفتح القدير وابن كثير) .

ومعناه : سبقت ، وأنشد عليه ثابت بن قاسم :

أَبَنِي كُلَيْب إِنَّ عَمَّيا اللَّذا نالا المُلُوكَ وفَكَّكَا الأَغْلالا [(١)]

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا ، وأن باب توبتهم مفتوح . قال الزجاج : الرحمة هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا ، وحكى المهدوي أن جماعةً من النحويين قالت : إن [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] هو تفسير الرحمة ، تقديره : «أن يجمعكم» فيكون [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] في موضع نصب على البدل من [الرَّحْمَةِ] ، وهو مثل قوله : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِين﴾[(٢)] المعنى : «أن يسجنوه» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يلزم على هذا القول أن تدخل النون الثقيلة في الإيجاب وهو مردود ، وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القَسم[(٣)] .

---

(١) فهو يصفها بأنهما سبقا الملوك في الشجاعة والكرم .

(٢) الآية (٣٥) من سورة (يوسف) .

(٣) قال أبو حيان تعليقاً على رأي ابن عطية هذا : «وهذا الذي ذكره لا يحصر مواضع دخول نون التوكيد،ألا ترى دخولها في الشرط وليس واحدا مما ذكر نحو قوله تعالى: ﴿وإمّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ، وكذلك قوله : «وباختصاص من الواجب في القسم» ليس على إطلاقه، بل له شروط ذكرت في علم النحو.» اهـ . (البحر المحيط ٤-٨٢) .

وقالت فرقة (وهو الأَظهر) : إن اللام لام قسم والكلام مستأْنف، ويتخرج ذلك في : [لَيَسْجُنُنَّهُ] . وقالت فرقة : [إلى] بمعنى (في) . وقيل : على بابها غاية ، وهو الأَرجح .

و [لا رَيْبَ فيه] أَي : هو في نفسه وذاته لا ريب فيه .

وقوله تعالى : ﴿الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية... قيل: إن [الَّذينَ] منادى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهو فاسد لأَن حرف النداءِ لا يسقط مع المبهمات .

وقيل : هو نعت [المُكَذِّبينَ] الذين تقدم ذكرهم . وقيل : هو بدلٌ من الضمير في [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] ، قال المبرد : ذلك لا يجوز كما لا يجوز : «مررت بك زيد» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله في الآية : [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] مخالف لهذا المثال ، لأَن الفائدة في البدل مترقبة من الثاني ، وإذا قلت : «مررت بك زيد» فلا فائدة في الثاني ، وقوله : [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا [الَّذين] من الضمير أَنهم همُ المختصون بالخطاب هنا ، وخُصوا على جهة الوعيد ، ويتضح فيها الوعيد إذا جعلنا (اللام) للقسم وهو القول الصحيح ، ويجيءُ هذا بدلُ البعض من الكل[١] .

---

(٢) القول بأَن [الَّذين خَسِرُوا ...] بدل من الضمير في [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] هو قول الأخفش — وقد ردّه المبرد ودليله على ذلك أن البدل من ضمن الخطاب لايجوز كما لايجوز في قولك : «مررت بك زيد»، وجاء ابن عطية فردّ كلام المبرد بالتفرقة بين الآية وبين المثال =

وقال الزجاج : [الَّذينَ] رفع بالابتداءِ وخبره [فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ] وهذا قول حسن ، والفاءُ في قوله : [فَهُمْ] جواب على القول بأَن [الَّذينَ] رفع بالابتداءِ لأَن معنى الشرط حاصِلٌ تَقديره : «مَن خَسِرَ نفسه فهو لا يؤْمن» .

وعلى القول بأَن [الَّذين] بدلٌ من الضمير هي عاطفة جملة على جملة ، و [خَسِرُوا] معناه : غبنوا أَنفسهم بأَن وجب عليها عذاب الله وسخطه ، ومنه قول الشاعر :

لا يأْخُذ الرِّشْوَةَ في حُكْمِهِ ولا يُبَالي غَبَنَ الخَاسِرِ (١)

= الذي ذكره المبرد، وحجته أن الفائدة من البدل عادة تكون مترقبة من الثاني وهذا لا يتحقق في مثال المبرد ، لكنه يتحقق في الآية كما شرحه ابن عطية ، وجاء أبو حيان فناقش ابن عطية بقوله ما معناه : كلامه يقتضي أن يكون بدل بعض من كل كما ذكر ويحتاج إذ ذاك إلى ضمير يمكن تقديره : «الذين خسروا أنفسهم منهم» ، وقوله : «إن البدل يفيدنا أنهم هم المختصون بالخطاب ، وخُصُّوا على جهة الوعيد» يقتضي أن يكون بدل كل من كلٍّ ، وفي هذا تناقض . ولنا أن ندافع عن ابن عطية فنقول : إذا كان قوله تعالى : [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] يصلح لمخاطبة الناس كافة فإنه يصلح أيضاً لمخاطبة الكفار المستهزئين تبعاً لسياق الآيات ، فإن جعلناه خطاباً لجميع الناس كان [الذين خسروا] بدل بعض من كل ، وإن جعلناه خطاباً للكفار المستهزئين فقط كان بدل كل من كل ، ولا تناقض . والله أعلم . وابن عطية قال : «يصلح» ولم يقل : «يجب أن يكون خطاباً لجميع الناس» .

(١) هذا البيت للأعشى من قصيدة قالها يهجو علْقمة بن عُلاثه ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والبيت في مدح الحكَم الذي كان يحكم بين المتنافرين ، ومطلع القصيدة :

شاقَتْكَ مِن قَتْلَةَ أَطْلالُهَا بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حاجِر

قال صاحب اللسان : «الغَبْن بالتسكين في البيع ، والغَبَن بالتحريك في الرأي» ، ثم قال : وقد حُكي غير ذلك .

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ الآية . [وَلَهُ] عطف على قوله : [لِلَّهِ] ، واللام للملك ، و [مَا] بمعنى : الذي ، و [سَكَنَ] هي من السكنى ونحوه ، أي : ما ثبت وتقرر ، قاله السدي وغيره . وقالت فرقة : هو من السكون ، وقال بعضهم : لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط ، والمقصد في الآية عموم كل شيءٍ ، وذلك لا يترتب إلَّا أن يكون [سَكَنَ] بمعنى : استقر وثبت ، وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن ، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان ، والليلُ والنهارُ حاصران للزمان .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هاتان صفتان تليقان بنَمَط الآية من قِبَلِ أن ما ذكر من قَبْلُ من الأقوال الرَّديَّة عن الكفرة العادلين هو سميع لها ، عليم بمواقعها ، مجازٍ عليها ، ففي الضمير وعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

قال الطبري وغيره : أُمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دَعوْه إلى عبادة أوثانهم ، فتجيءُ الآية ــ على هذا ــ جواباً لكلامهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل يحتاج إلى سند في أن هذا نزل جواباً ، وإلا فظاهر الآية لا يتضمنه ، والفصيح هو أنه لما قرر معهم أن الله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ، وأنه [سميع عليم] أُمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف : أغير هذا الذي هذه صفاته أتخذ وَلِيّاً ؟ بمعنى أن هذا خطأٌ لو فعلتُه بيّن ، وتُعطي قوة الكلام أن من فعله من سائر الناس بيِّنُ الخطإ ، و [أَتَّخِذُ] عاملٌ في قوله : [أَغَيْرَ] وفي قوله : [وَلِيّاً] تقدم أحد المفعولين .

والوليُّ لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأسباب الواصلة بين العبد وربّه . ثم أخذ في صفات الله تعالى فقال : [فاطِرِ] بخفض الراءِ نعت لله تعالى ، وفَطَر معناه : ابتدع وخلقَ وأنشأَ ، وفَطَر أيضاً في اللغة : شقَّ ، ومنه : ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور﴾(١) أي : مِنْ شقوق ، ومن هذا انفطار السماءِ ، وفي هذه الجهة يتمكن قولهم : « فَطَر نابُ البعير » إذا خرج لأنه يشق اللِّثة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنتُ أعرف معنى : [فَاطِرِ السَّمواتِ] حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتُها ، أي : اخترعتها وأنشأْتها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فحمله ابن عباس على هذه الجهة ، ويصح حمْلُه على الجهة الأُخرى أنه شقَّ الأرض والبئر حين احتفرها . وقرأَ ابن أبي عبلة : [فاطِرُ] برفع الراءِ على خبر ابتداءٍ مضمر ، أو على الابتداءِ .

(١) من الآية (٣) من سورة (الملك) .

و ﴿يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ المقصود به : يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ ، وخصَّ الإطعام من أَنواع الرزق لِمَسِّ الحاجة إليه وشهرته واختصاصه بالإنسان . وقرأ يمان العماني ، وابن أَبي عبلة : [يُطْعِمُ] بضم الياءِ وكسر العيْن في الثاني مثل الأَول ، يعني الوثن أَنه لا يُطعِم . وقرأ مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والأَعمش ، وأَبو حيوة ، وعمرو بن عبيد ، وأَبو عمرو بن العلاءِ في رواية عنه في الثاني : [ولا يَطْعَم] بفتح الياءِ على مستقبل (طَعِم) ، فهي صفة تتضمن التبرية ، أَي : لا يأْكل ولا يشبه المخلوقين .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ ...﴾ إلى [عَظِيم] قال المفسرون: المعنى : أَول من أَسلم من هذه الأُمة وبهذه الشريعة ، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك ، قالت طائفة : في الكلام حذف تقديره : وقيل لي : ولا تكن من المشركين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتلخيص الكلام في هذا أَنه عليه الصلاة والسلام أُمر فقيل له : «كن أَول من أَسلم ولا تكونن من المشركين» ، فلما أُمِرَ في الآية أَن يقول ما أُمر به جاءَ بعض ذلك على المعنى وبعضه باللفظ بعينه . ولفظة [عَصَيْت] عامة في أَنواع المعاصي ، ولكنها ها هنا إنما تُشير إلى الشرك الذي نُهي عنه . واليوم العظيم هو يوم القيامة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : [مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ] بضم الياءِ وفتح الراءِ ، والمفعول الذي أُسند إليه الفعل هو الضمير العائد على العذاب ، فهو مُقَدَّر . وقرأ حمزة ،

والكسائي ، وعاصم أيضاً : [مَنْ يَصْرِفُ عنه] فيسند الفعل إلى الضمير العائد إلى [رَبِّي] ويعمل في ضمير العذاب المذكور آنفاً لكنه مفعول محذوف ، وحكي أنه ظهر في قراءة عبد الله وهي : [مَنْ يَصْرِفه عنْهُ يَوْمَئِذٍ] ، وفي قراءة أُبي بن كعب : [مَنْ يَصْرِفْه الله عَنْه] ، وقيل : إنها [مَنْ يَصْرِف اللهُ عنْهُ] ، قال أبو علي : وحذف هذا الضمير لا يَحْسُن كما يَحْسُن حذف الضمير من الصلة كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿أَهَذَا الَّذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾(١) ، وكقوله: ﴿وسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(٢) معناه: بعثه . واصطفاهم - فَحَسُن هذا للطول كما علَّله سيبويه ، ولا يحسُن هذا لعدم الصلة ، قال بعض الناس : القراءة بفتح الياءِ من [يَصْرِفْ] أَحسن لأَنه يناسب [فَقَدْ رَحِمَهُ] ، وكأَن الأَولى على القراءة الأُخرى [فَقَدْ رحِمَ] ليتناسب الفعلان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا توجيه لفظيٌّ تعلقه خفيف ، وأَما بالمعنى فالقراءتان واحد ، ورجَّح قوم قراءة ضمّ الياءِ لأَنها أَقلُّ إضماراً ، وأَشارَ أَبو علي إلى تحسين القراءة بفتح الياءِ بما ذكرناه ، وأَما مكي بن أَبي طالب رحمه الله فتخبط في كتاب «الهداية» في ترجيح القراءة بفتح الياءِ ، ومثل في احتجاجه بأَمثلة فاسدة ، والله ولي التوفيق (٣) .

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان) .

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النمل) .

(٣) كثير من العلماء يرفضون ترجيح قراءة على قراءة ، قال أبو حيَّان الأندلسي تعليقاً على ما نقله ابن عطية هنا : «وقد تقدم لنا غير مرة أنا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين» . وحكى أبو عمرو الزاهد في كتاب «اليواقيت» أن أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبا كان لا يرى الترجيح =

و (رَحِمَ) عامل في الضمير المتصل وهو ضمير [مَنْ] ومستند إلى الضمير العائد إلى [رَبِّي]، وقوله : [وَذَلِكَ] إشارةٌ إلى صرف العذاب وإلى الرحمة والفوز والنجاة .

قوله عزّ وجلّ :

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

[يَمْسَسْكَ] معناه : يُصبْك ويَنَلْك ، وحقيقة المسّ هي بتلاقي جسميْن ، فكأَن الإِنسان والضُّرّ يتماسّان .

والضُّرّ بضم الضّاد : سوءُ الحال في الجسم وغيره . والضَّر بفتح الضاد : ضدُّ النَّفع ، وناب الضُّرُّ في هذه الآية مناب الشَّرِّ ـ وإن كان الشَّرُّ أَعم منه ـ فقابل الخيْر ، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة ، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيءُ مقترناً بالذي يختص به بنوع من أَنواع الاختصاص موافقة أَو مضادة ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ

= بين القراءات السبع ، ونقل أبو حيان عن ثعلب أنه قال: « إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أُفضل إعراباً على إعراب في القرآن ، فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى » ، ثم قال أبو حيان : « ونعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالماً بالنحو واللغة متديناً ثقة ».

لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[١] فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظمإ ، ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَواداً لِلَــذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ[٢]

وهذا كثير .

---

(١) الآيتان (١١٨ ، ١١٩) من سورة (طه) – وقد قال بعض العلماء : إنّ الجامع بين الجوع والعري هو اشتراكهما في الخلو ، فالجوع : خلو الباطن ، والعري : خلو الظاهر ، والجامع بين الظمأ والضحاء اشتراكهما في الاحتراق ، فالظمأُ ، احتراق الباطن ، ألا ترى إلى قولهم : برَّد الماءُ حرارة جوفي ؟ والضحاءُ : احتراق الظاهر ، وانظر كيف بدأت الآية بخلو الباطن ثم ثنت بخلو الظاهر ، ثم فعلت نفس الشيء في الاحتراق حيث بدأت باحتراق الباطن ثم ثنت باحتراق الظاهر .

(٢) ركوب الجواد يكون للذة الصيد ، وقد يكون للمتعة بالركوب نفسه . والكاعب : الفتاة التي كعَبَ ثديها ، أي : برز ونهد فصار كالشيء المكعب المرتفع . والخلْخال : حلية كالسوار تلبسها النساءُ في أرجلهن ، وجمعه : خلاخيل ، و « ذات خلخال » : كناية عن المرأة التي تستعمل الحليّ لأنها من بيت غني ، أو لأنها تحب استعمال الزينة . وتبطن الكاعب : باشرها وجامعها ، وقيل : تبطن : باشر بطنُه بطنها . والزق : وعاءٌ من جلد يُجَزّ شعره ولا ينتف للشراب وغيره ، والجمع : أزقاقٌ وزقاقٌ ، وسبأَ الزق : اشترى خمرها ليشربها . والرَّوِيّ : الكثير الخمر حتى يُشبع . والكَرُّ : معاودة الهجوم على العدو بعد الفرار ، والإجفال : الإسراع ، مصدر أجفل بمعنى : مضى مسرعاً .

يتذكر امرؤ القيس في هذين البيتين شبابه وما كان فيه من لذات ونفع ، ويتحسر على ذلك بعد أن كبرت سنُّه وتغيرت أحواله فيقول : لقد ذهب كل هذا فكأني لم أكن فارساً أتمتع بركوب الجياد وأسعى بها للصيد ، ولم أتمتع بالكاعب المنعمة بالحليّ ، ولم أشتر الخمر لأشربها ، ولم يكن مني كرٌّ على العدوّ بعد هزيمة أو فــرار .

هذا وقد قال بعض النقاد : كان من المنطقي أن يكون النصف الثاني من البيت الثاني مع النصف الأول من البيت الأول لأن الكلام فيهما عن الجياد وركوبها، ومن المعقول أن يكون =

قال السدي : الضُّرُّ هَا هنا : المرض ، والخيرُ : العافية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثال ، ومعنى الآية الإخبارُ عن أن الأشياء كلها بيد الله ، إن ضرَّ فلا كاشف لِضُرِّه غيرُه ، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا رادَّ له ولا مانع منه ، هذا تقرير الكلام ، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظاً أعم منه يستوعبه وغيره وهو قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ودلَّ ظاهر الكلام على المقدر فيه ، وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي : على كل شيءٍ جائز أن يوصف الله تعالى بالقدرة عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الآية . أي : وهو عزَّ وجلَّ المستولي المقتدر ، و [فَوْقَ] نصب على الظرف لافي المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ [القاهر] كما تقول : زيد فوق عمرو في المنزلة . وحقيقة (فوق) في الأماكن ، وهي في المعاني مستعارة شبه بها من هو أَرْفَعُ

= الحديث عن الكرّ في المعركة مع الحديث عن ركوب الخيل للصيد ، وكذلك من المنطقي أن يجمع بين الخمر والتمتع بالنساء فيجعل النصف الثاني من البيت الأول مع النصف الأول من البيت الثاني ، ولكن امرأ القيس عدل عن ذلك إلى شيءٍ آخر دلّ على براعة وحذق ، فالجامع في البيت الأول بين الركوب للذة الفروسية أو لذة الصيد والركوب للذة المباشرة الجنسية هو اشتراكهما معاً في لذة الاستعلاء والاقتناص والظفر والقهر والسيطرة على الفَرَس والصَّيْد ، أو على المرأة . والجامع في البيت الثاني بين شراء الخمر للشرب والكَرّة بعد الهزيمة اشتراكهما في البذل ، فشراء الخمر فيه بذل للمال ، والكَرُّ بعد الهزيمة فيه بذل للروح ، ثم قالوا : وما أحسن تعقل امرئ القيس وتدرجه في بيته حيث انتقل من الأدنى إلى الأعلى لأن الظفر بجنس الانسان (المرأة) أعلى وأشرف وأحب إلى الفرسان من الظفر بجنس الحيوان (الصيد) أو (الفرس) نفسه ، ولأن بذل الروح أعظم من بذل المال .

رتبةً في معنى ما لمَّا كانت في الأَماكن تنبئ حقيقة عن الأرفع[(١)] .
وحكى المهدوي أنها بتقدير الحال كأنه قال : وهو القاهر غالباً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يسلم من الاعتراض أَيضاً ، والأَول عندي أصوب .

والعباد بمعنى العبيد ، وهما جمعان للعَبْد ، أَما إنا نجد ورود لفظة (العباد) في القرآن وغيره في مواضع تفخيم أَو ترفيع أَو كرامة ، وورود لفظة (العبيد) في تحقير أَو استضعاف أَو قصد ذمٍّ ، أَلا ترى قول امرئ القيس :

قُولا لِدُودانَ عَبيدِ ٱلْعَصَـــــا . . . . [(٢)]

---

(١) هذا هو رأي الجمهور فقد ذهبوا إلى أن الفوقية هنا مجاز — ثم قال بعضهم : هو فوقهم بالإيجاد والإعدام ، وقال بعضهم : هو على حذف مضاف معناه : فوق قهر عباده بوقوع مراده دون مرادهم ، وقال الزمخشري : هو تصوير للقهر والغلبة والقدرة كقوله: ﴿ وإنَّا فوقَهُم قاهرون ﴾ (١٢٧) — الأعراف . وقال أبو حيان : العرب تستعمل (فوق) إشارة لعلوّ المنزلة وشفوفها على غيرها من الرتب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهم ﴾ (١٠) — الفتح .

(٢) البيت بتمامه :

قُولا لِدُودانَ عَبيدِ الْعَصَــا   ما غَرَّكُمْ بالأَسَـدِ الْبَاسِـلِ؟

و (دودان) قبيلة بني أَسد ، وكان أَبو امرئ القيس إذا غضب على أَحد منهم أمر بضربه بالعصا ، فسمُّوا : عبيد العصا ، وأَراد « بالأسد الباسل » أَباه ، وقيل : أَراد نفسه .

والبيت من قصيدة مطلعها :

يا دار مـــا ويَّـــةَ بالحـــائل   فالسَّهْب فالْخَبْتَيْنِ من عاقــل

وكل من حائل وعاقل جبل — والسهب والخبتان موضعان في جبل عاقل الذي كان ينزله حجر والد امرئ القيس .

ولا يستقيم أن يقال هنا : عباد العصا ، وكذلك الذين سموا العباد لا يستقيم أن يقال لهم : العبيد لأنهم أفخم من ذلك ، وكذلك قول حمزة رضي الله عنه : «وهل أنتم إلا عبيد لأبي» ؟ لا يستقيم فيه عباد [1] .

و[الحكيمُ] بمعنى المحكم ، و [الخَبيرُ] دالَّة على مبالغة العلم ، وهما وصفان مناسبان لنمط الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

[أيّ] استفهام ، وهي معربة مع إبهامها ، وإنما كان ذلك لأنها تلتزم الإضافة ، ولأنها تتضمن عِلْم جزءٍ من المستفهم عنه غير معيّن ،

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني : «أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس ، و (العباد) لله ، قال تعالى: ﴿إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ (٤٢) — الحجر . وقال تعالى : ﴿يا عِبادِ فاتَّقُون﴾ (١٦) — الزُّمَر ، وهو كثير ، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيد﴾ (٤٦) — فصلت . ومن أبيات الكتاب :

أَتُوعِدُني بِقَوْمِكَ يابْنَ حَجْلٍ أُشَابَاتٍ يُخَالُون العِبَادَا ؟
بمَا جَمَّعْتَ مِنْ حَضَنٍ وعَمْرو وما حَضَنٌ وعَمْرٌو والجِيادا ؟

أي : «يُخالون عبيدا» اهـ . المحتسب ٢—١٤ . وأما قول حمزة رضي الله عنه فقد سبق الكلام عنه .

لأنك إذا قلت : «أي الرجلين جاءنا» ؟ فقد كنت تَعْلَمُ أن أحدهما جاءَ غير معين ، فأخرجها هذان الوجهان عن غمرة الإبهام فأُعربت .

وتتضمن هذه الآية أن الله تعالى يقال عليه : شيءٌ ، كما يقال عليه : موجود ، ولكن ليس كمثله تبارك وتعالى شيءٌ [١].و [شَهَادَةً] نصب على التمييز ، ويصح على المفعول بأن يحمل [أَكْبَرُ] على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل .

وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنْ ما في السَّموات والأَرضِ قُلْ لِلهِ﴾ [٢] في أن استفهم على جهة التوقيف والتقدير ثم بادر إلى الجواب إذ لا تتصور فيه مدافعة ، وهذا كما تقول لمن تخاصمه وتتظلم منه : من أقدر من في البلد ؟ ثم تبادر وتقول : السلطان فهو يحول بيننا ، ونحو هذا من الأَمثلة [٣] ، فتقدير الآية أنه قال لهم :

---

(١) قال الزمخشري : «الشيءُ أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه ، فيقع على القديم والمحدث ، والجوهر والعَرَض ، والمحال والمستقيم ، ولذلك صحَّ أن يقال في الله عز وجلّ : شيءٌ لا كالأشياء ، كأنك قلت : معلوم لا كسائر المعلومات». والجمهور متفق على أنه يجوز إطلاق كلمة (شيء) على الله عزّ وجلّ إلا الجَهْم فقد قال : «لا يجوز أن يطلق على الله شيءٌ لقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيلزم من إطلاق شيءٍ عليه أن يكون خالقاً لنفسه وهو محال» ، وقد ذكر أدلة أُخرى تجدها في «البحر المحيط» كما تجد ردَّ الجمهور عليها في صفحة (٩٠) من المجلد الرابع .

(٢) من الآية (١٢) من سورة (الأنعام) .

(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال : «وليست هذه الآية نظير قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ ما في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ للهِ﴾ لأن [لله] يتعين أن يكون جواباً ،وهنا لا يتعين إذ ينعقد من قوله: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر وهو الظاهر ،وأيضاً ففي هذه الآية لفظ (شيء) وقد تنوزع في إطلاقه على الله تعالى ، وفي تلك الآية لفظ (مَنْ) وهو يطلق على الله تعالى .

أَيُّ شيءٍ أَكبر شهادة ؟ الله أَكبر شهادة ، فهو شهيد بيني وبينكم ، فـ [اللهُ] رفع بالابتداءِ وخبره مضمر يدل عليه ظاهر الكلام كما قدرناه ، و[شَهِيدٌ] خبر ابتداءٍ مضمر [(١)] .

وقال مجاهد : المعنى أن الله تعالى قال لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام : قل لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ، وقل لهم ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لما عيوا عن الجواب. فـ [شَهِيدٌ] ـ على هذا التأْويل ـ خبر لـ [اللهُ] ، وليس في هذا التأْويل مبادرة من السائل إلى الجواب المراد بقوله : ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَي : في تبليغي .

وقرأَت فرقة: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ على الفعل الماضي ونصب [القرآن] ، وفي [أَوْحَي] ضمير عائد على الله تعالى من قوله : ﴿قُلِ اللهُ﴾ ، وقرأَت فرقة : [وَأُوحِيَ] على بناء الفعل للمفعول [الْقُرْآنُ] رفعاً . [لِأُنْذِرَكُمْ] معناه : لأُخوّفكم به العقاب والآخرة ، و [مَنْ] عطف على الكاف والميم في قوله : [لِأُنْذِرَكُمْ] ، و [بَلَغَ] معناه ـ على قول الجمهور ـ بلاغ القرآن ، أَي : لِأُنذِركم وأُنذر من بلغه ، ففي [بَلَغَ] ضمير محذوف لأَنه صلة [مَنْ] فحذف لطول الكلام ، وقالت

---

(١) قال بعض العلماء : هذا الإعراب مرجوحٌ لأن فيه إضماراً في الآخر (حيث أُضمر خبر المبتدأ) ، وفي الأول (حيث أُضمر المبتدأُ) . والإعراب الراجح هو أن قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ مبتدأٌ وخبر ، في جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها من جهة الصناعة الإعرابية ،لأن قوله : ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ هو استفهامٌ على جهة التقرير والتوقيف ـ ثم جاءت الجملة التالية للإخبار بأن الله خالق الأشياء . والواضح أن هذا الخلاف في الإعراب مرتبط بجواز إطلاق كلمة (شيء) على الله تعالى أو بعدم جواز ذلك . والله أعلم .

فرقة : ومن بلغ الحلم ، ففي [بَلَغَ] - على هذا التأويل - ضمير مقدر راجع إلى [مَنْ] .

وروي في معنى التأويل الأول أحاديث منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يَأَيُّها الناس ، بلِّغوا عني ولو آية ، فإنه من بُلِّغَ آية من كتاب الله تعالى فقد بَلَغَه أمر الله تعالى أخذه أو تركه) [(١)] ونحو هذا من الأحاديث كقوله : (مَنْ بَلَغَهُ هذا القرآن فأنا نذيره)[(٢)].

وقرأت فرقة : [آيِنَّكُمْ] بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المُسَهِّلة عاملة بعد هذا التسهيل المعاملة قبل التسهيل[(٣)] ، وقرأت فرقة : [أَيِنَّكُمْ] بهمزتين الثانية مُسَهَّلَة دون ألف بينهما ، وقرأت فرقة : [آئِنَّكُمْ] استثقلت اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين[(٤)] ، وقرأت فرقة : [إِنَّكُمْ] بالإيجاب دون تقدير .

---

(١) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة ، وأخرجه أبو الشيخ أيضاً من طريق قتادة . (تفسير الطبري ، والدر المنثور) . وأخرج البخاري وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

(٢) أخرجه ابن جرير عن يونس عن ابن زيد . (تفسير الطبري) . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم والخطيب - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَن بَلَغَه القرآن فكأنما شافهته) (الدر المنثور)

(٣) اختلفت النُّسخ الأصلية في هذه العبارة ، وقد اخترنا أوضحها دلالة على المعنى المراد وهو أن الألف الزائدة بين الهمزتين تعمل بعد تسهيل الثانية ما كانت تعمله قبل التسهيل من الفصل بين الهمزتين لتسهيل النطق لاحظ كلمة (المعاملة) في تعبير المؤلف .

(٤) زيادة الألف بين الهمزتين كراهة التقائهما لغة معروفة ، وعليها قال ذو الرمة :

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْساء بَيْنَ جَلاجِلٍ وبَيْنَ النَّقَا آأنْتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ ؟

والوعساء : رملة لينة ، وجَلاجل بفتح الجيم : موضع بعينه ، وفي كتاب سيبويه : جُلاجل بضم الجيم ، والنَّقا : الكثيب من الرمل .

وهذه الآية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي .

و [أُخْرَى] صفة لـ [آلِهَة] ، وصفة جمع مالا يعقل تجري في الإفراد مجرى الواحدة المؤنثة كقوله : ﴿مَآرِبُ أُخْرى﴾[١] ، وكذلك مخاطبة جمع مالا يعقل كقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[٢] ونحو هذا .

ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أُجريت هذا المجرى .

ثم أمره الله تعالى بالتَّبَرِّي من شهادتهم ، والإعلان بالتوحيد لله تبارك وتعالى ، والتَّبَرِّي من إشراكهم . [وَإِنَّنِي] إيجاب أُلحق فيه النون التي تلحق الفعل لتبقى حركته عند اتصال الضمير به في قولك : «ضربني» ونحوه .

وظاهر الآية أنها في عبدة الأَصنام ، وذكر الطبري أنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أَنها نزلت في قوم من اليهود ، وأَسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءَ النحام بن زيد ، وفردم بن كعب ، وبحري بن عمرو فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره ؟ فقال لهم : لا إلٰه إلا الله ، بذلك أُمرت . فنزلت الآية فيهم .

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (طه) .
(٢) من الآية (١٠) من سورة (سبأ) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[الَّذينَ] رفع بالإبتداءِ ، وخبره [يَعْرفونَهُ] ، و [الكِتَابَ] معناه : التوراة والإنجيل ، وهو لفظ مفرد يدلُّ على الجنس ، والضمير في [يَعْرِفُونَهُ] عائد ــ في بعض الأقوال ــ على التوحيد لقرب قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ، وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأَهل الكتاب . و ﴿الَّذينَ خَسِرُوا﴾ ــ على هذا التأْويل ــ منقطع مرفوع بالابتداءِ وليس من صفة [الَّذينَ] الأُولى ، لأَنه لا يصح أَن يُستشهد بأَهل الكتاب ويُذَمُّونَ في آية واحدة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذُمّوا فيه ، وأَنَّ الذَّمَّ والاستشهاد ليْسَا من جهة واحدة . وقال قتادة ، والسدي[1] ، وابن جريج : الضمير عائد في [يَعْرِفُونَهُ] على محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته ، وذلك على ما في قوله : ﴿وأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ

(١) أخرج أبو الشيخ عن السدي : ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآية ــ يعني يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، لأن نعته معهم في التوراة ، ﴿الَّذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ﴾ لأنهم كفروا به بعد المعرفة . (الدر المنثور) .

لِأُنْذِرَكُمْ﴾ فكأنه قال : «وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إليَّ» . وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام : إن الله أنزل على نبيِّه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله ابن سلام : نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه ، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه ، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئُ الأَب فيها .

وقالت فرقة : الضمير من [يَعْرِفونَهُ] عائد على القرآن المذكور قَبْلُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن نعيد الضمير على هذه كلها دون اختصاص كأنه وصف أشياء كثيرة ثم قال : «أهل الكتاب يعرفونه» أي : ما قلنا وما قصصنا .

وقوله تعالى: ﴿الَّذينَ خَسِرُوا﴾ الآية ... يصح أن يكون [الذين] نعتاً تابعاً لِ [الَّذينَ] قبله ، والفاءُ من قوله : [فَهُمْ] عاطفة جملة على جملة ، وهذا يحسن على تأْويل من رأى في الآية قبلها أن أهل الكتاب مُتَوَعَّدون مذمومون لا مُستشهد بهم . ويصح أن يكون [الَّذينَ] رفعاً بالابتداء على استئناف الكلام ، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، والفاءُ على هذا جواب ، و [خَسِرُوا] معناه : غبنوها ، وقد تقدم .

وروي أَن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالمؤْمنون ينزلون منازل أَهل الكفر في الجنة ، والكافرون ينزلون منازل أَهل الجنة في النار ، فها هنا هي الخسارة بيِّنة والربح للآخرين .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية ... [مَنْ] استفهام مضمنة التوقيف والتقرير ، أَي : لا أَحد أَظلم ممن افترى . و [افْتَرى] معناه : اختلق ، والمكذب بالآيات مفتر كذاب ، ولكنهما منحيان من الكفر فلذلك نُصا مُفسَّرين .

والآيات : العلامات والمعجزات ونحو ذلك ، ثم أَوجب أَنه لا يفلح الظالمون ، والفَلاح : بلوغُ الأَمل والإرادة والنجاح ، ومنه قول عبيد :

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّــ ـــعْفِ ، وقَدْ يُخَدَّعُ الأَرِيبُ (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قالت فرقة: ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كلام تام معناه : لا يفلحون جملة ثم استأْنف فقال : واذكر يوم نحشرهم ، وقال الطبري : المعنى :

(١) رواه في اللسان : « فقد يبلغ بالنَّوْك » ثم قال : ويروى : « فقد يُبْلغ بالضَّعف »، ثم قال : « معناه : فُزْ واظفر ، التهذيب : يقول : عشْ بما شئت من عقْل وحُمْق ، فقد يُرزق الأحمق ويُحرم العاقل » اهـ .

لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ عطفاً على الظرف المقدر ، والكلام متصل .

وقرأت طائفة : [نَحْشُرهم] و [نَقول] بالنون ، وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياء ، وقرأ عاصم هنا وفي (يونس) قبل الثلاثين [1] [نَحْشُرُهُمْ] و [نَقُول] بالنون ، وقرأ في باقي القرآن بالياء . وقرأ أبو هريرة [نَحْشِرهم] بكسر الشين ، فيجيءُ الفعل – على هذا – حَشَر يحْشُر ويَحْشِرُ . وأضاف الشركاء إليهم لأنه لا شركة لهم في الحقيقة بين الأصنام وبين شيء ، وإنما وقع عليها اسم الشريك بمجرد تسمية الكفرة فأُضيفت إليهم لهذه النسبة .

و [تَزْعُمُونَ] معناه : تدَّعون أنهم لله ، والزعم : القول الأَميل إلى الباطل والكذب في أكثر كلامهم ، وقد يقال : زعم بمعنى : ذكر دون ميل إلى الكذب ، وعلى هذا الحد يقول سيبويه ، زعم الخليل ، ولكن ذلك إنما يستعمل في الشيء الغريب الذي تبقى عهدته على قائله .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ الآية – قرأ ابن كثير في رواية شبل عنه ، وعاصم في رواية حفص ، وابن عامر : [تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ] برفع الفتنة ، و [إِلَّا أَنْ قَالُوا] في موضع نصب على الخبر ، التقدير : إلَّا قولَهُم . وهذا مستقيم لأَنه أَنَّث العلامة في الفعل حين أَسنده إلى مؤنث وهي الفتنة . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ،

---

(١) أي في الآية (٢٨) من سورة (يونس) وهي قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ .

وعاصم في رواية أبي بكر ، وابن كثير أيضاً : [تَكُنْ فِتْنَتَهُم] بنصب الفتنة ، واسم كان : [أَنْ قالوا] وفي هذه القراءة تأنيث [أَنْ قَالُوا] ، وساغ ذلك من حيث الفتنة مؤنثة في المعنى ، قال أبو علي : وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [1] فأنّث الأمثال لما كانت الحسنات بالمعنى ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [يَكُنْ] بالياء [فِتْنَتَهم] بالنصب واسم كان [إلا أَنْ قالُوا] وهذا مستقيم لأنه ذكر علامة الفعل حين أسنده إلى مذكر . قال الزهراوي : وقرأت فرقة : [يَكُنْ فِتْنَتُهم] برفع الفتنة ، وفي هذه القراءة إسناد فعل مذكر إلى مؤنث ، وجاء ذلك بالمعنى لأن الفتنة بمعنى الاختبار أو المودة [2] في الشيء والإعجاب . وقرأ أُبيٌّ بن وكيع ، وابن مسعود ، والأعمش : [وَمَا كانَ فِتْنَتُهُمْ] ، وقرأ طلحة بن مصرف : [ثُمَّ كانَ فِتْنَتُهُمْ] .والفتنة في كلام العرب لفظة مشتركة تقال بمعنى حب الشيء والإعجاب به كما تقول : فتنت بكذا ، وتحتمل الآية هنا هذا المعنى ، أي : لم يكن حبهم للأصنام وإعجابهم بها واتباعهم لها لما سُئِلُوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التّبري منها والإنكار لها . وهذا توبيخ لهم كما تقول لرجل يدعي مودة آخر ثم انحرف عنه وعاداه : يا فلان ، لم تكن مودتك لفلان إلا أن شتمته وعاديته [3] ، ويقال : الفتنة في كلام العرب بمعنى الاختبار

---

(١) من الآية (١٦٠) من سورة (الأنعام) .

(٢) الصواب أن يقال : «أن الود في الشيء» ، ولكن النسخ الأصلية كلها كما أثبتنا ، وقطعاً هو من خطأ النساخ .

(٣) قال الزمخشري : الفتنة هنا : كفرهم ، والمعنى : ثم لم تكن عاقبة فتنتهم في كفرهم الذي لزموه أعمارهم ، وافتخروا به ، وقاتلوا عليه إلا جحوده والتّبرُّؤ منه ، وقال الضحاك : الفتنة هنا : إنكارهم ، وقال قتادة : عذرهم . والأقوال كثيرة .

كما قال عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[١] وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا﴾[٢] ، وتحتمل الآية ها هنا هذا المعنى لأَن سُؤَالهم عن الشركاءِ وتوقيفهم اختبار ، فالمعنى : ثم لم يكن اختبارنا لهم – إذ لم يفد ولا أَثمر – إلَّا إنكارهم الإشراك . وتجيءُ الفتنة في اللغة على معان غير هذين لا مدخل لها في الآية ، ومن قال : «إن أَصل الفتنة الاختبار ، من فتنتُ الذهب في النار ، ثم يُستعار بعد ذلك في غير ذلك» – فقد أَخطأَ لأَن الاسم لا يحكم عليه بمعنى الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له ، كقول ذي الرمة :

. . . . وَلَفَّ الثُّرَيَّا في مُلاءَتِهِ الْفَجْرُ[٣]

ونحوه . والفتنة لا يستحيل أَن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه .

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [والله رَبِّنَا] خفض على النعت لاسم الله ، وقرأَ حمزة والكسائي : [رَبَّنَا] نصب على النداءِ ، ويجوز فيه تقدير المدح . وقرأَ عكرمة ، وسلام بن مسكين : [وَاللهُ رَبُّنَا] برفع الاسمين وهذا على تقدير تقديم

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة (طه) .

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (ص) .

(٣) البيت بتمامه :

أقامَتْ بِها حَتَّى ذوَى العُودُ في الثَّرَى وَلَفَّ الثُّرَيَّا في مُلاءَتِهِ الْفَجْرُ

وهو من قصيدة له معروفة ، ومطلعها :

أَلا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ الْقَطْرُ

وتأخير كأنهم قالوا: «ما كنا مشركين والله ربنا». و ﴿ما كُنَّا مُشْرِكينَ﴾ معناه جحود إشراكهم في الدنيا ، فروي أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجوا فيوقفون ويقال لهم : «أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ» فينكرون طماعية منهم أن يفعل بهم ما فعل بأهل الإيمان . وأتى رجل ابن عباس فقال : سمعت الله يقول: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكينَ﴾ وفي أخرى: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَديثاً﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن قالوا : تعالوا فلنجحد ، وقالوا : «ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعبر بعض المفسرين عن الفتنة هنا بأن قالوا معذرتهم [١] ، قاله قتادة ، وقال آخرون : كلامهم ، قاله الضحاك ، وقيل غير هذا مما هو كله في ضمن ما ذكرناه .

---

(١) في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : (فيلقى العبد فيقول : أي فُلْ ، ألمْ أكرمْكَ وأسوِّدْكَ وأزوِّجْكَ وأسخر لك الخيل والإبل وأذرْكَ ترأس وتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننتَ أنَّكَ ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساكَ كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصلَّيْتُ وصُمْتُ وتَصَدَّقْتُ ، ويُثْني بخير ما استطاع ، قال : فيقال : هاهنا إذاً ، ثم يقال له : الآن نبعث شاهداً عليك ، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله ، وذلك ليُعْذِرَ من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي سخط الله عليه) .

ومعنى (فُلْ) بضم الفاء وسكون اللام يا فُلانُ ، وهو ترخيم على غير القياس كما قاله النووي ، وقيل : ليس ترخيماً بل هي لغة بمعنى فلان لأنه لا يقال إلا بسكون اللام ، ولو كان ترخيماً لفتحوها أو ضموها — ومعنى (تَرْبع) أي : تأخذ ربع الغنيمة .

وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ الآية ... الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام ، والنظر نظر القلب ، وقال : [كَذَبُوا] في أمر لم يقع إذ هي حكاية يوم القيامة فلا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل ، ويفيدنا استعمال الماضي تحقيقاً مّا في الفعل وإثباتاً له ، وهذا مهيع في اللغة ، ومنه قول الربيع بن ضبع الفزاري :

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ ولا أَمْلِكُ رأْسَ البَعيرِ إنْ نَفَـرَا

يريد : إن ينفر .

[وَضَلَّ عَنْهُمْ] معناه : ذهب افتراؤُهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله تبارك وتعالى الشركاءَ .(١)

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

الضمير في قوله : [وَمِنْهُمْ] عائد على الكفار الذين تضمنهم قبلُ قولُه : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ ، وأَفرد [يَسْتَمِعُ] وهو فعل جماعة حملا على لفظ [مَنْ] ، و[أَكِنَّةً] جمع كنان وهو الغطاءُ الجامع ، ومنه

---

(١) معنى كلامه هذا أن [ما] هنا مصدرية . وقد ذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى الذي ، قال : المعنى : « وغاب عنهم ما كانوا يفترون أُلُوهيته وشفاعته » . وهذا هو معنى ما قاله الحسن وأبو علي إذ قالا : المعنى : « لم يغن عنهم شيئاً ما كانوا يعبدون من الأصنام في الدنيا » .

كنانة السهام والكن ، ومنه قوله تعالى : [بَيْضٌ مَكْنُونٌ][1] ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما انْتَضَوْهَا في الْوَغَى مِنْ أَكِنَّةٍ   حَسِبْتَ بُرُوقَ الْغَيْثِ هاجَتْ غُيومُها[2]

وفِعَالٌ وأَفْعِلَةٌ مهيع في كلامهم .

و ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ نصب على المفعول من أجله ، أي : كراهية أن يفقهوه ، وقيل : المعنى : أَلَّا يفقهوه ، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي . و [يَفْقَهوه] معناه : يفهموه ، ويقال : فقِه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيء ، وفقُه بضمها إذا صار فقيهاً له ملكة ، وفقُه إذا غلب في الفقه غيره .

والوَقْر : الثقل في السمع ، يقال : وقِرَت أُذنه ووقَرَت بكسر القاف وفتحها ، ومنه قول الشاعر :

وَكَلامٍ سَيِّءٍ قَدْ وَقِـرَتْ   أُذني مِنْهُ وَمَا بي مِنْ صَمَمْ[3]

وقد سمع : أُذن موقورة ، فالفعل على هذا وُقِرَت . وقرأ طلحة بن مصرف:

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة (الصَّافات): ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾.

(٢) انتضى السيف : أخرجه من غمده . والوغى في الأصل : الجلَبة ، وتطلق على الحرب لما فيها من الصوت والجلَبة . والأكِنَّة : جمع كنان وهو هنا : غمد السيف وجرابه الجامع له ، يُشَبِّه منظر السيوف اللامعة إذا أُخرجت من أغمادها في المعركة بمنظر البروق التي هاجت غيومها عند نزول المطر ، ولم نقف على قائل هذا البيت ، ولم يذكره من المفسرين مع ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط» .

(٣) قال في اللسان : «وقِرت أُذنه بالكسر تَوْقَر وَقْراً أي صَمَّت . ووَقَرَت وَقْراً ، قال الجوهري : قياس المصدر التحريك إلا أنه جاء بالتسكين» . فمعنى وقِرت في البيت : أصابها الصمم ، أي من هذا الكلام السيء وإن كانت في الحقيقة سليمة غير صماء ، ولم نقف على نسبة البيت لقائله .

[وِقْراً] بكسر الواو كأَنه ذهب إلى أَن آذانهم وقرت بالصَّمم كما توقر الدابة من الحمل ، وهي قراءة شاذة ، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاءِ القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير ، لا أَنهم لم يكونوا سامعين لأَقواله .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كلَّ آيَةٍ﴾ الآية ... الرؤْية هنا رؤْية العين ، يريد كانشقاق القمر وشبهه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومقصد هذه الآية أَنهم في أَعجز درجة وحاولوا ردّ الحق بالدعوى المجردة ، والواو في قوله : [وَجَعَلْنَا] واو الحال ، والباب أَن يصرح معها بقد ، وقد تجيءُ أَحياناً مقدرة ، وإيضاح ذلك أَنه تعالى قال : ومن هؤلاءِ الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حدّ قلبه في كنان ، وأُذنه صماء ، وهو يرى الآيات فلا يؤْمن بها ، ولكنه مع بلوغه الغاية من هذا القصور إذا جاءَ للمجادلة قابل بدعوى مجردة .

والمجادلة : المقابلة في الاحتجاج ، مأْخوذ من الجدل ، و [هَذَا] في قولهم إشارة إلى القرآن ، والأَساطير : جمع أَسْطَار ، كأَقْوال وأَقاويل ونحوه ، وأَسْطار : جمع سَطْر أَو سَطَر[1] ، وقيل : الأَساطير :

---

(١) السَّطْر : الصفُّ من كل شيءٍ ، يقال : سطر من الكتابة ، وجمعه أَسْطُر وسطور وأَسطار ، وعلى هذا فأَساطير هي جمع الجمع ، قال صاحب اللسان : أساطير جمع سَطْر ، =

جمع إسطارة وهي التُّرَّهات ، وقيل : جمع أُسطورة كأُعجوبة وأُضحوكة ، وقيل : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كعبابيد وشماطيط[١] ، والمعنى : أَخبار الأَولين وأَقاصيصهم وأَحاديثهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ ، وإنما شبهها الكفار بأَحاديث النضر بن الحارث وأَبي عبد الله بن أَبي أُمية عن رستم والسندباد ، ومجادلة الكفار كانت مرادّتهم نور الله بأَفواههم المبطلة ، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أَنه مَثَّل من ذلك قولهم : إِنكم أَيها المتبعون محمداً تأْكلون ما قتلتم بذبحكم ولا تأْكلون ما قتل الله ، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا جدالٌ في حُكْم ، والذي في الآية إنما هو جدال في مدافعة القرآن ، فلا تتفسر الآية عندي بأَمر الذبح .

= وكما حكى ابن عطية فقد قيل : هي جمع أُسطورة ، وقيل: جمع إسطارة ، والأصل في ذلك كله الشيء المكتوب في سطور ، يزعمون أنه خرافات وأباطيل سطّرها الأولون ويشهد لهذا المعنى قول الشاعر :

تطَاوَلَ لَيْلِي واعتَرَتْني وَسَاوسي ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهَاتِ الأباطيلِ

(١) العبابيد من الخيل والناس : المتفرقون الذاهبون في كل وجه ، يقال : تفرقوا عبابيد ، والعبابيد أيضاً : الطرق المتفرقة – والشماطيط : قالوا فيها : تفرق القوم شماطيط ، أي فِرَقاً ، وثوب شماطيط : خَلَقٌ مُتَشَقِّقٌ . « المعجم الوسيط » ما دتي : « عبد وشمط » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الضمير في قوله : [وَهُمْ] عائد على المذكورين قبلُ . والضمير في [عَنْهُ] ـ قال قتادة ، ومجاهد : يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله : ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ : وقال ابن عباس ، وابن الحنفية ، والضحاك : هو عائد على محمد عليه الصلاة والسلام ، والمعنى أنهم ينهون غيرهم ويبعدون هم بأنفسهم ، والنأي : البعد[1] .

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ معناه : ما يهلكون إلا أنفسهم بالكفر الذي يدخلهم جهنم ، وقال ابن عباس أيضاً ، والقاسم ، وحبيب بن أبي ثابت ، وعطاءُ بن دينار : المراد بقوله : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أبو طالب ومَنْ كان معه على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الدوام في

---

(١) في قوله تعالى : [يَنْهَوْنَ وَيَنْأَوْنَ] ما يعرف عند البلاغيين بأنه تجنيس التصريف ، وهو أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف ، فقد انفردت [يَنْهَوْنَ] بالهاء ، وانفردت [يَنْأَوْنَ] بالهمزة ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعا ﴾ ومنه: (الخيل معقود في نواصيها الخير) ، وفي كتاب التحبير سَمَّاه : تجنيس التحريف وقال : هو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين ، وأنشد عليه :

إنْ لَمْ أَشُنَّ علَى ابْنِ هِنْدٍ غارَةً لِنَهَابِ مالٍ أوْ ذَهَابِ نفـــوسِ

الكفر[١] ، والمعنى : وهم ينهون عنه من يريد إذايته ، وينأون عنه بإيمانهم واتِّباعهم ، فهم يفعلون الشيء وخلافه . ويُقلق هذا القولَ ردُّ قوله : [وَهُم] على جماعة الكفار المتقدم ذكرها ، لأَن جميعهم لم يكن ينهى عن إذاية النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتخرج ذلك ويَحْسُن على أَن تقدر القصد ذكر ما ينعى على فريق من الجماعة التي هي كلها مُجْمِعَة على الكفر ، فخرجت العبارة عن فريق من الجماعة بلفظ يعم الجماعة لأَن التوبيخ على هذه الصورة أَغلظ عليهم ، كما تقول إذا شنَّعت على جماعة فيها زُناة وسرقة وشربة خمر : هؤلاء يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ،

---

(١) يعني أن أبا طالب ومن معه كانوا ينهون الكفار عن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ويبقون مُصرين على كفرهم وبعدهم عن الإيمان . وقد روي في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم تعرض للأذى وهو يصلي في الكعبة حيث وضع عبد الله بن الزِّبَعْرى فرثاً ودماً عليه ، ولطخ وجهه بهما ، فذهب النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى عمه أبي طالب قائلا : يا عمّ ، ألا ترى ما فُعل بي ؟ فقال : من فعل بك هذا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : عبد الله بن الزِّبَعْرى ، فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى حتى أتى القوم في الكعبة فأخذ فرثاً ودماً فلطخ بهما وجوه القوم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ...﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عمّ ، نزلت فيك آية ... فلما سمعها قال :

والله لَنْ يَصِلُوا إليْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حتَّى أُوَسَّدَ في التُّرَابِ دَفِينَا
فاصْدَعْ بأمْرِكَ ما عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وابْشِرْ بِذاكَ وقَرَّ منْكَ عُيونَا
ودَعَوْتَني وزَعَمْتَ أنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وكُنْتَ قَبْلُ أَمينَا
وعَرَضْتَ دِيناً قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لولا المَلامَةُ أَوْ حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذاكَ يَقِينَا

وحقيقة كلامك أَن بعضهم يفعل هذا وبعضهم يفعل هذا ، فكأنه قال: من هؤلاءِ الكفرة من يستمع وهم ينهون عن إذايته ولا يؤمنون به ، أي : منهم من يفعل ذلك .

﴿وَما يَشْعُرونَ﴾ معناه : ما يعلمون علم حسّ ، وهو مأخوذ من الشعار الذي يلي بدن الإنسان ، والشعار مأْخوذ من الشعر ، ونَفْيُ الشعور مذمة بالغة إذ البهائم تشعر وتُحسُّ ، فإذا قلت : «فلان لا يشعر» فقد نفيت عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ولا المحسوسات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقرأ الحسن : [وَيَنَوْنَ عَنْهُ] . أُلقيت حركة الهمزة على النون على التسهيل القياسي .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على النَّارِ﴾ الآية . المخاطبة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجواب [لَوْ] محذوف تقديره في آخر هذه الآية : لرأَيتَ هَوْلاً أَو مشقات أَو نحو هذا ، وحذف جوابها في مثل هذا أَبلغ لأَن المخاطب يُتْرَكُ مع غاية تخيُّله(١) .

ووقعت [إذْ] في موقع (إذا) التي هي لما يُستقبل ، وجاز ذلك لأَن الأَمر المتيقن وقوعه يُعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع . و [وُقِفُوا]

---

(١) وحذف جواب [لو] لدلالة الكلام عليه جائز فصيح ، وهو كثير ،ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ...﴾ الآية – أي : لكان هذا القرآن – ومنه أيضاً قول الشاعر :

وَجَدِّكَ لو شيءٌ أَتانا رَسُولُهُ سِوَاكَ، ولكنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفعا

التقدير : لو شيءٌ سواك أتانا رسوله لدفعناه .

معناه : حبسوا ، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغيرَ متعدٍّ سواءٌ ، تقول : وقفتُ أنا ووقَفْتُ غيري . وقال الزهراوي : وقد فُرِّق بينهما بالمصدر ، ففي المتعدي : وقَفْتُه وقْفاً ، وفي غير المتعدي : وقفت وقوفاً ، قال أبو عمرو بن العلاء : لم أسمع في شيءٍ من كلام العرب أَوْقَفْتُ فُلاناً ، إلَّا أَني لو لقيتُ رجلاً واقفاً فقلتُ له : ما أوقفك ها هنا ؟ لكان عندي حسناً ، ويحتمل قوله: ﴿وُقِفوا علَى النَّار﴾ أن يكون : دخَلُوها ، فكان وقوفهم عليها أي فيها ، قاله الطبري ، ويحتمل أن يكون : أشرفوا عليها وعاينوها .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه : [وَلَا نُكَذِّبُ] [ونَكُونُ] بالرفع في كلها ، وذلك على نِيَّة الاستئناف والقطع في قوله : [ولا نكذِّبُ] [ونكُونُ] أي : ياليتنا نُرد ، ونحن على كل حالٍ لا نُكَذِّبُ ونكونُ ، فأخبروا عن أنفسهم بهذا ، ولهذا الإخبار صح تكذيبهم بعد هذا ، ورجَّح هذا سيبويه ومَثَّلَه بقولك : دعني ولا أعودُ ، أي : وأنا لا أعود على كل حال ، ويُخَرَّج ذلك على قول آخر وهو أن يكون : [ولا نكذِّبُ] [ونكونُ] داخلا في التمني على حدِّ ما دخلَتْ فيه [نُرَدُّ] ، كأنهم قالوا : ياليتنا نُرَدُّ ، وليتنا لا نكذِّبُ ، وليتنا نكونُ ، ويعترض هذا التأويل بأن من تمنى شيئاً لا يقال : إنه كاذب ، وإنما يُكَذَّب من أخبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يكون قوله: ﴿وإنَّهُمْ لكاذبونَ﴾ حكاية عن حالهم في الدنيا كلاماً مقطوعاً عما قبله ، وبوجه آخر

وهو أَن المتمنِّي إذا كانت سجيته وطريقته مخالفة لما تمنى بعيدةً منه يصح أَن يقال له : كذبتَ على تجوّز ، وذلك أَن من تمنَّى شيئاً فتمنِّيه يتضمن إخباراً أَن تلك الأُمنية تصلح له ويصلح لها ، فيتمع التكذيب في ذلك الإخبار الذي يتضمَّنُه التمني ، ومثال ذلك أَن يقول رجلٌ شرير : ليتني أَحجُّ وأُجاهد وأَقوم الليل ، فجائز أَن يقال لهذا عَلَى تجوز : كذبتَ ، أَي أَنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك .

ورُوي عن أَبي عمرو أَنه أَدغم باءَ [نُكَذِّب] في الباءِ التي بعدها ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة وعاصم في رواية حفص : [ولا نكَذِّبَ] [ونَكُونَ] بنصب الفعلين ، وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التمني ، فَالْوَاوُ في ذلك والفاءُ بمنزلة ، وهذا على تقدير ذكر مصدر الفعل الأَول ، كأَنهم قالوا : يا ليتنا كان لنا ردٌّ وعدمُ تكذيب وكونٌ من المؤْمنين . وقرأَ ابن عامر في رواية هشام بن عمار عن أَصحابه عن ابن عامر : [ولا نكذِّبُ] بالرفع [ونكونَ] بالنصب . ويتوجه ذلك - على ما تقدم[1] - في مصحف عبد الله بن مسعود : ﴿يا ليْتَنَا نُرَدُّ فلا نكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنَا وتَكُونَ﴾ بالتاءِ ، وفي قراءَة أُبي بن كعب : ﴿يا لَيْتَنَا نُرَدُّ فلا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنَا أَبداً ونكُونَ﴾ ، وحكى أَبو عمرو أَن قراءَة أُبي : ﴿بآياتِ ربِّنَا ونحن نكون﴾ .

وقوله : [نُرَدُّ] في هذه الأَقوال كلها معناه : إلى الدنيا ، وحكى الطبري تأْويلا آخر وهو : يا ليتنا نرد إلى الآخرة ، أَي : نبعث

(١) ماتقدم : هو قوله قبل قليل في توجيه قراءة النصب : « وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التّمني » . وقوله : « ويتوجه ذلك » كلام مستأنف لا يتعلق بما قبله .

ونوقف على النار التي وقفنا عليها مكذبين ، ليت ذلك ونحن في حالة لا نكذب ونكون ، فالمعنى : ياليتنا نوقف هذا الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا كائنين من المؤْمنين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل يضعف من غير وجه ، ويبطله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ، ولا يصح أَيضاً التكذيب في هذا التمني لأَنه تمني ما مضى ، وإنما يصح التكذيب الذي ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمني المستقبلات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلْ(١) بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الضمير في [لَهُمْ] عائد على من ذُكر في قوله : [وُقِفُوا] و [قَالُوا] ، وهذا الكلام يتضمن أَنهم كانوا يخفون شيئاً ما في الدنيا فظهر لهم

(١) (بل) هنا للإضراب والانتقال من شيءٍ إلى شيءٍ من غير إبطال لما سبق ، وهكذا تأتي في كتاب الله تعالى إذا كان ما بعدها من إخبار الله سبحانه وتعالى ، أما إذا كان ما بعدها يقال على سبيل الحكاية عن قوم فإن معنى الإضراب يختلف عما ذكرناه كقوله تعالى: ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ . ذكر ذلك في « البحر المحيط » .

يوم القيامة ، أو ظهر لهم وبالُه وعاقبته ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه . وحكى الزهراوي عن فرقة أنها قالت : الآية في المنافقين لأَنهم كانوا يخفون الكفر فبدا لهم وباله يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتقلق العبارة على هذا التأْويل لأَنه قال : [وُقفُوا] يريد جماعة كفار ، ثم قال : [بَدَا لَهُمْ] يريد المنافقين من هؤُلاءِ الكفار ، والكلام لا يعطي هذا إلا على تحامل . قال الزهراوي : وقيل : إن الكفـــار كانوا إذا وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم خافوا وأَخفوا ذلك الخوف لئلا يشعر به أَتباعهم فظهر لهم ذلك يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصحّ أَن يكون مقصد الآية الإخبار عن هول ما لقوه والتعظيم لما شقوا به ، فعبر عن ذلك بأَنهم ظهرت لهم مستوراتهم في الدنيا من معاص وغير ذلك . فكيف الظن – على هذا – بما كانوا يعلنون من كفر ونحوه ؟ وينظر إلى هذا التأْويل قوله تعالى في تعظيم شأْن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1] . ويصح أَن يقدر الشيءُ الذي كانوا يخفونه في الدنيا نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم وأَقواله ، وذلك أَنهم كانوا يُخفون ذلك في الدنيا بأَن يُحقِّروه عند من يرد عليهم ، ويصفوه بغير صفته ، ويتلقَّوا الناس على الطرق فيقولون لهم :

---

(١) الآية رقم (٩) من سورة (الطارق) .

هو ساحر ، هو يُفرّق بين الأَقارب ، يريدون بذلك إخفاءَ أَمره وإبطاله ، فمعنى هذه الآية على هـذا : بل بدا لهم يوم القيامة أَمرك وصدقك وتحذيرك وإخبارك بعقاب من كفر الذي كانوا يخفونه في الدنيا ، ويكون الإخفاءُ على ما وصفناه .

وقال الزجاج : المعنى : ظهر للذين اتَّبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون من البعث .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالضميران على هذا ليسا لشيءٍ واحد[١] ، وحكى المهدوي عن الحسن نحو هذا .

وقرأَ يحيى بن وثّاب ، والنَّخعي ، والأَعمش : [وَلَوْ رِدُّوا] بكسر الراءِ على نقل حركة الدال من (رُدِدُوا) إليها .

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إخبار عن أَمر لا يكون كيف كان يوجد ، وهذا النوع مما استأْثر الله بعلمه ، فإن أَعلم بشيءٍ منه عُلم وإلا لم يتكلم فيه .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ إما أَن يكون متصلا بالكلام ويكون التكذيب في إخْبارهم على معنى أَن الأَمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأَنهم قصدوا الكذب ، أَو يكون التكذيب في التمني على

(١) الضمير الأول في قوله: [بَدَا لَهُمْ] ، فالمراد به الذين اتبعوا الغواة ، والضمير الثاني في قوله : [يُخْفُونَ] : والمراد به الغواة أنفسهم لأنهم كانوا يخفون الأمر عن أتباعهم ، وقد يؤيد هذا قوله سبحانه بعده : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنيا ﴾ .

التجوز الذي ذكرناه . وإما أَن يكون منقطعاً إخباراً مُسْتَأْنفاً عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام ، والأَول أَصوب .

وقوله تعالى: ﴿وَقَالوا إنْ هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية ... هذا ـ على تأْويل الجمهور ـ ابتداءُ كلام وإخبار عنهم بهذه المقالة ، ويحسن مع هذا أَن يكون قوله قبل: ﴿وَإنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ مستأْنفاً مقطوعاً خبراً عن حالهم في الدنيا التي من قولهم فيها : «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وغير ذلك ، و[إنْ] نافية ، ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إلى الله ، وقال ابن زيد : قوله : [وَقَالوا] معطوف على قوله : [لعَادُوا] أَي : لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتوقيف الله لهم في الآية بعدها على البعث والإشارة إليه في قوله : ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يرُدُّ على هذا التأْويل .(١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا﴾ الآية ... بمعنى : ولو ترى إذ وقفوا كما تقدم آنفاً من حذف جواب [لو] ، وقوله : [عَلَى رَبِّهِمْ] معناه : على حُكمه وأَمره ، ففي الكلام ولابُدَّ حذف مضاف .(٢)

---

(١) عقَّب أبو حيان في «البحر» على ذلك بقوله : «ولا يردُّه ما ذكره ابن عطية لاختلاف الموطنَيْن ،لأن إقرارهم بحقيقة البعث هو في الآخرة،وإنكارهم ذلك هو في الدنيا على تقدير عودهم، وهو إنكار عنادٍ ، فإقرارهم به في الآخرة لا ينافي إنكارهم له في الدنيا على تقدير العود،ألا ترى إلى قوله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وقول أبي جهل وقد علم أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ما معناه أنه لا يؤمن به أبداً ، هذا وذلك في موطن واحد وهي الدنيا . (البحر المحيط ٤ـ١٠٤)

(٢) وقيل : [عَلَى] بمعنى (عند) ، أي : عند ملائكته وجزائه ، وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل ، تقول وقفت على فلان ، أي عنده .

وقوله : [هَذَا] إشارة إلى البعث الذي كذبوا به في الدنيا ، و[بَلَى] هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفياً ولا تقتضي نفيه وجحده ، و (نَعَم) تصلح للإقرار به ، كما ورد ذلك في قول الأَنصار للنبي عليه الصلاة والسلام حين عاتبهم في الحظيرة عقب غزوة حنين(١) ، وتصلح أَيضاً (نَعَم) لجحده فلذلك لا تستعمل(٢) ، وأما قول الزجاج وغيره :إنها إنما تقتضي جحده ، وإنهم لو قالوا : (نَعَم) عند قوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لكفروا فقول خطأٌ ، والله المستعان . وقولهم : ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾

(١) في «السيرة النبوية» لابن هشام عند الحديث على توزيع الغنائم في حنين أن هذا الحيّ من الأنصار وجَدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، وبناءً على طلب الرسول جمعهم سعد بن عبادة في الحظيرة ، ثم أتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا معشر الأنصار،ما قَالَةٌ بلغتني عنكم ، وجِدَةٌ وجَدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله ،وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟ قالوا : بَلَى ، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المَنُّ والفضل ، قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم : أتَيْتَنَا مُكَذَّباً فصَدَّقْنَاك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسَيْنَاكَ » ... إلى أن قال : «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» . قال الراوي «وهو أبو سعيد الخدري»: فبكى القوم حتى أخْضَلُوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّاً . (٤-١٤٢ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت) . فقول الأنصار هنا : «بَلَى ، اللهُ ورسوله أمَنُّ وأفضل» للإقرار بالمستفهم عنه منفياً لا لِنَفْيِه.والمستعمل في الحديث (بلى) وليس (نعم) كما يفهم من كلام ابن عطية .

(٢) يريد ابن عطية بكلامه هذا أن يفرق بين (بَلَى) و (نعم) — وخلاصة ما ذكره أنّ (بَلَى) تأتي بعد المُسْتَفهم عنه منفياً فتقتضي الإقرار بما استفهم عنه بهذه الصورة المنفية ، ولا تقتضي نفيه ولا إنكاره وجحده ، أما (نَعَمْ) فتصلح للإقرار به منفياً كما ورد في الحديث النبوي الشريف (ألَم آتكم ضُلالا فهداكم الله) ؟ وتصلح أيضاً لنفيه وإنكاره ، ولكن كلامه غير واضح ، وعليه كثير من علامات الاستفهام .

إيمان ولكنه حين لا ينفع ، وقوله : [ذُوقُوا] استعارةٌ بليغة ، والمعنى : باشروه مباشرة الذائق إذ هي من أَشد المباشَرات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

هذا استئناف إخبار عن خسارة المكذبين يتضمن تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم ، وتستعمل الخسارة في مثل هذا لأَنه من أَخذ الكفر واتَّبعه فكأَنه قد أَعطى الإِيمان واطَّرحه ، فأَشبهت صفقة أَخْذ وإِعطاءٍ .

والاشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا : «إنما هي حياتنا الدنيا» ، وقوله : [بِلِقَاءِ اللهِ] معناه : بالرجوع إليه وإلى أَحكامه وقدرته ، كما تقول : لَقِيَ فلان أعماله ، أَي لَقي عواقبها ومآلها . و [السَّاعَة] : يوم القيامة ، وأَدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرها لشُهرتها واستقرارها في النفوس وذيوع أَمرها ، وأَيضاً فقد تضمنها قوله تعالى : ﴿بِلِقَاءِ اللهِ﴾ .

و [بَغْتَةً] معناه : فجْأَةً ، تقول : بغتني الأَمر أَي فجأَني ، ومنه قول الشاعر :

ولكنَّهم تابوا ولمْ أَخْشَ بَغْتَةً وأَفْظَعُ شَيْءٍ حينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ[١]

---

(١) هذا البيت ليزيد بن ضَبَّةَ الثَّقَفي كما قال صاحب «اللسان» ، وقد اختلفت الأصول في كلمة (تابوا) — فهي في بعض النسخ (نابوا) — وفي رواية «اللسان» : =

ونصبها على المصدر في موضع الحال ، كما تقول : «قتلتهُ صبراً» ، ولا يجيز سيبويه القياس عليه ،لا تقول : «جاءَ فلان سرعةً» ونحوه .(١)

ونداءُ «الحسرة» على تعظيم الأَمر وتشنيعه ، قال سيبويه : وكأَن الذي ينادي الحسرة أَو العجب أَو السرور أَو الويل يقول : اقربي أَو احضري فهذا وقتك وزمنك ، وفي ذلك تعظيم للأَمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثَمَّ سامع ، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود بنداء الجمادات كقولك : يا دار ، ويا رَبْع ، وفي نداءِ مالا يعقل كقولهم : يا جَمَل ، ونحو هذا .(٢)

و [فَرَّطْنا] معناه : قصّرنا مع القدرة على ترك التقصير ، وهذه حقيقة التفريط ، والضمير في قوله : [فيها] عائد على الساعة ، أَي : في التقدمة لها ، وهذا قول الحسن ، وقال الطبري : يعود على الصفقة التي يتضمنها ذكر الخسارة في أَول الآية ، ويحتمل أَن يعود الضمير

= ولكِنَّهُمْ ماتوا ولَمْ أَدْرِ بَغْتَـةً وأَفْظَعُ شيءٍ حين يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

وهي التي تتفق مع معنى البغتة وفظاعتها ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَلَتَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ وفيه : ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أَيْ : فَجْأَةً .

(١) من الشواهد التي أنشدها سيبويه على نصب المصدر في موضع الحال قول زهير بن أبي سلمى :

فَلأْياً بِلأْيٍ ما حَمَلْنَا وَلِيدَنَا على ظهْرِ مَحْبُوكٍ ظِماءٍ مَفاصِلُـه

التقدير : حملنا وليدنا مُبْطِئِين مُلْتَئِين ، والبيت في وصف فرس بالنشاط والسرعة ، والمحبوك الشديد الخَلْق ، والظماءُ هنا : القليلة اللحم ، يقول : إذا حملنا وليدنا على هذا الفرس ليصيد امتنع لنشاطه فلم نحمله إلا بعد إبطاءٍ وجهد .

(٢) هذا أبلغ في النفس من قولك : تعجبت ، ومن أمثلته قول امرئ القيس في معلقته :

ويَوْمَ عقَـرْتُ لِلْعَذارى مَطِيَّتي فيا عَجَباً مِنْ رَحْلِها المُتَحَمَّلِ

على الدنيا إذ المعنى يقتضيها وتجيءُ الظرفية أمكن بمنزلة : زيد في الدار ، وَعوْدُه على الساعة إنما معناه في أُمورها والاستعداد لها بمنزلة : زيد في العلم مشتغل .

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلونَ أَوْزَارَهُم﴾ الآية ... الواو واو الحال . والأَوزار : جمع وِزْر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب ، تقول منه : وَزَرَ يزِرُ إذا حمل ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(١) ، وتقول : وَزَرَ الرجل فهو مَوْزُور ، قال أبو عبيدة : والعامة تقول : مأْزور ، وأما إذا اقترن ذلك بمأْجور فإن العرب تقول : مأْزور ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لِنِساءٍ لقيهن مقبلات من المقابر : (ارجعن مأْزورات غير مأْجورات)(٢) ، قال أبو علي وغيره : فهذا للإتباع اللفظي . والوِزْرُ هنا تجوز وتشبيه بثقل الأَحمال ، وقَوَّى التشبيه بأَن جعله على الظهور إذ هي في العادة موضع حمل الأَثقال ، ومن قال إنه من الْوَزَر وهو الجبل الذي يُلْتجأُ إليه ـ ومنه الوزير وهو المعين ـ فهي مقالةٌ غير بينة . وقال الطبري وغيره : هذا على جهة الحقيقة. ورَوَوْا في ذلك خبراً أَن المؤْمن يلقاه عمله في أَحسن صورة وأَفرحها فيسلم عليه ويقول له : طالما ركبتك في الدنيا وأَجْهَدْتُك فاركبني اليوم ، قال : فيحمله تمثال العمل ، وأَن الكافر يلقاه عمله في أَقبح صورة وأَنتنها فيشتمه ويقول : أَنا عملك الخبيث ، طالما ركبتني

---

(١) تكررت في الآيات: (١٦٤) من سورة (الأنعام) ، و(١٥) من سورة (الإسراء)، و (١٨) من سورة (فاطر) ، و (٧) من سورة (الزُّمَر) و (٣٨) من سورة (النجم) .

(٢) أخرجه ابن ماجة عن علي كرم الله وجهه ، وأخرجه أبو يَعْلَى في مسنده عن أنس ، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير .

في الدنيا بشهواتك فأنا أركبك اليوم ، قال : فيحمل تمثال عمله وأوزاره على ظهره .[١]

وقوله تعالى : ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إخبارٌ عن سوء ما يأثمون مُضَمّن التعظيم لذلك والإشادة به ، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ألا فلْيُبَلِّغ الشاهد الغائب) وقوله : (ألا هل بلَّغت ؟)[٢] ، فإنما أراد الإشادة والتشهيد ، وهذا كله يتضمنه [ألا] ، وأما [ساءَ ما يَزِرُونَ] فهو خبر مجرد كقول الشاعر :

رضيتَ خُطَّةَ خَسْفٍ غيْرَ طائِلَةٍ فساءَ هَذا رضًى يا قَيْسُ غيلانا

و [ساءَ] فعل ماض ، و[مَا] فاعلةٌ به كما تقول : «ساءَني أمر كَذا» ، ويحتمل أن تجري [ساءَ] هنا مجرى (بئس) ويقدر لها ما قد يقدر لبئْس إذ قد جاءَ في كتاب الله : ﴿سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ﴾[٣]

---

(١) أخرج مثله ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي ، وأخرج مثله ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن قيس عن أبي مرزوق . (الدر المنثور ٣-٩) .

(٢) جاءَ ذلك في خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مع اختلاف الروايات في بعض الألفاظ ، ففي السيرة النبوية لابن هشام : «اللّهم هل بلّغت ؟» وأن الناس قالوا : اللّهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللّهم اشهد» .

(٣) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف) — ومعنى كلام ابن عطية أن (ساءَ) متعدية، وأن (ما) فاعل كما تقول : «ساءَني هذا الأمر» ، وأن الكلام خبر مجرد كقول الشاعر : «فساءَ هذا رضى ...» ومعنى هذا أن وزنها فَعَل بفتح العين ، و(ما) يمكن أن تكون موصولة، ويمكن أن تكون مصدرية فينسبك منها مع ما بعدها مصدر ويصير هو الفاعل أي : ألا ساءَ وِزْرُهم— وذكر وجهاً ثانياً هو احتمال أن تكون مثل (بئس) في المعنى والأحكام ، ومعنى هذا أنها حُوِّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُريد بها المبالغة في الذم . وهناك وجه ثالث ذكره أبو حيان في =

قوله عز وجلّ :

﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا ابتداءُ خبر عن حال الدنيا ، والمعنى : إنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها أشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضى .

وقرأ السِّتَّةُ من القراء : [وَلَلدَّار] بلامين ، و [الآخِرَةُ] نعت للدار ، وقرأ ابن عامر وحده : [وَلَدارُ] بلام واحدة ، وكذلك وقع في مصاحف الشام بإضافة الدار إلى الآخرة ، وهذا نحو : مسجد الجامع ، أي : مسجد اليوم الجامع ، فكذلك هذا : ولدار الحياة الآخرة . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [يَعْقِلُونَ] على إرادة الغائب . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [تَعْقِلُونَ] على إرادة المخاطبين ، وكذلك في الأعراف وفي آخر يوسف ، ووافقهم أبو بكر في آخر يوسف ، فأما [أَفَلا يَعْقِلُونَ] في [يس] فقرأه نافع وابن ذكوان بتاءٍ والباقون بياءٍ .

= «البحر» وهو أنها حوّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُشربت معنى التعجب ، والمعنى : ألا ما أسوأ ما يزرونه — على أن (ما) موصولة — أو ما أسوأ وزرهم — على أنها مصدرية — والأوجه الثلاثة يمكن ورودها في معنى البيت الذي ذكره ابن عطية ولا يتعين أن تكون (ساء) فيه خبراً مجرداً . (راجع «البحر المحيط» ٤–١٠٧، ١٠٨)

وهذه الآية تتضمن الردّ على قولهم : «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وهو المقصود بها ، ويصح أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على معنى : فقل لهم يا محمد : إذ الحال على هذه الصفة أفلا تعقلون ؟

وقوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ الآية ... (قد) الملازم للفعل حرف يجيءُ مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أو مقدراً عنده ، فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم كقولك : قد يقوم زيد ، وقد ينزل المطر في شهر كذا ، وإذا كان الفعل ماضياً أو فعل حال بمعنى المضي مثل آيتنا هذه فإن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به ، وإنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأحد المُتَوَقَّعَيْن . و [نَعْلَم] تتضمن – إذا كانت من الله تعالى – استمرار العلم وقِدَمه ، فهي تَعُمّ الماضي والحال والاستقبال ، ودخلت (أنَّ) للمبالغة في التأْكيد .

وقرأ نافع وحده : [لَيُحْزِنُكَ] من (أَحْزن) ، وقرأ الباقون : [لَيَحْزُنُكَ] من (حَزِن الرجل) ، وقرأ أبو رجاءٍ : [لِيُحْزِنْك] بكسر اللام والزاي وجزم النون ، وقرأ الأعمش : [أَنَّهُ] بفتح الهمزة [يَحْزُنك] بغير لام ، قال أبو علي الفارسي : تقول العرب : حزِن الرجل بكسر الزاي يحْزَن حَزَنا وحُزْناً ، وحَزَنْتهُ أنا . وحكي عن الخليل أن قولهم : (حَزَنْتُه) ليس هو تغيير (حَزِن) على نحو (دَخَل وأَدْخَلْتُه) ، ولكنه بمعنى: جعلت فيه حُزْناً ، كما تقول : كحَلْتُه ودَهَنْتُه ، قال الخليل : ولو أردت تغيير (حزِن) لقلت : (أَحْزَنْتُه) ، وحكى أبو زيد الأنصاري في كتاب «خباة» عن العرب : «أَحْزَنْت الرجلَ» ، قال أبو علي :

و (حَزَنْتُ) الرجل أكثر استعمالا عندهم من (أَحْزَنْتُه) ، فمن قرأ : [ليُحزِنك] بضم الياء فهو على القياس في التغيير ، ومن قرأ : [لَيَحزُنك] بفتح الياء وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال .

و ﴿الَّذي يَقُولُونَ﴾ لفظ يعُمُّ جميع أقوالهم التي تتضمن الردَّ على النبي صلى الله عليه وسلم والدَّفْع في صدر نبوته ، كقول بعضهم : إنه كذاب ، مفتر ، ساحر ، وقول بعضهم : إنه مجنون مسحور ، وقول بعضهم : له رَئِيٌّ من الجن ، ونحو هذا .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة : [لا يُكَذِّبُونَكَ] بتشديد الذال وفتح الكاف ، وقرأها ابن عباس وردَّها على قارئ عليه : [يُكَذِّبونك] بضم الياء وقال : إنهم كانوا يسمونه الأَمين ، وقرأ نافع ، والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال ، وقرأها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهما قراءتان مشهورتان صحيحتان ، واختلف المتأَولون في معناهما ـ فقالت فرقة : هما بمعنى واحد كما تقول : سقَيْت وأَسْقَيْت وقلَّلت وأَقْلَلْت وكثَّرْت وأَكْثَرتُ . وحكى الكسائي أَن العرب تقول: «كذَّبْتُ الرجل» إذا نسبت الكذب إليه ، و «أَكْذَبْتُه» إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أَن تنسبه إليه ، وتقول العرب أَيضاً : «أَكْذَبْت الرجل» إذا وجدته كذاباً ، كما تقول : «أَحْمَدْتُه» إذا وجدته محموداً ، فالمعنى على قراءة من قرأَ : [يُكَذِّبُونك] بتشديد الذال أَي : لا تحزن فإِنهم لا يُكَذِّبونك تكذيباً يضرك ، إذ لسْتَ بكاذب في حقيقتك ، فتكذيبهم كلا تكذيب ، ويحتمل أَن يريد : «فإنهم لا يُكَذِّبونك » على جهة الإِخبار عنهم أَنهم

لا يُكَذِّبون وأنهم يعلمون صدقه ونبوته ، ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً ، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار ، بل تخص الطائفة التي حكي عنها أنها كانت تقول : إنا لنعلم أن محمداً صادق ولكن إذا آمنا به فَضَلَتْنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤْمن به أبداً ، ورويت هذه المقالة عن أبي جهل ومن جرى مجراه . وحكى النقاش أن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، فإنه كان يكذِّب في العلانية ويصدِّق في السِّر ويقول : نخاف أن تتخطفنا العرب ونحن أكلة رأس [1] ، والمعنى على قراءة من قرأ : [يكْذِبونكَ] بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أولا في [يَكْذِبونكَ] أي : لا يجدونك كاذباً في حقيقتك ، ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في [يُكَذِّبونكَ] بشد الذال .

وآيات الله : علاماته وشواهد نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم ، و [يَجْحدونَ] حقيقتُه في كلام العرب : الإنكار بعد معرفة ، وهو ضد الإقرار ، ومعناه – على تأْويل من رأى الآية في المعاندين – مترتب على حقيقته ، وهو قول قتادة والسدي وغيرهما ، وعلى قول

---

(١) يريد أن عددهم قليل تشبعهم رأس واحدة ، وأَكَلَة : جمع آكل – وقيل : إن الآية نزلت في أبي جهل ، فقد سأله الأخنس بن شُرَيْق قائلا : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت الآية .

من رأى أن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أهل العناد يكون في اللفظة تجوّز ، وذلك أنهم لما أنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عبَّر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم ، إذ معجزاته وآياته نيِّرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقرَّ بها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجميع ما في هذه التأويلات من نفي التكذيب إنما هو عن اعتقاداتهم وأما أقوالهم جميعهم فمكذِّبة إمَّا له وإما للذي جاءَ به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكفر العنَاد جائز الوقوع بمقتضى النظر ، وظواهر القرآن تعطيه كقوله: ﴿وَجَحَدوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[(١)] وغيرها ، وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه ، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ولا سبيل إلى اجتماعهما ، وتأوَّلوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالى : ﴿وَجَحَدوا بِهَا﴾ : إنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها .

---

(١) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل) وهي قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ودفْع ما يُتصوَّر ويُعْقل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب ، أما إن كفر العناد من العارف بالله وبالنُّبوة بعيد لأَنه لا داعية لكفر العناد إلا الحسد ، ومن عرف الله والنُّبوة وأَن محمداً يجيئُه مَلَك من السماءِ فلا سبيل إلى بقاءِ الحسد مع ذلك ، أَما إنه جائز فقد رأَى أبو جهل على رأْس النبي صلى الله عليه وسلم فحلا عظيماً من الإبل قد همَّ بأَبي جهل ولكنه كفر مع ذلك ، وأسند الطبريُّ أَن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه الصلاة والسلام حزيناً فسأَله فقال : كذَّبني هؤلاءِ ، فقال : إنهم لا يُكَذِّبونك ، بل يعلمون أَنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، والذي عندي في كفر حُيَيّ بن أَخطب ومَن جرى مجراه أَنهم كانوا يرون صفات النبي صلى الله عليه وسلم ويعرفونها أَو أَكثرها ، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أَنفسهم بكل شبهة بأَضعف سبب ، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة : هو ذاك ، ومرة : عساه ليسه ، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة فيتزيد ويتمكن إعراضهم وكفرهم فهم على هذا ، وإن عرفوا أَشياءَ وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأَنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة وبقوا في ظلمة الجهل ، فهم جاهلون بأَشياءَ معاندون في أَشياءَ غيرها ، وأنا استبعد العناد مع المعرفة التامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذه الآية تضمنت عرض الأُسوة التي ينبغي الاقتداءُ بها على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجيته أن يأْتيه مثل ما أَتاهم من النصر إن امتثل ما امتثلوه من الصبر .

قال الضحاك وابن جريج : عزّى الله بهذه الآية نبيه صلى الله عليه وسلم ، ورُوي عن ابن عامر أَنه قرأَ : [وَأُذوا] بغير واو بعد الهمزة . ثم قوي ذلك الرجاءَ بقوله: ﴿وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾ أي : لا رادَّ لأَمره وكلماته السابقات بما يكون ، ولا مكذِّب لما أَخبر به ، فكأَن المعنى : فاصبر كما صبروا وانتظر ما يأْتي وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له ، فالقصد هنا هذا الخبر وجاءَ اللَّفظ عاماً جميع كلمات الله السابقات ، وأَما كلام الله عزَّ وجلَّ في التوراة والإنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أَنه لا مبدل لها وإنما حرفها اليهود بالتأْويل لا ببدل حروف وأَلفاظ ، وجوَّز كثير من العلماءِ أَن يكونوا بدلوا الأَلفاظ لأَنهم استُحْفِظوها ، وهو الأَظهر ، وأَما القرآن فإن الله تضمن

حفظه فلا يجوز فيه التبديل ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١] وقال في أولئك : ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾ [٢] .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي فيما أنزلناه وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أخبرناك به ، وفاعل [جَاءَكَ] مضمر على ما ذهب إليه الطبري والرمّاني تقديره : ولقد جاءك نبأٌ أو أنبـــاءٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب عندي في المعنى أن يقدر : جلاءٌ أو بيانٌ .[٣]

وقال أبو علي الفارسي : قوله: ﴿مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ في موضع رفع بـ (جاءَ) ودخل حرف الجر على الفاعل ، وهذا على مذهب الأخفش في تجويزه دخول (من) في الواجب ، ووجْه قول الرمّاني أن (من) لا تزاد في الواجب .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية . آيةٌ فيها إلزام الحجة للنبي صلى الله عليه وسلم وتقسيم الأحوال عليه حتى

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الحِجْر) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المائدة) .

(٣) قال أبو حيان بعد أن ذكر كلام ابن عطية : «والذي يظهر لي أن الفاعل مضمر تقديره : هو ، ويدل على ما دلّ عليه المعنى من الجملة السابقة ، أي : ولقد جاءك هذا الخبر من تكذيب أتْباع الرسل للرسل والصبر والإيذاء إلى أن نُصروا ، وأن هذا الإخبار هو بعض نبأ المرسلين الذين يُتَأَسَّى بهم ، و [مِنْ نَبَأ] في موضع الحال ، وذو الحال ذلك المضمر ، والعامل فيها وفيه [جاءك] . » .

يَتَبَيَّن أَن لا وجه إلا الصبر والمضي لأَمر الله تعالى ، والمعنى : إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أَعماق الأَرض أَو على ارتقاء سلم إلى السماء فدونك وشأْنك به ، أَي أَنك لا تقدر على شيءٍ من هذا ، ولابدَّ لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تبارك وتعالى للناظرين المتأَملين ، إذ هو - لا إلٰه إلا هو - لم يُرِد أَن يجمعهم على الهدى ، وإنما أَراد أَن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون ، إذ خلقهم على الفطرة وهدي السبيل وسبقت رحمتُه غضبَه ، وله ذلك كلُّه بحق ملكه فلا تكونن من الجاهلين في أَن تأْسف وتحزن على أمر أَراده الله وأَمضاه وعَلِم المصلحة فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا أُسلوب معنى الآية .

واسم [كان] يصح أَن يكون الأَمر والشأْن ، و ﴿ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ خبرها ، ويصح أَن يكون [إِعْرَاضُهُم] هو اسم [كان] ويقدر في [كَبُرَ] ضمير ، وتكون [كَبُرَ] في موضع الخبر ، والأَول من الوجهين أَقْيَس .

والنفق : السرب في الأَرض ، ومنه نافقاءُ اليربوع [1] ، والسُّلَّم : الشيءُ الذي يُصعد عليه ويُرتقى ، ويمكن أَن يشتق اسمه من السَّلامة

(١) نافقاءُ اليربوع : أحد مخارج جحره يخرج منه إذا أُخذ من جهة أُخرى ، والمخرج الثاني يُسمَّى القاصعاءُ . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه .

لأنه سببها ، وجمعه : سلاليم ، ومنه قول الشاعر :

لا يَحْجِزُ المرءَ أَحْجَاءُ الْبِلادِ وَلَا   تُبْنَى لَهُ في السَّموات السَّلالِيمُ(١)

و ﴿تَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي : بعلامة ، ويريد إما في فعلك ذلك ، أي : تكون الآية نفس دخولك في الأرض أو ارتقائك في السماء ، وإما أن تأتيهم بالآية من إحدى الجهتين ، وحذف جواب الشرط قبل في قوله : ﴿إِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ إيجازاً لفهم السامع به ، تقديره : فافعل أو فدونك كما تقدم ،

و [لَجَمَعَهُمْ] يحتمل إما بأن يخلقهم مؤمنين ، وإما بأن يكسبهم الإيمان بعد كفرهم بأن يشرح صدورهم ، و [الْهُدَى] : الإرشاد ، وهذه الآية تردُّ على القدرية المغرضة الذين يقولون : إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه ، تعالى الله عن قولهم .

و ﴿مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ يحتمل في ألا يعلم أن الله لو شاء لجمعهم ،

---

(١) البيت لابن مقبل ، وقد رواه صاحب اللسان : يُبْنَى بالياء ، وقال : احتاج فزاد الياء ، يعني في السلاليم . والأحجاء : النواحي وهي جمع حجاً . وقال الزجاج : سُمِّي السُّلَّم سُلَّماً لأنه يُسْلمك إلى حيث تريد ، وفي « المحكَم » : السُّلَّم : الدرجة والمرقاة ، يذكر ويؤنث ، وقال أبو عبيدة : السُّلَّم : السبب والمرقاة ، تقول العرب : اتَّخذني سُلَّماً لحاجتك ، أي : سبباً ، ومنه قول كعب بن زهير :

وَلا لَكُما مَنْجى مِنَ الأَرْض فَابْغِيَا   بِهِ نَفَقاً أَوْفي السَّموات سُلَّماً

ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده ، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدره الله تعالى .

ويظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1] ، وقد تقرر أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، قال مكي والمهدي : الخطاب بقوله : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أُمته ، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ ، وقال قوم : وُقِّر نوح لِسنِّه وشيبته ، وقال قوم : جاءَ الحمل أَشد على محمد صلى الله عليه وسلم لقُربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يَحْمِل المُعَاقِب على قريبه أكثر من حمله على الأَجانب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والوجه القويُّ عندي في الآية هو أَن ذلك لم يجيْ بحسب النَّبيِّين ، وإنَّما جاءَ بحسب الأَمرين اللَّذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما ، وبيَّن أَن الأَمر الذي نُهي عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدراً وأَخطر مواقعة من الأَمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم .

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (هود) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

هذا من النَّمط المتقدم في التسلية ، أي : لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول ، فعبر عن ذلك كله بـ [يَسْمَعُونَ] إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة ، وهذه لفظة تستعملها الصوفية ، إذا بلغت الموعظة من أَحد مبلغاً شافياً قالوا : سمع[١] .

ثم قال تعالى : [والموتى] يريد الكفار فعبر عنهم بضد ما عبر عن المؤْمنين ، وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تبارك وتعالى والصَّمَمِ عن وعي كلماته ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والحسن .

و ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ يحتمل معنيين ـ قال الحسن : معناه : يبعثهم الله بأَن يؤْمنوا حين يوقفهم .

---

(١) قال أكثر العلماء : إن يستجيب بمعنى : يجيب ، لكن الرماني فرق بينهما بأن (استجاب) فيه قبول لما دعي إليه، قال : ﴿فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُم﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾، وليس كذلك (أجاب) لأنه قد يجيب بالمخالفة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فتجيءُ الاستعارة في هذا التأْويل في الوجهين : في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثاً ، والواو على هذا مشركة في العامل عطفت [الْمَوْتى] على [الَّذين] . و ﴿يَبْعَثُهُم اللهُ﴾ في موضع الحال ، وكأَن معنى الآية : إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤْمنون ، والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته ، فلا تتأَسف أَنت ولا تستعجل ما لم يقدر . وقرأَ الحسن : [ثُمَّ إِليْهِ يَرْجِعُونَ][(١)] فتناسبت الآية . وقال مجاهد وقتادة : [والْمَوْتى] : يريد الكفار ، أَي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيَعون ، و ﴿يَبْعَثُهُم اللهُ﴾ أَي : يحشرهم يوم القيامة ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أَي إلى سطوته وعقابه يرجعون ، وقرأَت هذه الطائفة [يُرْجَعُونَ] بياءٍ ، والواو على هذا عاطفة جملة كلام على جملة ، و [الْمَوْتى] مبتدأٌ و [يَبْعَثُهُمُ اللهُ] خبره ، فكأَن معنى الآية : إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون ، والكفار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه ، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار ، والعائد على [الَّذين] هو الضمير في [يَسْمَعُونَ] .

والضمير في [قَالُوا] عائد على الكفار ، و [لَوْلا] تحضيض بمعنى : هلَّا ، قال الشاعر :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَني ضَوْطَرَى لوْلا الكَمِيَّ المقَنَّعا [(٢)]

---

(١) أي بفتح الياء من (رَجَعَ) اللازم ، ومعنى قوله : «فتناسبت الآية» أن (يَرجعون) بفتح الياء تناسب (يَسمعون) .

(٢) البيت لجرير يهجو قوم الفرزدق ، وكان الفرزدق يفتخر بكرم أبيه غالب ،وعقره =

ومعنى الآية : هلَّا أُنزلَ على محمد عليه الصلاة والسلام بيان واضح لا يقع معه توقف من أحد كمَلَك يشهد له أو كنز أو غير ذلك من تشطُّطهم المحفوظ في هذا ، فأُمر عليه الصلاة والسلام بالرَّد عليهم بأن الله عزَّ وجلَّ له القدرة على إنزال تلك الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها او نزلت ولم يؤْمنوا لعولجوا بالعذاب ، ويحتمل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر وللتأَمل ليهتدي قوم ويضل آخرون .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ﴾ الآية — المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته ، أي : قل لهم : إن الله قادر على أن ينزل آية إلَّا أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في ألَّا يُنَزِّل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان ، وهي أُمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر . ويحتمل أَن يريد بالمماثلة أنها في كونها أُمَماً لا غير ، كما تريد بقولك : «مررت برجل مثلك» أَي في أنه رجل ، ويصحُّ في غير ذلك من الأَوصاف

= مائة ناقة في معاقرة سُحَيْم بن وثيل الرياحي في موضع يقال له: (صوأر) على مسيرة يوم من الكوفة ، ولذلك يقول جرير أيضاً :

وقَدْ سَرَّني ألا تَعُدَّ مُجَاشِعٌ مِنَ المجْدِ إلا عَقْرَ نِيبٍ بِصَوْأَر

والنِّيب : جمع ناب ، والنَّاب : هي المُسِنَّةُ مِن النوق ، وفي الحديث : (لهم من الصدقة الثِّلْبُ والنَّاب) ، وفي المَثَل : (لا أفعل ذلك ما حنت النِّيبُ) . وبنو ضوطرى : تقال للقوم إذا كانوا لا يغنون غناءً ، والكَمِيُّ : الفارس الشجاع الجريءُ ، وجمعه : أكماءٌ . يقول : منتهى فخركم هو ذكر النوق وعقرها ، تعدون ذلك أفضل أمجادكم ، هلا عددتم الفرسان والشجعان فإن ذلك أفضل وأكرم .

إلا أَن الفائدة في هذه الآية إنما تقع بأَن تكون المماثلة في أَوصاف غير كونها أُمماً ، قال الطبري وغيره : والمماثلة في أَنها يهتبل بأَعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض على ما روي في الأَحاديث ، أَي : فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأَنتم أَحرى إذْ أَنتم مكلفون عقلاء ، وروى أَبو ذرّ أَنه انتطحت عنزان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (أَتعلمون فيم انتطحتا؟) قلنا : لا ، قال : (فإن الله يعلم وسيقضي بينهما)[١] . وقد قال مكي في[٢]: المماثلة في أَنها تَعْرِفُ الله تعالى وتَعْبُده ، وهذا قول خلف .

و [دابَّة] وزنها : فاعلة ، وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا : الأَعرج والأَبرق ، وأُزيل منه معنى الصفة ، وليست بالصفة الغالبة في قولنا : العباس والحارث ، لأَن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة . وقرأَت طائفة : [وَلا طَائِرٍ] عطفاً على اللفظ ، وقرأ إبراهيم ابن أَبي عبلة : [وَلَا طَائِرٌ] بالرفع عطفاً على المعنى ، وقرأَت فرقة : [وَلَا طَيْر] وهو جمع طائر .

وقوله : [بِجَنَاحَيْه] تأْكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في اللفظة ، فقد يقال : طائر السعد والنحس . وقال تعالى : [أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ][٣] أَي : عمله ، ويقال : «طار لفلان طائر كذا»

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وعبد الرزاق ، وابن جرير — عن أبي ذر رضي الله عنه . وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الجَمَّاء لتقتص من القَرْناء يوم القيامة) (ابن كثير) .

(٢) هكذا في جميع النسخ المخطوطة ، والظاهر أن كلمة (في) الأولى من زيادات النساخ .

(٣) من قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (الإسراء) : ﴿وكُلَّ إنْسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشوراً﴾ .

أي سهمه في المقتسمات ، فقوله تعالى : [بِجَنَاحَيْه] إخراج للطائر عن هذا كله .

وقرأ علقمةُ ، وابن هرمز : [فَرَطْنا في الكِتاب] بتخفيف الراءِ ، والمعنى واحد ، وقال النقاش : (فَرَطْنَا) مخففة : أَخَّرنا ، كما قالوا : «فَرَط الله عنك المرض» أي أزاله ، والأَول أصوب ، والتفريط : التقصير في الشيءِ مع القدرة على ترك التقصير . و [الكِتاب] : القرآن ، وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات ، وقيل : اللوح المحفوظ . و [مِنْ شَيْءٍ] – على هذا القول – عام في جميع الأَشياءِ ، وعلى القول بأَنه قرآن خاص : في الأَشياءِ التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم . و [يُحْشَرُونَ] قالت فرقة : حشر البهائم : موتها . وقالت فرقة : حشرها : بعثها . واحتجوا بالأَحاديث المضمنة أَن الله تعالى يقتص للجمَّاءِ من القَرْناءِ ، إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة ، فهو قول مردود ينحو إلى القول بالرموز ونحوها.(١)

(١) الكـــلام في حشر البهائم يوم القيـــامة طويل ، وآراء العلمـــاء فيه كثيرة ، ولكن أوضح الآراء أن المـــراد بــه البعثُ يوم القيـــامة ، وهو قول الجمهور كما قال أبو حيان ، قال الله تعالى : ﴿وإذا الوُحوشُ حُشِرَتْ﴾ ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لتؤدن الحقوق إلى أهـلها يوم القيـــامة حتى يقاد للشاة الجلماء من الشـاة القرناء) ، والجلماءُ : التي لا قرن لها ، وهو أيضاً معنى الجماء ، وأصل الحشر : الجمع ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَحَشَرَ فَنادى...﴾ ، وقول ابن عطية هنا : «إنما هي كناية عن العدل ...الخ» يحتمل أمرين– إما أنه ردٌ على كلام غيره ممن احتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله تعالى يقتص للجمَّاءِ من القرناء ، فرأيه أن هذه الأحاديث كناية عن العدل ، الخ ، وإما أنه ينقض هذا القول ويقول : إنه قول مردود ، وهذا هو رأيه الحقيقي كما يفهم من عبارته التي نقلها عنه أبو حيان في «البحر المحيط ٤–١٢١» ونصها : «قال ابن عطية : والقول في الأحاديث المتضمنة أن الله يقتص للجمَّاء من القرناء إنها كناية عن العدل وليست بحقيقة قولٌ مرذول ينحو إلى القول بالرموز ونحوها انتهى» . فقد سقطت من الكلام هنا بعض كلمات أوجدت اللبس .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) ﴾

كأَنه قال : وما من دابة ولا طائر ولا شيءٍ إلا وفيه آية منصوبة على وحدانية الله تبارك وتعالى ، ولكن الذين كذبوا صمٌّ وبُكْمٌ لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه . وظاهر الآية أنها تعُمُّ كل مكذب ، وقال النقاش : نزلت في عبد الدار [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ثم انسحبت على سواهم .

ثم بيَّن أَن ذلك حكم من الله عزَّ وجلَّ بمشيئته في خلقه فقال مبتدئاً لكلام : ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ شرط وجوابه [٢] ، وقوله :

---

(١) هو عبد الدار بن قصي بن كلاب ، أكبر أولاد أبيه ، وكان أحبهم إليه ، ولهذا جعل له الحجابة واللواء والسقاء والرفادة والندوة ، وهو أبٌ لبطن منهم عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة ، والدار في الأصل : صنم من أصنامهم كانوا يسمون به .

(٢) قال القرطبي : « دلَّ على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله ، ألا ترى أنه قال : ﴿ ومَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ أي : على دين الإسلام لينفذ فيه فضله ، وفيه إبطالٌ لمذهب القَدَرية » .

[في الظُّلُمَاتِ] ينوب عن (عُمْي) ، و [في الظُّلماتِ] أَهول عبارةً وأَفصح وأَوقع في النفس . والصراط : الطريق الواضح .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ابتداءُ احتجاج على الكفار الجاعلين لله شركاءَ ، والمعنى : أَرأَيتم إذا خفتم عذاب الله أَو خفتم هلاكاً أَو خفتم الساعة أَتدعون أَصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم : إنها آلهة ؟ بل تدعون الله الخالق الرزاق فيكشف ما خفتموه إن شاءَ وتنسون أَصنامكم أَي تتركونهم ، فعبَّر عن التَّرك بأَعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإغفال ، فكيف يُجْعل إلهاً مَنْ هذه حاله في الشدائد والأَزمات ؟

وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة : [أَرَأَيْتكم] بأَلف مهموزة على الأَصل ، لأَن الهمزة عين الفعل ، وقرأَ نافع بتخفيف الهمزة بيْن بيْن على عُرف التخفيف وقياسه ، وروي عنه أَنه قرأَها بأَلف ساكنة وحذف الهمزة ، وهذا تخفيف على غير قياس ، والكاف في (أَرأَيتك زيدا ، وأَرأَيتكم) ليست باسم ، وإنما هي مجردة للخطاب كما هي في (ذلك) و (أَبصرك زيداً) ونحوه ، ويدل على ذلك أَن (أَريت) بمعنى العلم إنما تدخل على الابتداءِ والخبر ، فالأَول من مفعوليها هو الثاني بعينه ، والكاف في (أَرأَيتك زيداً) ليست المفعول الثاني كقوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (١) ، فإذا لم تكن اسماً صح أَنها مجردة للخطاب ، وإذا تجردت للخطاب صح أَن التاءَ ليست للخطاب كما هي في (أَنت) ،

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء) .

لأَن علامتي خطاب لا تجتمع [١] على كلمة ، كما لا تجتمع علامتا تأْنيث ولا علامتا استفهام ، فلما تجردت التاءُ من الخطاب وبقيت علامة الفاعل فقط استغني عن إظهار تغيير الجمع فيها والتأْنيث لظهور ذلك في الكلام . وبقيت التاءُ على حدٍّ واحد في الإِفراد والتثنية والجمع والتأْنيث ، وروي عن بعض بني كلاب أنه قال : «أَتعلمك كان أَحد أَشعر من ذي الرمة» ؟ . فهذه الكاف صلة في الخطاب .

و ﴿أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ معناه : أَتاكم خوفه وأَماراته وأَوائله مثل الجدب والبأْساءِ والأَمراض ونحوها التي يخاف منها الهلاك ، ويدعو إلى هذا التأْويل أَنا لو قدرنا إتيان العذاب وحلوله لم يترتب أَن يقول ــ بعد ذلك ــ : ﴿فَيَكْشِفُ مَاتَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ لأَن ما قد صح حلوله ومضى على البشر لا يصح كشفه ، ويحتمل أَن يراد بـ [السَّاعَة] في هذه الآية ساعة موت الإِنسان .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ الآية ــ المعنى : بل لا ملجأً لكم إلا الله ، وأَصنامكم مطرحة منسية ، و [ما] بمعنى الذي تدعون إليه من أَجله ، ويصح أَن تكون [ما] ظرفية ، ويصح أَن تكون مصدرية على حذف في الكلام ، قال الزجاج : هو مثل : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[٢] ، والضمير في [إِلَيْهِ] يحتمل أَن يعود إلى الله تعالى بتقدير : فيكشف ما تدعون فيه إلى الله تعالى[٣] ، ويحتمل أَن يعود على [ما] بتقدير:

(١) واضح أن صحتها : لا تجتمعان ، والخطأ قطعاً من النساخ .
(٢) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .
(٣) قال أبو حيان: «وهذا ليس بجيِّد لأن (دعا) بالنسبة إلى مجيب الدعاءِ إنما يتعدى =

فيكشف ما تدعون إليه ، و [إِنْ شَاءَ] استثناءٌ ، لأَن المحنة إذا أَظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو ـ لا إلٰه إلا هو ـ كاشف إن شاء ومصيب إن شاء ، لا يجب عليه شيءٌ . وتقدم معنى : [تَنْسَون]. و[إِيَّاهُ] اسـم مضمر أُجـري مجرى المظْهـرات في أَنه يضـاف أَبداً ، وقيل : هو مبهم ، وليس بالقوي لأَن الأَسماء المبهمة مُضَمَّنة الإِشارة إلى حاضر نحو : ذاك وتلك وهؤلاء ، و (إِيَّا) ليس فيه معنى الإِشارة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره : فكذبوا فأَخذناهم ، ومعناه : لازمناهم وتابعناهم الشيءَ بعد الشيءِ . والبأْساءُ : المصائب في الأَموال ، والضَّرَّاءُ : في الأَبدان ، هذا قول الأَكثر ، وقيل :

=لمفعول به دون حرف جر.قال تعالى: ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكُمْ ﴾ وقال: ﴿ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاع إذا دَعَان ﴾ ، ومن كلام العرب : دعوت الله سميعاً ، ولا تقول بهذا المعنى : دعوت إلى الله بمعنى « دعوت الله » .

قد يوضع كل واحد بدل الآخر ، ويؤَدب الله عباده بالبأْساءِ والضراءِ ، ومن هنالك أَدَّب العُبَّادُ نفوسهم بالبأْساءِ في تفريق المال والضراءِ في الحمل على البدن في جوع وعري .

والترجِّي في [لعَلَّ] في هذا الموضع إنما هو على معتقد البشر ، أَي : لو رأَى أَحد ذلك لرجا تضرعهم بسببه ، والتضرع : التذلل والاستكانة ، وفي المثل : «إن الحمى أَضْرَعَتْني لَكَ»[1] ومعنى الآية توَعُّد الكفار وضرْب المثل لهم . و [لَوْلَا] تحضيض وهي التي تلي الفعل بمعنى (هلَّا) ، وهذا على جهة المعاتبة لمذنب غائب ، وإظهار سوءِ فعله مع تحسُّر مّا عليه ، والمعنى : إذ جاءَهم أَوائل البأْس وعلاماته وهو تردد البأْساءِ والضراءِ . و [قَسَتْ] معناه : صلبت وهي عبارة عن الكفر ، ونسب التزيين إلى الشيطان وقد قال تعالى في آية أُخرى : ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[2] لأَن تسبب الشيطان ووسوسته تجلب حسن الكفر في قلوبهم ، وذلك المجلوب الله يخلقه ، فإن نُسب إلى الله تعالى فبأَنه خالقه ، وإلى الشيطان فبأَنه سببه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية ... عبَّر عن الترك بالنسيان إذا بلغ وجوه الترك الذي يكون معه نسيان ، وزوال المتروك عن الذهن ، وقرأَ ابن عامر فيما روي عنه : [فَتَّحْنَا] بتشديد التاءِ ، و [كُلِّ

---

(١) ويرْوى : «لك يا فراش» ويُروى : «لكِ يا قطيفة» ويُضرب لمن يذل في حاجة تنزل به ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ولكنَّ حُمَّى أَضْرَعَتْني ثلاثةً　　مجرمة ثمَّ استَمَرَّتْ بنا غبّا

(٢) من الآية (١٠٨) من سورة (الأنعام) .

شَيْءٍ] معناه : مما كان سُدَّ عليهم بالبأْساءِ والضراءِ من النعم الدنيوية ، فهو عموم معناه خصوص . و [فَرِحُوا] معناه : بطروا وأَشروا وأُعجبوا وظنوا أَن ذلك لا يبيد ، وأَنه دال على رضى الله عنهم وهو استدراج من الله تبارك وتعالى ، وقد روي عن بعض العلماءِ أَنه قال : «رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ .» وقال محمد بن النضر الحارثي : أَمهل هؤلاءِ القوم عشرين سنة ، وروى عقبة بن عامر أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأَيتم الله يعطي العباد ما يشاؤُون على معاصيهم فذلك استدراج ، ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية كلها) (١) .

و [أَخَذْنَاهُمْ] ــ في هذا الموضع ــ معناه : استأْصلناهم وسطونا بهم ، و [بَغْتَةً] معناه : فجأَة ، والعامل فيه [أَخَذْنَاهُمْ] ، وهو مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه ، والمُبْلِس : الحزين الباهت اليائس من الخير الذي لا يُحير جواباً لشدة ما نزل به من سوءِ الحال (٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان مع بعض التغيير في الألفاظ ، ورمز له في « الجامع الصغير » بأنه حديث حسن .

وفي نفس المعنى قال الحسن : « والله ما أَحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه . وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه » .

(٢) وجاء على هذا المعنى قول العجّاج :

يا صاح هَلْ تعْرفُ رسْماً مُكْرَساً ؟ قال نعم أعْرفُهُ وأَبْلَسَا =

وقوله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية . الدابر : آخر الأَمر الذي يَدْبُرُه أَي : يأْتي من خلفه ، ومنه قول الشاعر :

فَأُهْلِكُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دابِرَهُم   فما استطاعوا لَهُ دفْعاً ولا انْتَصَرُوا[1]

وقول الآخر :

وقد زعمت عُلْيا بغيضٍ وَلِفُّها   بِأَنِّي وَحيدٌ قَدْ تَقَطَّع دَابِري[2]

وهذه كناية عن استئصال شأْفتهم ومحو آثارهم كأَنهم وردوا العذاب حتى ورد آخرهم الذي دَبَرهم ، وقرأ عكرمة : [فَقَطَع] بفتح القاف والطاءِ [دَابِرَ] بالنصب .

وحَسُنَ الحمد عقب هذه الآية لجمال الأَفعال المتقدمة في أن أَرسل الرسل ، وتَلَطَّف في الأَخذ بالبأْساءِ والضراءِ ليتضرع إليه فيرحم ويُنعم ، وقطع في آخر الأَمر دابر ظلمة ، وذلك حَسَنٌ في نفسه ونعمة على المؤمنين فحُسْن الحمد يعقب هذه الأَفعال ، وبحمد الله ينبغي أَن يختم كل فعل وكل مقالة لا ربّ غيره .

= أي : تحيَّر لهول ما رأي وسكت غمّاً، ومن ذلك اشتق اسم (إبليس) ، والمُكْرس : الذي صار فيه الكِرْس (بالكسر) وهو أبْوال الإبل وأبْعارها التي يتلبَّد بعضُها على بعض في الدار والدِّمَن .

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت ، وقد روي في « القرطبي » وفي « البحر المحيط » : « فما استطاعوا له صرفاً » ومعنى حَصّ : استأصل .

(٢) لم نعثر على هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا ، ولم يستشهد به أحد من المفسرين المشهورين ، ولم يذكره في اللسان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا ابتداءُ احتجاج على الكفار ، و [أَخَذَ اللهُ] معناه : أَذهبه وانتزعه بقدرته ، ووحَّد السمع لأَنه مصدر مفرد يدل على جمع ، والضمير في [به] عائد على المأْخوذ ، وقيل : على السمع ، وقيل : على الهدى الذي يتضمنه المعنى ، وقرأ الأَعرج وغيره : [بهُ ٱنْظُر] بضم الهاء ، ورواها المسيبي ، وأَبو وقرة عن نافع ، و [يَصْدفونَ] معناه : يعرضون وينفرون ، ومنه قول الشاعر :

إذَا ذَكَرْنَ حَديثاً قُلْن أَحْسَنَـهُ وهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ[1]

قال النقاش : في الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمه هنا ، ثم احتج لذلك بقوله : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ﴾ وبغير ذلك .

---

(١) هذا البيت لِعَدِيٍّ بن الرقاع . والمعنى : يُعْرِضْنَ عن كل سُوءٍ يتحاشاه الناس ، وفي المعنى جاء قوله تعالى : ﴿ سَنَجْزِي الَّذين يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُون ﴾ أي : يُعرضون وينفرون .

والاستفهام في قوله : [مَنْ إِلٰهٌ] معناه التوقيف ، أي : ليس ثَمَّة إلٰه سواه فما بال تعلقكم بالأصنام وتمسككم بها وهي لا تدفع ضرراً ولا تأتي بخير ؟ وتصريف الآيات هو نَصْب العِبَر ومجيءُ آيات القرآن بالإنذار والإعذار والبشارة ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الآية ، وعيد وتهديد . و [بَغْتَةً] معناه : لا يتقدم عندكم منها علم ، و [جَهْرَةً] معناه : تبدو لكم مخايله ومباديه ثم تتوالى حتى تنزل . قال الحسن بن أبي الحسن : [بَغْتَةً] فجأة ، و [جَهْرَةً] نهاراً ، قال مجاهد : [بَغْتَةً] فجأة آمنين ، و [جَهْرَةً] وهم ينظرون .

وقرأ ابن مُحَيْصِنْ : [هَلْ يهْلِكُ] على بناء الفعل للفاعل ، والمعنى : هل تهلكون إلا أنتم لأن الظلم قد تبين في حيّزكم . و [هَلْ] ظاهرها الاستفهام ومعناها التسوية المضمنة للنفي ، ولا تكون التسوية بها إلا في النفي ، وتكون بالألف في نفي وفي إيجاب .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية . المعنى : إنما نرسل الأنبياء المخصوصين بالرسالة ليبشروا بإنعامنا ورحمتنا لمن آمن ، وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ولسنا نرسلهم ليقترح عليهم الآيات ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق . ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن وأصلح في امتثال الطاعات ، وأوعد الذي سلك طريق النذارة فكذب بآيات الله وفسق أي : خرج عن الحدِّ في كفرانه

وعصيانه ، وقال ابن زيد : «كل فسق في القرآن فمعناه الكذب» ، ذكره عنه الطبري مسنداً ، و [يَمَسُّهُم] أي : يباشرهم ويلصق بهم . وقرأ الحسن والأعمش [الْعَذاب بِما] بإدغام الباء في الباء ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : [يَفْسِقون] بكسر السين ، وهي لغة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

هذا من الردّ على القائلين : «لولا أُنزل عليه آية» والطالبين أن ينزل ملك أو تكون له جنة أو أكثر أو نحو هذا ، والمعنى : لستُ بهذه الصفات فيلزمني أن أُجيبكم باقتراحاتكم .

وقوله : ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يحتمل معنيين أظْهرهما : أنه يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئاً مما غيب عنه ، والآخر : أنه ليس بإلٰه ، فكأنه قال : لا أقول لكم إني أتَّصف بأوصاف إلٰه في أن عندي خزائنه وأني أعلم الغيب . وهذا هو قول الطبري .

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أن المَلَك أفضل من البشر ، وليس ذلك بلازم في هذا الموضع ، وإنما الذي يلزم منه أن المَلَك أعظم موقعاً في نفوسهم وأقرب إلى الله ، والتفضيل يعطيه المعنى عطاءً خفياً ، وهو ظاهر من آيات أُخر ، وهي مسألة خلاف[1] .

و [مَا يُوحَى] يريد القرآن وسائر ما سيأتي به المَلَك ، أي : وفي ذلك عِبَرٌ وآيةٌ لمن تأمل ونظر .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ الآية . أي : قل لهم : إنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات مع المُعْرِض الكافر المهمل للنظر ، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر ، أي : ففكّروا أنتم وانظروا ، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتخصيص .

[وَأَنْذِرْ] عطف على [قُلْ] ، والنبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بإنذار جميع الخلائق ، وإنما وقع التخصيص هنا بحسب المعنى الذي قصد ، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليأس في الأغلب عن هؤلاءِ الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً : ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ

---

(١) احتج من فضل الملائكة بأنهم: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ و﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرون﴾ و﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يكونَ عَبْداً لله وَلا الملائِكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾ ــ وبآيتنا هذه : ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ﴾ وبما ورد في البخاري : يقول الله عزّ وجلّ : «مَنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم» ــ واحتج من فضّلَ بني آدم بقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيئَةِ﴾ بالهمز ، من : برأ الله الخلق ، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يُباهي بأهل عرفات الملائكة . وقال بعض العلماءِ : لا طريق إلى القطع برأي في ذلك لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة ، وليس ها هنا شيءٌ من ذلك . وهناك من يفرق بين الأنبياء والأولياء من البشر ومن الملائكة وبين سائر الناس . والله أعلم .

لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] ، فكأنه قيل له هنا : قل لهؤلاء الكفرة المعرضين كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم ، وأنذر بالقرآن هؤلاء الآخرين الذين هم مظنّة الإيمان وأهل للانتفاع ، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم ، بل الإنذار العام ثابت مستقر[٢] ، والضمير في [بِهِ] عائد على [مَا يُوحَى] ، و [يَخَافُونَ] على بابها في الخوف ، أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك ، وربَّ متحقق لشيء مخوف وهو ـ لِقِلَّةِ النظر والحزم ـ لا يخافه ولا يستعدُّ له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال الطبري : وقيل : [يَخَافُونَ] هنا بمعنى يعلمون ، وهذا غير لازم ، وقوله : ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعُمّ بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني .

وقوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يحتمل معنيين ـ فإن جعلناه داخلا في الخوف كان في موضع نصب على الحال ، أي: يخافون أن يحشروا في حال مَنْ لا وليَّ له ولا شفيع ، فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناءُ الله ونحو هذا من الأباطيل ، وإن جعلنا قوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إخباراً من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامةٌ

(١) من الآية (٦) من سورة (البقرة) .

(٢) روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الموالي ، منهم بلال ، وصهيب ، وخبَّاب ، وعمار ، ومهجع ، وسلمان ، وعامر بن فهيرة ، وسالم مولى أبي حذيفة . تفسير «البحر المحيط» .

للمسلمين وأهل الكتاب ، و [لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] ترجّ على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المراد بـ [الَّذينَ] ضعفة المؤْمنين في ذلك الوقت في أُمور الدنيا : بلال وعمار وابن أُم عبد ومرثد الغنوي وخباب وصهيب وصبيح وذو الشمالين والمقداد ونحوهم .

وسبب الآية أَن الكفار قال بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن لشرفنا وأَقدارنا لا يمكننا أَن نختلط بهؤُلاءِ ، فلو طردتهم لاتَّبعناك وجالسناك ، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود.[1] وقيل : إنما قال هذه المقالة أَبو طالب على جهة النصح للنبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية — عن عبد الله بن مسعود — قال : مرَّ الملأُ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب ، وعمار ، وبلال ، وخباب ، ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤُلاءِ منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فأنزل فيهم القرآن : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذينَ يخافونَ أنْ يُحْشَروا إلى رَبِّهم ﴾ إلى قوله : ﴿ والله أعلم بالظَّالِمينَ ﴾ — (الدر المنثور ٣ — ١٢ ، ١٣) . هذا وقد روي مثل هذا الحديث عن عكرمة ، وعن خباب ، وعن مجاهد ، وعن الربيع بن أنس .

قال له : او أزلت هؤُلاءِ لاتّبعك أشراف قومك . وروي أن ملأً قريش اجتمعوا إلى أبي طالب في ذلك ، وظاهر الأمر أنهم أرادوا بذلك الخديعة ، فصوب هذا الرأيَ من أبي طالب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من المؤمنين فنزلت الآية .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن بعض الكفار إنما طلب أن يُؤخر هؤُلاءِ عن الصف الأول في الصلاة ، ويكونون هم موضعهم ويؤمنون إذا طرد هؤُلاءِ من الصف الأول فنزلت الآية . أسند الطبري إلى خباب بن الأرت أن الأقرع بن حابس ومن شابهه من أشراف العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا منك مجلساً لا يخالطنا فيه العُبُد والحلفاءُ ، واكتب لنا كتاباً فهَمَّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فنزلت الآية [١] .

(١) أخرجه بن أبي شيبة ، وابن ماجة ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل — عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزراري فوجدا النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب في أُناس ضعفاءَ من المؤْمنين ، فلما رأوهم حوله حَقّروهم ، فأتوه فخلوا به فقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضْلنا ، فإن وفود العرب ستأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤُلاءِ الأعْبُد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً ، فدعا بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعونَ رَبَّهُمْ بالغَداة والعَشي ﴾ إلى قوله: ﴿ فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناهُ وهو يقول : سلامٌ عَلَيكُم كَتَبَ ربّكُم على نفسه الرَّحْمَة ، فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿ واصْبِـر نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يدْعونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ ﴾ الآية ، قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد (ذلك) فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم . (الدر المنثور).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأويل بعيد في نزول الآية ، لأن الآية مكية وهؤلاءِ الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة . وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم ، ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة اللّهم إلا أن تكون الآية مدنية ، قال خباب رضي الله عنه : ثم نزلت ﴿وإذا جَاءَكَ الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ، فكنا نأتي فيقول لنا : (سلامٌ عليكم) ونقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1] الآية ، فكان يقعد معنا ، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم .

و ﴿يَدْعونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن : المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشيا . وقيل : بل قوله : ﴿بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به ، كما تقول : الحمد لله بكرة وأصيلا ، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت ، والمراد ــ على هذا التأويل ــ قيل : هو الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس وإبراهيم ، وقيل : الدعاءُ وذكر الله واللفظة على وجهها . وقال بعض القصاص : إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشيا ، فأنكر ذلك ابن المسيب ، وعبد الرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا : إنما الآية في الصلوات في الجماعة . وقيل : قراءَة القرآن وتعلمه ، قاله أبو جعفر ، ذكره الطبري ، وقيل : العبادة ، قاله الضحاك .

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الكهف) .

وقرأ أَبو عبد الرحمن ، ومالك بن دينار ، والحسن ، ونصر ابن عاصم ، وابن عامر : [بالغُدْوَةِ والْعَشِيِّ] ، وروي عن أَبي عبد الرحمن [بالغُدُوِّ] بغير هاءٍ ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : [بِالغُدُواتِ والعَشِيَّات] بـأَلف فيهما على الجمع . وغدوة : معرفة لأَنها جعلت علماً لوقت من ذلك اليوم بعينه ، وجاز إِدخال الأَلف واللام عليها كما حكى أَبو زيد : « لقيته فينةَ » غير مصروف ، و « الفينة بعد الفينة » فأَلحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة ، وحملاً على ما حكاه الخليل أَنه يقال : « لقيته اليوم غدوةً » منوناً ، ولأَن فيها مع تعيين اليوم إِمكان تقدير معنى الشياع ، ذكره أَبو علي الفارسي .

و [وَجْهَهُ] ـ في هذا الموضع ـ معناه : جهة التزلُّف إِليه ، كما تقول : « خرج فلانٌ في وجه كذا » أَي : في مقصد وجِهَة .

و ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) معناه : لم تكلَّف شيئاً غير دعائهم فتقدم أَنت وتؤخر ، ويظهر أَن يكون الضمير في [حِسَابِهِمْ] و [عَلَيْهِم] للكفار الذين أَرادوا طرد المؤمنين ، أَي : ما عليك منهم آمنوا أو كفروا فتطرد هؤلاءِ رعياً لذلك ، والضمير في [فتطردهم]

(١) من اللطائف الدقيقة ما ذكره صاحب « البحر المحيط » هنا حيث قال : « وانظر إلى حسن اعتنائه تعالى بنبيِّه وتشريفه بخطابه حيث بدأ به في الجملتين معاً فقال : ﴿ما عليْكَ مِنْ حِسابِهِم مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم قال : ﴿وَمَا مِنْ حِسابِكَ عليْهِم مِنْ شَيْءٍ﴾ فقدم خطابه في الجملتين ، وكان مقتضى التركيب الأول ـ لو لوحظ ـ أن يكون التركيب الثاني : « وما عليهم من حسابك من شيء » لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم ، واعتناءً بمخاطبته ، وفي هاتين الجملتين ردّ العجز على الصدر ، ومنه قول الشاعر :

لَيْسَ الَّذي حلَّلْتَه بِمُحَلَّلٍ ... ولَيْسَ الَّذي حَرَّمْتَهُ بِمُحَرَّم

عائد على الضعفة من المؤمنين . ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها ، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين . وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا ، أي : لا ترزقهم ولا يرزقونك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا تجيءُ الضمائر كلها للمؤمنين ، وذكره المهدوي ، وذُكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور ، و [من] الأُولى للتبعيض والثانية زائدة مؤكدة ، وقوله : [فَتَطْرُدهم] جواب النفي في قوله : [ما عَلَيْكَ] ، وقوله : [فتكُونَ] جواب النهي في قوله : [وَلَا تَطْرُد] . و [مِنَ الظَّالِمينَ] معناه : الذين يضعون الشيءَ غير مواضعه .(١)

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية . [فَتَنَّا] ـ في هذه الآية ـ معناه : ابتلينا ، فابتلاءُ المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى ، وابتلاءُ المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيِّه قدراً ومنزلة . والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة ، و [لِيَقولوا] معناه : ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا ، فهي لام الصيرورة كما قال تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ

(١) وحاشا أن يقع الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وإنما هذا بيان للأحكام ، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل الإسلام ، وهذا مثل قوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ، وقد علم الله منه أنه لا يُشرك و لا يَحْبَط عمله .

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[١] أي : ليصير مآله أن يكون لهم عدوا ، وقول المشركين -على هذا التأْويل- :﴿أَهؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزء ، ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في [لِيَقولُوا] على بابها في لام (كي) ، وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها ، وتكون سبب إيمان مَنْ سبق إيمانه منهم ، فمعنى الآية - على هذا التأْويل - : وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ، ويكون سبب نظر لمن هدي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتأْويل الأول أسبق ، والثاني يتخرَّج ، و [مَنَّ] على كلا التأْويلين إنما هي على معتقد المؤمنين ، أي : هؤلاءِ منَّ الله عليهم بزعمهم أن دينهم مِنَّة .

وقوله : ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي : يأَيها المسْتَخِفُّونَ أَو المتعجِّبون - على التأْويل الآخر - ليس الأَمر أمر استخفاف ولا تعجُّب ، فالله أَعلم بمن يشكر نعمته ، وبالمواضع التي ينبغي أَن يوضع فيها فجاءَ إعلامهم بذلك في لفظ التقدير ، إذ ذلك بيِّن لا تمكنهم فيه معاندة[٢] .

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص) .

(٢) الاستفهام في قوله سبحانه : ﴿أَلَيْسَ اللهُ بأَعْلَمَ بالشَّاكرين﴾ ؟ معناه التقرير والرد على القائلين : ﴿أَهؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِم مِنْ بَيْننا﴾ .ولفظ الشكر هنا في غاية من الحُسْن ، إذ قد تقدم في قولهم « مَنَّ » بمعنى أَنْعَمَ فناسب الإنعام لفظ الشكر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾

قال جمهور المفسرين : [الَّذينَ] يراد بهم القوم الذين كانوا عُرض طردهم فنهى الله عزَّ وجلَّ عن طردهم ، وشفع ذلك بأَن أمر بأَن يسلِّم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤْنسهم .

وقال عكرمة ، وعبد الرحمن بن زيد : [الَّذينَ] يراد بهم القوم من المؤْمنين الذين صوَّبوا رأْي أَبي طالب في طرد الضعفة فأَمر الله نبيَّه أَن يسلِّم عليهم ويُعْلِمَهم أَن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوءِ وغيره .

وأَسند الطبري عن ماهان أَنه قال : نزلت الآية في قوم من المؤْمنين استفتوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهي ـ على هذا ـ تعم جميع المؤْمنين دون أَن تُشير إلى فرقة .

وقال الفُضَيل بن عِيَاض : قال قوم للنبي صلى الله عليه وسلم : إنَّا قد أَصبنا ذُنوباً فاستغفر لنا . فأَعرض عنهم ، فنزلت الآية .

وقوله : [بِآيَاتِنَا] يعُمُّ آيات القرآن وأيضاً علامات النبوة كلها . و ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ابتداءٌ ، والتقدير : سلام ثابت أو واجب عليكم ، والمعنى : أَمَنَةٌ لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، وقيل : المعنى : إن الله يسلِّم عليكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاه المهدوي . ولفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاءُ ، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداءُ بالنَّكرة إذ قد تخصصت ، و [كَتَبَ] بمعنى أوجب ، والله تعالى لا يجب عليه شيءٌ عقلاً إلا إذا أعلمنا أنه قد حتم بشيءٍ ما فذلك الشيءُ واجب . وفي : أين هذا الكتاب ؟ اختلاف ـ قيل : في اللوح المحفوظ ، وقيل : في كتاب غيره لقوله عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري : (إنَّ الله تبارك وتعالى كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش : إنَّ رحمتي سبقت غضبي) . (١)

---

(١) الحديث في الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ماحدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي) . وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم ابن أبان عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم : عتقاء الله) . (ابن كثير) .

وقرأ عاصم ، وابن عامر : [أنّه] بفتح الهمزة في الأُولى والثانية ، فـ [أَنَّه] الأُولى بدل من [الرَّحْمَة] و [أنَّه] الثانية خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : فأمره أنه غفور رحيم ، هذا مذهب سيبويه . وقال أبو حاتم : [فأنَّه] ابتداءٌ ، ولا يجوز هذا عند سيبويه ، وقال النحاس : هي عطف على الأُولى وتكرير لها لطول الكلام ، قال أبو علي : ذلك لا يجوز لأَن [مَنْ] لا يخلو أن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إلى خبر ، أو تكون شرطية فتحتاج إلى جواب ، وإذا جعلنا [فَأَنَّه] تكريراً للأُولى عطفاً عليها بقي المبتدأُ بلا خبر ، أو الشرط بلا جواب ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [إِنَّهُ] بكسر الهمزة في الأُولى والثانية ، وهذا على جهة التفسير لِ [الرَّحْمة] في الأُولى والقطع فيها ، وفي الثانية – إما في موضع الخبر أو موضع جواب الشرط ، وحكم ما بعد الفاءِ إنما هو الابتداءُ ، وقرأ نافع بفتح الأُولى وكسر الثانية ، وهذا على أن أَبْدل من [الرَّحمة] واستأْنف بعد الفاءِ ، وقرأت فرقة بكسر الأُولى وفتح الثانية ، حكاه الزهراوي عن الأَعرج ، وأَظُنُّه وهماً لأَن سيبويه حكاه عن الأَعرج مثل قراءة نافع ، وقال أَبو عمرو الداني : قراءة الأَعرج ضد قراءة نافع .

والجهالة – في هذا الموضع – تعُمُّ التي تُضاد العِلْم والتي تُشَبَّه بها ، وذلك أَن المتعمِّد لفعل الشيء الذي قد نهي عنه تشمل معصيته تلك جهالة ، إذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم . قال مجاهد : «من الجهالة أَلَّا يعلم حلالا من حرام ، ومن جهالته أَن يركب الأَمر» .

ومن هذا الذي لا يُضاد العِلْم قول النبي صلى الله عليه وسلم في استعاذَته : (أَنْ أَجْهل أو يُجْهل عَلَيّ)[(١)] ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[(٢)]

والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملة ، والجهالة الحقيقية يعذر بها في بعض ما يخف من الذنوب ، ولا يعذر بها في كبيرة .

والتوبة : الرجوع ، وصِحَّتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه .

والإشارة بقوله : [وكَذَلِكَ] إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤْمنين وبيان فساد منزع العارضين لذلك . وتفصيل الآيات : تَبْيينُها وشرحها وإظهارها ، واللام في قوله : [ولِتَسْتَبينَ] متعلقة بفعل مضمر تقديره : «ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها» .

وقرأ نافع : [وَلِيَسْتَبِينَ] بالياء أي النبي صلى الله عليه وسلم [سَبيلَ] بالنصب ، حكاه مكي في «المشكل» له ، وقرأ ابن كثير ،

---

(١) الحديث : (اللّهمّ إني أعوذ بك أن أجهل أو يُجهل عليّ إلى آخره) . رواه ابن ماجة في (دعاء) ، وأبو داود في (الأدب) والنسائي في (الاستعاذة) والترمذي في (دعوات) .

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ولا تُبْقِي خُمورَ الأنْدَرِينَا

ومعنى قوله : «فنجهلَ فوقَ جهْل الجاهلينا» أننا نهلكهم ونعاقبهم بما هو أعظم من جهلهم ، وقد نسب الجهل إلى نفسه وهو يريد المعاقبة الشديدة ليزدوج اللفظان فتكون اللفظة الثانية مثل اللفظة الأولى مع اختلاف المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيْه بمثْل ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فسمّى المعاقبة على العدوان عدواناً مع أن هذه المعاقبة عدل وحق ، وقال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ والثانية ليست سيئة في الحقيقة .

وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ برفع (السبيل) وتأنيثها ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿وليَسْتَبينَ سَبيلُ﴾ برفع (السبيل) وتذكيرها ، وعرب الحجاز تؤنث (السبيل) ، وتميم وأهل نجد يذكّرونها . وخص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال ، وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات ردّ عليهم ، وأيضاً فتبْيين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤْمنين ، وتأول ابن زيد أن قوله : [الْمُجْرِمينَ] يعني به الآمرين بطرد الضعفة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهرهم بالتّبري مما هم فيه ، و [أَنْ أَعْبُدَ] هو بتأْويل المصدر ، والتقدير : «عن عبادة» ، ثم حذف الجار فتسلط الفعل ، ثم وضع [أَنْ أَعْبُدَ] موضع المصدر. وعبَّر عن الأَصنام بـ [الَّذين] على زعم الكفار حين أَنزلوها منزلة من

يعقل ، و[تَدْعُونَ] معناه : تعبدون ، ويحتمل أن يريد : تدعون في أُموركم ، وذلك من معنى العبادة واعتقادها آلهة .

وقرأ جمهور الناس : [قد ضَلَلْتُ] بفتح اللام ، وقرأ يحيي ابن وثاب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وطلحة بن مصرف : [ضَلِلْتُ] بكسرها ، وهما لغتان ، و [إذاً] في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها ، فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير : «إن فعلت ذلك» . و [أَهْواء] جمع هوى وهو الإرادة والمحبة في المرديات من الأُمور ، هذا غالب استعمال الهوى ، وقد تقدم .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ الآية . هذه الآية تمادٍ في إيضاح مباينته لهم ، والمعنى : «قل إني على أمر بيِّن » ، فحذف الموصوف ثم دخلت هاءُ المبالغة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[1] ، ويصح أَن تكون الهاءُ في [بَيِّنَة] مجردة للتأْنيث ، وتكون بمعنى البيان كما قال : ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] ، والمراد بالآية : إني أَيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلْم علَى بيِّنة من ربي . [وَكَذَّبْتُم بِهِ] الضمير في [بِهِ] عائد على (بيِّن) في تقدير هاءِ المبالغة ، أَو على البيان التي هي (بيِّنة) بمعناه في التأْويل الآخر ، أَو على الرَّبّ ، وقيل : على القرآن وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه الصلاة والسلام فيصح عود الضمير عليه .

---

(١) الآية (١٤) من سورة (القيامة) . (٢) من الآية (٤٢) من سورة (الأنفال) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وللنبي عليه الصلاة والسلام أُمور أُخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها ، كتكليم الحجارة له ، ورؤيته للملَك قبل الوحي ، وغير ذلك .

وقال بعض المفسرين : الضمير في [بِهِ] عائد على [ما] والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين ، وقيل : المراد بها العذاب ، وهذا يترجح بوجهين : أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله : [وَكَذَّبْتُمْ بِهِ] يتضمن أنكم واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي ، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأْت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب ، لأَن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال . وقوله : ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ﴾ أي القضاءُ والإنفاذُ ، [يَقُصُّ الْحَقَّ] أي يخبر به . والمعنى : يقص القصص الحق .

وهذه قراءة ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وابن عباس . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، [يَقْضِ الْحَقَّ](١)

(١) [يَقْضِ] بالضاد المعجمة ، قال القرطبي : «وكذلك قرأ علي رضي الله عنه ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ ، وسعيد بن المسيّب ، وهو مكتوب في المصحف بغير ياءٍ ، ولا ينبغي الوقوف عليه ، وهو من القضاءِ» . وقال الفخر الرازي : «[يقض] بغير ياءٍ ، لأَنها سقطت لالتقاءِ الساكنين ، كما كتبوا [سَنَدْعُ الزَّبانِية] و [فَمَا تُغْنِ النُّذُر] .

وفي «البحر المحيط» : [يقضي الحَقّ] هي قراءة العربيين والأخوين ، أي : يقضي القضاءَ الحق في كل ما يقضي فيه من تأخير أو تعجيل . وضمّن بعضهم [يقضي] معنى (ينفذ) فعداه إلى مفعول به ، وقيل : يقضي بمعنى يصنع ، أي كل ما يصنعه فهو حق . قال الهذلي :

وعلَيْهما مَسْرودتان قَضاهُمَا داودُ أَوْ صَنَعَ السَّوابغَ تُبَّعُ =

أي : ينفذه . وترجح هذه القراءة بقوله : [الْفَاصِلِينَ] لأن الفصل مناسبٌ للقضاء ، وقد جاء أيضاً الفصل والتفصيل مع القصص . وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْفَاصِلِينَ] ، قال أبو عمرو الداني : وقرأ عبد الله ، وأُبي ، ويحيى بن وثاب ، وإبراهيم النخعي ، وطلحة ، والأعمش : [يَقْضِي بِالْحَقِّ] بزيادة باء الجر ، وقرأ مجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لوْ أَنَّ عِنْدي﴾ الآية . المعنى : لو كان عندي الآيات المقترحة ، أو العذاب — على التأويل الآخر — لَقُضِي الأَمر ، أي لَوَقع الانفصال ، وتم النزاع لظهور الآية المقترحة ، أو لنزول العذاب ، بحسب التأويلين . وحكى الزهراوي أن المعنى : لقامت القيامة ، ورواه النقاش عن عكرمة ، وقال بعض الناس : معنى ﴿لَقُضِيَ الأَمْر﴾ أي : لَذُبِحَ المَوْتُ.(١)

= أي : صنعهما، وقيل : حذف الباء والأصل : [بالْحَق] ويؤيده قراءة عبد الله ، وأُبي ، وابن وثاب ، والنَّخعي ، وطلحة ، والأعمش : [يَقْضِي بالحَقّ] بباء الجر ، وسقطت الباء خطّاً لسقوطها لفظاً لالتقاء الساكنين » .

(١) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل أهل الجنَّة الجنّة وأهل النَّار النار يُجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح — هو الذي بياضه أكثر من سواده ، وقيل: النقي البياض — فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يأهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال : ثم يقال : يأهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يأهل الجنة خلود فلا موت ، ويأهل النار خلود فلا موت) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهُمْ=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف جداً ، لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾(١) وذَبْح الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضع دون شبه ، وأسند الطبري هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة ، والظن بابن جريج أنه إنما فسَّر الذي في يوم الحسرة ، ﴿واللهُ أَعْلَمُ بالظَّالِمينَ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

[مَفَاتح] جمع مِفْتَح(٢) ، وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ،

=في غَفْلَةٍ وهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾. ــ وقد خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وابن ماجة من حديث أبي هريرة ، والترمذي عن أبي سعيد برفعه ، وقال فيه : حديث حسنٌ صحيح.

(١) من الآية (٣٩) من سورة (مريم).

(٢) المِفْتح بكسر الميم ، والمِفتاح : مفتاح الباب ، وكل ما فُتح به الشيء ، قال سيبويه : هذا الضرب مما يُعْتَمل مكسور الأول ، كانت فيه الهاء أو لم تكن ، والجمع : مفاتيح ومفاتح أيضاً . قال الأخفش : هو مثل أماني وأمانيّ ، يخفف ويُشدد . (اللسان) ــ مادة فتح ــ قارن هذا بما ذكره ابن عطية . وقال أبو حيان في « البحر » : المفاتح : جمع مِفْتح بكسر الميم وهي الآلة التي يفتح بها ما أُغلق ، ثم نقل عن الزهراوي قوله : و « مِفْتح أفصح من مفتاح ». وهذا يؤكد كلام ابن عطية .

ولو كان جمع مِفْتاح لقال : مفاتيح . ويظهر أيضاً أن (مَفَاتِح) جمع مَفتح بفتح الميم ، أي مواضع تفتح عن المغَيَّبات ، ويؤيد هذا قولُ السدي وغيره : ﴿مَفاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب ، فأما مِفْتح بالكسر فهو بمعنى مفتاح ، قال الزهراوي : ومِفْتح أفصح ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الإشارة بـ ﴿مَفَاتِح ٱلْغَيْبِ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان : ﴿إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية ، لأنها تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد[1] ، ثم قوَّى البيان بقوله : ﴿ويَعْلَمُ مَافي الْبَرِّ والْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر. وقوله : [مِنْ وَرَقَةٍ] على حقيقته في ورق النبات ، و [مِنْ] زائدة ، و [إلَّا يَعْلَمُهَا] يريد : على الإطلاق وقبل السقوط ومعه وبعده ، ﴿وَلَا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ يريد : في أشد حالات التَّغيب . وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر ، أي : إذا كانت هذه المحقورات معلومة فغيرها من الجلائل أحرى . ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على اللَّفظ ، وقرأ الحسن ، وعبد الله ابن أبي إسحق : ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلا يَابِسٌ﴾ بالرفع عطفاً على الموضع

(١) روى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مفاتِحُ الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ، ولا يعلم متَّى يأتي المطر إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متَّى تقوم الساعة إلا الله) . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : (من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ والأرْضِ الغَيْبَ إلا اللهُ﴾) اهـ.وفي التنزيل العزيز : ﴿ولَوْ كُنْتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ .

في [وَرَقَة] لأَن التقدير : «وما تسقط ورقةٌ» ، و ﴿إِلَّا في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قيل : يعني كتاباً على الحقيقة ، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة ، وذلك أنه روي أَن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه . وقيل : المراد بقوله : ﴿إِلَّا في كِتَابٍ﴾ علم الله عزَّ وجلَّ المحيط بكل شيءٍ . وحكى النقاش عن جعفر بن محمد قولا : إن الورقة يراد بها السقط من أَولاد بني آدم ، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط ، والرطب يراد به الحيُّ ، واليابس يراد به الميت . وهذا قول جار على طريقة الرموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه ، ولا ينبغي أَن يلتفت إليه .

وقوله تعالى : ﴿وَهُو الَّذي يَتَوَفَّاكُمْ باللَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾ الآية ، فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر ، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور ، إن هذا أَيضاً إماتة وبعث على نحو مَّا .

والتَّوفي هو استيفاءُ عدد ، قال الشاعر :

إِنَّ بَنِي الأَدْرَم لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ   وَلا تَوفَّاهُم قُرَيْشٌ في الْعَدَدْ (١)

وصارت اللفظة عرفاً في الموت ، وهي في النوم على بعض التجوز .

---

(١) البيت لمَنْظُور الوَبْرىِّ كما في (اللسان) — أو العنبري كما في (التاج) — وقد روي فيهما (الأدرد) بدالين بينهما راءٌ ، ومعناه كما قال صاحب (اللسان) : « أي : لا تجعلهم قريش تمامَ عددهم ، ولا تستوفي بهم عددهم » . وقال : « أنشده أبو عبيدة للدلالة على أن معنى قولك : « توفيت عدد القوم » هو أنك عددتَهم كلهم ، ثم قال : « وأما تَوَفّي النائم فهو استيفاءُ وقت عقله وتمييزه إلى أن نام » ، وقال الزجاج في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ هو من توفية العدد ، تأويله أن يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحدمنكم.

و [جَرَحْتُمْ] معناه : كسبتم ، ومنه جوارح الصيد أي كواسبه ، ومنه جوارح البدن لأنها كواسب للنفس . ويحتمل أن يكون [جَرَحْتُمْ] هنا من الْجَرْح ، كأن الذنب جرح في الدين ، والعرب تقول : «جرح اللسان كجرح اليد» ، وروي عن ابن مسعود أو سلمان ـ شكَّ ابن دينار ـ أنه قال : «إن هذه الذنوب جراحاتٌ فمنها شَوَى [١] ومنها مقتلة ، ألا وإن الشرك مقتلة» .

و [يَبْعَثُكُمْ] يريد الإيقاظ ، ففي [فيه] عائد على النهار [٢] ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر . ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي ، أي : يوقظكم في التوفي ، أي : في خلاله وتضاعيفه ، قاله عبد الله بن كثير . وقيل : يعود على الليل ، وهذا قلق في اللفظ ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله .

وقرأ طلحة بن مصرف ، وأبو رجاءٍ : ﴿لِيَقْضِي أَجَلاً مُسَمًّى﴾ ، والمراد بالأجل آجال بني آدم ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث والنشور ، ، [ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ] أي : يعلمكم إعلامَ توقيف ومحاسبة .

---

(١) الشَّوَى : الهَيِّن من الأمر ، وفي حديث مجاهد : (كل ما أصاب الصائم شَوًى إلا الغيبة والكذب فهي له كالمقتل) . أراد أن كل شيءٍ أصابه الصائم لا يُبطل صومه فيكون كالمقتل له ، إلا الغيبة والكذب فإنهما يبطلان الصوم ، فهما كالمقتل له . ومعنى خبر ابن مسعود رضي الله عنه أن الذنوب بعضها هيِّن يسير ، وبعضها فيه مقتل للمسلم كالشرك .

(٢) يريد أن يقول : فالضمير في (فيه) عائد على (النهار) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

[الْقَاهِرُ] إن أَخذ صفة فعل ، أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أَن يجعل [فَوْقَ] ظرفية للجهة ، لأَن هذه الأَشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم ، وإِن أَخذ [القَاهِرُ] صفة ذات بمعنى القدرة والاستعلاء ف [فَوْقَ] لا يجوز أَن تكون للجهة ، وإنما هي لعلوّ القدر والشأْن ، على حدٍّ ما تقول : « الياقوت فوق الحديد » .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه : يبثهم فيكم ، و [حَفَظَةً] جمع حافظ ، مثل كاتب وكتبة ، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأَعمال ، وروي أَنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : (تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) (١) ، وقاله السدي وقتادة . وقال بعض المفسرين : « حفظة يحفظون الإِنسان من كل شيء حتى يأْتي أَجله » . والأَول أَظهر . وكلهم غير حمزة قرأَ : [تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا] على تأْنيث لفظ الجمع ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ

(١) روى البخاري هذا الحديث عن أبي هريرة ، ولفظه : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ــ وهو أعلم بهم ــ : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون) . (فتح الباري ٢ــ٣٣) باب فضل صلاة العصر من كتاب « مواقيت الصلاة » .

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[١] ، وقرأ حمزة : [تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا] ، وحجته أن التأنيث غير حقيقي ، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾[٢] ، ويحتمل أن يكون بمعنى : تتوفاه ، فتكون العلامة مؤنثة ، وأمال حمزة من حيث خط المصحف بغير ألف ، فكأنها إنما كتبت على الإمالة ، وقرأ الأعمش : [يَتَوَفَّاهُ رُسُلُنَا] بزيادة ياءٍ في أوله ، والتذكير .

وقوله تعالى : [رُسُلُنَا] يريد به على ما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وجميع أهل التأويل ملائكة مقترنين بملَك الموت يعاونونه ويأتمرون له .

وقرأ جمهور الناس : [لَا يُفَرِّطُونَ] بالتشديد ، وقرأ الأعرج : [يُفْرِطونَ] بالتخفيف ، ومعناه : يجاوزون الحد مما أُمروا به . قال أبو الفتح : فكما أن المعنى في قراءة العامة : لا يُقصِّرون ، فكذلك هو في هذه : لا يزيدون على ما أُمروا به .

ورجع اللفظ في قوله : [رُدُّوا] من الخطاب إلى الغيبة ، والضمير في [رُدُّوا] عائد على المتقدم ذكرهم ، ويظهر أن يعود على العباد فهو إعلام بردِّ الكل ، وجاءت المخاطبة بالكاف في قوله : [عَلَيْكُمْ] تقريباً للموعظة من نفوس السامعين . و [مَوْلَاهُم] لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بيد الله ، وبين عبيده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك ، وقوله : [الْحَقِّ] نعت لِـ [مَوْلاهُم] ومعناه : الذي ليس بباطل ولا مجازى . وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، والأعمش : [الْحَقَّ] بالنصب ، وهو على المدح ، ويصح على المصدر . ﴿أَلا لَهُ الحُكْمُ﴾

(١) من الآية (٣٤) من سورة (الأنعام) . (٢) من الآية (٣٠) من سورة (يوسف) .

ابتداءُ كلام مضمنه التنبيه وهزٌّ نفس السامع ، و [الْحُكْم] تعريفه للجنس ، أي : جميع أنواع التصرفات في العباد ، و ﴿ أَسْرَعُ الحاسِبِينَ ﴾ متوجه على أن الله عزّ وجلّ حسابه لعبيده صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إلى إعداد ولا تكلف ، سبحانه لا ربَّ غيره ، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد في حالة واحدة ؟ قال : كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأوثان ، وتوقيفهم على سوءِ الفعل في عبادتهم الأصنام ، وتركهم الذي يُنَجِّي من المهلكات ، ويُلْجاُ إليه في الشدائد .

و [مَنْ] استفهام رفع بالابتداءِ ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ مَنْ يُنَجِّيكُمْ ﴾ ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ ﴾ بتشديد الجيم وفتح النون ، وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه ، وحميد بن قيس ، ويعقوب : [يُنْجيكُمْ] بتخفيف الجيم وسكون النون ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر بالتشديد في الأُولى والتخفيف

في الثانية فجمعوا بين التعدية بالألف والتعدية بالتضعيف ، كما جاءَ ذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾[١].

و ﴿ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يراد به شدائدها ، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظُلْمة حقيقية وما كان بغير ظُلْمة ، والعرب تقول : عامٌ أَسود ، ويوم مُظْلِم ، ويوم ذو كواكب[٢] ، ونحو هذا يريدون به الشدة ، قال قتادة : المعنى : من كُرب البر والبحر ، وقاله الزَّجاج . و [تَدْعونَهُ] في موضع الحال ، و [تَضَرُّعاً] نصب على المصدر والعامل فيه [تَدْعونَهُ] ، والتضرُّع صفة بادية على الإِنسان ، [وخُفْيَةً] معناه : الاختفاءُ والسرّ ، فكأَن نسق القول : تدعونه جهراً وسرّاً ، هذه العبارة بمعان زائدة .

وقرأَ الجميع غير عاصم : [وَخُفْيَةً] بضم الخاءِ ، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكررضي الله عنه : [وخِفْية] بكسر الخاءِ ، وقرأَ الأَعمش : [وَخيفَة] من الخوف ، وقرأَ الحجازيون وأَهل الشام : [أَنْجَيْتَنا] ، وقرأَ الكوفيون : [أَنْجَانا] على ذكر الغائب ، وأَمال حمزة ، والكسائي الجيم . و [مِنَ الشَّاكِرِينَ] أَي : على الحقيقة ، والشكر على الحقيقة يتضمن الإِيمان ، وحكى الطبري في قوله : [ظُلُمات] أَنه ضلال الطريق في الظلمات ونحوه ، وحكى السدي[٣] أَنه ظلام الليل والغيم والبحر .

---

(١) الآية (١٧) من سورة (الطارق) .

(٢) أنشد سيبويه :

بَني أسدٍ هلْ تعْلمونَ بَلاءَنا ... إذا كانَ يومٌ ذُو كواكبَ أَشْنَعا

كأنه لغيبة شمسه وشدة ظلامه بدت فيه الكواكب ، ويعنون بذلك أنه شديد عليهم .

(٣) في بعض النسخ : وحكى المهدوي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص كله لا وجه له ، وإنما هو لفظ عام لأنواع الشدائد في المعنى ، وخص لفظ الظلمات بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة .

وقوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ سَبْقٌ في المجادلة إلى الجواب ، إذ لا محيد عنه ، ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ لفظ عام أيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات ، ويصح أن يتأول من قوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ تخصيص الظلمات قبْلُ ، ونص عليها لهولها . وعطف في هذا الموضع بـ (ثُمَّ) للمهلة التي تُبيِّن قبح فعلهم ، أي : ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققكم به أنتم تشركون.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

هذا إخبار يتضمن الوعيد ، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم ، وهو مذهب الطبري ، وقال أُبي بن كعب ، وأبو العالية ، وجماعة معهما : هي للمؤمنين وهم المراد ، قال أُبي بن كعب : هي أربع خلال وكلهن عذاب وكلهن

واقع قبل يوم القيامة ، فمضت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، لبسوا شيعاً وأُذيق بعضهم بأْس بعض ، واثنتان واقعتان لا محالة ـ الخسف والرجم ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين ، بعث العذاب من فوق وتحت للكفار وسائرها للمؤمنين . وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أَن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين .

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت : ﴿أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال : (أَعوذ بوجهك) ، فلما نزلت : ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال : (أَعوذ بوجهك) ، فلما نزلت : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال : (هذه أَهون) أَو (هذه أَيسر) [1] ، فاحتج بهذا من

---

(١) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ الآية ، ورواه أيضاً في كتاب التوحيد عن قتيبة ، ورواه الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة ، ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي ، ورواه النسائي في التفسير عن قتيبة ، ورواه ابن جرير عن سفيان بن عيينة ، ورواه أبو بكر بن مردوية عنه أيضاً . (ابن كثير) .

ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة ، فقد روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد) . وأيضاً روى الإمام أحمد ، وابن ماجة في الفتن ، وابن مردويه ــ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لي : خرج قبْلُ ، قال : فجعلت لا أمر بأحد إلا قال لي : مرَّ قبْلُ ، حتى مررت فوجدته قائماً يصلي ، قال : فجئت حتى قمت خلفه ، قال : فأطال الصلاة ، فلما قضى صلاته قلت : يا رسول الله ، قد صليت صلاة طويلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني صليتُ صلاة رغبة ورهبة ، إني سألت الله عزَّ وجلَّ ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألته ألا يهلك أُمتي غرقاً فأعطاني ، وسألته ألا يظهر عليهم عدو ليس منهم فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فردَّها عليَّ) .

قال إنها نزلت في المؤْمنين . قال الطبري : وغير ممتنع أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم تعوذ لأُمته من هذه الأَشياءِ التي توعد بها الكفار ، وهون الثالثة لأَنها بالمعنى هي التي دعا بها فمنع حسب حديث الموطأْ وغيره ، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنها أَسوأُ الثلاث ، وهذا عندي على جهة الإِغلاظ في الموعظة ، والحق أَنها أَيسرها كما قال عليه الصلاة والسلام .

و ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لفظ عام للمنطبقيْن على الإِنسان ، وقال السدي عن أَبي مالك : [مِنْ فَوْقِكُمْ] الرجم و ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف ، وقاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ ولاة الجور ، و ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ سفلة السوءِ وخدمة السوءِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها أَمثلة لا أَنها هي المقصود ، إِذ هي وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ .

و [يَلْبِسَكُمْ] ـ على قراءَة الستَّة ـ معناه : يخلطكم [شِيَعاً] فرقاً يتشيع بعضها لبعض ، واللبس : الخلط ، وقال المفسرون : هو افتراق الأَهواءِ والقتال بين الأُمة . وقرأَ أَبو عبد الله المدني [يُلْبِسَكُمْ] بضم الياءِ مِنْ : أَلْبَسَ ، فهو على هذه استعارة من اللباس ، فالمعنى :

أَو يُلبسكم الفتنة شيعاً ، و [شِيَعاً] منصوب على الحال . وقد قال الشاعر :

لَبِسْتُ أُناساً فَأَفْنَيْتُهُمْ . . . . (١)

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة وإلباس القتل وما أَشبهه من المكاره .

[وَيُذِيقَ] استعارة إِذ هي من أَجل حواس الاختبار ، وهي استعارة مستعملة في كثير من كلام العرب وفي القرآن ، وقرأَ الأَعمش : [وَنُذيق] بنون الجماعة ، وهي نون العظمة في جهة الله عزَّ وجلَّ ، وتقول : أَذقتُ فلاناً العلقم ، تريد كراهة شيءٍ صنعته به ، ونحو هذا .

وفي قوله : ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ الآية استرجاع لهم ، وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم فمُضَمَّنُها أَن هذه الآيات والدلائل إنما هي لا ستصرافهم عن طريق غيِّهم ، والفقه : الفهم .

والضمير في [بِهِ] عائد على القرآن الذي فيه جاءَ تصريف الآيات ، قاله السدي ، وهذا هو الظاهر ، وقيل : يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا بعيد لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله : [قَوْمُكَ] ، ويحتمل أَن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية ، ونحا إليه الطبري ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : ﴿وَكَذَّبَتْ به قَوْمُكَ﴾ بزيادة تاءٍ ،

---

(١) هذا صدر بيت للنابغة الجعدي ، والبيت بتمامه :

لبستُ أناساً فأَفْنَيْتُهُم وأَفْنَيْتُ بعدَ أناسٍ أُناسَا

وبعده ثلاثةَ أهلينَ أَفْنَيْتُهُمْ وكان الإلهُ هو المُسْتَآسَا

قال في (اللسان) : يقال : لبست امرأةً أي : تمتعت بها زمناً ، ولبستُ قوماً ، أي : تملَّيْتُ بهم دهراً ، وتلَبَّس حُب فلانة بدمي ولحمي أي : اختلط ، وأنشد أبو حنيفة :

تَلَبَّس حُبُّها بِدمي وَلَحْمي تَلَبُّسَ عِطْفَةٍ بِفُروعِ ضَالِ

و [بِوَكِيلٍ] معناه : بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى ، والوكيل بمعنى الحفيظ ، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأَمر بالقتال ثم نسخ ، وقيل : لا نسخ في هذا إذ هو خبر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والنسخ فيه متوجه لأَن اللازم من اللفظ ليس الآن ، وليس فيه أَنه لا يكون في المستأْنف ، وقوله : ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أَي غاية يعرف عندها صدقه من كذبه ، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد محض ووعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

لفظ هذا الخطاب محرر للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، واختلف في معناه – فقيل : إن المؤْمنين داخلون في الخطاب معه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الصحيح ، لأَن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه ، وقيل : بل المعنى أَيضاً أُريد به النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، لأَن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم ، وفراقه لهم على مغاضبة ، ولم يكن المؤْمنون عندهم كذلك ، فأُمر النبي

صلى الله عليه وسلم أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءُوا وخاضوا ليتأدبوا بذلك ، ويدعوا الخوض والاستهزاء ، وهذا التأويل يتركب على كلام ابن جرير يرحمه الله .

والخوض أصله في الماء ثم يستعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماء .

[وَإِمَّا] شرط ، وتلزمها النون الثقيلة في الأغلب ، وقد لا تلزم كما قال :

إِمَّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ فِي مُنَاوَأَةٍ . . . . (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة . وقرأ ابن عامر وحده(٢) [يُنَسِّيَنَّكَ] بتشديد السين وفتح النون ، والمعنى واحد إلا أن التشديد أكثر مبالغة (٣) .

والذكرى والذكر واحد في المعنى وإنما هو تأنيث لفظي ، ووصفهم هنا بـ [الظَّالمين] متمكن لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه ، و [أَعْرِضْ]

---

(١) هذا صدر بيت ، وقد ذكره القرطبي كاملا في تفسيره ، وذكره الشوكاني أيضاً في « فتح القدير » ، ولفظه في القرطبي :

إمَّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ فِي مُنَاوَأةٍ ... يوماً فقد كنْتَ تَسْتَعْلِي وتَنْتَصِر

ولفظه في فتح القدير :

إمَّا يُصِبْكَ عدوٌّ في مُنَازلةٍ ... يوماً فقل كيْفَ يَسْتَعْلِي ويَنْتَصِر؟

(٢) في القرطبي : «وقرأ ابن عباس وابن عامر» .

(٣) قال القرطبي : يقال : نَسَّى وأَنْسى بمعنى واحد ، لغتان ، قال الشاعر :

قالتْ سُلَيْمى أتَسْرى الْيومَ أَمْ تَقِل ... وقد يُنَسِّيكَ بعضَ الحاجَةِ الكَسَلُ

وقال امرؤُ القيس :

ومثْلُكِ بيْضاء الْعَوارضِ طَفْلَةٍ ... لَعوبٍ تُنَسِّيني إذا قُمْتُ سِرْبالــي

في هذه الآية بمعنى المفارقة على حقيقة الإعراض وأكمل وجوهه ، ويدل على ذلك [فلَا تَقْعُدْ] .

وقوله تعالى : ﴿ومَا عَلَىَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ الآية ، المراد بـ [الَّذِينَ] هم المؤْمنون ، والضمير في [حِسَابِهِمْ] عائد على ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ، ومن قال إن المؤْمنين داخلون في قوله : [فَأَعْرِض] قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم داخل في هذا القصد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَّقُون﴾ ، والمعنى عندهم على ما روي أَن المؤْمنين قالوا لما نزلت : ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ معهم إذا كنا لا نقرب المشركين ولا نسمع أَقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاءُ عبادة في الحرم فنزلت لذلك ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها ، وقال بعض من يقول «إن النبي صلى الله عليه وسلم داخل في ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن المؤْمنين داخلون في الخطاب الأَول» : هذه الآية الأَخيرة ليست إباحة بوجه ، وإنما معناها : لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءهم وخوضهم ، وليس نهيكم عن القعود لأَن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى «لكم» ، ويحتمل المعنى أَن يكون «لهم» لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاءِ ، وأَما من قال : «إن الخطاب الأَول هو مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم لثقل مفارقته مغضباً على الكفار» فإنه قال

في هذه الآية الثانية : إنها مختصة بالمؤْمنين ، ومعناها الإباحة ، فكأَنه قال : فلا تقعد معهم يا محمد ، وأَما المؤمنون فلا شيءَ عليهم من حسابهم فإن قعدوا فليذكِّروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أَشار إليه النقاش ولم يوضحه ، وفيه عندي نظر ، وقال قائل هذه المقالة : إن هذه الإباحة للمؤْمنين نسخت بآية النساءِ قولِهِ تبارك وتعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[1] ، وكذلك أَيضاً من قال أَو لا : «إن الإباحة كانت بحسب العبادات» يقول : إن هذه الآية التي في النساءِ ناسخة لذلك إذ هي مدنية ، والإشارة بقوله : [وَقَد نَزَّلَ] إليها بنفسها فتأَمله ، وإلا فيجب أَن يكون الناسخ غيرها . و [ذِكْرَى] ـ على هذا القول ـ يحتمل أَن يكون : ذكِّروهم ذكرى ، ويحتمل : ولكن أَعرضوا متى أَعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى ، و [ذِكْرَى] ـ على كل قول ـ يحتمل أَن تكون في موضع نصب بإضمار فعل ، أَو رفع بإضمار مبتدأ .

وينبغي للمؤْمن أَن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأَهل الجدال والخوض فيه ، وحكى الطبري عن أَبي جعفر أَنه قال : لا تُجالسوا أَهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله .

---

(١) من الآية (١٤٠) من سورة (النساء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذا أَمر بالمتاركة (١) ، وكان ذلك بحسب قلة أَتباع الإِسلام حينئذ . قال قتادة : ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال . وقال مجاهد : الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى : ﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ (٢) ، وليس فيها نسخ لأَنها متضمنة خبراً وهو التهديد. وقوله : [لَعِباً وَلَهْواً] يريد : إذ يعتقدون أَن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي ، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي : خدعتهم ، من الغرور وهو الإِطماع بما لا يتحصل ، فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله ، وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتخرج في [غَرَّتْهُم] هنا وجه آخر من الغَرِّ بفتح الغين (٣) ،

---

(١) عبارة « البحر المحيط » : « هذا أمر بتركهم » ، وهي المراعية لقواعد اللغة ، إلا إذا كانت المفاعلة على غير بابها . (٢) ــ الآية (١١) من سورة (المدثر) .

(٣) في بعض النسخ : « من الغَرور بفتح الغين » وما أثبتناه يتفق مع ما في « البحر المحيط » ، وما في «اللسان» و « القاموس » ، قال في (اللسان) : « وغَرَّ الطائر فرخه يغرُّه غِراراً أي زقّه ، وفي حديث معاوية قال : «كان النبي صلى الله عليه وسلم يغُرّ علياً العلم ، أي يلَقّمه إياه...» ثم قال : « والغَرُّ : اسم مازقَتْهُ به ، وجمعه : غُرور . » اهـ .

أَي : ملأَت أَفواههم وأَشبعتهم ، ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا بالحُلَيْبَةِ غَرَّنــــي بِمَعْرُوفِهِ حَتَّى خرجْتُ أَفوقُ (١)

ومنه : غرَّ الطائر فرخه ، ولا يتَّجه هذا المعنى في تفسير غرَّ في كل موضع.

وأَضاف الدين إليهم على معنى أَنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً ، ويحتمل أَن يكون المعنى : اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً . والضمير في [به] عائد على الدين ، وقيل : على القرآن .

و ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول ، أَي : لئلا تبسل ، أَو كراهية أَن تُبْسل ، ومعناه : تُسْلَم ، قاله الحسن وعكرمة ، وقال قتادة : تُحْبَس وتُرْتَهَن ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تُفْضح ، وقال الكلبي وابن زيد : تُجْزَى . وهذه كلها متقاربة بالمعنى(٢) ، ومنه قول الشَّنْفَري :

هُنالِكَ لا أَرْجو حياةً تسرُّنــــي سميرَ اللَّيالي مُبْسَلاً بالجرائر (٣)

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا ، وقد روي (بالجُنينة) بجيم ونونين ، وروي (بالحَنيَّة) بالمهملة ونون بعدها ياءٌ مشددة ، ورواه الألوسي وحاشية الشهاب (بالعشيَّة) .

(٢) ذلك لأن الإبْسال معناه : تسليم المرء للهلاك ، وقال أبو منصور : لئلا تسلم نفس إلى العذاب بعملها ، قال النابغة الجعدي :

ونَحْنُ رهَنَّا بالأُفاقَــةِ عامــــراً بما كانَ في الدَّرْداءِ رهْناً فأُبْســـلا

والأُفاقة : موضع في أرض الحزن قرب الكوفة ، ويوم الأُفاقة من أيام العرب ، والدرداءُ: كتيبة كانت لهم .

(٣) رواه في (اللسان) : « مُبْسَلا لجرائري .» ثم شرحها فقال : « أي مُسْلَما » .

وقال بعض الناس : هو مأْخوذ من البَسْل ، أَي من الحرام كما قال الشاعر:

بكَرَتْ تلومُكَ بعْدَ وهْن في النَّدى بَسْلٌ عليْكِ مَلامَتي وعِتَابــي(١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد .

و [نَفْسٌ] تدلُّ على الجنس ، ومعنى الآية : وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ليْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ في موضع الحال ، و [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، ويجوز أَن تكون زائدة ، و [دُون] ظرف مكان ، وهي لفظة تقال باشتراك ، وهي — في هذه الآية — الدالة على زوال من أُضيفت إليه من نازلة القول ، كما في المثل : « وأُمِرَّ دُونَ عُبَيْدَةَ الْوَذَمُ » (٢)

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأُمور ، ﴿وإنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أَي : وإن تعط كل فدية وإن عظمت فتجعلها

(١) أنشده أبو زيد لِضَمْرَة النَّهْشَلي . كما قال في (اللسان) ، ومثله في أن البسل بمعنى الحرام قول الأعشى :

أَجَارتُكُمْ بَسْلٌ عَلَيْنا مُحَــرَّمٌ وَجارَتُنَا حِلٌ لَكُمْ وحَليلُهـــا؟

والبَسْل من الأضداد ، فكما أنه بمعنى الحرام فهو أيضاً بمعنى الحلال ، قال ابن همام :

أَيَثْبُتُ ما زدْتُم وتُلْغَى زيادَتــي ؟ دَمِــي إنْ أُحِلَّتْ هذهِ لكُمْ بَسْلُ

أي حلال ، والمعنى لا يسوّغ أن تكون بمعنى الحرام .

(٢) أُمِرَّ : أُحْكِمَ ، والوَذَم : السَّيْر بين آذان الدلْو وعراقيها تُشَدّ بها ويجمع على أَوْذُم وأَوْذَام وجمع الجمع أَواذم ، وهو مثل يضرب لمن أُحْكم أَمْرٌ دونه . (أمثال الميداني ٢—٢٨٥) .

عدلا لها لا يقبل منها ، وحكى الطبري عن قائل أن المعنى : وإن تَعْدل من العَدْل المضاد للجور ، ورَدَّ عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل ، والقول نصٌّ لأبي عبيدة . والعِدل في اللغة مماثل الشيء من غير جنسه ، وقيل : العِدْل بالكسر : المثل ، والعَدْل بالفتح : القيمة ، و [أُولٰئكَ] إشارة إلى الجنس المداول عليه بقوله : [تُبْسَلَ نَفْسٌ] ، و [أُبْسِلُوا] معناه : أُسْلموا بما اجترحوه من الكفر . والحميم : الماءُ الحار ، ومنه الحمَّام والحَمَّة (١) ، ومنه قول أبي ذؤيب :

. . . . إلا الحميم فإنَّهُ يَتَبَصَّعُ (٢)

و [أَليمٌ] فعيل بمعنى مُفْعِل ، أي : مُؤْلم .

---

(١) عن (اللسان) : قال ابن سيدة : الحمّام : الديماس مُشتق من الحميم ، مذكّر تذكّره العرب ، وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعّال نحو القذّاف والجبّان ، والجمع : حمامات ـــ والحَمَّةُ : عين ماءٍ حار يُستشفى بالغسل منه ، وفي الحديث : (مثَل العالم مثَل الحَمَّة يأتيها البعداءُ ويتركها القرباءُ ، فبينا هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم ، وبقي أقوام يتفكّنون ، أي يتندّمون) .

(٢) البيت بتمامه :

تأبى بِدِرَّتها إذا ما استُغْضِبَتْ إلا الحَميم فإنَّهُ يَتَبَصَّعُ

يصف الفرس عندما تَحْملها على أكثر مما تطيق من الجري بأن تضربها بالسوط مثلا ، فإن عزّة نفسها تدفعها إلى مالا يعرف قدره من الجري ، وهي عندئذ تأبى إلا أن تعرق عرقاً حارّاً كالحميم يتبصّع من جسمها أي يسيل قليلا قليلا . عن (التاج) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

المعنى : قل في احتجاجك : أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله ؟ والدعاءُ يعم العبادة وغيرها ، لأَن من جعل شيئاً موضع دعائه فإيَّاه يعبد وعليه يتكل . ﴿مَالَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني الأَصنام ، إذ هي جمادات : حجارة وخشب ونحوه . وضرر الأَصنام في الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال : [وَلَا يَضُرُّنَا] إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية .

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ تشبيه ، وذلك أَن المردود على العقب وهو أَن يكون الإنسان يمشي قُدُما ـ وهي المشية الجيدة ـ فيرد يمشي القهقرى ـ وهي المشية الدنية ـ فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر ، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأَصنام . و [هَدَانَا] بمعنى أَرشدنا . قال الطبري وغيره : الردُّ على العقب يستعمل فيمن أَمَّل أَمراً فخاب أَملُه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول قلق .

وقوله تعالى : ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ الآية . الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره : ردًّا كردّ الذي .

و [اسْتَهْوَتْهُ] استفعلته بمعنى استدعت هواه وأمالته ، قال أبو عبيدة : ويحتمل هُوِيَّه وهو جده وركوب رأسه في النزوع إليهم ، والهويّ من هوى يهوي ، يستعمل في السقوط من علو إلى أسفل ، ومنه قول الشاعر :

هَوَى ابني من ذرى شرفٍ فزلَّت رجْلُه وَيَدُه

وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تُتَأَوّل اللفظة بمعنى : ألقته الشياطين في هُوَّة ، وقد ذهب إليه أبو علي وقال : هو بمعنى أهوى كما أن استزل بمعنى أزل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتحرير أن العرب تقول : هوى ، وأهواه غيره ، واستهواه بمعنى طلب منه أن يهوي هو ، أو طلب منه أن يهوى شيئاً . ويستعمل الهوى أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[1] ، ومنه قول شاعر الجن :

تَهْوِي إلى مكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى ما مُؤْمِنُ الجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا[2]

وهذا المعنى هو الذي يليق بالآية .

---

(١) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم) .

(٢) يُروى البيت : « ما مؤمنو الجن ككفّارها » كما جاء في « البحر المحيط » .

وقرأ الجمهور من الناس : [اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ] ، وقرأ الحسن : «اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطون» ، قال بعض الناس : هو لحن . وليس كذلك بل هو شاذٌّ قبيح ، وإنما هو محمول على قولهم : سنون وأرضون إلا أن هذه في جمع مسلم وشياطون في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ ، وقرأ حمزة : [اسْتَهْواهُ الشَّياطينُ] وأمال [اسْتَهْواه] ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والأعمش ، وطلحة : [اسْتَهْويه الشَّيطانُ] بالياءِ وإفراد [الشَّيطان] ، وذكر الكسائي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود .

وقوله : [في الأَرْضِ] يحكم بأَن [اسْتَهْوَتْه] إنما هو بمعنى استدعت هُوِيَّه الذي هو الجدُّ في النزوع ، و [حَيْرانَ] في موضع الحال ، ومؤنثه (حيْرى) فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، ومعناه : ضالاً متحيِّراً ، وهو حال من الضمير في [اسْتَهْوتْه] ، والعامل فيه [اسْتَهْوَتْه] ، ويجوز أَن يكون من [الَّذي] والعامل فيه المقدر بعد الكاف ، وقوله : [اسْتَهْوَتْه] يقتضي أَنه كان على طريق فاستدعته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فسياق هذا المثل كأَنه قال : أَيصلح أَن يكون بعد الهدى نعبد الأَصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إلى دعوتهم فبقي حائراً ؟ وقوله : [لَهُ أَصْحَابٌ] يحتمل أَن يريد : له أَصحاب على الطريق الذي خرج منه ، فيشبه بالأَصحاب ـ على هذا ـ المؤْمنون الذين يدعون من ارتد إلى الرجوع إلى الهدى ، وهذا تأْويل مجاهد ، وابن عباس . ويحتمل أَن يريد : له أَصحاب أي من الشياطين الدعاة أَو لا يدعونه

إلى الهدى بزعمهم وإنما يوهمونه ، فيشبه بالأصحاب ـ على هذا ـ الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده ، وروي هذا التأْويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً .

و [ائْتِنَا] من الإتيان بمعنى المجيء ، وفي مصحف عبد الله «إلى الهدى بَيِّنا»[١] ، وهذه تؤيد تأويل من تأَول [الْهدى] حقيقة إخباراً من الله تبارك وتعالى ، وحكى مكي وغيره أَن المراد بـ [الَّذي] في هذه الآية عبد الرحمن بن أَبي بكر الصديق ، وبالأَصحاب أَبوه وأُمه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأَن في الصحيح أَن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول القائل : إن قوله تعالى : ﴿وَالَّذي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾[٢] نزلت في عبد الرحمن بن أَبي بكر قالت : (كذبوا ما نزل فينا من القرآن شيءٌ إلا براءَتي) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

حدثني أَبي رضي الله عنه قال : سمعتُ الفقيه الإمام أَبا عبد الله المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول : من نازع أَحداً من الملحدة فإنما ينبغي أَن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث ، فيكون كمن يدعو

---

(١) في بعض النسخ : «إلى الهُدى ديناً» ، والذي أثبتناه عن نسخ أُخرى يتفق مع ما في الطبري ، وما في القرطبي ، أما عبارة «البحر» فتختلف عن ذلك كله إذ يقول : «وفي مصحف عبد الله (أَتيْنا) فعلا ماضياً لا أمراً ، فـ[إلى الهُدى] متعلق به ، وفي «الدر المنثور» أن ابن جرير ، وابن الأنباري أخرجا عن أبي إسحق قال : «في قراءة عبد الله : (إلى الهدى بيِّنا)» .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الأحقاف) .

إلى الهدى بقوله : «ائتنا» ، ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزايغ فهو يخاف عليه أن يضل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا انتزاع حسن جداً .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الآية . من قال : «إن الأصحاب هم من الشياطين المستهزئين ، وتأول [إلى الْهُدَى] بزعمهم» قال : إن قوله : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ ردٌّ عليهم في زعمهم ، فليس ما زعموه صحيحاً ، وليس بهدى ، بل هو في نفسه كفر وضلال ، وإنما الهدى هدى الله ، وهو الإيمان . ومن قال : «إن الأصحاب هم على الطريق المدعو إليها ، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم ، وإن الهدى هو هدى على حقيقته» يجيءُ على قولة ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ بمعنى : إن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس بنفس دعائهم تقع الهداية ، وإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداه الله تعالى بهداه .

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ اللام لام كي[1] ، ومع (أن) مقدرة ، ويقدر مفعول لِ [أُمِرْنَا] مضمر تقديره : وأمرنا بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا ، فتقدير الجملة كلها : «وأُمرنا بالإخلاص لأن نُسْلم» ، ومذهب سيبويه في هذا أن [لِنُسْلِم] هو موضع المفعول ، وأن قولك : «أُمرت

(١) قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هي لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لام خفض ، ولام أمر ، ولام توكيد ، ولا يخرج شيءٌ عنها .

لأقوم» و «أمرت أن أقوم» يجريان سواءً ، ومثله قول الشاعر :

أَرَدْتُ لأَنْسى ذكرهـــا . . . . (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة ، و [نُسْلِم] يعم الدين والاستسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣ ﴾

[وَأَنْ أَقيمُوا] يتجه أن يكون بتأْويل . «وإقامة» فهو عطف على المفعول المقدر في [أُمِرْنا] ، وقيل : بل هو معطوف على قوله : [لِنُسْلِم] تقديره : «لأَن نسلم وأَن أَقيموا» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول الزجاج ، واللفظ يمانعه ، وذلك أَن قوله : «لأَنْ نُسْلِمَ» معرب ، وقوله : [أَنْ أَقيمُوا] مبني ، وعطف المبني على المعرب لا يجوز ،

---

(١) سبق الكلام عن هذا البيت ، وهو بتمامه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما تَمَثَّلُ لي لَيْلَى بكلِّ سَبيل

قال أبو حيان : «وما ذكره ابن عطية عن سيبويه ليس كما ذكر ، بل ذلك مذهب الكسائي والفراء ، زعما أن لام (كي) تقع في موضع (أن) في أردت وأمرت ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لكُمْ ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾ «أريد لأنسى» — وردّ عليهما أبو إسحق ، ثم ذكر مذهب سيبويه فارجع إليه في «البحر المحيط ٤—١٥٩» .

لأَن العطف يقتضي التشريك في العامل ، اللهم إلا أَن تجعل العطف في (أَن) وحدها ، وذلك قلق ، وإنما يتخرج على أَن يقدر قوله : ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ بمعنى : لنقيم ، ثم خرجت بلفظ الأَمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أَن نُلغي حكم اللفظ ونُعول على المعنى . ويشبه هذا من جهة مّا ما حكاه يونس عن العرب : «ادخلوا الأَولُ فالأَولُ» برفع لفظ (الأَول) ، فإنما هو بأَن يقدر: (ادخلوا) بمعنى : ليدخل الأَولُ وإلّا فليس يجوز إلا : ادخلوا الأَولَ فالأَولَ بالنصب(١) . وقال الزجاج أَيضاً : يحتمل أَن يكون [وَأَنْ أَقِيمُوا] معطوفاً على [ائْتِنَا] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفيه بُعْد .

والضمير في قوله : [واتَّقوهُ] عائد على [رَبِّ الْعَالَمِين] ، [وهُوَ] ابتداءٌ وما بعده خبره ، وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ﴾ الآية . [خَلَقَ] ابتدع وأَخرج من العدم إلى الوجود ، و [بالْحَقِّ] أَي : لم يخلقها باطلا لغير معنى ، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيِّنة ، منها ما يحسه البشر من الاستدلال

---

(١) علّق أبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله : «وهذا الذي استدركه ابن عطية بقوله : اللهم إلا أن إلى آخره هو الذي أراده الزجاج بعينه ، وهو أنَّ [أنْ أَقيمُوا] معطوف على [أن نُسْلم] ، وأن كلاهما علة للمأمور به المحذوف» . ثم قال : «وأما تشبيه ابن عطية بقوله: ادخلوا الأولُ فالأولُ بالرفع فليس يشبهه ، لأن (ادخلوا) لا يمكن – لو أُزيل عنه الضمير – أن يتسلط على ما بعده ، بخلاف (أنْ) فإنها توصل بالأمر ، فإذاً لا شبه بينهما» . (البحر المحيط ٤–١٦٠) .

بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك ، وقيل : المعنى : بأن حق له أن يفعل ذلك ، وقيل : [بالْحَقِّ] معناه : بكلامه في قوله للمخلوقات [كُنْ] وفي قوله : [ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً] [1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحرير القول أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام ، واقتران [كُنْ] بحالة إيجاد المخلوق فائدته إظهار العزّة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد ، ومثال ذلك في الشاهد أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه : انكسر ، فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد ، ولله المثل الأعلى ، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغير ، أمره واحد كلمح بالبصر ، فكأن معنى الآية على هذا القول : وهو الذي خلق السموات والأرض بقوله كن المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه ، فعبر عن ذلك بالحق .

[وَيَوْمَ يَقُولُ] نصب على الظرف ، وهو متعلق بمعمول فعل مضمر تقديره : «واذكر الخلق والإعادة يومَ» . وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها : واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد : كن معادة ، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا ثم يبدأ بإخبار أنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة ، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله : [فَيَكون] ، ويكون [قَوْلُهُ الْحَقُّ] ابتداءً وخبر ، أو على الاحتمال الذي

---

(1) من قوله تعالى في الآية (11) من سورة (فُصِّلت) : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ .

قبله ، فـ [قولُهُ] فاعل ، قال الزجاج : قوله : [ويَوْمَ] معطوف على الضمير من قوله : [وَاتَّقُوه] ، فالتقدير هنا على هذا القول : «واتقوا العقاب أَو الأَهوال والشدائد يوم» ، وقيل : إِن الكلام معطوف على قوله : [خَلَقَ السَّموات] ، والتقدير – على هذا – : «وهو الذي خلق السموات والأَرض والمعادات إلى الحشر يوم» ، ولا يجوز أَن تعمل هذه الأَفعال – لا تقديرك : اذكر ، ولا : اتَّقوا ، ولا : خلق – في [يومَ] لأَن أَسماءَ الزمان إذا بنيت مع الأَفعال فلا يجوز أَن تنصب إلا على الظرف ، ولا يجوز أَن يتعلق [يَوْم] بقوله : [قَوْلُهُ الحَقُّ] لأَن المصدر لا يعمل فيما نقدمه ، وقد أَطلق قوم أَن العامل : اذكر أَو خلق . ويحتمل أَن يريد بـ [يَقولُ] معنى المضي كأَنه قال : «وهو الذي خلق السموات والأَرض بالحق يوم يقول – بمعنى قال لها : كن». فـ [يَوْمَ] ظرف معطوف على موضع قوله : [الْحق] إذ هو في موضع نصب ، ويجيءُ تمام الكلام في قوله : [فيَكُونُ] ، ويجيءُ [قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ] ابتداءً وخبراً ، ويحتمل أَن يتم الكلام في [كُنْ] وَيُبْتدأ [فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ] وتكون [يكونُ] تامة بمعنى يظهر ، و [الْحَقُّ] صفة لِلْقول ، و [قَوْلُهُ] فاعل . وقرأَ الحسن : [قُولُهُ] بضم القاف ، [وَلَهُ الْمُلْكُ] ابتداءٌ وخبر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ في ٱلصُّورِ﴾ ،[يَوْمَ] بدل من الأُولى على أَنَّ [يَقُولُ] مستقبل ، لا على تقدير مُضِيِّه . وقيل : بل متعلق بما تضمن المُلْكُ] من معنى الفعل ، أَو بتقدير : «ثابت أَو مستقر يوم» و [في الصُّورِ] قال أَبو عبيدة : هو جمع صورة ، فالمعنى : يوم تعاد العوالم ، وقال الجمهور : هو الصور ، القرن الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(إنه ينفخ فيه للصعق ثم للبعث) (١) ، ورجحه الطبري بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن إسرافيل قد التقم الصور وحنَى جبهته ينظر متى يؤْمر فينفخ) (٢) . وقرأ الحسن : [في الصُّوَر] بفتح الواو ، وهذه تؤيد التأْويل الأَول ، وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض ، [عالِمُ] رفع بإضمار مبتدأ ، وقيل : نعت لـ [الَّذي] ، وقرأ الحسن والأَعمش : [عالِمِ] بالخفض على النعت للضمير الذي في [لهُ] ، أَو على البدل منه من قوله [ولَهُ المُلْكُ] ، وقد رويت عن عاصم ، وقيل : ارتفع [عالمُ] بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره : «ينفخ فيه عالمُ» على ما أَنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لِخُصومَةٍ وآخرُ مِمَّن طوَّحَتْهُ الطَّوائِحُ (٣)

التقدير : يبكيه ضارع . وحكى هذا التأْويل الذي يشبه (لِيُبْكَ يزيدٌ) عن ابن عباس ، ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ : ﴿زُيِّن لِكَثيرٍ

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسَّنه، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبَّان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ــ عن عبد الله بن عمرو قال : (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال : هو قرن ينفخ فيه .) (الدر المنثور) .

(٢) أخرج أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم ، والبيهقي في البعث ــ عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى بسمعه ينظر متى يؤمر) قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : (قولوا : حسْبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا) . (الدر المنثور) .

(٣) البيت للحارث بن نُهَيك ، وهو كما في كتاب سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لِخُصومةٍ ومُختبطٌ مِمَّا تُطيحُ الطَّوائِحُ

والمختبط : الطالب المعروف ، وتطيح : تذهب وتُهلك . وصفه بأنه كان مقيماً لحجة المظلوم ناصراً له .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ﴾[١] بضم الزاي ورفع (الشركاء)، وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿يَوْمَ نَنْفُخُ في الصُّورِ﴾ بنون العظمة .

و [ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ] معناه: ما غاب عنا وما حضر ، وهذا يعُمُّ جميع الموجودات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

العامل في [إذْ] فعل مضمر تقديره: واذكر أو قُص . قال الطبري: نبَّه الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في محاجته قومه إذ كانوا أهل أصنام ، وكان قوم محمد صلى الله عليه وسلم أهل أصنام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس يلزم هذا من لفظ الآية ، أما إن جميع ما يجيءُ من مثل هذا عُرضة للاقتداء . وقرأ السبعة وجمهور الناس: [آزَرَ] بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراء ، قال السدي ، وابن اسحق ، وسعيد ابن عبد العزيز: هو اسم إبراهيم .

---

(١) من الآية (١٣٧) من سورة (الأنعام) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد ثبت أن اسمه تَارَح[١] ، فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل ، وهو في الإعراب - على هذا - بدل من الأَب المضاف في موضع خفض ، وهو اسم علم . وقال مجاهد : بل هو اسم صنم ، وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره : «أَتتخذ آزر ؟ أَتتخذ أَصناماً» ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا ضعف .

وقال بعضهم : بل هو صفة ، ومعناه هو المعوج المخطىءُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويعترض هذا بأَن [آزَرَ] إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أَن تنعت المعرفة بالنكرة ، ويوجه ذلك على تحامل بأَن يقال : زيدت فيه الأَلف واللام وإن لم يلفظ بها ، وإلى هذا أَشار الزجاج لأَنه قدر ذلك فقال : لأَبيه المخطئ ، وبأَن يقال : إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره : أَذمُّ المعوجّ أَو المخطئ ، ولا تبقى فيه الصفة بهذا الحال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف . وقيل : نصبه على الحال كأَنه قال : وإذ قال إبراهيم لأَبيه وهو في حال عوج وخطأ ، وقرأَ أُبي بن كعب ،

(١) في كتاب «الجمل» : «ضبطه بعضهم بالحاء المهملة ، وبعضهم بالخاء المعجمة» ، وهكذا في كثير من التفاسير .

وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وغيرهم بضم الراءِ على النداءِ ، ويصح – مع هذا – أن يكون (آزر) اسم أَب إبراهيم ، ويصح أَن يكون بمعنى المعوج والمخطئ . وقال الضحاك : (آزر) بمعنى : شيء ، ولا يصح – مع هذه القراءَة أن يكون (آزر) صفة ، وفي مصحف أُبي رضي الله عنه : «يا آزر» بثبوت حرف النداءِ «اتخذت أَصناماً» ؟ بالفعل الماضي . وقرأَ ابن عباس فيما روي عنه أَيضاً : «أَأَزْراً تَتَّخِذُ»؟ بأَلف الاستفهام وفتح الهمزة من (أَزْراً) وسكون الزاي ونصب الراءِ وتنوينها وإسقاط أَلف الاستفهام من [أَأَتَّخِذُ] ، ومعنى هذه القراءَة : أَعَضُداً وقوة ومظاهرة على الله تعالى تتخذ ، وهو من نحو قوله تعالى : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1] ، وقرأَ أَبو إسماعيل – رجلٌ من أَهل الشام – بكسر الهمزة من هذا الترتيب ، ذكرها أَبو الفتوح ، ومعناها أنها مبدلة من واو كوسادة وإسادة ، فكأَنه قال : أَوِزْراً ومأْثماً تتخذ أَصناماً ؟ ونصبه – على هذا – بفعل مضمر ، ورويت أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقرأَ الأَعمش : «إِزْراً تَتَّخِذُ» بكسر الهمزة وسكون الزاي دون أَلف توقيف . و [أَصناماً آلِهة] مفعولان .

وذكر أَن (آزر) أَبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً ، وكان نُمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده (آزر) لذلك ، وكان على خطة عمل الأَصنام ، تُعمل بأَمره وتدبيره ، ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عنده ، وحينئذ يعبد ذلك الصنم ، فلما نشأَ ابنه إبراهيم

---

(١) الآية (٣١) من سورة (طه) .

على الصفة التي تأتي بعد كان أبوه يكلفه بيعها ، فكان إبراهيم ينادي عليها : من يشتري ما يضرُّه ولا ينفعه ؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ويقول : اشربي ، فلما شهر أمره بذلك وأخذ في الدعاء إلى الله تعالى قال لأبيه هذه المقالة .

و [أراكَ] ـ في هذا الموضع ـ يشترك فيها البصر والقلب ، لأنها رؤية قلب ومعرفته وهي متركبة على رؤية بصر . و [مُبين] بمعنى : واضح ظاهر ، وهو مِن : أبان الشيءُ إذا ظهر ، ليس بالفعل المتعدي المنقول من : بانَ يَبين.(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يكون المنقول ، ويكون المفعول مقدراً تقديره : في ضلال مبين كفركم . وقيل : كان آزر رجلا من أهل كوثا من سواد الكوفة ، قال النقاش : وبها وُلد إبراهيم عليه السلام ، وقيل : كان من أهل حَرَّان .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ ، الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام ، والإشارة هنا بـ[ذَٰلِكَ] هي إلى تلك الهداية ، أي : وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت . و [نُري] لفظها الاستقبال ومعناها

---

(١) يقال : أبان الشيءُ فهو مبين بمعنى : اتَّضح ، قال الشاعر :

لوْ دبَّ ذرٌّ فوقَ ضاحي جِلْدِهـا لأبانَ من آثارهِنَّ حُـدورُ

المضي ، وحكى المهدوي أن المعنى : وكما هديناك يا محمد فكذلك نُري إبراهيم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه ، و [نُرِي] هنا متعدية إلى مفعولين لا غير ، فهي إمَّا من رؤْية البصر ، وإما من (أرى) التي بمعنى عرف ، ولو كانت من (أرى) بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تتعدى إلى مفعولين لوجب أن تتعدى (أُري) إلى ثلاثة مفاعيل ، وليس كذلك ، ولا يصح أن يقال : إن الثالث محذوف ، لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع ، وإنما هي من علم بمعنى عرف ، ثم نقلت الهمزة فتعدت إلى مفعولَيْن ، ثم جعلت (أرى) بمنزلتها في هذه الحال .

وهذه الرؤْية ـ قيل : رؤْية البصر ، وروي في ذلك أن الله عزَّ وجلَّ فَرَّج لإبراهيم السموات والأَرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأَسفل[١] ، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدركه غيره قبله ولا بعده ، وهذا هو قول مجاهد ؛ قال : تفرجت له السموات والأَرضون فرأى مكانه في الجنة ، وبه قال سعيد بن جبير ، وسلمان الفارسي . وقيل : هي رؤْية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤْية القلب ما لم يقع لأَحد

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مجاهد .

من أَهل زمنه الذين بعث إِليهم ، قاله ابن عباس وغيره ، ففي هذا تخصيص مّا على جهة التقييد بأَهل زمنه ، وقيل : هي رؤْية قلب رأَى بها ملكوت السموات والأَرض بفكرته ونظره ، وذلك ولا بد متركب على ما تقدم من رؤْيته ببصره وإِدراكه في الجملة بحواسه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان الأَخيران يناسبان الآية [(١)] ، لأَن الغاية التي نصبت له إِنما هي أَن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثرة ، والإِشارة لا محالة إِلى من قبله من الأَنبياءِ والمؤْمنين وبعده ، واليقين يَقَع له ولغيره بالرؤْية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إِله إِلَّا هــو .

و [مَلَكُوت] بناءُ مبالغة كَجَبَرُوت وَرَهَبُوت وَرَحَمُوت . وقال عكرمة : هو مَلَكُوثي باليونانية أَو بالنبطية ، وقرأَ [مَلَكُوثَ] بالثاءِ مُثَلَّثَة ، وقرأَ أَبو السمال : [مَلْكُوتَ] بإِسكان اللام ، وهي لغة ، ومَلَكوت بمعنى : الملك ، والعرب تقول : «لفلان ملكوت اليمن» أَي : ملكه .

---

(١) قال ابن كثير يوضح المعنى المقصود من الآية : «أي نُبَيِّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، كقوله : ﴿ قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّمواتِ والأرض ﴾ ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّموات والأَرْضِ ﴾ .

واللام في [لِيَكُونَ] متعلقة بفعل مؤَخَّر تقديره : «وليكون من الموقنين أريناه» ، والموقن : العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك ، وقال الضحاك ، ومجاهد أيضاً : إن الإشارة ها هنا بملكوت السموات هي إلى الكوكب والشمس والقمر ، وهذا راجع وداخل فيما قدمناه من أنها رؤية بصر في ظاهر الملكوت . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ﴿وَلِيَكُونَ مِن الْمُوقِنِينَ﴾ قال : جلّى له الأُمور سرَّها وعلانيتها فلم يخف عليه شيءٌ من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى : «إنك لا تستطيع هذا» فردَّه لا يرى أعمالهم (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

هذه الفاءُ في قوله تعالى : [فَلَمَّا] رابطة جملة ما بعدها بما قبلها ، وهي ترجح أَن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم — عن ابن عباس رضي الله عنهما (الدر المنثور) . وفي كتب السُّنة أحاديث كثيرة في هذا الموضوع . وقد قال ابن كثير : «وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وغيرهم : قالوا — واللفظ لمجاهد — : (فرجت له السموات فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع ، فنظر إلى ما فيهن ، وزاد غيره : فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم ، فقال الله له : إني أرحم بعبادي منك ، لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا) ، وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي ، ولكن لا يصح إسنادهما ، والله أعلم.» (ا.هـ — كلام ابن كثير ٣—٥٤) .

و جنَّ الليل : ستر وغطى بظلامه ، ويقال : أَجَنَّ ، والأَول أَكثر ، ويشبه أَن يكون الجِنُّ والمِجَنّ والجَنَّة والجَنَن وهو القبر مشتقة من جَنَّ إذا ستر .

ولفظ هذه القصة يحتمل أَن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إليه ابن عباس ، فإنه قال : رأى كوكباً فعبده . وقال ناس كثير : إن النازلة قبل البلوغ والتكليف ، ويحتمل أَن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلَّفاً ، وحكى الطبري هذا عن فرقة ، وقالت : إنه استفهم على جهة التوقيف بغير أَلف ، قال : وهذا كقول الشاعر :

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَمْ تُرَعْ فقُلْتُ وأَنْكَرْتُ الْوُجوهَ هُمُ هُمُ[1]

يريد : أَهُمْ هُمْ ؟ وكما قال الآخر :

لَعَمْرِكَ ما أَدْري وإنْ كُنْتُ دارياً شُعَيْثُ بنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ بنُ مِنْقَرِ ؟[2]

يريد : أَشعيث ؟

(١) البيت لأبي خراش الهذلي – ورفوني بمعنى : سكنوني من الرعب – وقد روي : « لا تُرَعْ » –ومثل البيت في حذف همزة الاستفهام قوله تعالى : ﴿ أفإنْ مِتَّ فهُمُ الْخالِدون ﴾؟ أي : أَفَهُمُ الخالدون ؟ وقول عمر بن أبي ربيعة :

لَعَمْرُكَ ما أَدْري وإنْ كُنْتُ دارِياً بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بثمانِ ؟

يريد : أَبِسَبْعٍ ؟

(٢) نسبه في الطبري لأوس . وشعيث بالثاء المثلثة ، والأقرب أن كلمة (ابن) خبر ، وأنه لا يعرف أشعيث هذا ابن سهم أم ابن منقر ؟ وكان الأصح أن تكتب بألف كما في التاج ، ولكن النسخ التي بين أيدينا رسمتها بدون ألف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والبيت الأَول لا حجة فيه عندي .

وقد حكي أَن نُمرود جبار ذلك الزمن رأَى منجِّموه أَن مولوداً يولد في سنة كذا في عمله يكون خراب الملك على يديه ، فجعل يتبع الحبالى ويوكل بهن حراساً ، فمن وضعت أُنثى تركت ، ومن وضعت ذكراً حمل إلى الملك فذبحه ، وأَن أُم إبراهيم حملت – وكانت شابة قوية – فسترت حملها ، فلما قربت ولادتها بعثت تارخ أَبا إبراهيم إلى سفر ، وتحيلت لمضيِّه إليه ، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم ، وتركته في الغار وقد هيأَت عليه ، وكانت تتفقده فتجده يتغذى بأَن يمص أَصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوهما ، وحكي : بل كان يغذوه ملَك ، وحكي : بل كانت تأْتيه بأَلبان النساء اللائي ذبح أَبناؤُهن ، فشبَّ إبراهيم أَضعاف ما يشب غيره ، والملِك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه ، فمكث في الغار عشرة أَعوام ، وقيل : خمس عشرة سنة ، وأَنه نظر – أَول ما عَقَل – من الغار فرأَى الكوكب وجرت قصة الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وجلبْتُ هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ ، وقصدتُ استيفاءَ المعاني التي تخص الآية ، ويضعف عندي أَن تكون هذه

القصة في الغار لقوله في آخرها : ﴿إني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1] ، وهي ألفاظ تقتضي محاجة وردّاً على قوم ، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا ، اللهم إلا أن يُتَأَول في ذلك أنه قالها بينه وبين نفسه ، أي قال في نفسه معنى العبارة عنه : ﴿يا قَوْم إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ، وهذا كما قال الشاعر :

ثمَّ انْثَنَي وقالَ في التَّفْكِيرِ إنَّ الحياةَ اليَوْمَ في الكُرورِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومع هذا فالمخاطبة تبعده ، ولو قال : «يا قوم إني بريءٌ من الإشراك» لصحَّ هذا التأويل وقوي ، فإن قلنا بأنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين : إما أن يجعل قوله : [هذَا رَبِّي] تصميماً واعتقاداً ، وهذا باطل لأن التصميم لم يقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وإما أن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال ، كأنه قال : هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل ، ويجيءُ إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾[2] أي : مهمل المعتقد . وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول : [هَذَا رَبِّي] مُصَمِّماً ولا معرضاً للنظر ، لأنها رتبة جهل أو شك ، وهو عليه السلام

(١) هذا مذهب التزمه ابن عطية في تفسيره إزاء القصص وغيرها من الإسرائيليات ، وقد نبهنا إلى ذلك في المقدمة فارجع إليها لتعرف منهجه .

(٢) الآية (٧) من سورة (الضحى) .

مُنَزَّه معصوم من ذلك كله ، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأَصنام ، كأَنه قال لهم : «أَهذا المنير ربِّي»؟ أَو [هَذَا رَبِّي] وهو يريد : على زعمكم ، كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ ؟[1] فإنما المعنى : على زعمكم. ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأُفوله أَمارة الحدوث . وأَنه لا يصح أَن يكون ربّــاً ، ثم في آخر أَعظم منه ، وأَحرى كذلك ، ثم في الشمس كذلك ، فكأَنه يقول : فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أَنها لا تصلح للربوبية فأَصنامكم التي هي خشب وحجارة أَحرى أَن يَبين ذلك فيها ، ويُعضد عندي هذا التأْويل قوله : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

ومثَّل لهم بهذه الأُمور لأَنهم كانوا أَصحاب علم نجوم ونظر في الأَفلاك ، وهذا الأَمر كله إنما وقع في ليلة واحدة ، أَي الكوكب – وهو الزهرة في قول قتادة ، وقال السدي : هو المشترى – جانحاً للغروب ، فلما أَفل بزغ القمر وهو أَول طلوعه ، فسرى الليل أَجمع ، فلما بزغت الشمس زال ضوءُ القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أَيضاً من مغربه ، فسمي ذلك أُفولاً لقربه من الأُفول التام على تجوز في التسمية ، ثم بزغت الشمس على ذلك ، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلى ليلة عشرين ، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أَجمع أَهل التفسير إلا في هذه الليالي ، وبذلك التجوز في أُفول القمر ، و (أَفل) في كلام العرب معناه : غاب ، يقال : أَين أَفَلْتَ عنا يا فلان ؟ وقيل : معناه ذهب .

(١) تكررت في الآيات (٢٧) من سورة النحل، و(٥٢) من سورة (الكهف) ، و(٦٢، ٧٤) من سورة (القصص) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا خلاف في عبارة فقط ، وقال ذو الرمة :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ باللَّوَاتي تَقودُها نُجومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوالك[1]

وقال : [الآفِلينَ] فجمع بالياءِ والنون لما قصد قصد الأَرباب ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس : [هَذَا رَبِّي] فذكَّر الإشارة إليها لما قصد قصد ربّه .

وقرأَ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص : [رَأَى] بفتح الراءِ والهمزة ، وقرأَ نافع بين الفتح والكسر ، وقرأَ عاصمٌ في رواية أَبي بكر ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بكسرهما ، وقرأَ أَبو عمرو ابن العلاءِ بفتح الراءِ وكسر الهمزة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً﴾ الآية . البزوغ في هذه الأَنوار : أَول الطلوع ، وقد تقدم القول فيما تدعو إليه ألفاظ الآية وكون هذا بالترتيب في ليلة واحدة مع التجوز في أُفول القمر ، لأَن أُفوله لو قدرناه مغيبه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس ، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار .

---

(١) البيت في وصف الإبل ، ومصابيح : جمع مِصْباح ، والمصباحُ من الإبل الذي يبرك في مُعَرَّسه فلا ينهض حتى يصبح وإن أُثير ، وقيل : المصبح والمصباح من الإبل : التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النّهار ، وهو يستحب من الإبل وذلك لقوتها وسمنها ، قال مُزَرِّد :

ضربْتُ له بالسَّيْف كوْماءَ مِصْبَحاً فَشُبَّتْ عليها النَّارُ فهي عَقيرُ

والآفِلاتُ : الغائبات بالغروب ، والدَّوالك من قولهم : دَلَكَت الشمس : إذا غابت أو دنت من المغيب . (اللسان)

و [يَهْدِني] يرشدني ، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال : النازلة في حال الصغر . والقوم الضالون : عَبَدة المخلوقات كالأصنام وغيرها ، وإن كان الضلال أعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

لما قصد قصد ربه [قال هَذَا] فذكَّر ، أي : هذا المرئي أو المنير ونحو هذا ، [فَلَمَّا أَفَلَتْ] لم يبق شيءٌ يمثل لهم به ، فظهرت حجته وقوي بذلك على منابذتهم والتبرّي من إشراكهم .

وقوله : ﴿إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال : النازلة في حال الكبر والتكليف ، و ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي : أقبلتُ بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنى المعبر عنه بـ [وَجْهِي] . و [فَطَرَ] معناه : ابتدع في أجرامٍ ، و [حَنِيفاً] معناه: مستقيماً ، والحنف : الميل في كلام العرب ، وأصله في الأشخاص ، وهو في المعاني مستعار ، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة ،

أَي مائل ، والمستقيم فيها أَحنف على تجوُّز كأَنه مال عن كل جهة إلى القَوَام .(١)

[وَحَاجَّهُ] فاعله من الحجة ، قال : أَتراجعوني في الحجة في توحيد الله ؟ وقرأ قوم : [أَتَحَاجُّونَنِي] بإظهار النونين وهو الأَصل ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [أَتُحَاجُّونِّي] بإدغام النون الأُولى في الثانية ، وقرأَ نافع ، وابن عامر : [أَتُحاجُّونِي] بحذف النون الواحدة ، فقيل : هي الثانية ، وقيل : هي الأُولى ويدل على ذلك أَنها بقيت مكسورة ، قال أَبو علي الفارسي : لا يجوز أَن تحذف الأُولى لأَنها للإعراب ، وإنما حذفت الثانية الّتي هي توطئة لياءِ المتكلم ، كما حذفت في (لَيْتي) ، وفي قول الشاعر :

. . . . يَسوءُ الْغاليِاتِ إذا فَلَيْني (٢)

وكسرت ـ بعد ذلك ـ الأُولى الباقية لمجاورتها للياءِ .

---

(١) أي إلى الاستقامة والاعتدال في الوسط . وهي بالفتح ، أما قِوام الأمر بالكسر فمعناها : نظامه وعماده الذي يقوم به ، وقد يفتح (اللسان) .

(٢) البيت لعمرو بن مَعْد يكَرِب ، وهو بتمامه كما أنشده سيبويه ، وذكره صاحب اللسان :

تراهُ كالثّغام يُعَلّ مِسْكاً يَسوءُ الْغَالياتِ إذا فَلَيْني

الثغَامُ : نبت أبيض يكون في الجبال ، قال عنه في التهذيب : مثل هامة الشيخ ، وفي حديث أبي قحافة أنه أتى به يوم الفتح (وكان رأسه ثَغامة) والعلل : الشُّرب بعد الشُّرب ، والمراد هنا : يُطيَّب شيئاً بعد شيءٍ ، والغاليات هن النساء ، ويقال لهن أيضاً : الغوالي ، وأراد فلينني بنونين فحذف إحداهما استثقالا ، يقال : فلّت فلانه رأسه تفليه فلاية إذا بحثت عن القمل .

[وَقَدْ هَدَانِ] أي : أرشدني إلى معرفته وتوحيده ، وأمال الكسائي : [هَدَانِ] ، والإمالة في ذلك حسنة ، وإذا جازت الإمالة في «غزا ودعا» وهما من ذوات الواو فهي في (هدان) التي هي من ذوات الياء أجوز وأحسن ، وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام : خف أن تُصيبك آلهتنا بِبَرَص أو داءٍ لإذايتك لها وتنقُّصك ، فقال لهم : لستُ أخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة له ولا غناءَ عنده ، و [ما] في هذا الموضع بمعنى الذي ، والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، فيكون ــ على هذا ــ في قوله : [تُشْرِكُونَ] ضمير عائد على [مَا] ، وتقدير الكلام : «ولا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله في الربوبية» . ويحتمل أن يعود الضمير على [مَا] فلا يحتاج إلى غيره ، كأن التقدير : «ما تشركون بسببه» .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ استثناءٌ ليس من الأول ، و [شَيْئاً] منصوب بـ [يَشَاءُ] ، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضراً استثنى مشيئة ربِّه تعالى في أن يريده بضُرٌّ ، و [عِلْماً] نصب على التمييز ، وهو مصدر بمعنى الفاعل كما تقول العرب : تَصَبَّبَ زيدٌ عرقاً ، والمعنى : تصبب عرق زيد ، فكذلك المعنى هنا : وسع علم ربي كل شيءٍ ، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإظهار لموضع التقصير منهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

هذه الآية إلى [تَعْلَمُونَ] هي كلها من قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، وهي حجته القاطعة لهم ، والمعنى : وكيف أَخاف الأَصنام التي لا خطب لها وهي حجارة وخشب إذا أنا نبذتها ولم أُعظمها ، ولا تخافون أَنتم الله عزَّ وجلَّ وقد أَشركتم به في الربوبية أَشياءَ لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان : الحُجَّة .

ثم استفهم على جهة التقرير ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟ أَي : من لم يشرك بالقادر العالم أَحق أَن يأْمن . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية . [الَّذِينَ] رفع بالابتداءِ ، و [يَلْبِسُوا] معناه : يخلطوا ، والظلم ـ في هذه الآية ـ الشرك ، تظاهرت بذلك الأَحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة من الصحابة أَنه لما نزلت هذه الآية أَشفق أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : «أَيّنَا لم يظلم نفسه»؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما ذلك كما قال لقمان : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾)(١) . وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله

(١) قال القرطبي : وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه : ثم ذكر الحديث . وفي (الدر المنثور ٣ـ٢٦ ، ٢٧) : أخرجه أحمد، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن =

عنه قرأ في المصحف ، فلما أتى عليها عظمت عليه ، فلبس رداءه ومرَّ إلى أُبَيّ بن كعب فقال : يا أبا المنذر ، وسأله عنها ، فقال له : إنه الشرك يا أمير المؤمنين ، فسُرّي عن عمر[(١)] ، وجرى لزيد بن صوحان[(٢)] مع سلمان نحو ممَّا جرى لعمر مع أُبي بن كعب رضي الله عنهم . وقرأ مجاهد : ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِشِرْكٍ﴾ ، وقرأ عكرمة : [يُلْبِسوا] بضم الياءِ . و [الأَمْن] رفع بالابتداءِ وخبره في المجرور والجملة خبر [أُولَئِكَ] ، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي : راشدون .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : المراد بهذه الآية إبراهيم عليه السلام خاصة ، وقال عكرمة : نزلت في مهاجري أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة ، وقالت فرقة : هي من قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، فهي من الحجة التي أُوتيها ، وقال ابن جريج : هي من قول قوم إبراهيم ، ويجيءُ هذا من الحُجَّة أيضاً أن أقرُّوا بالحق وهم قد ظلموا في الإشراك ، وقال ابن إسحق ، وابن زيد ، وغيرهما : بل ذلك قول من الله عزَّ وجلَّ ابتداءُ حكم فصل عام لوقت محاجة إبراهيم وغيره ، ولكل مؤمن تقدم أو تأخر .

= جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الإفراد ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه — عن عبد الله بن مسعود . ولفظه كما رواه : (قال : لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، أَلَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشِّرك) .

(١) أخرجه ابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه — عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور ٣—٢٧) .

(٢) هو زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث ، أبو سليمان . أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . (التاج) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو البيِّن الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسن رصفها ، وهو خبر من الله تعالى .

و [تِلْكَ] إشارة إلى هذه الحجة المتقدمة ، وهي رفع بالابتداء ، و [حُجَّتُنَا] خبره ، و [آتَيْنَاهَا] في موضع الحال ، ويجوز أن تكون [حُجَّتُنَا] بدلا من [تِلْكَ] ، و [آتَيْنَاهَا] خبر [تِلْكَ] و [إِبْرَاهِيمَ] مفعول بـ [آتَيْنَا] ، والضمير مفعول أيضاً بـ [آتَيْنَا] مقدم ، و [عَلَى] متعلقة بقوله : [حُجَّتُنَا] وفي ذلك فصل كثير ، ويجوز أن تتعلق [عَلَى] بـ [آتَيْنَاهَا] على المعنى ، إذ المعنى : أظهرناها لإبراهيم على قومه ، ونحو هذا .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ﴾ بإضافة الدرجات إلى [مَنْ] ، وقرأ عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نشاءُ](١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهما مأْخذان من االكلام ، والمعنى المقصود بهما واحد ، و [دَرَجَاتٍ] على قراءة مَن نَوَّنَ نصب على الظرفية ، [حَكِيمٌ عَلِيمٌ] صفتان تليق(٢)

---

(١) أي : بالتنوين ، وفيها يقع الفعل على [مَنْ] لأنه المرفوع في الحقيقة ، والتقدير : ونرفع من نشاءُ إلى درجات ، ومن قرأ بغير تنوين ، أوقع الفعل على الدرجات ، وإذا رفعت فقد رفع صاحبها ، ويقويها قوله تعالى : [رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ] . والقراءتان متقاربتان ، وهذا هو ما نبه عليه ابن عطية .

(٢) هكذا في جميع الأصول التي بين أيدينا .

بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام . والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية .

قوله عزّ وجل :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

[وَوَهَبْنَا] عطف على [وَآتَيْنَا] ، و [إِسْحَق] ابنه من سارة ، [ويَعْقُوبَ] هو ابن إسحٰق ، و [كلاًّ] و [نُوحاً] منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل ، وقوله : [مِنْ قَبْلُ] لقدمه صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ] المعنى : وهدينا من ذرِّيَّته . والضمير في [ذُرِّيَّتِهِ] ـ قال الزجاج : جائز أن يعود على إبراهيم ، ويعترض هذا بذكر لوط عليه السلام وهو ليس من ذريَّة إبراهيم عليه السلام ، بل هو ابن أخيه ، وقيل : ابن أُخته ، ويتخرج عند من يرى الخال أباً ، وقيل: يعود الضمير على نوح ، وهذا هو الجيِّد .

و [دَاوُدَ] يقال : هو ابن أَيْشى[1] [وسُلَيْمَان] ابنه ، [وأَيُّوب] هو ـ فيما يقال ـ أيوب بن رازح بن عيصو بن إسحٰق بن إبراهيم

(١) كتبت في بعض النسخ بالألف هكذا (أيْشا) .

عليه السلام . [وَيُوسُفَ] هو ابن يعقوب بن إسحق ، [وَمُوسى وَهَارُونَ] عليهما السلام هما ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. ونصب [داود] يحتمل أن يكون بـ [وَهَبْنَا] ، ويحتمل أن يكون بـ [هَدَيْنَا] .

وهذه الأسماءُ كلها فيها العجمة والتعريف ، فهي غير منصرفة ، وموسى عند سيبويه وزنه مُفعل ، فعَلَى هذا ينصرف في النكرة ، وقيل : وزنه فُعْلَى ، فَعَلَى ، هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة .

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعْدٌ من الله عزَّ وجلَّ لِمَنْ أحسن في عمله ، وترغيب في الإحسان ، [وَزَكَرِيَّا] عليه السلام ـ فيما يقال ـ هو ابن آذن بن بركنا [وَعِيسَى] عليه السلام ابن مريم بنت عمران ابن ياشهم بن أمون بن حزقياء ، [وَإِلْيَاس] عليه السلام هو ابن نسمى ابن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، وروي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إدريس هو إلياس عليه السلام ، وردَّ ذلك الطبري وغيره بأن إدريس هو جدُّ نوح عليه السلام ، تظاهرت بذلك الروايات ، وزكرياءُ قرأته طائفة بالمدِّ ، وقرأته طائفة بالقصر زكريا ، وقرأ ابن عامر باختلاف عنه . والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من إلياس .

وفي هذه الآية أن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أو إبراهيم عليهما السلام بحسب الاختلاف في عود الضمير من [ذُرِّيَّتِهِ] وهو ابن ابنته ، وبهذا يستدل في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية . [وَإِسْمَاعِيلُ] عليه السلام هو أكبر ولدي إبراهيم عليه السلام ، وهو

من هاجر . [وَالْيَسَعَ] قال زيد بن أسلم : هو يوشع بن نون ، وقال غيره : هو الْيَسَعَ بن أخطوب بن العجوز ، وقرأ جمهور الناس : [وَالْيَسَعَ] . وقرأ حمزة والكسائي : [وَاللَّيْسَعَ] كأن الألف واللام دخلت على فَيْعَل ، قال أبو علي الفارسي : فالألف واللام في (الْيَسَعَ) زائدة لا تؤثر معنى تعريف ، لأنها ليست للعهد كالرجل والغلام ، ولا للجنس كالإنسان والبهائم ، ولا صفة غالبة كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون [الْيَسَع] فعلا وحينئذ يجري صفة ، وإذا كان فعلا وجب أن يلزمه الفاعل ، ووجب أن يحكى إذ هي جملة ، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له ، إذ اللام لا تدخل على الفعل ، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: «الخمسة عشر درهماً» وفي قول الشاعر :

* يالَيْتَ أُمَّ الْعَمر كانَتْ صاحِبي * (١)

بالعين غير منقوطة ، وفي قوله :

وَجَدْنا الْوَليدَ بنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكاً شَديداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كاهِلُهْ (٢)

وأما (اللَّيْسَعَ) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات ، لكنه بمنزلة (الْيَسَع) في أنه خارج عما عليه

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشطْر ولا على بقية البيت فيما لدينا من المراجع .

(٢) هذا البيت لابن ميَّادة ، ومثله في زيادة الألف واللام قول ذي الْخِرَق الطَّهوي :

فيُسْتَخْرَجَ اليَرْبُوعُ مِنْ نافِقائِــه ومِنْ بَيْتِه بالشَّيخَةِ الْيَتَقَصَّــعُ

الأَسماءُ الأَعجمية ، إذ لم يجيءْ فيها شيءٌ هو على هذا الوزن ، كما لم يجيءْ منها شيءٌ فيه لام تعريف ، فهما من الأَسماءِ الأَعجمية إلا أنهما مخالفان للأَسماءِ الأَعجمية فيما ذكر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَما (الْيَزِيد) فإنه لما سمّي به أُزيل منه معنى الفعل وأُفردت فيه الاسمية ، فحصل فيه العلمية ، وزيدت فيه الأَلف واللام لا لتعريف. وقال الطبري : دخلت الأَلف واللام إتباعاً للفظ الوليد .

[وَيُونُسَ] هو ابن متّى ، ويقال : يونُس ويونَس ويونِس ، وكذلك يوسُف ويوسَف ويوسِف[1] . وبكسر النُّون من [يُونِس] والسِّين من [يُوسِف] قرأَ الحسن ، وابن مصرف ، وابن وثاب ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش في جميع القرآن . و [الْعَالَمِينَ] معناه : عالمي زمانهم .

---

(١) أي بالضم والفتح والكسر للنون في (يونس) وللسين في (يوسف) .
وقد علّق أبو حيان في « البحر » على ذكر هذه الأسماء فقال : « فهذه مراتب ست : مرتبة المُلْك والقدرة ذكر فيها داود وسليمان ، ومرتبة البلاءِ ذكر فيها أيوب ، ومرتبة الجمع بين البلاءِ والوصول إلى الملك ذكر فيها يوسف ، ومرتبة قوة البراهين والمعجزات والقتال والصولة ذكر فيها موسى وهارون ، ومرتبة الزهد الشديد والانقطاع عن الناس للعبادة ذكر فيها زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ومرتبة عدم الأتباع ذكر فيها إسماعيل واليَسع ويونس ولوطاً عليهم السلام . »

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المعنى : وهدينا من آبائهم وذرِّيَّاتهم وإخوانهم جماعات ، ف [مِنْ] للتَّبعيض ، والمراد مَن آمن منهم نبياً كان أو غير نبي ، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله : [وَمِنْ آبائِهِمْ] ، ولهذا قال محمد بن كعب : الخال أَب والخالة أُمٌّ .

[وَاجْتَبَيْنَاهُمْ] معناه : تخيرناهم وأَرشدناهم وضممناهم إلى خاصتنا وأَرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى الله تعالى ، قال مجاهد: معناه : أَخلصناهم .

والذُّرِّيَّة : الأَبناءُ ، وينطلق على جميع البشر ذرِّيَّة لأَنهم أَبناءٌ ، وقال قوم : الذُّرِّية تقع على الآباء لقوله تعالى : ﴿وآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلْكِ﴾ (١) يراد به نوع البشر .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ﴾ الآية . [ذَلِكَ] إشارة إلى النعمة في قوله : [وَاجْتَبَيْنَاهُمْ] ، وإضافة الهدى إلى الله إضافة ملك . و [حَبِطَ] معناه : تلف وذهب لسوءٍ غلب عليه .

---

(١) الآية (٤١) من سورة (يس) .

و [أُولَئِكَ] إشارة إلى من تقدم ذكره ، و [الْكِتَاب] يراد به الصحف والتوراة والإنجيل والزبور ، [والْحُكْم] يراد به اللُّب والفطنة والفقه في دين الله . و [هَؤُلاءِ] إشارة إلى كفار قريش المعادين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى كل كفار في ذلك العصر . قاله قتادة ، وابن عباس ، والسدي ، وغيرهم . و [قَوْماً] يراد به مؤمنوا أهل المدينة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وغيرهم : فالآية – على هذا التأويل – وإن كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعُمُّ الكفرة والمؤْمنين إلى يوم القيامة . وقال قتادة أيضاً ، والحسن بن أبي الحسن : المراد بالقوم من تقدم ذكره من الأنبياء والمؤْمنين . وقال أبو رجاءٍ : المراد الملائكة ، والباءُ في [بها] متعلقة بقوله : [بِكافرينَ] ، والباءُ في [بِكافِرين] زائدة للتأْكيد .

وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ﴾ الآية . الظاهر في الإشارة بـ [أُولَئِكَ] أنها إلى المذكورين قبلُ من الأَنبياءِ ومن معهم من المؤْمنين المهديِّين ، ومعنى الاقتداءِ : اتباع الأَثر في القول والفعل والسيرة ، وإنما يصح اقتداؤُه بجميعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف ، وأما أعمال الشرائع فمختلفة ، وقد قال عزَّ وجلَّ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1] ، ويحتمل أن تكون الإشارة بـ [أُولَئِكَ] إلى قوله : [قَوْماً] .

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم ، ويقلق بعضهـا .

قال القاضي ابن الباقلاني : واختلف الناس ـ هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه متعبداً بشرع من كان قبله؟ فقالت طائفة : كان متعبداً ، واختلف بشرع من ؟ فقالت فرقة : بشرع إبراهيم ، وفرقة : بشرع موسى ، وفرقة : بشرع عيسى عليهم السلام ، وقالت طائفة بالوقف في ذلك ، وقالت طائفة ، لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله ، وهو الذي يترجح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يحمل كلام القاضي على أنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا مُعْتَقَد ، لأنا نجد شرعنا ينبئُ أن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام كأبويه وغيرهما في النار ، ولا يدخل الله تعالى أحداً النار إلا بترك ما كلف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1] وغير ذلك. وقاعدة المتكلمين أن العقل لا يوجب ولا يكلف ، وإنما يوجب الشرع ، فالوجه في هذا أن يقال : إن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله دعاءً عاماً ، واستمر ذلك على العالم ، فواجب على الآدمي البالغ أن يبحث على

(١) من الآية (١٥) من سورة (الإسراء) .

الشرع الآمر بتوحيد الله تعالى ، وينظر في الأَدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظر فيها ، ويؤمن ولا يعبد غير الله ، فمن فرضناه لم يجد سبيلا إلى العلم بشرع آمر بتوحيد الله ، وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً ، بل تخَلَّى ، فأُولَئِك أَهل الفترات الذين أَطلق عليهم أَهل العلم أَنهم في الجنة ، وهم بمنزلة الأَطفال والمجانين ، ومن قصَّر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار . فالنبي صلى الله عليه وسلم قبْل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على أَلْسِنة الأَنبياءِ قبلُ بتوحيد الله عزَّ وجلَّ ، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إذ هي مختلفة ، وإذ لم يدعهم إليها نبي ، وأَما بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فهل هو وأُمته مخاطبون بشرع من تقدم ؟ فقالت فرقة : لسنا مخاطبين بشيءٍ من ذلك ، وقالت فرقة : نحن مخاطبون بشرع من قبلنا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن قال من هذه الطائفة إن محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق فقد أَحال ، لأَن أَحكام الشرائع تأْتي مختلفة ، وإنما يتخذون قول من قال منها : إنا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع ، وبالآخِرِ مما اختلفت فيه لأَنه الناسخ المتقدمَ[1] ، ويرتكن في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من

(١) يريد بالآخِر : المتأخر — فهي بكسر الخاء ، وكلمة (المتقدم) مفعول به ، والمعنى : ومُتَعَبَّدون بالمتأَخِّر الذي اختلف فيه لأنه هو الذي نسخ المتقدمَ .

حكاية أحكام سالفة ، كقوله تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ﴾[١] وكقوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٢] ، وكحكاية تزويج شعيب ابنته من موسى عليهما السلام ، وكحديث النبي صلى الله عليه وسلم في قضية سليمان عليه السلام بين المرأتين في الولد ونحو ذلك .

ولا يقتضي قولهم أكثر من جواز أن يُتَعَبد بذلك ، وأما وجوب أن يتعبد فغير لازم ، ولا تعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأُمته أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها ، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عزَّ وجلَّ لموسى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٢] فننقل نحن هذا إلى غير ذلك من النوازل ونقول : إنه كما شُرع عندنا ذلك المثال في نسيان الصلاة كذلك نشرع هذه الأَمثلة كلها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قياسٌ ضعيف ، ولو ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٢] على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية ، ولا يصح أن يقال : يصحُّ عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وغيره صحة ننقلها ، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إلى صحة شرع عيسى عليه السلام له [٣].

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (ص) .

(٢) من الآية (١٤) من سورة (طه) .

(٣) الآراء التي ذكرها في قضية : هلْ نحن مُتَعَبَّدون بشرع من كان قبلنا ؟ — آراءٌ جديرة بالنظر وبالبحث ، ولكن للعلماء آراءٌ أُخرى جديرة بأَن يهتم بها الباحثون ، والذي يميل إليه معظم أصحاب مالك والشافعي أنه يجب علينا اتباع شرائع الأنبياء السابقين فيما لم يرد =

وقرأ ابن كثير ، وأهل مكة ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأهل المدينة ، وعاصم : [اقْتَدِهْ] بهاءِ السكت ثابتة في الوصل والوقف ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [اقْتَدِ] قال : بحذف الهاءِ في الوصل وإثباتها في الوقف ، وهذا هو القياس ، وهي تشبه ألف الوصل في أنها تقطع في الابتداءِ ، وتوصل غير مبتدأ بها ، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل ، وقرأ ابن عامر : [اقْتَدِهِ] بكسر الهاءِ دون بلوغ الياءِ ، قال ابن مجاهد : وهذا غلط لأنها هاءُ وقف لا تعرب على حال ، قال أبو علي : ووجه ذلك أن تكون ضمير المصدر كأنه قال : «اقتد الاقتداءَ» ، وقرأ ابن ذكوان على هذه : [اقْتَدِهِ] بإشباع الياءِ بعد

= فيه نصٌّ محتجين بأحاديث كثيرة منها ما جاء في صحيح مسلم وغيره أن أُخْت الرُّبَيِّع أم حارثة جرحت إنساناً فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القصاصَ القصاصَ) ، فقالت أم الرَّبيع : يا رسول الله ، أيُقْتص من فلانة ؟ والله لا يُقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبحان الله يا أمَّ الرَّبيع ، القصاصُ كتابُ الله) ، قالت : والله لا يُقتص منها أبداً، قال : فما زالت حتى قبلوا الدية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه) ، فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله: ﴿وكَتَبْنَا عَلَيْهِم فيها أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ﴾ الآية ، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى نصٌّ على القصاص في السنّ إلا في هذه الآية ، وهي خبر عن شرع التوراة ، ومع ذلك حكم بها وأحال عليها .

لكن بعض أصحاب مالك ، وبعض أصحاب الشافعي ، والمعتزلة خالفوا في ذلك لقوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً﴾ . قال الأولون : وهذا لا حجة فيه لأنه يحتمل التقييد . وفي صحيح البخاري عن العوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال : سألت ابن عباس عن سجدة (ص) فقال : أو تقرأ : ﴿ومِنْ ذُرِّيَّته داوُدَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿أولَئِكَ الَّذين هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ، وكان داود عليه السلام ممن أُمر نبيكم صلى الله عليه وسلم بالاقتداء به .

الهاءِ ، وقالت فرقة : إن كسر الهاءِ إنما هو في هاءِ السكت ، كما قد تسكن هاءُ الضمير أَحياناً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، ولا تجوز عليه القراءَة بإِشباع الياءِ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَسأَلُكُمْ﴾ الآية . المعنى : قل يا محمد لهؤُلاءِ الكفرة المعاندين : لا أَسأَلكم على دعائي إياكم بالقرآن إلى عبادة الله وتوحيده أُجرة أَستكثر بها وأَختص بدنياها ، إنِ القرآن إلا موعظة وذكرى ودعاءٌ لجميع العالمين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الضمير في [قَدَرُوا] و [قالوا] يراد به العرب ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : يراد به بنو إسرائيل ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما . وقيل : رجل مخصوص منهم يقال له : مالك بن الصيف ، قاله سعيد ابن جبير ، وقيل : في فنحاص ، قاله السدي .

و [قَدَرُوا] هو من توفية القدر والمنزلة ، فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يُعظم وغير ذلك ، غير أَن تعليله بقولهم :

«ما أَنْزَلَ اللهُ» يقضي بأَنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ أَحالوا عليه بعثة الرسل . و [حَقَّ] نصب على المصدر ، ومن قال «إن المراد كفار العرب» فيجيءُ الاحتجاج عليهم بقوله : ﴿مَنْ أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ الَّذي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ احتجاجاً بأَمر مشهور منقول بكافة قوم لم تكن العرب مكذبة لهم . ومن قال : «إن المراد بنو إسرائيل» فيجيءُ الاحتجاج عليهم مستقيماً لأَنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام .

وروي أَن مالك بن الصيف كان سميناً ، فجاءَ يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم بزعمه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنشدك الله ، أَلست تقرأُ فيما أُنزل على موسى أَن الله يبغض الحبر السمين؟) فغضب وقال : «واللهِ ما أَنزل اللهُ على بشر من شيءٍ»[(١)].

والآية على قول من قال : نزلت في قول بني إسرائيل يلزم أَن تكون مدنية ، وكذلك حكى النقاش أَنها مدنية ، وقرأَ الحسن ، وعيسى الثقفي ، وغيرهما : [وَمَا قَدَّروا] بتشديد الدال [اللهَ حقَّ قَدَرِهِ] بفتح الدال ، وقرأَ الجمهور في الأَول بالتخفيف وفي الثانية بإسكانه .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ الآية . أَمره الله تعالى أَن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة ، والمراد بالكتاب التوراة . و ﴿نُوراً وهُدًى﴾ اسمان في موضع الحال بمعنى نيِّراً وهادياً ، فإن جعلناه

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم — عن سعيد بن جبير قال : جاءَ رجل من اليهود يقال له : مالك بن الصيف ، فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ... الخ الحديث . (الدر المنثور ٣—٢٩)

حالا من [الْكِتَاب] فالعامل فيه [أَنْزَلَ] ، وإن جعلناه حالا من الضمير في [بِهِ] فالعامل فيه [جاءَ] .

وقرأ جمهور الناس ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ بالتاء من فوق في الأفعال الثلاثة ، فمن رأى أن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءة ، وتناسقت مع قوله تعالى : ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا﴾ ، ومن رأى أن الاحتجاج على كفار العرب فيضطر في هذه القراءة ـ إذ لا يمكن رفعها ـ إلى أن يقول : إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أفعالهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مع بُعْده أسهل من دفع القراءة ، فكأنه ـ على هذا التأويل ـ قال لقريش : من أنزل الكتاب على موسى ؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام : تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً﴾ بالياء في الأفعال الثلاثة . فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عزَّ وجلَّ بما فعلته اليهود في الكتاب ، ويحتمل أن يكون الاخبار بذلك لقريش ، أو للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، وما أُخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن فأُمته متلقية ذلك .

و [قَرَاطِيسَ] جمع قرطاس ، أي بطائق وأوراقاً ، والمعنى : يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها ، وتوبيخهم بالإبداء

والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد عليه الصلاة والسلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حُجة .

وقوله تعالى : ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ . قال مجاهد وغيره : هي مخاطبة للعرب ، فالمعنى ـ على هذا ـ قصْد مِنَّة الله عليهم بذلك ، أَي : عُلمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤُكم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿وعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يصلح ـ على هذا المعنى ـ لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به ، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين ، وليس من شرط من عُلِّم أَن يعلم ولابُدّ ، أَما إن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم .

وقالت فرقة : بل هي مخاطبة لبني إسرائيل ، والمعنى ـ على هذا ـ يترتب على وجهين : أَحدهما أَن يُقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأَن عُلِّموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به ، لأَن آباءَ المخاطبين من بني إسرائيل كانوا عُلِّموا أَيضاً وعَلِمَ بعضهم ، وليس ذلك في آباءِ العرب . والوجه الآخر أَن يكون المقصد ذمُّهم ، أَي : وعُلِّمتم أَنتم وآباؤُكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم .

ثم أَمره الله تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة ، أَي قل لهم : الله هو الذي أَنزل الكتاب على موسى . ويحتمل أَن يكون المعنى :

فإن جهلوا أَو تحيروا أَو سأَلوا أَو نحو هذا فقل : الله [١] . ثم أَمره تبارك وتعالى بترك من كفر وأَعرض .

وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تُؤُوِّلت موادعة ، وقد يحتمل أَلَّا يدخلها النسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادعة .

والخوض : الذهاب فيما لا تسبر حقائقه ، وأَصله في الماءِ ثم يستعمل في المعاني المُشْكلة المُلْتَبِسة ، و [يَلْعَبُونَ] في موضع الحال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى : [هَذَا] إشارة إلى القرآن ، و [مُبَارَكٌ] صفة له ، و [مُصَدِّقُ] كذلك ، وحذف التنوين من [مُصَدِّق] للإضافة ، وهي إضافة غير محضة لم تتعرَّف بها [مُصَدق] ، ولذلك ساغ أَن يكون وصفاً لنكرة . و [الَّذي] في موضع المفعول ، والعامل فيه مصدر ، ولا يصلح أَن يكون [مُصَدِّق] – مع حذف التنوين منه – يتسلط على

(١) قال أبو حيان : « لا يحتاج إلى هذا التقدير لأن الكلام مستغن عنه » (البحر المحيط ٤–١٧٨) .

[الَّذي] ، ويقدر حذف التنوين للالتقاءِ ، وإنما جاءَ ذلك شاذًّا في الشعر في قوله :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ولا ذاكِرِ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً[1]

ولا يقاس عليه . و [بَيْنَ يَدَيْه] هي حال التوراة والإِنجيل لأَن ما تقدم فهو بين يدي ما تأَخر . وقالت فرقة : الذي بين يديه القيامة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا غير صحيح لأَن القرآن هو بين يدي القيامة .

وقرأَ الجمهور : ﴿ولِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى﴾ أَي أَنت يا محمد ، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم : [وَلِيُنْذِرَ] أَي القرآن بمواعظه وأَوامره . واللام في [لِتُنْذِرَ] متعلقة بفعل متأَخر تقديره : ولتُنْذر أُم القُرى ومن حولها أَنزلناه .

وأُم القرى : مكة ، سميت بذلك لوجوه أَربعة : منها أَنها منشأُ الدين والشرع ، ومنها ما روي أَن الأَرض منها دُحيت ، ومنها أَنها وسط الأَرض ، ومنها ما لحق عن الشرع من أَنها قبلة كل قرية ، فهي ــ لهذا كله ــ أُم وسائر القُرى بنات ، وتقدير الآية : لتنذر أَهل أُم القرى . [وَمَنْ حَوْلَهَا] يريد أَهل سائر الأَرض ، و [حَوْلَهَا] ظرف ، والفاعل فيه فعل مضمر تقديره : ومن استقر حولها .

---

(١) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية (٦٠) من سورة (المائدة) .

ثم ابتدأ تعالى مدح قوم وصفهم وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور . و يؤْمِنُونَ بالقرآن ويصدقون بحقيقته ، ثم قوّى تبارك وتعالى مدحهم بأَنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات وأُم الطاعات ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ، وأبو بكر عن عاصم [صَلَوَاتهم] بالجمع ، ومَن قرأَ بالإِفراد فإنه مفرد يدل على الجمع ، وإذا انضافت الصلاة إلى ضمير لم تكتب إلا بالأَلف ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تنضف إلى ضمير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هذه أَلفاظ عامة ، فكلُّ مَن واقَع شيئاً مما يدخل تحت هذه الأَلفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقوله : [وَمَنْ أَظْلَمُ] أَي : لا أَحد أَظلم . وقال قتادة وغيره : المراد بهذه الآيات مسيلمة والأَسود العنسي ، وذكروا رؤْية النبي صلى الله عليه وسلم للسوارَيْن[1] ، وقال السدي : المراد بها عبد الله بن سعد بن أَبي سرح

(١) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة ، وهو : (بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب ، فكَبُر ذلك عليَّ ، فأُوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأولت ذلك كذاب اليمامة وكذاب صنعاء) .

العامدي ، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، وكان أخا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة ، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[١] ، فقال عبد الله بن سعد من تلقاءِ نفسه : «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ» ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اكتُبها فهكذا أُنزلت) . فتوهم عبد الله ولحق بمكة مُرْتَدّاً وقال : أَنا أُنزل مثل ما أَنزل الله . وروي عنه أَيضاً أَن النبي صلى الله عليه وسلم ربما أَملى عليه : «والله غفور رحيم» فبدلها هو : «والله سميع عليم» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «ذلك سواءٌ» ، ونحو هذا .[٢] وقال عكرمة : أَولها في مسيلمة ، والآخر في عبد الله

(١) الآيات (١٢ ، ١٣ ، ١٤) من سورة (المؤمنون) .

(٢) حديث عبد الله بن أبي سرح مروي من عدة طرق . رواه الكلبي عن ابن عباس ، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن شرحبيل بن سعد ، وابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمى ، ومثله عن السدي – مع اختلاف في الألفاظ – (القرطبي ، والدر المنثور) ، وفي القرطبي : «أنه لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتْل عبد الله بن خَطَل ومِقْيس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أَستار الكعبة ، ففر عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه في الرضاعة ، فغيَّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له ، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال (نعم) ، فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما صمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه) فقال رجل من الأنصار : فهلا أوْمأت إليَّ يا رسول الله ؟ ، فقال : (إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين) . قال أبو عمر رضي الله عنهما : وأسلم عبد الله بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه» اهـ .

ابن سعد بن أَبي سرح[١] ، وذكر الزهراوي والمهدوي أَن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأَنه عارض القرآن بقوله : «والزارعات زرعا ، والخابزات خبزا »[٢] إلى غير ذلك من السخافات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فخصص المتأَولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أَن كانوا أَسباب نزولها ، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كَطُلَيْحَة الأَسدي ، والمختار بن أَبي عبد ، وسواهما . وقرأَ الجمهور : ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ بتخفيف ، وقرأَ أَبو حيوة : [سَأُنَزِّلُ] بفتح النون وتشديد الزاي .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الآية . جواب [لَوْ] محذوف تقديره : لرأَيت عجباً أَو هولاً ونحو هذا . وحذف هذا الجواب أَبلغ من نصه ، لأَن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله . و [الظَّالِمونَ] لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أَنواع الظلم الذي هو كفر . والغمرات : جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة ، وهي مشبهة بغمرة الماء ، ومنه قول الشاعر :

ولا يُنْجِي مِن الْغَمَراتِ إِلَّا بَرَاكاءُ الْقِتَالِ أَو الْفِرَارُ [٣]

[وَالْمَلَائِكَةُ] ملائكة قبض الروح ، و ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن مدّها بالمكروه ، كما قال تعالى حكاية عن ابني آدم : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ

(١) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ – عن عكرمة . (الدر المنثور ٣–٣٠) .
(٢) أخرجه عبد بن حميد – عن عكرمة (المصدر السابق) .
(٣) البيت لبشر بن أبي خازم ، والبراكاءُ : الثباتُ في الحرب والجِدّ ، وأصله من البروك ، والبراكاءُ أيضاً : ساحة القتال . ويقال في الحرب : بَرَاكِ بَرَاكِ ، أي : ابركوا . (اللسان – برك) .

إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾[١] ، وهذا المكروه هو لا محالة أوائل عذاب وأماراته ، قال ابن عباس : يضربون وجوههم وأدبارهم ، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة ، وقيل : إن المراد بسط الأيدي في جهنم ، والغمرات كذلك ، لكنهم لا يُقضى عليهم فيموتوا .

وقوله تعالى : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ حكاية لما تقوله الملائكة ، والتقدير : «يقولون أخرجوا أنفسكم» ، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا : فأخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلّصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا ، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح ، قال الحسن : هذا التوبيخ – على هذا الوجه – هو في جهنم ، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة ، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمرٍ مّا : «افعل كذا» لذلك الأمر الذي يتناوله بنفسه منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية . هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم . و [ٱلْهُونِ] : الهوانِ ، ومنه قول ذي الإصبع :

إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ تَرْعَى المخاضَ وَلَا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ[٢]

وقرأ عبد الله بن مسعود ، وعكرمة : [عَذَابَ الْهَوان] بالألف .

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (المائدة) .

(٢) الهُونُ : الخِزْيُ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَأَخَذَتْهُم صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ ﴾ ، وهو أيضاً : الهوان ، والهُون والهوان : نقيض العزّ . والبيت في (اللسان) ، ولفظه :

اذْهَبْ إِلَيْكَ فَمَا أُمِّي براعِيَةٍ تَرْعَى الْمَخَاضَ ولا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ

وقوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرونَ﴾ الإنحاءُ على من قرب ذكره من هؤلاءِ الذين ادعوا الوحي، وأن يُنزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بيِّنٌ فيها قول غير الحق على الله، وبيِّنٌ فيها الاستكبار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فإما عند خروجها من الأَجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل.

و [فُرَادَى] معناه: فرداً فرداً، والأَلف في آخره أَلف تأْنيث، ومنه قول الشاعر:

تَرَى النُّعَراتِ الزُّرْقَ تَحْتَ لَبانهِ فُرادَى وَمَثْنى أَضْعَفَتْها صَواهِلُهْ(١)

---

(١) البيت لابن مُقْبل، كما قال في (اللسان)، وقد رواه في مادة (فَرَدَ) كما رواه ابن عطية رحمه الله هنا، وفي مادة (نَعَرَ) رواه كما يأتي:

تَرَى النُّعَرَاتِ الخُضْرَ حَوْلَ لَبَانِهِ أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَوَاهِلُه

أي: قتلها صهيلُه. والنُّعَرَةُ مثال الهُمَزَة: ذباب ضخم أزرق العين أخضر له إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار فيركب رأسه ولا يرده شيءٌ. واللَّبان: الصدر، وقيل: وسَطُه، وقيل: الصدر من ذي الحافر خاصة، وفي قصيد كعب:

تَرْمي اللَّبانَ بكَفَّيْها ومِدْرَعِها مُشَقَّقٌ عنْ تَراقيها رَعَابِيلُ

وقرأ أَبو حَيْوةَ : [فُرَاداً] منوناً على وزن فعال وهي لغة تميم ، [وفرادى] قيل : جمع فَرَدٍ بفتح الراءِ ، وقيل : جمع فرْدٍ بإسكان الراءِ[١] ، والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير واحتياجهم إلى الله عزَّ وجلَّ بفقد الخَوَل والشفعاءِ ، فيكون قوله تعالى : ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مرَّةٍ﴾ تشْبيهاً بالانفراد الأَول في وقت الخِلْقَة . ويتوجه معنى آخر وهو : أَن يتضمن قوله تعالى : ﴿كمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد كأَنه قال : ولقد جئتمونا فرادى وبأَحوال كذا ، والإِشارة ـ على هذا ـ بقوله تعالى : [كَمَا] هي إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في صفة من يُحْشَر : (إِنهم يحشرون حُفَاة عُراةً غُرْلاً)[٢] .

و [خَوَّلْنَاكُمْ] معناه : أَعطيناكم ، وكان أَبو عمرو بن العلاءِ ينشد بيت زهير :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتخْولوا المال يُخْوِلُوا وإِنْ يُسْأَلوا يُعْطُوا وإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلوا[٣]

و ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ إشارة إِلى الدنيا لأَنهم يتركون ذلك موجوداً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ ، الآية توقيف على الخطأ في عبادة الأَصنام وتعظيمها ، قال الطبري : وروي أَن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأَنه قال : سوف تشفع لي اللات والعزى .

---

(١) وقيل : جمع فرِد بكسر الراءِ ، وقيل : جمع فَرْدان مثل سُكارى وسَكْران وكُسَالى وكَسْلان ـ (عن كتُب اللغة) .

(٢) روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : (إنكم محشورون حُفاة عُراة غرلا) ﴿كما بَدَأنا أَوَّل خلْقٍ نُعيدُهُ﴾ الآية(الخ الحديث ، وروى أيضاً مثله عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) قال في (اللسان) : « الاسْتِخْوَال مثل الاسْتِخْبال ، من أَخْبَلته المال إذا أعرته ناقة لينتفع بألبانها وأوبارها ، أو فرساً يغزو عليه ، ومنه قول زهير » . ثم ساق البيت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرب إلى الله زُلْفَى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبتهم بالآية متمكن ، وهكذا كان الأكثر ، ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة [بَيْنُكُمْ] بالرفع ، وقرأ نافع والكسائي : [بَيْنَكُم] بالنصب ، أما الرفع فعلى وجوه : أولاها أنه الظرف استعمل اسماً وأسند إليه الفعل كما قد استعملوه اسماً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِك حِجَابٌ﴾[1] ، وكقولهم فيما حكى سيبويه : «أحمر بين العينين» ، ورجَّح هذا القول أبو علي الفارسي ، والوجه الآخر أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أن (الْبيْن) في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل ، فكأنه قال : لقد تقطَّع وصْلُكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يُرْوَ مسموعاً عن العرب[2] ، وإنما انتزع من الآية ، والآية محتملة ، قال الخليل في العين : «والبَيْنُ :

---

(١) من الآية (٥) من سورة (فصلت) .

(٢) الحقيقة أنه روي مسموعاً عن العرب ، ومن ذلك قول قَيْس بن ذَريح :

لَعَمْرُك لولا الْبَيْن لا يُقْطَع الْهوَى ... ولَوْلا الْهوَى ماحَنَّ لِلْبَيْن آلِفُ

وقال آخر :

لقد فرَّق الواشين بَيْني وبَيْنُها ... فقرَّت بذاكَ الوَصْلِ عَيْني وَعَيْنُها

وأنشد أبو عمرو في رفع (بيْن) قولَ الشاعر :

كأنَّ رمَاحنَا أَشْطانُ بئْر ... بعيدٍ بَيْنُ جالَيْها جَرُور

الوَصْلُ» لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فَعَلَّل سوق اللفظة بالآية ، والآية معرضة لغير ذلك . أما أَن أَبا الفتح قَوَّى أن البيْن : الوصل ، وقال : «وقد أَتقن ذلك بعض المحدثين بقوله : قد أَنصف البَيْن من البَيْن». والوجه الثالث من وجوه الرفع أَن يكون البيْن على أَصله في الفُرْقة من : بانَ يبين إذا بعُد ، ويكون في قوله تعالى : [تَقَطَّع] تجوُّز على نحو ما يقال في الأَمر البعيد في المسافة : «تقطعت الفجاج بيْن كذا وكذا» عبارة عن بُعد ذلك . ويكون المقصد : لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها ، فعبر عن ذلك بالبين الذي هو الفُرقة .

وأَما وجه قراءة النصب فأَن يكون ظرفاً ويكون الفعل مستنداً إلى شيءٍ محذوف وتقديره : لقد تقطع الاتصال أَو الارتباط بينكم ، أَو نحو هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا وجه واضح ، وعليه فسَّره الناس : مجاهد ، والسدي ، وغيرهما[1] . ووجه آخر يراه أَبو الحسن الأَخفش ، وهو : أَن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقي الظرف على حال نصبه وهو في النيَّة مرفوع ، ومثل هذا عنده قوله تعالى: ﴿وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ومِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾[2] .

---

(١) عقَّب أبو حيان على ذلك في «البحر المحيط ٤-١٨٣» بقوله : «قوله : (إلى شيءٍ محذوف) ليس بصحيح ، لأن الفاعل لا يحذف» ، ثم قال : «والذي يظهر لي أن المسألة من باب الإعمال ـ تسلَّط على [ما كُنْتُمْ تزْعمون] [تَقَطَّعَ] و [ضَلَّ] . فأُعمل الثاني وهو [ضلَّ] ، وأُضمر في [تَقَطَّع] ضمير [ما] وهم الأصنام ، فالمعنى : «لقد تقطَّع بينكم ما كنتم تزعمون وضلُّوا عنكم» . اهـ .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الجنّ) .

وقرأ ابن مسعود ، ومجاهد ، والأعمش : [تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ] بزيادة (ما) ، [و ضَلَّ] معناه : تَلِفَ وذهب ، و [ما كُنْتُمْ تَزْعمونَ] يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الالُوهية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذا ابتداءُ تنبيه على العِبرة والنظر ، ويتصل المعنى بما قبله لأَن القصد : [إِنَّ الله] لا هذه الأَصنام ، وقال مجاهد ، وأَبو مالك : هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البُرّ ونواة التمر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والعبرة – على هذا القول – مخصوصة في بعض الحبِّ وبعض النوى ، وليس لذلك وجه . وقال الضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم : هذه إشارة إلى فعل الله في أَن يشق جميع الحَبِّ عن جميع النبات الذي يكون منه ، ويشق النوى عن جميع الأَشجار الكائنة عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الظَّاهر الذي يعطي العبرة التامة ، فسبحان الخلاق العليم .

وقال الضحاك : [فالِقِ] بمعنى خالق ، وقال السدي : وأبو مالك : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إشارة إلى إخراج النبات الأخضر والشجر الأخضر من الحَبِّ اليابس والنوى اليابس ، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة ، والْيَبَس موتا . ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ إشارة إلى إخراج الحَبّ اليابس من النبات والشجر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : بل ذلك كله إشارة إلى إخراج الإنسان الحيّ من النطفة الميتة ، وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحيّ ، وكذلك سائر الحيوان والطير من البيض والحوت وجميع الحيوان (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أرجح ، وإنما تعلّق قائلو القول الأول بتناسب تأْويلهم مع قوله تعالى : ﴿فالِقُ الحبِّ والنَّوَى﴾ ، وهما على هذا التأْويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر .

وقال الحسن : المعنى : يخرج المؤْمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ ابتداءُ وخبر متضمِّن التنبيه . ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي : تصرفون وتصدون .

---

(١) قال أبو حيان : « عطف قوله : [ومُخْرِجُ الميِّتِ] على قوله : [فالِقُ الحَبِّ] اسم فاعل على اسم فاعل ، وليس معطوفاً على قوله سبحانه : [يُخْرِجُ] لأن قوله : [فالِقُ الحَبِّ] من جنس إخراج الحي من الميت لأن الناس في حكم الحيوان ، ألا ترى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فجملة ﴿يُخْرِج الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾ في موقع الجملة المُبَيِّنة من قوله ﴿فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى﴾ ، ولذلك عطف اسم الفاعل على اسم الفاعل لا على الفعل .

و ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ ، أي : شاقُّه ومظهره ، والفلق : الصبح ، وقرأ الجمهور : [فالِقُ الإِصْبَاحِ] بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وعيسى بن عمر ، وأبو رجاءٍ : [فَالِقُ الأَصْبَاحِ] بفتح الهمزة جمع صُبْح ، وقرأت فرقة : [فالِقُ الإِصْبَاحَ] بحذف التنوين من [فَالِقُ] لالتقاءِ الساكنيْن ونصب [الإِصْبَاحَ] بـ [فَالِقُ] كأَنه أَراد «فالقٌ الإِصْباحَ» بتنوين القاف ، وهذه قراءَة شاذة ، وإنما جوَّز سيبويه مثل هذا في الشعر ، وأَنشد عليه :

فَأَلْفَيْتُه غيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ولا ذاكرِ اللهَ إِلَّا قَليلاً (١)

وحكى النحاس عن المبرّد جواز ذلك في الكلام . وقرأ أَبو حيوة ، وإبراهيم النَّخعي ، ويحيي بن وثّاب : [فَلَق الإِصْباحَ] بفعل ماض . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : [وَجاعِل اللَّيْل] ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وجَعَلَ اللَّيْلَ] ، وهذا لما كان [فالِق] بمعنى الماضي فكأَن اللفظ «فَلَقَ الإِصْبَاحَ وَجَعَلَ» ، ويؤَيد ذلك نصب [الشَّمْسَ والْقَمَر] ، وقرأ الجمهور : [سَكَناً] ، وروي عن يعقوب [سَاكِناً] ، قال أَبو عمرو الداني : ولا يصح ذلك عنه ، ونصبه بفعل مضمر إذا قرأْنا : [وَجَاعِلُ] لأَنه بمعنى المضي ، وتقدير الفعل المضمر : «وجاعل الليل يجعله سكنا» ، وهذا مثل قولك : «هذا معطي زيد أَمس درهماً» ، والذي حكاه أَبو علي في هذا أَن ينتصب بما في الكلام من معنى : (مُعْطي) ، وقرأَ أَبو حيوة : [والشَّمْسِ والْقَمرِ] بالخفض عطفاً على لفظ [اللَّيْلِ] .

---

(١) سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت في أكثر من موضع مماثل لهذا .

و [حُسْبَاناً] جمع حساب ، كشهبان في جمع شهاب ، أي : تجري بحساب . هذا قول ابن عباس ، والسدي ، وقتادة ، ومجاهد ، وقال مجاهد في صحيح البخاري : المراد حسبان كحسبان الرحى[1] ، وهو الدولاب والعود الذي عليه دورانه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين ، فالحجة بها على الكافرين قائمة ، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة ، و [جَعَلَ] هنا بمعنى خلق لدخولها على مفعول واحد . وقد يمكن أن تكون بمعنى صَيَّرَ ، ويُقَدَّر المفعول الثاني في [لِتَهْتَدُوا] لأنه يُقدر : «وهو الذي جعل لكم النجوم هداية» . و [في ظُلُمَاتِ] هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة [النُّجُوم] التي لا تكون إلا بالليل . ويصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس .

وذكر الله تبارك وتعالى النجوم في ثلاث منافع ، وهي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً للشَّيَاطِينِ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ

(١) في جميع الأصول : كحسبان الرحاق — والتصحيح عن البخاري ، وعن كتب التفسير مثل : «البحر المحيط» .
(٢) من الآية (٥) من سورة (المُلْك) .

لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . فالواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من أهل التأْثير باطل واختلاق على الله وكُفْرٌ بِه .

و [فَصَّلْنَا] معناه : بَيَّنَّا وقَسَّمنا ، و [الآيات] الدلائل ، و ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لهم بالذكر ، وتنبيه منهم لتحصيلهم الآيات المفصلة المنصوبة وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الآية . الإنشاءُ : ابتداءُ فعل الشيء ، و ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [فَمُسْتَقَرٌّ] بفتح القاف على أنه موضع استقرار ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [فَمُسْتَقِرٌّ] بكسر القاف على أنه اسم فاعل ، وأجمعوا على فتح الدال من [مُسْتَوْدَعٌ] بأن يقدر موضع استيداع ، وأن يقدر أيضاً مفعولا ، ولا يصح ذلك في [مُسْتَقَرٌّ] لأن (استقر) لا يتعدى فيبنى منه مفعول ، أما أنه روى هارون الأعور عن أبي عمرو [مُسْتَوْدِع] بكسر الدال » فمن قرأ [فَمُسْتَقَرٌّ وَمسْتوْدَعٌ] على أنها موضع استقر موضع استيداع علقها بمجرور تقديره : «فلكم مستقر ومستودع» ، ومن قرأ [فَمُسْتَقِرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ] على اسم الفاعل في [مُسْتَقِرٌّ] واسم المفعول في [مُسْتَوْدَعٌ] علقها بمجرور تقديره : «فمنكم مستقر ومستودع» ، واضطرب المتأولون في معنى الاستقرار والاستيداع ، فقال الجمهور : مستقر

في الرحم ، ومستودع في ظهور الآباء حتى يقضي الله بخروجهم ، وقال ابن عون : مشيت إلى منزل إبراهيم النَّخعي وهو مريض فقالوا : قد توفي ، فأخبرني بعضهم أن عبد الرحمن بن الأسود سأله عن [مُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ] فقال : مستقِر في الرحم ومستودع في الصُّلب ، وقال الحسن بن أبي الحسن : مستقر في القبور ومستودع في الدنيا ، وقال ابن عباس : المستقر : الأرض ، والمستودع عند الرحم ، وقال ابن جبير : المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة ، والذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه ، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل لا محالة : ينتقل إلى الرحم ، ثم ينتقل إلى الدنيا ، ثم ينتقل إلى القبر ، ثم ينتقل إلى المحشر ، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في إحداهما استقراراً مطلقاً ، وليس فيها مستودع لأنه لا نقلة له بعد ، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالإضافة إلى التي قبلها ، ومستودع بالإضافة إلى التي بعدها ، لأن لفظ الوديعة يقتضي فيها نقلة ولابد .

و ﴿يَفْقَهُونَ﴾ معناه : يفهمون[1] ، وقد تقدم تفسير مثل هذا آنفاً .

---

(١) الاهتداء بالنجوم واضح ، ولذلك ختمه سبحانه وتعالى بما يناسبه وهو قوله سبحانه : [يَعْلَمُون] أي : من له أدنى إدراك فإنه ينتفع بالنظر في النجوم وفائدتها ، ولكن لما كان الإنشاء من نفس واحدة والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر ختمه سبحانه بقوله : [يَفْقَهون] لأن الفقه هو استعمال الفطنة ودقة النظر والفكر . وهكذا التقى ختام كل آية بما يلائم صدرها . عن « البحر المحيط » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

[السَّمَاءِ] ـ في هذا الموضع ـ : السحاب ، وكل ما أظلَّك فهو سماءٌ . و [مَاءً] أَصله (مَوَه) تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاءَ (ماه) فبدلت الهاءُ بالهمزة لِجَلَد الهمزة لأَن الأَلف والهاءَ ضعيفان مهموسان .

وقوله : ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ . قال بعض المفسرين : أَي مما يُنبت ، وحسن إطلاق العموم في [كُلِّ شَيْءٍ] لأَن ذكر النبات قبله قد قيَّد المقصد ، وقال الطبري : المراد بـ [كُلِّ شَيْءٍ] ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك ، لأَن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماءِ من السماءِ ، والضمير في [مِنْهُ] يعود على النبات ، وفي الثاني يعود على الخَضِر ، و [خَضِرًا] بمعنى أَخضر ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (الدنيا خضِرةٌ حُلوةٌ)(١) بمعنى : خضراءُ .

---

(١) روى الدارمي في سُنَنِـه أن حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حكيم ، إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . (جـ ٢ ، ص ٣١٠) ، ورواه ابن ماجة والإمام أحمد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان (خَضِرًا) إنما يأْتي أبداً لمعنى النضارة ، وليس للون فيه مدخل ، و (أَخضر) إنما تمكنه في اللون ، وهو في النضارة تجوّز .

وقوله : ﴿حَبًّا مُتَرَاكِباً﴾ يعمُّ جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر والرمان وغيرها من جميع النبات ،

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ تقديره : ونخرجُ من النخل ، و ﴿مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ابتداءٌ خبره مقدم ، والجملة في موضع المفعول بـ[نُخْرِجُ] ، والطلع : أول ما يخرج من النخلة في أكمامه ، و [قِنْوَانٌ] جمع قنو وهو العِذق بكسر العين وهو الكباسة ، والعرجون : عوده الذي ينتظم الثمر . وقرأ الأعرج [قَنْوانٌ] بفتح القاف ، وقال أبو الفتح : ينبغي أن يكون إسماً للجمع غير مكسر لأن فَعْلان ليس من أمثلة الجمع . قال المهدوي : وروي عن الأعرج ضم القاف ، وذلك على أنه جمع قُنو بضم القاف . قال الفراءُ : وهي لغة قيس وأهل الحجاز ، والكسر أشهر في العرب . وقنو يُثَنَّى قنوان منصرفة النون . و [دَانِيَةٌ] معناه : قريبة من المتناول ، قاله ابن عباس ، والبراءُ بن عازب ، والضحاك . وقيل : قريبة بعضها من بعض .

وقرأ الجمهور : [وَجَنَّاتٍ] بنصب [جَنَّاتٍ] عطفاً على قوله تعالى : [نَبَات] ، وقرأ الأعمش ، ومحمد بن أبي ليلى ، ورويت عن أبي بكر عن عاصم : [وَجَنَّاتٌ] بالرفع على تقدير : ولكم جنات ، أو نحو هذا . وقال الطبري : هو عطف على [قِنْوانٌ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله ضعيف .(١)

﴿وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ﴾ بالنصب إجماعاً عطفاً على قوله تعالى : [حَبًّا] ، و [مُشْتَبِهاً وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ] قال قتادة : معناه : تتشابه في اللون وتتباين في الثمر ، وقال الطبري : جائز أن تتشابه في الثمر وتتباين في الطعم ، ويحتمل أن يريد : تتشابه في الطعم وتتباين في المنظر ، وهذه الأحوال موجودة بالاعتبار في أنواع الثمرات .

وقوله تعالى : [انْظُرُوا] هو نظر بصر يترتب عليه فكرة قلب . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : [إِلَى ثَمَرِهِ] بفتح الثاء والميم ، وهو جمع ثَمَرَةٍ كبقرة وبقر ، وشجرة وشجر ، وقرأ يحيى بن وثاب ، ومجاهد : [ثُمُرِهِ] ، قالا : وهي أصناف المال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأن المعنى : انظروا إلى الأموال التي تتحصل منه ، وهي قراءة حمزة والكسائي ، قال أبو علي : والأحسن فيه أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب وأكمة وأُكُم ، ومنه قول الشاعر :

. . . . تَرَى الأُكم فيه سُجَّدا لِلْحَوَافِرِ (٢)

---

(١) فسّر هذا الضعف أبو البقاء فقال : « لا يجوز أن يكون معطوفاً على [قِنْوان] لأن العنب لا يخرج من النخل .

(٢) لم نعثر على نسبة هذا الشعر لقائله فيما لدينا من المراجع .

ونظيره في المعتل : لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح . ويجوز أن تكون جمْع جمْع فتقول : ثَمَرَة وثِمَارٌ وثُمُر مثل حِمار وحُمُر . وقرأت فرقة : [إلى ثُمْرِهِ] بضم الثاءِ وإسكان الميم كأَنها ذهبت إلى طلب الخفة في تسكين الميم . والثَّمَر في اللغة : جنى الشجر وما يطلع ، وإن سمي الشجر ثمارا فتجوز .

وقرأَ جمهور الناس : [وَيَنْعِهِ] بفتح الياءِ ، وهو مصدر يَنَعَ يَيْنَع إذا نضِجَ ، يقال : يَنَع وأَيْنَع ، وبالنضج فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية ، ومنه قول الحجاج : «إِني لأَرى رؤُوساً قد أَيْنَعَت» ، ويستعمل يَنَع بمعنى : استقل واخضرَّ ناضراً ، ومنه قول الشاعر :

في قِبابٍ حَــوْل دسْكَرَة حوْلَها الزَّيْتُون قَدْ يَنَعا (١)

وقيل في [يَنْعِهِ] أَنه جمع يانع مثل : تاجر وتجْر وراكب وركْب ، ذكره الطبري . وقرأَ ابن محيصن ، وقتادة والضحاك : [وَيُنْعِهِ] بضم الياءِ ، أَي نضجه ، وقرأَ ابن أَبي عبلة ، واليماني : [وَيَانِعِهِ] ، وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ إيجاب تنبيه وتذكير ، وتقدم تفسير مثلـــه .

---

(١) قال في (اللسان) مادة (يَنَع) : «وفي حديث خبّاب : ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها . أَيْنَعَ يُونِعُ ويَنَعَ يَيْنَع : أدرك ونضج ، وأَيْنَع أكثر استعمالا ، وقرئ : وَيَنْعِهِ ويُنْعِهِ وَيانِعِه ، قال الشاعر» : وذكر البيت ، ثم قال : «قال ابنُ بَرّي : هو للأحوص ، أو يزيد بن معاوية ، أو عبد الرحمن بن حسان ، واليَنْع : النُّضْج ، وفي التنزيل : ﴿انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[جَعَلُوا] بمعنى : صيَّروا و [الْجِنَّ] مفعول ، و [شُرَكَاءَ] مفعول ثان مقدم ، ويصح أن يكون قوله تعالى : [شُرَكَاءَ] مفعولا أولا ، و [لِلهِ] في موضع المفعول الثاني ، و [الْجِنَّ] بدل من قوله سبحانه : [شُرَكَاءَ] . وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله عزَّ وجلَّ ، والقائلين إن الجِنَّ تعلم الغيب ، العابدين للجِن ، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بِجِن الأَودية في أَسفارها ، ونحو هذا ،

وأَما الذين خرقوا البنين فاليهود في ذكر عزير ، والنصارى في ذكر المسيح ، وأَما ذاكروا البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة : بنات الله ، فكأَن الضمير في [جَعَلُوا] و [خَرَقُوا] لجميع الكفار ، إذ فعل بعضهم هذا وبعضهم هذا ، وبنحو هذا فسَّر السدي وابن زيد ، وقرأَ شعيب بن أَبي حمزة : [شُرَكَاءَ الْجِنِّ] بخفض النون ، وقرأَ يزيد بن قطيب ، وأَبو حيوةَ [الجِنِّ] و [الْجِنُّ] بالخفض والرفع على تقدير : هم الجن .

وقرأ الجمهور : [وَخَلَقَهم] بفتح اللام على معنى : وهو خَلَقهم ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «وهُو خَلَقهم» ، والضمير في [خَلَقَهُم] يحتمل العودة على الجاعلين ، ويحتملها على المجعولين ، وقرأ يحيى بن يعمر : [وخَلْقَهُمْ] بسكون اللام عطفاً على [الْجِنَّ] ، أَي : جعلوا خلقهم الذي ينحتونه أَصناماً شركاءَ لله .

وقرأَ السبعة سوى نافع : [وَخَرَقوا] بتخفيف الراءِ ، وهو بمعنى : اختلفوا وافتروا [(١)] ، وقرأَ نافع : [وَخَرَّقُوا] بتشديد الراءِ على المبالغة ، وقرأَ ابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهما : [وَحَرَّفُوا] من التحريف ، كذا قال أَبو الفتح ، قال أَبو عمرو الداني : قرأَ ابن‌عباس : [حَرَفوا] خفيفة الراءِ ، وابن عمر [حرَّفوا] مشددة الراءِ .

وقوله تعالى : [بِغَيْرِ عِلْم] نص على قبح تقحُّمهم المجهلة وافترائهم الباطل على عمى ، [سُبْحَانَهُ] أَي : تَنَزَّه عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالى . و [بَدِيعُ] بمعنى : مبدع ومخترع وخالق ، فهو بناءُ اسم فاعل كما جاءَ سميع بمعنى مسمع . و [أَنَّى] بمعنى : كيف ؟ ومن أَين ؟ فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير .

وقرأَ جمهور الناس : [وَلَمْ تَكُنْ] بالتاءِ على تأْنيث علامة الفعل ، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي بالياءِ على تذكيرها . وتذكير كان وأَخواتها مع تأْنيث اسمها أَسهل من ذلك في سائر الأَفعال ، فقولك : «كان

(١) قال الفراءُ : «يقال : خرَق الإفك وخلَقه واختَلقه واختَرقه واقتلعه وافتراه وخرصه إذا كذب فيه» .

في الدار هند» أَسْوَغُ من : «قام في الدار هند»[١] ، وحَسَّنَ القراءَةَ الفصل بالظرف الذي هو الخبر ، ويتجه في القراءَة المذكورة أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير اسم الله تبارك وتعالى ، وتكون الجملة التي هي : [لَهُ صاحِبَةٌ] خبر كان ، ويتجه أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير أَمر وشأْن ، وتكون الجملة بعد تفسيراً له وخبرا ، وهذه الآية ردٌّ على الكفار بقياس الغائب على الشاهد .

وقوله تعالى : ﴿وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام لكل ما يجوز أَن يدخل تحته ، ولا يجوز أَن يدخل تحته صفات الله تعالى وكلامه ، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إليه قوم ، لأَن العموم المخصص هو أَن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه التخصيص ، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها ، وإنما هذا بمنزلة قول الإنسان : «قتلت كلَّ فارس وأَفحَمْت كلَّ خصم» ، فلم يدخل القائل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه،[٢] وأما قوله سبحانه : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا عموم على الإطلاق لأَن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيءٍ لا ربَّ غيره ولا معبود سواه .

ولما تقررت الحُجَجُ وبانت الوحدانية جاءَ قوله تعالى : [ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ] الآية ، تتضمن تقريراً وحكماً إخلاصاً وأَمراً بالعبادة ،

---

(١) علَّق على ذلك أبو حيان في «البحر ٤ — ١٩٤» فقال : «ولا أعرفُ هذا عن النحويين ، ولم يفرقوا بين كان وغيرها» .

(٢) صرح القرطبي بأنَّهُ عموم معناه الخصوص، وقال : «ومثله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وَلَم تَسَع إبْليس ولا من مات كافراً ، ومثله : [تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ] ولم تُدَمِّر السموات والأرض» .

وإعلاماً بأَنه حفيظ رقيب على كل فعل وقول ، وفي هذا الإعلام تخويف وتحذير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

أَجمع أَهل السُّنَّة على أَن الله تبارك وتعالى يُرَى يوم القيامة ، يراه المؤْمنون ، قاله ابن وهب عن مالك بن أَنس رضي الله عنه ، والوجه أَن يبين جواز ذلك عقلا ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز ، واختصار تَبْيين ذلك أَن يُعتبر بعلمنا بالله عزَّ وجلَّ، فمن حيث جاز أَن نعلمه لا في مكان ولا متميزاً ولا متقابلا ولم يتعلق علمنا بأَكثر من الوجود ، جاز أَن نراه غير مقابل ولا محاذى ولا مكيفاً ولا محدوداً ، وكان الإمام أَبو عبد الله النحوي يقول : مسأَلة العلم حَلَقَت لِحَى المعتزلة ، ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَة إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ وتعدية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤْية لا معنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة ، وذكر هذا المذهب لمالك فقال : «فأَين هم عن قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فقال بدليل الخطاب . [١] ذكره النقاش ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما صحّ عنه وتواتر وكثر نقله : (إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر) [٢] ، ونحوه من الأَحاديث على اختلاف ترتيب أَلفاظها .

وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤْية الله تعالى يوم القيامة ، واستحالة ذلك بآراءٍ مجردة ، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ وانفصل أَهل السنة عن تمسكهم بأَن الآية مخصوصة في الدنيا ، ورؤْية الآخرة ثابتة بأَخبارها . وانفصال آخر وهو أَن يفرق بين معنى الإدراك ومعنى الرؤْية . ونقول : [٣] إنه عزَّ وجلَّ تراه الأَبصار ولا تدركه

---

(١) يرى الإمام مالك رضي الله عنه أن المؤْمنين يرونه سبحانه وتعالى من جهة دليل الخطاب ، قال : وإلا فلو حجب الكلّ لما أغنى هذا التخصيص ، وقال الإمام الشافعي : لما حجب سبحانه قوماً بالسخط دلّ ذلك على أن قوماً يرونه بالرضا . (راجع الألوسي) . وفي ابن كثير : «وقال تبارك وتعالى عن الكافرين : ﴿كَلاَّ إِنَّهم عَنْ رَبِّهم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبونَ﴾ ، قال الإمام الشافعي : فدلّ هذا على أن المؤْمنين لا يُحْجبون عنه تبارك وتعالى .»

(٢) قال ابن كثير في تفسيره : «ثبتت رؤْية المؤمنين لله عز وجلّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا : لا . قال : إنكم ترون ربكم كذلك .» وروى البخاري في صحيحه «إنكم سترون ربكم عياناً» . وفي الصحيحين عن جرير قال : (نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر . فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا) .

(٣) تعبيره بكلمة (نقول) تدل على أنه من أهل السُّنة وتدحض دعوى من قال : إنه من المعتزلة أو يميل إلى آرائهم — وقد وضحنا هذه القضية في المقدمة .

وذلك أَن الإِدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى أَعماقه وحوزه من جميع جهاته ، وذلك كله محال في أَوصاف الله عزَّ وجلَّ ، والرؤْية لا تفتقر إلى أَن يحيط الرائي بالمرْئي ويبلغ غايته ، وعلى هذا التأْويل يترتب العكس في قوله : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ ويَحْسُنُ معناه . ومثل هذا روي عن ابن عباس ، وقتادة ، وعطية العوفي ، فرقوا بين الرؤْية والإِدراك . وأَما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤْية والإِدراك ، واحتج بقول بني إسرائيل : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1] فقال : إنهم رأَوهم ولم يدركوهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله خطأ لأَن هذا الإِدراك ليس بإدراك البصر ، بل هو مستعار منه أَو باشتراك . قال : وقال بعضهم : إن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى بحاسة سادسة تُخلق يوم القيامة ، وتبقى هذه الآية في منع الإِدراك بالأَبصار عامة سليمة ، قال : وقال بعضهم : إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين ، أَي أَنه لا تدركه أَبصارهم لأَنهم محجوبون عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَقوال كلها ضعيفة ودعاو لا تستند إلى قرآن ولا حديث .

و[اللَّطِيفُ] المتَلَطِّف في خلقه واختراعه وإتقانه ، وبخلقه وعباده. و[الْخَبِيرُ] المختبر لباطن أُمورهم وظاهرها .

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (الشعراء) .

والبصائر : جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها بالاعتبار ، فكأنه قال : قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والمعنية عليه . والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين ، والبصيرة أيضاً هي المُعْتقد المُحَصَّل في قول الشاعر :

راحوا بَصَائرَهُم على أَكْتَافِهِـــمْ وبصيرتي يعدو بها عَتَدٌ وَآي[1]

وقال بعض الناس في هذا البيت : البصيرة : طريقة الدم ، والشاعر إنما يصف جماعة مَشَوْا به في طلب دم ففتروا فجعلوا الأمر وراءَ ظهورهـــم .

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عبارة مستعارة فيمن اهتدى ومن ضلَّ ، وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ كان في أول الأمر وقبل ظهور الإسلام ، ثم بعد ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيظاً على العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف .

وقوله تعالى : ﴿وكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ الآية . الكاف في قوله سبحانه : [وكَذَلِكَ] في موضع نصب بـ [نُصَرِّفُ] ؛ أي : ومثل ما بيَّنَّا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات ، أي نرددها

---

(١) هذا البيت للأسعر الجعفي ، والذي في « القرطبي » : « جاءوا بصائرهم » . والعَتَدُ (بفتح التاء وكسرها) الفرس التَّام الخَلْق السريع الوثبة المعد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة ، و الوَآي (بواو مفتوحة بعدها مدٌّ) هو الفرس السريع المقتدر الخلق . يقول إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ، أي : لم يثأروا له وأنا طلبت ثأري .

ونوضحها . وقرأت طائفة : [وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ] بسكون اللام على جهة الأمر ، ويتضمن التوبيخ والوعيد . وقرأ الجمهور : [وَلِيَقُولُوا] بكسر اللام على أنها لام كي ، وهي - على هذا - لام الصيرورة كقوله تعالى : [فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْن لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَناً] (١) ، أي : لمَّا صار أمرهم إلى ذلك . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي: [دَرَسْتَ] أي يا محمد درست في الكتب القديمة ما تُجيبنا به ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [دارسْتَ] أي أنت يا محمد دارست غيرك في هذه الأشياء ، أي : قارأته وناظرته ، وهي إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود ، وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة : [دَرَسَتْ] (٢) بإسناد الفعل إلى الآيات كأنهم أشاروا إلى أنها ترددت على أسماعهم حتى بليت في نفوسهم وامّحت ، قال أبو علي: واللام في [لِيَقُولُوا] - على هذه القراءة بمعنى : لئلا يقولوا ، أي : صرفت الآيات وأُحكمت لئلا يقولوا : هذه أساطير قديمة قد بليت وتكررت على الأسماع ، واللام في سائر القراءات لام الصيرورة . وقرأت فرقة : [دَارَسَتْ] كأنهم أرادوا : دارسَتْكَ يا محمد ، أي الجماعة المشار إليها قبلُ من سلمان واليهود وغيرهم ، وقرأت فرقة : [دَرُسَت] بضم الراء ، وكأنها في معنى [دَرَسَتْ] أي بَلِيَتْ (٣) ، وقرأ قتادة :

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص) .
(٢) بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف على وزن خَرَجَتْ وذَهَبَتْ .
(٣) حكى هذه القراءة الأخفش ، وهي بمعنى (دَرَسَتْ) ولكنها أبلغ .

[دُرِسَتْ] بضم الدال وكسر الراءِ ، وهي قراءَة ابن عباس بخلاف عنه ، ورويت عن الحسن ، قال أَبو الفتح : في [دُرِست] ضمير [الآيات] ، ويحتمل أَن يراد : عفيت وتنوسيت ، وقرأَ أُبي بن كعب : [دَرَسَ] وهي في مصحف عبد الله ، قال المهدوي : وفي بعض مصاحف عبد الله [دَرَسْنَ] [1] ، ورويت عن الحسن ، وقرأَت فرقة [دَرَّسْنَ] بتشديد الراءِ على المبالغة في (دَرَسْنَ) ، وهذه الثلاثة الأَخيرة مخالفة لخط المصحف .

واللام في قوله تعالى : [ولِيَقولوا] وفي قوله سبحانه : [وَلِنُبَيِّنَهُ] متعلقان بفعل متأَخر تقديره : صرفناها ، وقرأَ أُبي بن كعب ، وابن مسعود : [وَلِتُبَيِّنَهُ] بالتاءِ على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأَت فرقة : [وَلِيُبَيِّنَهُ] بياءٍ أَي الله تعالى ، وذهب بعض الكوفيين إلى أَن (لا) مضمرة بعد (أَن) المقدرة في قوله تعالى : [وَلِيَقُولُوا] ، فتقدير الكلام عندهم : «وأَن لا يقولوا» ، كما أَضمروها في قوله تعالى : [يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا] [2] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قلق ، ولا يجيز البصريون إِضمار (لا) في موضع من المواضع .

---

(١) مبنية للفاعل مسندة إلى النون .

(٢) من الآية (١٧٦) من سورة (النساء) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

هذان أَمران للنبي صلى الله عليه وسلم مُضَمَّنهما الاقتصار على اتباع الوحي وموادعة الكفار ، وذلك كان في أَول الإِسلام ، ثم نسخ الإِعراض عنهم بالقتال والسوق إلى الدين طوعاً أَو كرهاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما أَشْرَكُوا﴾ في ظاهرها ردٌّ على المعتزلة القائلين : إنه ليس عند الله لطف يؤْمن به الكافر ، وأَن الكافر والإِنسان في الجملة يخلق أَفعاله ، وهي متضمنة أَن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عزَّ وجلَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ كان في أَول الإِسلام ، وكذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية . مخاطبة للمؤْمنين وللنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس : وسببها أَن كُفَّارَ قريش قالوا لأَبي طالب : إما أَن ينتهي محمد وأَصحابه عن سبِّ آلهتنا والغض منها وإِما أَن نسُبَّ إِلٰهه ونهجوه فنزلت الآية ، وحُكمها على كل حال باق في الأُمة ، فمتى كان الكافر في منعة وخيف

أَن يسب الإسلام أَو النبي صلى الله عليه وسلم أَو الله عزَّ وجلَّ فلا يحل للمسلم أَن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك أَو نحوه [١] ، وعبَّر عن الأَصنام - وهي لا تعقل - بـ [الَّذين] وذلك على معتقد الكفرة فيها ، وفي هذه الآية ضرب من الموادعة .

وقرأَ جمهور الناس : [عَدْواً] بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وقتادة ، ويعقوب ، وسلام ، وعبد الله بن زيد : [عُدُوًّا] بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهذا أَيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداءِ ، وقرأَ بعض الكوفيين : [عَدُوًّا] بفتح العين وضم الدال نصب على الحال ، أَي في حال عداوة الله ، وهو لفظٌ مفرد يدل على الجمع [٢] .

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بيان لمعنى الاعتداءِ المتقدم .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى ما زيَّن الله لهؤلاءِ عَبَدَة الأَصنام من التمسك بأَصنامهم من التمسك بها والذَّبّ عنها ، وتزيين الله عمل الأُمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أَو الشر والاتباع لطرقه ، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطوات السوءِ ، وقوله : ﴿ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ يتضمن وعداً جميلا للمحسنين ووعيداً ثقيلا للمسيئين.

---

(١) قال العلماء : لأن ذلك بمنزلة البعث على المعصية والتوجيه إلى فعلها .
(٢) ومثله في ذلك قوله تعالى : [هُمُ الْعَدُوُّ] ، وقوله سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلاَّ ربَّ الْعَالَمين﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

الضمير في قوله تعالى : [وَأَقْسَمُوا] عائد على المشركين المتقدم ذكرهم ، و [جَهْدَ] نصب على المصدر ، والعامل فيه [أَقْسَمُوا] على مذهب سيبويه لأنه في معناه ، وعلى مذهب أبي العباس المبرّد فعلٌ من لفظه . واللام في قوله تعالى : [لَئِنْ] لام موطئة للقسم مؤْذنة به ، وأما اللام المتلقية المقسم فهي في قوله سبحانه : [لَيُؤْمِنُنَّ] . و [آيَةٌ] يريد : علامة .

وحكي أن الكفار لما نزلت : ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1] أقسموا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية ، وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً ، وأقسموا على ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في ذلك ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : إنْ شِئْتَ أَصْبَحَ ذَهباً فإن لم يؤْمنوا هلكوا عن آخرهم معاجَلة كما فعل بالأُمم إذ لم تؤْمن بالآيات المقترحة ، وإن شئت أُخروا حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله

(١) الآية (٤) من سورة (الشعراء) .

صلى الله عليه وسلم : «بل حتَّى يتوب تائبهم» ونزلت هذه الآية.[1] وقرأ ابن مصرف : [لَيُؤْمَنَنْ] بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة .

ثم قال تعالى : قل لهم يا محمد على جهة الردّ والتغطية إنما الآيات بيد الله وعنده ، ليست عندي فتقترح علي ، ثم قال سبحانه : [وما يُشْعِرُكُم] ، فاختلف المتــأولون فيمن المخاطب بقوله تعالى : [وَمَا يُشْعِرُكُم] ؟ ومن المستفهم بـ[مَا] التي يعــود عليها الضمير الفاعل في [يُشْعِرُكُم] ـ فقال مجــاهد ، وابن زيد : المخاطب بذلك الكفار ، وقال الفــراءُ وغيره : المخاطب بها المؤمنون ، [وَمَا يُشْعِرُكُمْ] معناه : وما يعلمكم ؟ وما يدريكم ؟ وقرأ قوم : [يُشْعِرْكم] بسكون الراءِ ، وهي على التخفيف ، وَيُحَسِّنُهَا أن الخروج من كسرة إلى ضمة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية داود الإيادي : [إِنَّهَا] بكسر الألف على القطع واستئناف الإخبار ، فمن قرأ : [تُؤْمِنُونَ] بالتاءِ ــ وهي قراءة ابن عامر وحمزة ــ استقامت له المخاطبة أولا وآخراً للكفار ، ومن قرأ: [يُؤْمِنُونَ] بالياءِ ــ وهي قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، والكسائي ــ فيحتمل أن يخاطب أولا وآخراً المؤمنين ، ويحتمل أن يخاطب بقوله تعالى : [وما يُشْعِرُكُم] الكفار ، ثم يستأنف

---

(٢) أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي ، ولفظه كما جاء في (الدر المنثور ٣-٣٩) : «كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ، فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي شيءٍ تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، قال : فإن فعلت ذلك تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، والله لو فعلتَ ذلك لنتبعنَّك أجمعون ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ... الخ الحديث كما أثبت بقيته ابن عطية» . (وهكذا أيضاً نقله ابن كثير عن ابن جرير) .

عنهم للمؤمنين ، ومفعول [يُشْعِرُكُمْ] الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأويل . وقرأ نافع ، وعاصم في رواية حفص ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر : [أَنَّهَا] بفتح الألف ، فمنهم من جعلها (أَنَّ) التي تدخل على الجُمل وتأتي بعد الأفعال - كعلمت وظننت - وأعمل فيها [يُشْعِرُكُمْ] ، والتزم بعضهم أن [لَا] زائدة في قوله سبحانه : [لا يُؤْمِنُونَ] ، وأن معنى الكلام : «وَمَا يُشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو تؤمنون» . فزيدت [لا] كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُم لَا يَرْجِعُونَ﴾ (1) ، لأن المعنى : وحرام على قرية مُهْلَكَة رجوعهم ، وكما جاءت في قول الشاعر :

أَبَى جُودُهُ لا الْبُخْلَ واسْتَعْجلتْ بِهِ نَعَمْ مِنْ فتىً لا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلَهْ (2)

قال الزجاج : أراد : أبي جودُهُ البُخْلَ ، وكما جاءت زائدة في قول الشاعر :

أَفَمِنْكَ لا بَرْقٌ كَأَنَّ وَمِيضَهُ غابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرامٌ مثقب (3)

---

(1) الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء) .

(2) البيت في (اللسان) غير منسوب ، ولكن قال : أنشده الفارسيُّ ، وفيه : «لا يَمْنَعَ الجوعَ» وقال معلقة : «هكذا في الأصل والصحاح ، وفي المحكم : الجوس ، والجوس هو الجوع» - وجاء في (اللسان) : «يُروى بنصب البخل وبجرّه ، فمن نصبه فعلى ضربين : أحدهما أن يكون بدلاً من (لا) لأن (لا) موضوعها للبخل ، فكأنه قال : أبي جودة البخل ، والثاني أن تكون (لا) زائدة ، والأول أعني البدل أحسن ، ومن جرّه فقال : لا البخلِ فبإضافة (لا) إليه . والبيت أيضاً في مغني اللبيب ، وكتب معلّقة (الدسوقي) ما نصُّه : «قوله : لا يمنع الجودَ قاتله . فاعل يمنع عائد على الممدوح ، والجود مفعول ثان ، وقاتله مفعول أول ، ويحتمل أن الجود فاعل يمنع ، أي جوده لا يحرم قاتله ، فإذا أراد إنسان قتله فجوده لا يحرم ذلك الشخص بل يصله» .

(3) هذا البيت لساعدة الهذلي . قال الأصحفي : يريد : أمِنْكَ برقٌ ؟ وتسنّمه : علاه ، والضِّرام : ما اشتعل من الحطب ، والمثقب : المضيء ، وتثقيب النار : تذكيتها وتأجيجها .

ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى ، لأنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية ، وضعَّف الزجاج وغيره زيادة [لا] وقال : هذا غلط ، ومنهم من جعل [أَنَّهَا] بمعنى (لعلَّها) ، وحكاها سيبويه عن الخليل ، وهو تأْويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة [لا] ، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أُبي بن كعب : «وما أدراكم لعلَّها إذا جاءَت لا يؤْمنون» ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

قُلْتُ لِشَيْبَانَ ادْنُ مِنْ لِقَـــائِهْ ... أَنَّ تُغَدِّي الْقَوْمَ مِن شِوَائِهْ [(١)]

فهذه كلها بمعنى (لعلَّ) ، وضعف أَبو علي هذا بأَن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأَنهم لا يؤْمنون ، وترجَّح عنده في الآية أَن تكون (أَنَّ) على بابها ، وأَن يكون المعنى : «قل إنما الآيات عند الله لأَنها إذا جاءَت لا يؤْمنون» . فهو لا يأْتي بها لإصرارهم على كفرهم ، وتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [(٢)] أَي بالآيات المقترحة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويترتب على هذا التأْويل أَن تكون [مَا] نافية ، ذكر ذلك أَبو علي فتأَمل . وترجَّح عنده أَيضاً أَن تكون [لا] زائدة ، وبسط شواهده

---

(١) نسبه في «القرطبي» لأبي النجم ، ومثله قول حاتم طيء — وقيل : دُريد بن الصِّمَّة :

أريني جواداً ماتَ هُزْلاً لأنَّنِـــي ... أرى ما تَرَيْنَ أو بَخيلاً مُخَلَّـدا

وقول عديّ بن زيد :

أعاذِلَ ما يُدْريكَ أنَّ مَنِيَّتِــي ... إلى ساعةٍ في الْيَوْمِ أوْ في ضُحى الْغَدَ

وفي التنزيل العزيز : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ .

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (الإسراء) .

في ذلك ، وحكى بعض المفسرين أن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة [لا] ، وعن تـأْويلها بمعنى (لعَلَّ) ، وتقديره عندهم : أَنها إذا جاءَت لا يؤْمنون أَو يؤْمنون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه .

وتحتمل الآية أَن يكون المعنى يتضمن الإِخبار أَنهم لا يؤْمنون وقيل لهم : وما يشعركم بهذه الحقيقة ؟ أَي : لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أَن لو جاءَت ، و [مَا] استفهام على هذا التأْويل ، وفي مصحف ابن مسعود : «ومَا يُشْعِرُكُم إذا جَاءَت لَا يُؤْمِنُونَ» .

وقوله تعالى : ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ . المعنى على ما قالت فرقة : ونقلب أَفئدتهم وأَبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤْمنوا في الدنيا ، ثم استأْنف على هذا : [وَنَذَرُهُمْ] في الدنيا ﴿في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] . وقالت فرقة : إنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة والكفر . ومعنى الآية : إنَّ هؤُلاءِ الذين أَقسموا أَنهم يؤْمنون إنْ جاءَت آيةٌ نحنُ نقلب أَفئدتهم وأَبصارهم أَنْ لو جاءَت فلا يؤْمنون بها كما لم يؤْمنوا أَول

(١) وعلى هذا التأويل يكون بعض الآية في الآخرة ، وبعضها في الدنيا ، ونظيرها : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ فهذا في الآخرة : ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ وهذا في الدنيا .

مرة بما دُعوا إليه من عبادة الله ، فأَخبر الله تعالى ـ على هذا التأْويل ـ بصورة فعله بهم .(١)

وقرأَ أَبو رجاءٍ : [يَذَرُهُم] بالياءِ ، ورويت عن عاصم ، وقرأَ إبراهيم النَّخعي : [وَيُقَلِّبُ] [وَيَذَرُهُمْ] بالياءِ فيها كناية عن الله تبارك وتعالى . وقرأَ أَيضاً فيما روي عنه مغيرة : [وَتَقَلَّبُ] بفتح التاءِ واللام ، بمعنى : «وَتَتَقَلَّب أَفئدتُهم وأَبصارُهم» بالرفع فيهما(٢) ، [وَيَذَرْهم] بالياءِ وجزم الراءِ .

وقالت فرقة : قوله تعالى : [كَمَا] في هذه الآية إنما هي بمعنى المجازاة ، أَي : لمَّا لم يؤْمنوا أَول مرة نجازيهم بأَن نقلب أَفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم ، فكأَنه سبحانه قال : ونحن نقلب أَفئدتهم وأَبصارهم جزاءً لمَّا لم يؤمنوا أَول مرة بما دعوا إليه من الشرع.

والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، أَو على القرآن ، أَو على النبي عليه الصلاة والسلام ، [وَنَذَرُهُمْ] معناه : نتركهم . وقرأَ الأَعمش ، والهمذاني : [وَيَذَرْهُم] بالياءِ وجزم الراءِ على وجه التخفيف .

---

(١) فهذا كله إخبارٌ من الله تعالى بفعله بهم في الدنيا ، ونظير الآية على هذا المعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، ويؤكد هذا المعنى آخر الآية وهو قوله سبحانه: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . بمعنى : ونتركهم في تخبطهم في الشرّ والإفراط فيه يتحيرون .

(٢) نقل أبو حيان رواية مغيرة عن النّخعي : [وتُقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وأَبْصَارُهُمْ] بالرفع على البناء للمفعول لا على معنى وتَتَقَلَّب . فتأمل .

والطغيان : التخبط في الشَّرِّ والإفراط فيما يتناوله المرءُ . والْعَمَى : التردُّد والحيرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أخبر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة ، وإحياءِ سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره ، فيخبر بصدق محمد ، أو يجمع عليهم كل شيءٍ يعقل أن يحشر عليهم – ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه الله ويخترعه في نفس من شاءَ لا ربَّ غيره ، وهذا يتضمن الردّ على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان .(١)

وقال ابن جُريج : نزلت هذه الآية في المستهزئين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يثبت إلا بسند .

(١) وهكذا يؤكد ابن عطية رحمه الله أنه يخالف المعتزلة في آرائهم خلافاً لما يدَّعيه بعض المحدثين ، راجع المقدمة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وغيرهما : [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباء ، ومعناه : مواجهة ومعاينة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره . ونصبه على الحال ، وقال المبرد : المعنى : ناحية ، كما تقول : لي قِبَلَ فلان دَيْن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فنصبه – على هذا – هو على الظرف ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وغيرهم : [قُبُلاً] بضم القاف والباء ، وكذلك قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو هنا ، وقرأ : ﴿العَذَابَ قِبلاً﴾[١] مكسورة القاف . واختلف في معناه . فقال عبد الله بن زيد ، ومجاهد ، وابن زيد : قُبُل : جمع قبيل ، أي : صنعا صنعا ونوعا نوعا ، كما يجمع قضيب على قضب وغيره . وقال الفراءُ والزجاج : هو جمع قبيل وهو الكفيل ، أي : وحشرنَا عليهم كل شيءٍ كفلاءَ بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكره الفارسي وضعَّفه . وقال بعضهم : قُبل بالضم بمعنى قِبل بكسر القاف أي : مواجهة كما تقول : قبل ودبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾[٢] ، ومنه قراءة ابن عمر رضي الله عنهما : «لِقُبُلِ

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الكهف) وهي قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنوا إذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ويَسْتَغْفِروا رَبَّهُمْ إلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾ .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٦) من سورة (يوسف) : ﴿إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

عِدَّتِهِنَّ»[١] أي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن . وقرأ الحسن ، وأبو رجاءٍ ، وأبو حيوة : [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباءِ وذلك على جهة التخفيف . وقرأ طلحة بن مصرف : [قَبْلاً] بفتح القاف وإسكان الباءِ . وقرأ أُبي ، والأعمش : [قَبيلاً] بفتح القاف وكسر الباءِ وزيادة ياءٍ . والنصب في هذا كله على الحال .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الضمير عائد على الكفار المتقدم ذكرهم ، والمعنى : يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولابد ، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل ، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا أن يشاءَ الله له ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ الآية . تتضمن تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وعرض القدوة عليه ، أي أن هذا الذي امتُحِنْتَ به يا محمد من الأعداءِ قد امتحن به غيرك من الأنبياءِ ليبتلي الله أُولي العزم منهم . و [عَدُوًّا] مفرد في معنى الجمع ، ونصبه على المفعول الأول لـ[جَعَلْنَا] ، والمفعول الثاني في قوله : ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ و [شَيَاطِين] بدل من قوله سبحانه : [عَدُوًّا] ، ويصح أن يكون المفعول الأول [شَيَاطِين] والثاني [عَدُوًّا] .

وقوله تعالى : ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين » الذين[٢] هم من شيم السوءِ كالشياطين ، وهذا قول جماعة

---

(١) من الآية (١) من سورة (الطلاق) . وهي قراءة شاذة ، ونص الآية في القراءة المتواترة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾. إلى آخر الآية.

(٢) كلمة (الذين) بالجمع صفة لكلمة (المتمردين) قبلها .

من المفسرين ، ويؤيده حديث أَبي ذرّ رضي الله عنه أَنه صلى يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعوَّذ يا أَبا ذرٍّ من شياطين الجن والإِنس) ، قال : وإِنَّ من الإِنس لشياطين ؟ قال : (نعم)[1] ، وقال السدي ، وعكرمة : المراد بالشياطين الموكلون بالإِنس والشياطين الموكلون بمؤْمني الجن ، وزعما أَن للجن شياطين موكلين بغوايتهم ، وأَنهم يوحون إِلى شياطين الإِنس بالشَّر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض ، قالا : ولا شياطين من الإِنس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا يستند إِلى خبر ولا إِلى نظر .

و [يُوحِي] معناه : يلقيه في إِخفاءٍ كالمناجاة والسّرار ، و ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ معناه : مُحَسَّنه ومُزَيَّنه بالأَباطيل ، قاله عكرمة ومجاهد . والزخرفة أَكثر ذلك إِنما تستعمل في الشر والباطل . و [غُرُورًا] نصب على المصدر ، ومعناه أَنهم يغرون به المضللين ، ويوهمون لهم أَنهم على شيءٍ والأَمر بخلاف ، والضمير في قوله تعالى : [فَعَلُوهُ] عائد على اعتقادهم العداوة ، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته [يُوحِي] .

---

(١) الحديث في ابن كثير برواية عبد الرزاق عن قتادة ، ورواية الإمام أحمد عن عبيد ابن الحسيحاس ، ورواية ابن جرير عن عوف بن مالك عن أبي ذرٍّ ، وروي أيضاً من طرق أُخرى ذكرها في (الدر المنثور ٣-٣٩) .

وقوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ لفظ يتضمن الأَمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال ، قال قتادة : كل (ذَرْ) في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال ، و [يَفْتَرُونَ] معناه : يختلفون ويشتقون وهو من الفُرقة تشبيها بفَرْي الأَديم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ معناه : لِتَميل ، يقال : صغَى يصْغىَ ، وأَصلها يصغي بكسر الغين لكن ردَّه حرف الحلق إلى الفتح ، ويقال : صغا يصغو ، وأَصغىَ يصغي ، وصغِيَ يصْغَى .

و [أَفْئِدَة] جمع فؤاد ، ويقترفون معناه : يواقعون ويجترحون ، وهي مستعملة أَكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه .

والقُرَّاءُ على كسر اللام في الثلاثة الأَفعال على أَنها لام كي ، فإما أَن تكون معطوفة على [غُرُوراً] وإما أَن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره : فعلوا ذلك ، أَو جعلنا ذلك ، فهي لام صيرورة ، قاله الزجاج . ولا يحتمل أَن تكون هذه اللامات ـ على هذه القراءة ـ لام الأَمر

وضمنها الوعيد وتبقى الياءُ في [لِتَصْغَى] على نحو ما جاءَ من ذلك في قول الشاعر :

أَلَمْ يَأْتِيكَ . . . . ؟ (١)

إلى غير ذلك مما قد قرئَ به ، قال أَبو الفتح : قرأَها الحسن بالتسكين في الثلاثة ، وهي لام كي ، وهي معطوفة على قوله تعالى : [غُرُوراً] ، والتقدير : لأَجل الغرور ولتصغى ، وإسكان هذه اللام شاذٌّ في الاستعمال قويٌّ في القياس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر أَن تُحمل قراءَة الحسن بسكون اللامات الثلاثة على أَنها لام الأَمر المضمن الوعيد والتهديد ، والخط على هذه القراءَة [ولْتصْغَ] . ذكر أَبو عمرو الداني أَن تسكينه في اللامات الثلاثة ، وكذلك قال أَبو الفتح وذكر أَن الحسن إنما يسكن اللامين الثانية والثالثة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك يخالف خط المصحف في [وَلِتَصْغَى] .

---

(١) البيت بتمامه . وهو :

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأَنْبَاءُ تَنْمِي بما لاقَتْ لَبونُ بني زِيادِ ؟

ومعنى كلامه أن اللام في [لِيَرْضَوه] وفي [لِيَقْتَرِفُوا] يمكن أن تكون لام الأمر مضمنة الوعيد والتهديد ، ولكن ذلك بعيد الاحتمال في [لِتَصْغَى] وإن كان ذلك قد جاء في الكلام كبيت الشعر ، وكقراءة قنبل : [إِنَّه مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ] . وقال بعضهم هي في (لِتَصْغَى) لام (كي) وسكنت شذوذاً في قراءة الحسن ، وفي الفعلين الثاني والثالث هي لام الأمر مضمناً التهديد والوعيد بدون شذوذ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتحصل أن تسكن اللام في [ولِتَصْغَى] على ما ذكرناه في قراءة الجماعة . قال أبو عمرو : وقراءة الحَسَن إنما هي : [لِتَصغِي] بكسر الغين ، وقراءة إبراهيم النَّخَعي [لِتُصْغِي] بضم التاء وكسر الغين من : أَصْغَى يُصغي ، وكذلك قرأ الجراح بن عبد الله .

وقوله تعالى : [أَفَغَيْرَ] نصب بـ [أَبْتَغِي] و [حَكَماً] نصب على البيان والتمييز [١] . و [مُفَصَّلاً] معناه : مُزال الإشكال قد فصلت آياته . وهذه الآية ـ وإن كان معناها يعُمّ في أن الله لا يبتغي سواه حَكَماً في كل شيءٍ وفي كل قضية ـ فإنا نحتاج في وصف الكلام واتِّساق المعاني أن ننظر فيما تقدم إلى قضية تكون سبباً إلى قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ ؟ فهي ـ والله أعلم ـ حُكْمه عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات ، وحكمه بأن جعل للأنبياء أعداءً من الجن والإنس . و [حَكَماً] أبلغ من (حاكم) إذ هي صيغة لِلْعَدْلِ من الحكَّام ، و (الحاكم) جارٍ على الفعل ، فقد يقال للجائر . و [حَكَماً] نصب على البيان أو الحال .

وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم ، ولا حُجَّة لها لأن الله تعالى حكَّم في الصَّيد ، وبيْن الزوجيْن ، فتحكيم المؤمنين من حُكْمه تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يتضمن الاستشهاد بمؤمنيهم ، والطعنَ والتَّنْبيه على

---

(١) وذلك كقولهم : « إنَّ لنا غيرها إبلا » ، فالقصد تمييزهم عن غيرهم .

مشركيهم وحسدتهم . وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : [مُنَزَّلٌ] بالتشديد ، والباقون بالتخفيف ، و [الكِتَابَ] أولا هو القرآن ، وثانياً اسم جنس التوراة والإنجيل والزبور والصحف . ووصفُه أَهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص ، وإنما يريد علماءهم وأحبارهم ،

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

[تَمَّتْ] ـ في هذا الموضع ـ بمعنى : استمرت وصحت في الأَزل صدقاً وعدلاً ، وليس بتمام من نقْص ، ومثله ما وقع في السيرة من قولهم : «وتم حمزة على إسلامه» في الحديث مع أَبي جهل .

والكلمات : ما نزَّل على عباده ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : كلمت بالإفراد هنا وفي يونس في الموضعين ، وفي حم المؤمن .

---

(١) قيل : إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم هو خطاب لأمته ، وقيل : الخطاب لكل سامع إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي المماراة فيه . وقيل : هو من باب الإلهاب والإثارة كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر جميع ذلك [كَلمات] بالجمع ، وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو هنا فقط [كلمات] بالجمع ، وذهب الطبري إلى أَنه القرآن كما يقال : «كلمة فلان» في قصيدة الشعر والخطبة البليغة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي بعيد معترض ، وإنما القصد ، العبارة عن نفوذ قوله تعالى : [صِدْقاً] فيما تضمَّنه مِنْ خبر ، و [عَدْلاً] فيما تضمنه من حُكم ، وهما مصدران في موضع الحال ، وقال الطبري : «نصباً على التمييز» ، وهذا غير صواب . و [لَا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ] معناه : في معانيها بأَن يُبَيِّن أَحد أَن خبره بخلاف ما أَخبر به ، أَو يُبيِّن أَن أَمره لا ينفذ ، والمثال من هذا أَن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى ﴿الْخَالِفِينَ﴾[1] . فقال المنافقون بعد ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤْمنين : «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾[2] ، أَو في قوله تعالى : ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾[3] لأَن مضَمَّنه الخبر بأَن لا يباح لهم خروج ، وأَما الأَلفاظ فقد بدلتها بنو إسرائيل وغيَّرتها ، هذا مذهب جماعة من العلماء ، وروي عن ابن عباس

---

(١) هي الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة) .
(٢) من الآية رقم (١٥) من سورة (الفتح) .
(٣) من الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة) .

رضي الله عنهما أَنهم إنما بدَّلُوا بالتأْويل ، والأَول أَرجح . وفي حرف أُبي بن كعب : [لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية . المعنى : فامض يا محمد لما أُمرت به وأَنفذ لرسالتك فإنك إنْ تطع أَكثر من في الأَرض يضلوك ، وذكر سبحانه : [أَكْثَرَ] لأَن أَهل الأَرض حينئذ كان أَكثرهم كافرين ، ولم يكن المؤْمنون إلا قلة . وقال ابن عباس : الأَرض هنا : الدنيا . وحكي أَن سبب هذه الآية أَن المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أَمر الذبائح وقالوا : تأْكل ما تقتل وتترك ما قتل الله ؟ فنزلت الآية ، ووصفهم عزَّ وجلَّ بأَنهم إنَّما يقتدون بظنونهم ، ويتبعون تخَرُّصَهم ، والخَرْص : الحزْرُ والظن [(١)] ، وقرأَ جمهور الناس : [يَضِلّ] بفتح الياءِ ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [يُضل] بضم الياءِ ، ورواه أَحمد بن أَبي شريح عن الكسائي . و [مَن] في قوله تعالى : [مَنْ يَضِلُّ] في موضع نصب بفعل مضمر تقديره : «يعلم مَنْ» . وقيل : في موضع رفع كأَنه قال : «أَي يضل عن سبيله» ، ذكره أَبو الفتح وضعفه أَبو علي ، وقيل : في موضع خفض بإضمار باءِ الجر كأَنه قال : «بمن يضل عن سبيله» ، وهذا

(١) أصل الخَرْص : التَّظَنّي فيما لا تستيقنه ، ومنه خرص النخل والكرم إذا حزرت التمر ، وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالخرص في النخل والكرم خاصة دون الزرع القائم . فالخرص في أصله هو التقدير بغير علم ، ثم قيل للكذب : خرصٌ لما يدخله من الظنون الكاذبة ، قال تعالى : ﴿قُتِلَ الخَرَّاصون﴾ ، قال الزجاج : الكذابون . (عن اللسان) .

ضعيف . قال أبو الفتح : هذا هو المراد فحذفت باءُ الجر ووصل [أَعْلَم] بنفسه ، قال : ولا يجوز أن يكون [أَعْلَم] مضافاً إلى [مَنْ] لأَن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه . وهذه الآية خبر في ضمنه وعيد للضالين ووعد للمهتدين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

القصد بهذه الآية النَّهْيُ عما ذُبح للنصب وغيرها وعن الميتة وأنواعها ، فجاءَت العبارة أَمراً بما يضاد ما قصد النَّهْيُ عنه ، ولا قصد في الآية إلى ما نَسِـيَ فيه المؤْمن التسمية أَو تعمدها بالترك . وقال عطاءُ :

هذه الآية أَمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي : إن كنتم بأَحكامه وأَوامره آخذين ، فإِن الإِيمان بهما يتضمن ويقتضي الأَخذ بها والانقياد لها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ الآية . [ما] استفهام يتضمن التقرير ، وتقدير هذا الكلام : وأَي شيءٍ لكم في أَلَّا تأْكلوا ؟ فـ [أَنْ]

في موضع خفض بتقدير حرف الجرّ ، ويصح أن تكون في موضع نصب على أَلَّا يقدر حرف الجرّ ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله تعالى : [مَا لَكُمْ] تقديره : ما يجعلكم وقد فُصِّل لكم ما حرَّم ، أَي : وقد بُيِّنَ لكم الحلال من الحرام وأُزيل عنكم اللبس والشك ؟

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : [وَقَدْ فُصِّل لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ] على بناءِ الفعل للمفعول في الفعلين . وقرأَ نافع ، وحفصٍ عن عاصم : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناءِ الفعل الفاعل في الفعلين . وقرأَ أَبو بكر عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَقَدْ فَصَّلَ] على إسناد الفعل إلى الفاعل [لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ] على إسناد الفعل إلى المفعول . وقرأَ عطية العوفي : [وَقَدْ فَصَلَ] على بناءِ الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها [ما حُرِّمَ] على بناءِ الفعل للمفعول . والمعنى : قد فَصَل الحرام من الحلال وانتزعه بالتبْيين . و [ما] في قوله تعالى : ﴿إِلَّا ما اضْطُرِرْتُمْ﴾ يريد بها : من جميع ما حرَّم كالميتة وغيرها ، وهي في موضع نصب بالاستثناءِ ، والاستثناءُ منقطع .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً﴾ يريد الكفرة المحادّين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم : «تأْكلون ما تذبحون ولا تأْكلون ما ذبح الله»؟ وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [لَيَضِلُّونَ] بفتح الياءِ على معنى إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس : [ربَّنَا لِيَضِلُّوا] وفي سورة إبراهيم : [أَنْداداً لِيَضِلُّوا] وفي الحج [ثَانِـيَ عِطْفِهِ لِيَضِلَّ] وفي لقمان : [لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيل اللهِ بِغَيْرِ عِلْم] وفي الزُّمَر : [أَنْدَاداً

لِيَضِلَّ] . (١) وقرأ نافع ، وابن عامر كذلك في هذه وفي يونس . وفي الأربعة التي بعد هذه يضمَّان الياءَ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم ، وهذه أبلغ في ذمّهم لأن كل مُضِل ضال ، وليس كل ضالٍّ مُضلاً . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي في المواضع الستة : [لَيُضِلُّونَ] على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم . ثم بيّن عزَّ وجلَّ في ضلالهم أنه على أقبح الوجوه ، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل ، و [بِغَيْرِ عِلْمٍ] معناه : في غير نظر ، فإن لِمَنْ يضل بنظر مّا بعضُ عذر لا ينفع في أنه اجتهد .

ثم توعدهم تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذا نهيٌ عام من طرفيه لأن الإثم يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي ، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي ، وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصص ، فقال السدي : ظاهره الزنى الشهير الذي كانت العرب تفعله ، وباطنه اتخاذ الأخدان ،

---

(١) أرقام الآيات في المواضع الخمسة — غير هذه السورة — هي على الترتيب الذي ذكره : رقم (٨٨) من سورة (يونس) ،ورقم (٣٠) من سورة (إبراهيم) ،ورقم (٩) من سورة (الحج) ، ورقم (٦) من سورة (لقمان) ، ورقم (٨) من سورة (الزُّمَر) .

وقال سعيد بن جبير : الظاهر ما نصَّ الله على تحريمه بقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾(١) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾(٢) الآية ، والباطن الزنى ، وقال ابن زيد : الظاهر التعري ، والباطن الزنى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها . وقال قوم : الظاهر الأَعمال ، والباطن المعتقد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا حسن لأَنه عام .

ثم توعَّد تبارك وتعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله ، والاقتراف : الاكتساب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة ، إذ هي جواب لقول المشركين : «تتركون ما قتل الله» ، والنهي أَيضاً عما ذبح للأَنصاب ، ومع ذلك

(١) هي الآية رقم (٢٣) من سورة (النساء) .
(٢) الآية رقم (٢٢) من سورة (النساء) .

فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبائح الإسلام ، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين ، وعبد الله بن عياش بن أَبي ربيعة ، وعبد الله ابن عمر ، ونافع ، وعبد الله بن زيد الخطمي ، والشعبي ، وغيرهم ، فما تركت التسمية عليه نسياناً أَو عمداً لم يؤكل ، وقالت طائفة عظيمة من أَهل العلم : يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسياناً ، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمداً ، وهذا قول الجمهور ، وحكى الزهراوي عن مالك بن أَنس أَنه قال : تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أَو نسياناً ، وعن ربيعة أَيضاً ، قال عبد الوهاب : التسمية سُنَّة فإذا تركها الذابح ناسياً أُكلت الذبيحة في قول مالك وأَصحابه ، وإذا تركها عمداً فقال مالك : لا تؤكل ، فحمل بعض أَصحابه قوله : «لا تؤكل» على التحريم ، وحمله بعضهم على الكراهية . وقال أَشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أَن يكون مستخفاً ، وقال نحوه الطبري .

وذبائح أَهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وتشرع . وقال قوم : نسخ من هذه الآية ذبائح أَهل الكتاب ، قاله عكرمة ، والحسن بن أَبي الحسن .

والضمير في [إِنَّهُ] من ﴿وإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ عائد على الأَكل الذي تضمنه الفعل في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ ويحتمل أَن يعود على «ترك الذكر»

الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿لَمْ يُذْكَر﴾ . والفسق : الخروج عن الطاعة ، هذا عرفه في الشرع .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ الآية ، قال عكرمة : عني بالشياطين في هذه الآية مردة الإنس من مجوس فارس ، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فخاطبوهم مُنَبِّهِينَ على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم : «تأْكلون ما قتلتم ولا تأْكلون ما قتل الله ؟» فذلك من مخاطبتهم هو الوحي الذي عني . والأَولياءُ قرائن . والمجادلة : هي تلك الحجة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وعبد الله ابن كثير : بل الشياطين : الجِنّ ، واللفظة على وجهها ، وكَفرة الجن أَولياءُ لكفرة قريش ، ووحْيُهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم تلك الحجة ، أَو على أَلسنة الكهان . وقال أَبو زميْل : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إن أَبا إسحق - يعني المختار - زعم أَنه أُوحي إليه الليلة ، فقال ابن عباس : صدق ، فَنَفَرْتُ ، فقال ابن عباس : «وإن الشياطين ليُوحون إلى أَوليائهم» .

ثم نهى الله تعالى عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد ، وعرض أَصعب مثال في أَن يشبه المؤْمن بمشرك ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قولا : إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأَن اليهود لا تأْكل الميتة ، أَما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأَنهم يحتَجُّون عن العرب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤْمنين أُمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك ، وذكْر قوم كافرين يضلون بأَهوائهم وغير ذلك ، فمثل الله عز وجلَّ في الطائفتين بأَن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأَموات أُحيوا ، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، وغيرهما ، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها ، لِيُبَيِّن عزَّ وجلَّ الفرق بين الطائفتين والْبَوْنَ بين المنزلتين .

وقرأَ جمهور الناس : [أَوَمَنْ] ؟ بفتح الواو ، فهي أَلف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة ، و [مَنْ] بمعنى الذي . وقرأَ طلحة بن مصرف : [أَفَمَنْ] ؟ بالفاءِ ، والمعنى قريب من معنى الواو ، والفاءُ في قوله تعالى : [فَأَحْيَيْنَاهُ] عاطفة . و [نُوراً] أَمْكَنُ ما يُقى[1] به الإيمان ، و [يَمْشِي بِهِ] ، يراد به جميع التصرف في الأَفعال والأَقوال . قال أَبو علي : ويحتمل أَن يراد النور الذي يؤتاه المؤْمنون

(١) في بعض النسخ : ما يعنى به الإيمان .

يوم القيامة ، و [في النَّاسِ] متعلق بـ [يَمْشي][1] ، ويصح أن يتعلق بـ[كَانَ مَيْتاً] . وقوله تعالى : ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ بمنزلة « كمن هو »،والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه ، تقديره : « وكما أحيينا المؤْمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زُيِّن للكافرين » ، ويحتمل أن يتعلق بقوله تعالى : ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ أي كهذه الحال هو التزيين .

وقرأ نافع وحده : [مَيِّتا] بكسر الياءِ وشدّها . وقرأ الباقون [مَيْتا] بسكون الياءِ . قال أبو علي : التخفيف كالتشديد ، والياءُ المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أُعلت بالحذف كما أُعلت بالقلب .

وقالت طائفة : إن هذه الأَلفاظ التي مثل بها وإن كانت تعم كل مؤْمن وكل كافر فإنما نزلت في مخصوصين . فقال الضحاك : المؤْمن الذي كان ميتاً فأُحيي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وحكى المهدوي عن بعضهم أنه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . وقال عكرمة : عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وقال الزجاج : جاءَ في التفسير أنه يعني به النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واتفقوا على أن الذي في الظلمات أبو جهل بن هشام ، وإلى حاله وحال أمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا في

---

(١) قوله تبارك وتعالى: ﴿يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس ، فذكر أن منفعة المؤمن ليست مقتصرة على نفسه . قاله في البحر المحيط .

كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ ، وهذه الآية تتضمن إنذاراً بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم لأنه مقتضى حال من تقدمهم من نظائرهم ، وقال عكرمة : نزلت هذه الآية في المستهزئين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني أن التمثيل لهم ، و [جَعَلْنَا] في هذه الآية بمعنى صيرنا ، فهي تتعدى إلى مفعولين ، فالمفعول الأول : [مُجْرِمِيهَا] والثاني : [أَكَابِرَ] ، وفي الكلام – على هذا – تقديم وتأخير تقديره : وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ، وقدم الأهم ، إذ لعلة كبرهم أجرموا . ويصح أن يكون المفعول الأول : [أَكَابِرَ] و [مُجْرِميها] مضاف والمفعول الثاني قوله سبحانه : ﴿في كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ و [لِيَمْكُرُوا] نصب بلام الصيرورة .

والأكابر جمع أكبر كما الأفاضل جمع أفضل ، ويقال : أكابرة كما يقال : أحمر وأحامرة ، ومنه قول الشاعر :

إِنَّ الأَحامِرَةَ الثَّلاثة أَتْلَفَتْ   مالي ، وكُنْتُ بِهِنَّ قِدماً مُولَعَا[1]

يريد : الخمر واللحم والزعفران . والمكر : التخيُّل بالباطل والخديعة ونحوهما . وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يريد : لرجوع وبال ذلك عليهم ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : ما يعلمون ، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيءُ الذي يلي البدن ، فكان الذي لا يشعر نفي عنه

---

(١) البيت للأعشى ، وقد بيَّن الثلاثة التي أحبها حتى أتلفت ماله في البيت التالي وهي الخمر واللحم والزعفران ، كما قال ابن عطية .

أن يعلم علم حسّ ، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إذ البهائم تعلم علوم الحسّ ، وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

هذه الآية آية ذم للكفار وتوعد لهم ، يقول : وإذا جاءتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا : إنما يفْلق لنا البحر ، إنما يحي لنا الموتى ونحو ذلك [١] . فرد الله عزَّ وجلَّ عليهم بقوله : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ، أي : فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يتشطط على الله . قال الزجاج : قال بعضهم :

(١) أي : طلبوا المستحيل وعلقوا إيمانهم على ممتنع وقصدوا بذلك أنهم لا يؤمنون أبداً . قال أبو حيان : «وقولهم : [رُسُلُ اللهِ] ليس فيه إقرار بالرسل من الله ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبعوا رسل الله» . أي : لو كانوا يؤمنون بهؤلاء الرسل لاتبعوهم .

الأَبلغ في تصديق الرسل أَلا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم . و [أَعْلَمُ] معلق العمل والعامل في [حَيْثُ] فعل تقديره : يعلم حيث[1] .

ثم توعَّد تعالى بأَن هؤلاءِ المجرمين الأَكابر في الدنيا سيصيبهم عند الله صَغَارٌ وذِلَّة . و [عِنْدَ اللهِ] متعلقة بـ [سَيُصِيبُ] ، ويصح أَن تتعلق بـ [صَغَار] لأَنه مصدر ، قال الزجاج : التقدير : صغار ثابت عند الله ، قال أَبو علي : وهو متعلق بـ [صَغَار] دون تقدير (ثابت) ولا شيءَ غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلام﴾ الآية . [مَنْ] أَداة شرط ، و [يَشْرَحْ] جواب الشرط ، والآية نصٌّ في أَن الله عزَّ وجلَّ يريد هُدى المؤْمن وضلال الكافر ، وهذا عند جميع أَهل السُّنَّة بالإِرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى .

والهدى في هذه الآية هو خلق الإِيمان في القلب واختراعه ، وشرح الصدر هو تسهيل الإِيمان وتحبيبه وإِعداد القلب لقبوله وتحصيله ، والهدى لفظة مشتركة تأْتي بمعنى الدعاءِ كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾[2] ، وتأْتي بمعنى إِرشاد المؤْمنين إِلى

---

(١) ذلك لأنه لا يجوز أن يعمل [أَعْلَم] في [حَيْثُ] ويكون ظرفاً ، لأن المعنى على ذلك يكون : الله أعلم في هذه المواضع ، وذلك لا يجوز أن يوصف به الباري سبحانه وتعالى ، ولهذا عمل في [حيث] فعل مقدر دلّ عليه [أَعْلَم] . قاله العلماءُ ، قال الحوفي : [حيث] لا يمكن إقرارها على الظرفية هنا ، لأنه تعالى لا يكون في مكان أعلم منه في مكان ، وإذا لم تكن ظرفاً كانت مفعولا على السَّعة ، و [أعْلم] لا يعمل في المفعولات ، فيكون العامل فيه فعل دلّ عليه [أعلم] . نقله في « البحر » عن الحوفي .

(٢) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .

مسالك الجنان والطرق والأعمال المفضية إليها كقوله تعالى : ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [١] ، وغير ذلك ، إلَّا أنها في هذه الآية ، وفي قوله سبحانه : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [٢] . وفي قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٣] ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه ، إذ الوجوه الأُخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبلُ وبعدُ .

وقوله تعالى : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ ألفاظ مستعارة ها هنا ، إذا لشرح : التوسعة والبسط في الأجسام ، وإذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان مُعداً ليحل فيه ، فيشبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع ، وشبَّه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجسم المشروح ، والصدر عبارة عن القلب ، وهو المقصود إذ الإيمان من خصاله ، وكذلك الإسلام عبارة عن الإيمان إذ الإسلام أعم منه ، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى ، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم . وأدنى الهدى حب الأعمال وامتثال العبادات . وفي [يَشْرَحْ] ضمير عائد على الهدى ، قال : وعوده على الله عزَّ وجلَّ أبْيَن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول بأن الضمير عائد على الهدى قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال ، وينبغي أن يعتقد ضعفه ، وأن الضمير

---

(١) من الآية (٤) والآية (٥) من سورة (محمد) .

(٢) الآية (١٧٨) من سورة (الأعراف) .

(٣) من الآية (٥٦) من سورة (القصص) .

إنما هو عائد على اسم الله عزَّ وجلَّ فإن هذا يعضده اللفظ والمعنى ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ، كيف يشرح الصدر ؟ قال : (إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح) ، قالوا : وهل لذلك علامة يا رسول الله ؟ قال : (نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الفَوْت)[١] .

والقول في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ كالقول في قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام ، و [يَجْعَلْ] ـ في هذا الموضع ـ تكون بمعنى : يَحْكم له بهذا الحكم ، كما تقول : «هذا يجعل البصرة مصراً»[٢] ، أي يحكم لهُ بحكمها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى يقرب من : صيَّر ، وحكاه أبو علي الفارسي ، وقال أيضاً : يصح أن يكون (جَعَلَ) بمعنى سمَّى كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدائني ـ رجل من بني هاشم وليس هو محمد بن علي ـ وفي أوله : قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي المؤمنين أكيَس ؟ قال : (أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً) ثم تأتي بقية الحديث كما رواها ابن عطية رحمه الله ـ وفي آخره : (والاستعداد للموت قبل الموت) أو (قبل لقاء الموت) . وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وكذلك أخرجه عنه آخرون . (الدر المنثور ٣ـ٤٤) و (ابن كثير ٣ـ٩٧) .

(٢) المراد أن يجعل البصرة مثل مصر ويحكم لها بحكمها ، ـ و (مصر) كما قال ابن سيدة : تصرف ولا تصرف . (راجع اللسان) .

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ (١) أي : سمُّوهم ، قال : وهذه الآية تحتمل هذا المعنى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الوجه يضعف في هذه الآية .

وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير : [ضَيِّقا] بكسر الياءِ وتشديدها ، وقرأ ابن كثير : [ضَيْقا] بسكون الياءِ ، وكذلك قرأ في الفرقان (٢) . قال أبو علي : وهما بمنزلة الميِّت والميْت ، قال الطبري : وبمنزلة الْهَيِّن واللَّيِّن والهَيْن واللَّيْن ، قال : ويصح أن يكون الضَّيْق مصدراً من قولك : ضاق الأمر يضيق ضِيقاً وضَيْقاً ، وحكى عن الكسائي أنه قال : الضِّيق بشد الضاد وكسرها في الأجرام والمعاش ، والضَّيق بفتح الضاد في الأمور والمعاني .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [حَرَجاً] بفتح الراءِ . وقرأ نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر : [حَرِجاً] بكسرها ، قال أبو علي : فمن فتح الراءَ كان وصفاً بالمصدر ، كما تقول : رجل قَمَن بكذا ، وحرَي بكذا ، ودنَف (٣) ، ومن كسر

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (الزخرف) .

(٢) في الآية (١٣) من سورة الفرقان وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ .

(٣) قَمِنٌ تكون بفتح الميم كَجَبَل وبكسرها كَكَتِف ، وهو الخليق والجدير بالأمر. و(حَرَي) هو الخليق والجدير أيضاً ، يقال : إنه لحَرِيٌّ بكذا ، وحريٌّ كغَنِيّ ، وحَرٍ . والدَّنَفُ : المَرَض . يقال : رجلٌ وامرأةٌ وقومٌ دَنَفٌ محركة ، فإذا كسرت فقلت (دنِفٌ) أنَّثت وثَنَّيت وجمعت ـــ وقد تثنى وتجمع المحركة . (القاموس المحيط) .

الراءِ فهو كدَنِف وقمِنٌ وفرِقٌ[١] ، وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأَها يوماً بفتح الراءِ فقرأَها له بعض الصحابة بكسر الراءِ فقال : ابغوني رجلا من كنانة وليكن راعياً وليكن من بني مدلج ، فلما جاءَه قال له : يا فتى ما الحَرَجة عندكم ؟ قال : الشجرة تكون بين الأَشجار لا تصل إِليها راعية ولا وحشية ، قال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إِليه شيءٌ من الخير .

وقوله تعالى : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أَي : كأَن هذا الضَّيِّق الصدر يحاول الصعود في السماءِ متى حاول الإِيمان أَو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماءِ ، قال بهذا التأْويل ابن جريج ، وعطاءُ الخرساني ، والسّدي . وقال ابن جبير : المعنى : لا يجد مسلكاً إِلا صعدا من شدة التضايق .

وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَصَّعَّد] بإِدغام التاءِ من «يَتَصَعَّدُ» في الصاد . وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه : [يَصَّاعَد] بإِدغام التاءِ من «يَتَصَاعَدُ» [في السَّماءِ] ، وقرأَ ابن كثير وحده : [يَصْعَد][٢] ، وقرأَ ابن مسعود ، والأَعمش ، وابن مصرف : [يَتَصَعَّد] بزيادة تاءٍ .

---

(١) (فَرِق) كفَرِح : الفزع الخائف . (القاموس المحيط) .

(٢) أي : بإسكان الصاد مخفّفة من الصعود وهو الطلوع . وأما [يَصاعد] فأصلها (يتصاعد) بالتاء ، وكذلك [يصّعّد] أصلها (يتصَعّد) بالتاء ، وقد أُدغمت التاءُ في الصاد في القراءتين ، والمعنى فيهما يدل على فعل شيءٍ بعد شيءٍ ، وذلك أثقل على فاعله .

و [في السَّماءِ] يريد : من سفل إلى علو في الهواءِ ، قال أَبو علي : ولم يرد السماءَ المُظِلَّة بعينها ، وإنما هو كما قال سيبويه : «والقيدود : الطويل في غير سماءٍ.» يريد : في غير ارتفاع صعدا ، قال : ومن هذا قوله عزَّ وجلَّ : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾(1) أَي في جهات الجو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا على غير من تأَول «تَقَلُّب الوجه» أَنه الدعاءُ إلى الله عزَّ وجلَّ في الهداية إلى قِبْلة ، فإن مع الدعاءِ يستقيم أَن يقلب وجهه في السماء الْمُظِلة حسب عادة الداعين إذ قد أَلِفوا مجيءَ النعم والآلاءِ من تلك الجهة . وتحتمل الآية أَن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأَنه يصعد بها في الهواءِ . ويصْعَد معناه : يعلو . ويصَّعَّد معناه : يتكلف من ذلك ما يشق عليه ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما تصعَّدني شيءٌ كما تصعَّدني خطبة النكاح إلى غير ذلك من الشواهد ، ويصَّاعد في المعنى مثل يَصَّعَّد .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ أَي : وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عزَّ وجلَّ ومشيئته كذلك يجعل الله الرجس . قال أَهل اللغة : الرِّجس يأْتي بمعنى العذاب ويأْتي بمعنى النجس ، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قال : الرجس كل مالا خير فيه ، وقال بعض الكوفيين : الرجس والنجس لغتان بمعنى ، و [يَجْعَلُ]

(1) من الآية (١٤٤) من سورة (البقرة) .

ـ في هذا الموضع ـ يحْسُن أن تكون بمعنى يُلْقي ، كما تقول : جعلت متاعك بعضه على بعض ، وكما قال عزَّ وجلَّ : ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى في (جَعَلَ) حكاه أبو علي الفارسي ، ويحسن أن تكون [يَجْعَل] ـ في هذه الآية ـ بمعنى : يُصَيِّر ، ويكون المفعول الثاني في ضمن ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنّه قال سبحانه : «قرين الذين» . أو «لَزِيم الَّذين» ونحو ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

[هَذَا] إشارةٌ إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، قاله ابن عباس ، والصراط : الطريق ، وإضافة الصراط إلى الربّ على جهة أنه من عنده وبأَمره ، و [مُسْتَقِيماً] حال مؤكدة ، وليست كالحال في قولك : جاء زيد راكباً ، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود .

و [فَصَّلْنا] معناه : بيَّنَّا وأَوضحنا ، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْم يَذَّكَّرُونَ﴾ أَي للمؤْمنين الذين يعدون أَنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء ،

---

(١) من الآية (٣٧) من سورة (الأنفال) .

والضمير في قوله تعالى : [لَهُم] عائد على القوم المتذكِّرين ، و [السَّلامُ] يتَّجه فيه معنيان : أَحدهما أَن (السلام) اسم من أَسماءِ الله عزَّ وجلَّ فأَضاف (الدار) إليه وهي ملْكه وخلقه ، والثاني أَنه المصدر بمعنى السلامة ، كما تقول : السلام عليك ، وكقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يريد : في الآخرة بعد الحشر ، و [وَلِيُّهُم] أَي : وليُّ الإِنعام عليهم ، و ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ أَي بسبب ما كانوا يقدمون من الخير ، ويفعلون من الطاعة والبِرِّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

[يَومَ] نصب بفعل مضمر تقديره : واذكر يوم ، ويحتمل أَن يكون العامل : [وَلِيُّهُم] والعطف على موضع قوله : [بِمَا كَانُوا] ، والضمير في [يَحْشُرُهُمْ] عائد على الطائفتين : الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جِنًّا وإِنْساً ، والذين لهم دار السلام جِنًّا وإِنْساً ، ويدلُ على ذلك التأْكيد العام بقوله تعالى : [جَمِيعاً] .

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (يونس) .

وقرأ حفص عن عاصم : [يَحْشُرُهُمْ] بالياء ، وقرأ الباقون بالنون . وكلٌّ متَّجه . (١)

ثم ذكر عزَّ وجلَّ ما يقال للجن الكفرة ، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره : نقول يا معشر الجن . وقوله تعالى : ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُمْ﴾ معناه : فرَّطتم ، و ﴿مِنَ الإِنْسِ﴾ يريد في إغوائهم وإضلالهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . وقال الكفار من الإنس وهم أولياءُ الجن المُوَبَّخين على جهة الاعتذار عن الجن : ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك في وجوه كثيرة : حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعيذ بالجن في الأودية ومواضع الخوف (٢) ، وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل الربي بالكاهن والمجير والمستجير ، إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي : يا ربَّ الوادي إني أستجير بك هذه الليلة ، ثم يرى أن سلامته إنما هي بحفظ جِنِّي ذلك الوادي . فهذا استمتاع بعضهم ببعض .

---

(١) قوله تعالى : ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ﴾ ، المعشر : الجماعة ، ويجمع على معاشر ، ومنه الحديث الشريف : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) ، وقال الأفوه :

فِينَا معاشِرُ لنْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ ... وإنْ بَنَى قَوْمُهُمْ ما أفْسَدوا عادوا

(٢) قال تعالى : ﴿وأنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ . الآية (٦) من سورة (الجن) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثال في الاستمتاع ، ولو تُتبِّع لتبينت له وجوه أُخر كلها دنياوية .

وبلوغ الأَجل المؤَجل ــ قال السُّدي : هو الموت الذي انتهى الكلُّ منهم إليه ، وقيل : هو الحشر ، وقيل : هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع ، كأَنهم أَشاروا إلى أَن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أَجل . وقرأَ الحسن : [وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا] بكسر اللام مشددة .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ الآية . إخبار من الله عزَّ وجلَّ عما يقول لهم يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم ، وجاء الفعل بلفظ الماضي ــ وهو في الحقيقة مستقبل ــ لصحة وقوعه ، وهذا كثير في القرآن وفصيح الكلام . و [مَثْوَاكُمْ] أَي موضع ثوائِكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة . هذا قول الزجاج وغيره ، قال أَبو علي في «الأَغفال» : المثوى عندي مصدر لا موضع له ، وذلك لعمله في الحال التي هي [خَالِدِينَ] والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملا ، والتقدير : النار ذات ثوائِكم ، والاستثناءُ في قوله تعالى : ﴿إلَّا ما شَاءَ اللهُ﴾ ــ قالت فرقة : [مَا] بمعنى (مَنْ) فالمراد : إلا من شاءَ مِمَّن آمن في الدنيا بعد أَن كان من هؤُلاءِ الكفرة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولما كان هؤلاءِ صنفاً ساغت في العبارة عنهم [مَا] ، وقال الفراءُ : [إلَّا] بمعنى (سوى) ، والمراد : سوى ما يشاءُ من زيادة في العذاب ،

ونحا إليه الزَّجاج . وقال الطبري : إن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وساغ هذا من حيث العبارةُ بقوله تعالى : ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ لا تَخُص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره ، وقال الطبري عن ابن عباس إنه كان يتناول في هذا الاستثناءِ أَنه مبلغ حال هؤُلاءِ في علم الله ، ثم أَسند إليه أَنه قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأَحد أَن يحكم على الله في خَلْقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً [1] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والإجماع على التخليد الأَبدي في الكفار ، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتجه عندي في هذا الاستثناءِ أَن يكون مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمته ، وليس مما يقال يوم القيامة ، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله ، كأَنه لمَّا أَخبرهم أَنه قال للكفار : ﴿النَّارُ مَثْوَاكُم﴾ استثنى لهم من يمكن أَن يؤمن منهم .

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية عن علي بن أبي حاتم بن أبي طلحة . (ابن كثير ٣-١٠١) .

و ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية ، لأَن تخليد هؤلاءِ الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعِلْم بمواقع الأَشياء .

وقوله تعالى : ﴿وكَذَٰلِكَ نُوَلِّي﴾ . قال قتادة : [نُوَلِّي] معناه : نجعل بعضهم وليَّ بعض في الكفر والظلم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل يؤيده ما تقدم من ذكر الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض . وقال قتادة أَيضاً : معنى [نُوَلِّي] : نتبع بعضهم بعضا في دخول النار ، أَي نجعل بعضهم يلي بعضا ، وقال ابن زيد : معناه : نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أَولياءَ النقمة منهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل لا تؤيده أَلفاظ الآية المتقدمة ، أَما إنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي عن عبد الله بن الزبير لما بلغه أَن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأَشدق صعد المنبر فقال : «إن فم الذبان قتل لطيم الشيطان» ،(١) ﴿وكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

---

(١) يريد بفم الذبان عبد الملك بن مروان ، وقد غلب عليه هذا الفساد كان في فمه . واللطيم في الأصل هو الذي مات أبواه فأصابه الذل والهوان . وهنا أصبحت رعايته للشيطان ، وطبعاً المراد به عمرو بن سعيد الأشدق . وابن الزبير يرى أن كلا منهما ظالم ، وقد سلط الله واحداً منهما على الآخر ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من أعان ظالماً سلطه الله عليه) . والله يسلط الظلمة بعضهم على بعض .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (١٣٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ داخل في القول يوم الحشر ، والضمير في [مِنْكُمْ] قال ابن جريج : عمم بظاهره الطائفتين والمراد الواحدة تَجَوُّزاً ، وهذا موجود في كلام العرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(١) ، وذلك إنما يخرج من الأُجاج . وقال الضحاك : الضمير عائد على الطائفتين وفي الجِنّ رسل منهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وقال ابن عباس : الضمير عائد على الطائفتين ، ولكن رسل الجن هم رسل الإنس ، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسُلُ رسله ، وهم النُّذر . و [يَقُصُّون] من القصص . وقرأ عبد الرحمن الأَعرج : [أَلَمْ تَأْتِكُمْ] بالتاء على تأْنيث لفظ الرسل .

وقولهم : «شَهِدْنا» إقرار منهم بالكفر واعتراف ، أي : شهدنا على أنفسنا بالتقصير . وقوله تعالى : ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التفاتة

---

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن) . والأُجاجُ : المِلح ، ويراد به هنا البحر ، ومنه يستخرج اللؤلؤ والمرجان لا من الأنهار ذات المياه العذبة .

فصيحة تضمنت أَن كفرهم كان بأَذمّ الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل . ويحتمل [غَرَّتْهُم] أَن يكون بمعنى : أَشبعتهم وأَطعمتهم بحلوائها كما يقال : غرَّ الطائر فرخه . وقوله تعالى : ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك ـ مناقضةٌ ، والجمع بينهما هو إمَّا بأَنها طوائف ، وإما طائفة واحدة في مواطن شتَّى ، وإما أَن يريد سبحانه بقوله هنا : ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ شهادة الأَيدي والأَرجل والجلود بعد إنكارهم بالأَلسنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واللفظ ها هنا يبعد من هذا .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ الآية . [ذَلِكَ] يصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ والخبر محذوف تقديره : ذلك الأَمر ، ويصح أَن يكون في موضع نصب بتقدير : فعلنا ، و [أَنْ] مفعول من أَجله ، و [الْقُرى] : المدن ، والمراد أَهل القرى ، و [بِظُلْم] يتوجه فيه معنيان : أَحدهما أَن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن ليهلك المدن دون نِذَارة [1] ، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم والله ليس بظلام للعبيد ، والآخر أَن الله عزَّ وجلَّ لم يهلك أَهل القرى بظلم إذا ظلموا دون أَن

(١) النِّذارَة كالإنذار ـ قال في القاموس : « والنذير : الإنْذار كالنِّذارة بالكسر ، وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه » .

ينذرهم (١) ، وهذا هو البيّن القوي ، وذكر الطبريُّ رحمه اللهالتأْويلين.

وقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ الآية إخبار من الله عزَّ وجلَّ أَن المؤْمنين في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أَعمالهم وتفَضُّل اللهِ عليهم ، والمشركين أَيضاً على درجات من العذاب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولكن كل مؤْمن قد رضي بما أُعطي غاية الرضى .

وقرأَت الجماعة سوى ابن عامر : [يَعْمَلون] على لفظ (كُلّ) ، وقرأَ ابن عامر وحده [تَعْمَلون] على المخاطبة بالتاءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

[الْغَنِـيّ] صفة ذات لله عزَّ وجلَّ لأَنه تبارك وتعالى لا يفتقر إلى شيءٍ من جهة من الجهات ، ثم تُليت هذه الصفة بقوله تعالى :

(١) الظلم في هذا الوجه الثاني من الكافرين ، والمعنى أن الله تعالى لم يكن ليهلك أهل القرى بسبب شرك من أشرك منهم ، فهو مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. وقد قال ابن عطية عن الوجه الثاني إنه هو البيِّن القوي لأن الوجه الأول يوهم أن الله تعالى لو آخذهم قبل بعثة الرسل كان ظالماً وليس الأمر كذلك عند أهل السنة والجماعة ، لأنه سبحانه وتعالى يحكم ما يشاءُ ويفعل ما يريد .

﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فأَردف الاستغناء بالتفضل ، وهذا أَجمل تناسق ، ثم عقَّب بهذه الأَلفاظ المضمنة الوعيد المحذِّرة من بطش الله عزَّ وجلَّ في التعجيل بذلك ، وإما مع المهملة ومرور الجديديْن فكذلك عادة الله في الخلق ، وأَما الاستخلاف فكما أَوجد الله تعالى هذا العالم الآدميَّ بالنشأَة من ذرية قوم متقدمين أَصلهم آدم عليه السلام .

وقرأَت الجماعة : [ذُرِّية] بضم الذال وشد الراءِ المكسورة ، وقرأَ زيد بن ثابت بكسر الذال ، وكذلك في سورة (آل عمران)(١) ، وحكى أَبو حاتم عن أَبان بن عثمان أَنه قرأَ : [ذَرِيَّة] بفتح الذال وتخفيف الراءِ المكسورة ، وحكى عنه أَبو الزناد أَنه قرأَ على المنبر : [ذَرْية] بفتح الذال وسكون الراءِ على وزن فَعْلة ، قال : فسأَلته فقال : أَقرأَنيها زيد بن ثابت .

و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ ذُرِّية﴾ للتبعيض ، وذهب الطبري إلى أَنها بمعنى قولك : أَخذت من ثوبي ديناراً ، بمعنى : عنه وعِوَضه . و [تُوعَدونَ] مأْخوذ من الوعيد بقرينة : ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والإِشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً ، وأَما أَن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن تنفيذ الوعيد ، والعقائد ترد ذلك ، و [بِمُعْجِزِينَ] معناه : بناجين هرباً ، أَي يعجزون طالبهم .

ثم أَمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أَن يتوعدهم بقوله : [اعْمَلُوا] ، أَي : فسترون عاقبة عملكم الفاسد ، وصيغة «افْعَل» ها هنا بمعنى الوعيد والتهديد ، و ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه : على حالكم

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٤) : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وطريقتكم ، وقرأ أَبو بكر عن عاصم : [عَلَىٰ مَكانَاتِكُمْ] بجمع المكانة في كلّ القرآن ، وقرأ الجميع بالافراد في كل القرآن ، و [مَنْ] يتوجه أَن يكون بمعنى الذي فتكون في موضع نصب بـ [تَعْلَمون] ، ويتوجه أَن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في قوله تعالى : [تكُون لَهُ] ، و [عَاقِبَةُ الدَّارِ] أَي : مآل الآخرة ، ويحتمل أَن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور ، ففي الآية إعلام بغيب (1) .

ثم جزم الحكم بأَنه ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي : لا ينجح سعيهم ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [مَنْ يكُونُ] بالياء ها هنا وفي القصص (2) على تذكير معنى العاقبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

الضمير في [جَعَلوا] عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأَوثان الذين تقدم الردُّ عليهم من أَول السورة .

(1) وقيل : العاقبة هي الحسنى التي خلق الله هذه الدار لها ، أما قوله سبحانه : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ ففيه من التهديد والوعيد مالا يخفى : كقوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلان﴾ ، وعليه قول الشاعر :

إذاما الْتَقَيْنَا والْتَقى الرُّسْل بَيْنَنَا فسَوْفَ تَرَى يا عَمْرو ما اللهُ صانِعُ

وقول الآخر :

ستَعْلَمُ لَيْلى أيَّ دينٍ تَدايَنَتْ وأَيُّ غَريمٍ لِلتَّقَاضي غَريمُهَا

(2) في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة القصص : ﴿وقالَ موسى رَبي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بالْهُدَى مِنْ عِنْدهِ ومَنْ تكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّار﴾ .

و [ذَرَأَ] معناه : خلق وأَنشأَ وبث في الأَرض . يقال : ذرأَ الله الخلق يذرؤُهم ذرءًا وذروءًا أَي خلقهم وقوله تعالى : «وجعلوا من كذا وكذا نصيباً» يتضمن بقاءَ نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأَول ، فبيَّنه بقوله تعالى : ﴿فَقَالُوا هذا لله﴾ ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ ، ثم اعترضهم أَثناءَ القول بأَن ذلك زعْم وتَقوُّل ، والزَّعم في كثير كلام العرب أَقرب إلى غير اليقين والحق ، يقال : زَعْم بفتح الزاي وبه قرأَت الجماعة ، وزُعْم بضمها ، وقرأَ الكسائي وحده في هذه الآية [1] ، وزعم بكسر الزاي ولا أَحفظ أَحداً قرأَ به .

و [الْحَرْث] في هذه الآية يريد به الزرع والأَشجار وما يكون من الأَرض ، وقوله تعالى : [لِشُرَكَائِنَا] يريد به الأَصنام والأَوثان ، وسموهم شركاءَ على معتقدهم فيهم أَنهم يساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك .

وسبب نزول هذه الآية أَن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أَنعامها جزءًا تسميه لله وجزءًا تسميه لأَصنامها ، وكانت عادتها التحفي والاهتبال بنصيب الأَصنام أَكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أَن الأَصنام بها فقر وليس ذلك بالله ، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت مِنَ الذي لله إلى الذي لشركائهم أَقروه ، وإذا حملت مِنَ الذي لشركائهم إلى الله ردُّوه ، وإذا تفجر مِن سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه ، وإن بالعكس سدُّوه ،

---

(١) هكذا في جميع الأصول ، والذي يظهر لنا أن صحة العبارة : «وبها قرأ الكسائي وحده في هذه الآية» .

وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا : لابُدَّ للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك ، قال هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، والسدي ، وغيرهم . إنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل ، وكذلك في الأَنعام ، وكانوا إذا أَصابتهم السَّنَةُ أَكلوا نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا كانَ لِشُرَكائِهِمْ﴾ الآية . قال جمهور المتأَولين : إن المراد بقوله تعالى : [فَلَا يَصِلُ] وبقوله سبحانه : [يَصِل] ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب آلهتهم في هبوب الريح وغير ذلك . وقال ابن زيد : إنما ذلك في أَنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح ، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله ، فكأَنه قال : «فلا يصل إلى ذكر الله» ، وقال : «فهو يصل إلى ذكر شركائهم» ، و [مَا] في موضع رفع كأَنه قال : «ساءَ الذي يحكمون» ، ولا يتجه عندي أَن يجري هنا [سَاءَ] مجرى « نعم وبئس» ، لأَن المفسر هنا مضمر ولابد من إظهاره باتفاق من النحاة ، وإنما اتجه أَن تجري مجرى «بئس» في قوله تعالى : ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾[(١)] لأَن المفسر ظاهر في الكلام .[(٢)]

---

(١) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف) .

(٢) وقيل : يجوز أن تكون [ما] تمييزاً على مذهب من يجيز ذلك في (بئسما) فتكون في موضع نصب ، والتقدير : «ساء حكما حكمهم» ولا يكون (يَحْكُمون) صفة لـ [ما] لأن الغرض الإبهام ، ولكن في الكلام حذف يدل [ما] عليه ، هذا وكعادة أبي حيان في البحر عقَّب على رأي ابن عطية في إعراب [ما] بقوله : «وهذا قول من شدا يسيراً من العربية ، ولم يرسخ قدمه فيها ، بل إذا جرى [ساء] مجرى (نعم وبئس) كان حكمها حكمهما سواء، لا يختلف في شيء ألبتة من فاعل مضمر أو ظاهر وتمييز ، ولا خلاف في جواز حذف المخصوص =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

الكثير في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب ، والشركاءُ هاهنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له ، والحاملون عليه أيضا من بني آدم الناقلين له عصراً بعد عصر ، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة ، ومقصد هذه الآية الذمُّ للوَأْدِ الإِنْحَاءُ على فعلته .

واختلفت القراءة ـ فقرأت الجماعة سوى ابن عامر : [وَكَذَلِكَ زَيَّنَ] بفتح الزَّاي [قَتْلَ] بالنصب [أَوْلادِهِم] بكسر الدال [شركاؤُهم] ، وهذه أَبْيَن قراءة ، وحكى سيبويه أنه قرأت فرقة : [وكذلِكَ زُيِّن] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع [أَوْلادِهِم] بكسر الدال [شُرَكاؤُهُمْ] بالرفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي قراءة أَبي عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وأَبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر ، كأنه قال : «زيَّنَهُ شركاؤُهم» ،

=بالمدح والذم والتمييز فيها لدلالة الكلام عليه ، فقوله : «لأن المفسر هنا مضمر ولابد من اظهاره باتفاق النحاة إلى آخره» كلام ساقط ، ودعواه الاتفاق مع أن الاتفاق على خلاف ما ذكر عجب عجاب» . انتهى تعقيب أبي حيان على رأي ابن عطية . وإنما نقلناه هنا لنوضح لك ما ذكرناه في المقدمة من تحامل أبي حيان على ابن عطية ، وبخاصة في موضوعات النحو والاعراب مع أنه ينقل عنه في تفسيره الكثير من الآراء ويعتمد عليه اعتماداً واضحاً .

قال سيبويه : وهذا كما قال الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا يُطِيح الطَّوَائِح(١)

كأنه قال : يبكيه ضارعٌ لخصومة ، وأجاز قطرب أن يكون الشركاءُ في هذه القراءة ارتفعوا بالقتل ، كأن المصدر أُضيف إلى المفعول ، ثم ذكر بعده الفاعل كأنه قال : أن قتل أولادهم شركاؤُهم ، كما تقول : حبّب إلى ركوبَ الفرسِ زيدٌ ، أي : أن ركب زيدٌ الفرسَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والفصيح إذا أُضيف مصدرٌ إلى مفعول ألا يذكر الفاعل ، وأيضاً فالجمهور ـ في هذه الآية ـ على أن الشركاءَ مزيِّنون لا قاتلون . والتوجيه الذي ذكره سيبويه هو الصحيح ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ على قراءة من قرأ : ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ﴾(٢) بفتح الباءِ المشددة ، أي : يسبح رجالٌ .

وقرأ ابن عامر : [وَكَذَلِكَ زُيِّنَ] بضم الزّاي [قَتْلُ] بالرفع [أولادَهم] بنصب الدال [شُرَكائِهِم] بخفض الشركاءِ ، وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب ، ورؤساءُ العربية لا يُجيزون الفصل بالظرف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله :

كما خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهودِيٍّ يُقارِبُ أَو يَزِيلُ(٣)

---

(١) سبق الحديث عن هذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ ، من الآية (٧٣) من هذه السورة .

(٢) من الآيتين (٣٦ ، ٣٧) من سورة (النور) .

(٣) هذا البيت لأبي حيَّة النميري ، والشاهد فيه إضافة كلمة (كف) إلى (يهودي) مع الفصل بالظرف، وهذا كما يقول ابن عطية غير جائز عند رؤساء العربية مع أنهم يتوسعون في =

فكيف بالمفعول في أفصح الكلام ؟ ولكن وجّهها – على ضعفها – أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش وهو :

فَزَجَجْتُها بِمِزَجَّةٍ زجَّ الْقَلوصَ أَبي مَزادَة (١)

وفي بيت الطِّرِمَّاح وهو قوله :

يَطُفْنَ بِحُوزِيِّ المراتِع لم تَرُعْ بَوادِيهِ مِن قَرْعِ القِسِيَّ الكَنائِنِ (٢)

=الظرف عن غيره ، فكيف بالمفعول في أفصح الكلام ؟ والبيت يصف رسوم الدار فيشبهها بالكتاب في دقتها وفي الاستدلال بها ، وخص اليهود بالذكر لأنهم أهل الكتاب ، وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتصاء آثار الديار تلك الصفة والحال ، وكلمة (يزيل) بفتح الياء معناها : يُباعد ويُفرق .

ومثل هذا البيت في جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه عند من يرى ذلك قول ذي الرُّمَّة :

كأَنَّ أَصْوَاتَ مِنْ إيغالِهِنَّ بِنَا أواخِرِ الْمَيْسِ أَصْواتُ الْفَراريج

فقد أضاف (أَصْواتَ) إلى (أواخر المَيْس) مع الفصل بالجار والمجرور ، والمَيْس : شجر تعمل منه الرحال ، والإيغال : سرعة السير ، فهو يقول : «كأن أصوات أواخر الْمَيْس من شدة سير الإبل بنا واضطراب الرحال ، عليها أصواتُ الفراريج . (عن شرح الشواهد للشمنتمري) وراجع أيضاً (مجمع البيان لعلوم القرآن ج ٣ ص ٤) .

(١) ذكر أبو الحسن الأخفش هذا البيت دون أن ينسبه لأحد ، والزَّج هنا : الطَّعن ، والمِزَجَّة بكسر الميم : رمح قصير كالمزاريق ، والقَلوص بفتح القاف : الناقة الفتية . يقول : إنه زجَّ امرأته كما زجَّ أبو مزادة القلوصَ ، وأبو مزادة كنية رجل . (عن شرح الشواهد الكبرى للعيني – باب الإضافة) .

(٢) قال في (اللسان) : الحُوزيّ : المتوحد وهو الفحل منها – يعني الإبل أو البقر . يقول : « إن البقر تطوف بهذا الفحل المنفرد المُتَوَحِّد في المراتع وهو مع ذلك آمن ساكن لم يُرَع في واديه من قرع الكنائن » . وقد نسب صاحب اللسان البيت للطرماح أيضاً ، ونسبه صاحب التاج للعجاج .

هذا والشواهد التي يسوقها النحويون على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه كثيرة ، ويمكن الرجوع إلى (النحو الوافي ج ٣ باب الإضافة) ففيه تفصيل وتحليل ومناقشة للموضوع .

والشركاءُ ـ على هذه القراءة ـ هم الذين يتأولون وأْد بنات الغير ، فهم القاتِلون ، والصحيح من المعنى أَنهم المُزَيِّنونَ لا القاتلون ، وذلك مضمن قراءة الجماعة .

وقرأ بعض أهل الشام ـ ورويت عن ابن عامر ـ : [زِين] بكسر الزاي وسكون الياءِ على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول . وحكى الزهراوي أنه قرأت فرقة من أهل الشام : [وَكَذَلِكَ زُيِّن] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع [أَوْلادِهم] بكسر الدال [شركائِهِم] بالخفض . والشركاءُ على هذه القراءة هم الأَولاد الموْؤُودون لأَنهم شركاءُ في النسب والمواريث ، وكأَن وصفهم بأَنهم شركاءُ يتضمن حرمة لهم ، وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتْلُ من له حرمة .

و [لِيُرْدُوهُم] معناه : لِيُهلكوهم . من الرَّدى . [وَلِيَلْبِسُوا] معناه : لِيَخْلطوا ، والجماعة على كسر الباءِ ، وقرأَ إبراهيم النَّخعي : [وَلِيَلْبَسوا] بفتح الباءِ ، قال أَبو الفتح : هي استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالطة . وهذان الفعلان يؤَيّدان أَول قراءة في ترتيبنا في قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ زَيَّنَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ﴾ يقتضي أَن لا شيءَ إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ ، وفيها ردٌّ على من قال : إن المرءَ يخلق أَفعاله .

وقوله تعالى : [فَذَرْهُمْ] وعيد محض ، و [يَفْتَرُونَ] معناه : يختلفون من الكذب في تشرعهم بذلك واعتقادهم أَنها مباحات لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه لأَنفسهم والتزموه على جهة القُرْبة كذباً منهم على الله وافتراءً عليه ، فوصف تعالى أَنهم عمدوا إلى بعض أَنعامهم وهي : الإِبل والبقر والغنم ، أَو الإِبل بانفرادها ، وأَمَّا غيرها إِذا انفرد فلا يقال له أَنعام ، وإلى بعض زروعهم وثمارها ، وسُمّي ذلك حرثٌ إِذ عن الحرث يكون ، وقالوا : هذه حِجْرٌ ، أَي : حرام ، وقرأَ جمهور الناس : [حِجْر] بكسر الحاءِ وسكون الجيم ، وقرأَ قتادة ، والحسن ، والأَعرج : [حُجْر] بضم الحاءِ وسكون الجيم ، وقرأَ ابن عباس ، وأُبي ، وابن مسعود ، وابن الزُّبَير ، والأَعمش ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار : [حِرْج] بكسر الحاءِ وتقديم الراءِ على الجيم وسكونها . فالأُولى والثانية بمعنى : التحجير وهو المنع والتحريم (١) ، والأَخيرة من الْحِرْج وهو التضييق والتحريم (٢) .

---

(١) الحِجْر لفظ مشترك ، وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع ، وسُمّي العقل حجراً لمنعه عن القبائح ، ويقال : فلان في حجر القاضي ، أي في منعه ، وحجرتُ على الصبي حجراً ، والحجر : العقل ، قال الله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ ، والحجر : الفرس الأنثى ، والحجر : القرابة ، قال الشاعر :

يُريدونَ أنْ يُقْصوهُ عنِّي وإنَّــــه ... لَذو حَسَبٍ دانٍ إليَّ وذو حِجْــر

(٢) هذا رأي فالحِرْج بالكسر فالسكون لغةٌ في الحَرَج بفتح الحاءِ والراءِ وهو الضيق والإِثم ، والرأي الثاني أن الحِجْر والحِرْج مثل : جبذ وجذب ، فهو من القلب المكاني قاله في « القرطبي » ، وفي « البحر المحيط » .

وكانت هذه الأَنعام ــ على ما قال ابن زيد ــ مُحَلَّلة للرجال مُحَرَّمة على النساءِ ، وقيل : كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأَصنام وخدمتها ، حكاه المهدوي ، فذلك المراد بقوله تعالى : [مَنْ نَشَاءُ] .

وقوله تعالى : [بِزَعْمِهِمْ] أَي بتقوّلهم الذي هو أَقرب إلى الباطل منه إلى الحق ، وزعمهم هنا في قولهم : حِجْرٌ ، وتحريمهم بذلك ما لم يحرّم الله تعالى ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : [بِزَعَمهم] بفتح الزاي والعين ، وكذلك في الذي تقدم .

﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ ، كانت للعرب سُنن ، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإِناث ونحوه حُرِّم ظهرها فلم تركب ، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حُرم ظهره ، فعدّد الله ذلك على جهة الردّ عليهم إذ شرعوا ذلك برأْيهم وكذبهم .

﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ ، قيل : كانت لهم سُنة في أَنعام ما أَلَّا يُحج عليها ، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج فذلك قوله تعالى : ﴿لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ ، هذا قول جماعة من المفسرين ، ويروى ذلك عن أَبي وائل . وقالت فرقة : بل ذلك في الذبائح ، يريد أَنهم جعلوا لآلهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها . وقوله تعالى : [افْتِرَاءً] مصدر نصب على المفعول من أَجله ، أَو على إضمار فعل تقديره : يفترون ذلك . و [سَيَجْزِيهِمْ] وعيد بمقارضة الآخرة ، والضمير في [عَلَيْه] عائد على اسم الله . و [يَفْتَرونَ] أَي : يكذبون ويختلقون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة ، وكانت سنتهم في بعض الأَنعام أَن يحرموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكورهم ، والهاءُ في [خَالِصَةً] قيل : هي للمبالغة كما هي في (راوية) وغيرها [(١)] ، وهذا كما تقول : فلان خالصتي ، وإن كان باب هاءِ المبالغة أَن تلحق بناءَ مبالغة كعلَّامة ونسَّابة وبصيرة ونحوه . وقيل : هي لتأْنيث الأَنعام إذ ما في بطونها أَنعام أَيضاً [(٢)] . وقيل : هي على تأْنيث لفظ [ما] لأَن [ما] واقعة في هذا الموضع موقع قولك : جماعة وجملة [(٣)] .

وقرأَ جمهور القراءُ والناس : [خالصةٌ] بالرفع ، وقرأَ عبد الله ابن مسعود ، وابن جبير ، وابن أَبي عبلة ، والأَعمش : [خالصٌ] دون هاءٍ . ورفع هاتين القراءتين على خبر الابتداء ، وقرأَ ابن عباس

(١) وعلى هذا يكون معنى خالص وخالصة واحد ولا فرق إلا أن الهاء للمبالغة . قاله الكسائي .

(٢) هذا جواب عن اعتراض وردَ على قول من قال : تأنيثها ـ أي خالصة ـ لتأنيث الأنعام ، وهو قول الفراءِ ، فقال جماعة : هذا خطأ لأن مافي بطونها ليس منها ولهذا فهو لا يشبه قوله تعالى : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ لأن بعض السيَّارة سيارة . والجواب عن ذلك : هذا لا يلزم الفراء لأن ما في بطون الأنعام أنعام مثلها فأنَّث لتأنيثها . وهذا هو سر تعبير ابن عطية بهذه الجملة .

(٣) وقيل : إن (ما) يرجع إلى الألبان أو الأجنَّة ، فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ ، ولهذا قال : ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ على اللفظ ، ولو راعى المعنى لقال : ومحرّمة ، ويعضد هذا قراءة الأعمش وغيره : [خالصٌ] بغير هاء .

رضي الله عنهما ــ بخلاف (١) ــ والأعرج ، وقتادة ، وسفيان بن حسين : [خالصةً] بالنصب ، وقرأ سعيد بن جبير ــ فيما ذكر أبو الفتح ــ : [خالصا] ، ونصب هاتين القراءتين على أن الحال من الضمير الذي في قوله تعالى : [في بُطونِ] وذلك على تقدير الكلام : «وقالوا : ما استقر هو في بطون هذه الأنعام» فحذف الفعل وحمل المجرورُ الضميرَ ، والحالُ من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار ، قال أبو الفتح : ويصح أن يكون حالاً من [ما] على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها . وقرأ ابن عباس أيضاً ، وأبو حيوة ، والزهري : [خالِصَهُ] بإضافة (خالص) إلى ضمير يعود على [ما] ومعناه : ما خلص وخرج حيّا ، والخبر ــ على قراءة من نصب [خالصةً] في قوله سبحانه : [لِذُكُورنا] ، والمعنى المراد بـ [ما] في قوله تعالى : ﴿ما في بُطُونِ﴾ قال السدي : هي الأجنة ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، والشعبي : هو اللبن ، قال الطبري : واللفظ يعمهما .

وقوله تعالى : [وَمُحَرَّمٌ] يدل على أن الهاء في [خالِصَة] للمبالغة ، ولو كانت لتأنيث لقال : ومحرمة . و [أَزْواجِنَا] يريد به جماعة النساء التي هي معدة أن تكون أزواجا ، قاله مجاهد . وحكى الطبري عن ابن زيد أن المراد بـ [أزْواجنا] البنات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يبعد تحليقه على المعنى .

---

(١) أي أن هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما موضع خلاف ، وانظر بعد ذلك قراءته المروية عنه بالإضافة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً﴾ ، كان من سُنَّتِهم أن ما خرج من الأَجنة ميتاً من تلك الأَنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساء جميعاً ، وكذلك ما مات من الأَنعام الموقوفة نفسها .

وقرأ ابن كثير : [وَإِنْ يَكُنْ] بالياء [مَيْتَةٌ] بالرفع ، فلم يلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان تأْنيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي ، والمعنى : وإن وقع ميتة أو حدث ميتة ، وقرأ ابن عامر : [وَإِنْ تَكُن] بالتاء [مَيْتَةٌ] بالرفع ، فأَلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان الفاعل في اللفظ مؤنثاً ، وأَسند الفعل إلى الميتة كما فعل ابن كثير ، وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر عنه : [تكُنْ] بالتاء [ميْتَةً] بالنصب فأَنث وإن كان المتقدم مذكراً لأَنه حمله على المعنى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله .

فالتقدير : وإن تكن النسمة أَو نحوها ميتة . وقرأ نافع ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص [يكُن] بالياء [ميْتَةً] بالنصب ، فذكَّروا الفعل لأَنهم أَسندوه إلى ضمير ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ما في بُطونِ هَٰذِهِ الأَنْعَامِ﴾ وهو مذكَّر ، وانتصبت الميتة على الخبر . قال أَبو عمرو بن العلاء : ويقوي هذه القراءة قوله تعالى : [فَهُمْ فيه] ولم يقل (فيها)(١) ، وقرأ يزيد بن القعقاع : [وَإِنْ تكُنْ ميِّتَةً] بالتشديد ، وقرأ عبد الله بن مسعود : [فَهُمْ فيه سواءٌ] .

---

(١) قال أبو حيان : « وهذا ليس بجيد لأن الميتة لكل ميّت ذكراً كان أو أنثى فكأنه قيل : « وإن يكن ميّتاً فهم فيه شركاء » . (البحر المحيط ٤–٢٣٣)

ثم أَعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أَنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك[1] ، [إِنَّهُ حَكِيمٌ] أَي في عذابهم على ذلك ، [عَلِيمٌ] بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأْدهم البنات وحجرهم الأَنعام والحرث . قال عكرمة : وكان الوأْد في ربيعة ومضر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكان جمهور العرب لا يفعله ، ثم إن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإقتار ، وكان منهم من يفعله غيرة مخافة السباء . وقرأَ ابن عامر ، وابن كثير : [قتّلوا] بتشديد التاء على المبالغة ، وقرأَ الباقون : [قَتَلوا] بتخفيفها .

---

(١) جاء هذا الوعيد في قوله تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : كذبهم وافتراءهم ، وانتصب (وَصْفَهُمْ) بنزع الخافض ، إذ المعنى : سيجزيهم بوصفهم ، والله أعلم .

و [ما رَزَقَهُمُ اللهُ] هي تلك الأَنعام والغلات التي توقف ـ بغير شرع ولا مثوبة في مَعَاد ، بل بالافتراءِ على الله والكذب . و [قَدْ ضَلُّوا] إخبار عنهم بالحيْرة ، وهو من التعجب بمنزلة قوله تعالى : [قَدْ خَسِرَ] . [وَمَا كَانُوا] يريد : في هذه الفعلة ، ويحتمل أن يريد : وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين ، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ الآية . هذا تنبيه على مواضع الاعتبار ، و [أَنْشَأَ] معناه : خلق واخترع ، والجَنَّة مأْخوذة من جنَّ إذا ستر ، و [مَعْرُوشَات] قال ابن عباس : ذلك في ثمر العنب ، ومنها ما عُرِشَ وسُمِّك ، ومنها ما لم يعرش ، وقال السدي : المعروشات : ما عرش كهيئة الكرْم ، وغيره : البساتين ، وقيل : المعروش : هو ما يعترشه بنو آدم من أنواع الشجر ، وغير المعروش : ما يحدث في الجبال والصحراءِ ونحو ذلك . وقيل : المعروش : ما حلق بحائط ، وغير المعروش : مالم يحلق . و [مُخْتَلِفاً] نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأَنها حين الإِنشاءِ لا ثمرة فيها ، فهي حال مقدرة تجيءُ بعد الإِنشاءِ (١) . و [مُتَشَابِهاً]

(١) المعنى أن الله أنشأ الزرع والنخل مقدراً فيهما الاختلاف ، وقد مثَّل لهذا سيبويه بقوله : « مررت برجل معه صقر صائداً به غداً » على الحال ، كما تقول : « لَتَدْخُلُنَّ الدار آكلين شاربين » ، أي مقدرين ذلك .

وقيل : [أُكُلُه] مرفوع بالابتداءِ و [مُخْتَلِفاً] نعتُه ، لكنه لما تقدم عليه وَوَلِيَ منصوباً نُصب ، كما تقول : « عندي طبّاخاً غلام » ، وكما قال الشاعر :

الشَّرُّ منْتَشِرٌ يَلْقَاكَ عَنْ عُرُضٍ والصَّالحـــاتُ عَلَيْها مُغْلَقاً بابُ

وقيل : إن الله لما أنشأ الزرع والنخل كان مختلفاً أُكله ، على معنى أنه لو كان له أكل لكان مختلفاً أكله . قال الزجاج : هذه مسألة مشكلة من النحو ــ وقد جاء التعبير بقوله تعالى: [أُكُلُهُ]=

يريد : في المنظر ، و [غَيْرَ مُتَشَابِه] في المطعم ، قاله ابن جريج وغيره .

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ نفس الإباحة وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك ، ويُقرأُ [مِنْ ثُمُره] بضم الثاءِ ، وقد تقدم . ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قالت طائفة من أهل العلم : هي في الزكاة المفروضة ، منهم ابن عباس ، وأنس بن مالك ، والحسن بن أبي الحسن ، وطاوس ، وجابر بن زيد ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، ومحمد بن الحنفية ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، وقاله مالك بن أنس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول معترض بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة ، وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها إنها نزلت بالمدينة ، ومعترض أيضاً بأنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه .

وقال ابن الحنفية أيضاً ، وعطاء ، ومجاهد ، وغيرهم من أهل العلم : بل قوله تعالى : [وَآتُوا حَقَّهُ] ندب إلى إعطاءِ حقوق من المال غير الزكاة ، والسنة أن يعطي الرجل من زرعه عند الحصاد ، وعند الذَّرْو ، وعند تكديسه في البيدر ، فإذا صفَّى وكال أخرج من ذلك

=ولم يقل [أكلُهما] باعتباره يعود على الزرع والنخل لأنه اكتفى بإعادة الذكْر على أحدهما كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ ولم يقل (إليهما) وقال الحوفي : «والهاءُ في [أُكُله] عائدة على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشئات» ، وعلى هذا يكون الحال من جميع ما أنشأ لا من النخل والزرع فقط ، وردّ عليه أبو حيان بقوله «لو كان كذلك لكان التركيب الصحيح (مختلفاً أكلها) ، وأجيب بأن ذلك على تقدير محذوف هو في الأصل مضاف ، أي (ثمر جنات ...) وروعي هذا المحذوف في هاء [أُكُله] .

الزكاة ، وقال الربيع بن أنس : حقُّه : إباحة لقط السنبل ، وقالت طائفة : كان هذا حكم صدقات المسلمين حتى نزلت الزكاة المفروضة فنسختها ، ورُوي هذا عن ابن عباس ، وابن الحنفية ، وإبراهيم ، والحسن ، وقال السدي : الآية في هذه السورة مكية نسختها الزكاة ، فقال له سفيان : عمَّن ؟ قال : عن العلماء [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والنسخ غير مترتب في هذه الآية لأن هذه الآية وآية الزكاة [٢] لا تتعارض ، بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : [حِصادَه] [٣] ، وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [حَصادَه] بفتح الحاء ، وهما لغتان في المصدر .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية . مَنْ قال إن الآية في الزكاة المفروضة جعل هذا النهي عن الإسراف إما للناس عن التَّمَتُّع عن

(١) نقل القرطبي هذا الخبر بالنص التالي (وقال سفيان : سألت السُّدّي عن هذه الآية فقال : نسخها العشر ونصف العشر ، فقلت : عمَّن ؟ قال : عن العلماء) .

(٢) هي قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الآية (٤٣) من سورة (البقرة) .

(٣) أي بكسر الحاء بدليل قوله بعد القراءة الثانية : « بفتح الحاء » وهو هنا يقول : « وهما لغتان في المصدر . » لكن ابن خالويه يقول في كتابه « الحجة في القراءات السبع » : « بفتح الحاء وكسرها فرقا بين الاسم والمصدر على ما قدمنا القول فيه أو على أنهما لغتان ». ومثلُ (حَصاد) في ذلك : الصَّرام والصِّرام والجَذاذُ والجِذاذُ .

أَدائها لأَن ذلك إسراف من الفعل ، وقاله سعيد بن المسيب ، وإِما للولاة عن التَّشطط على الناس والإِذاية لهم ، فذلك إسراف من الفعل ، وقاله ابن زيد ، ومَنْ جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق لما في ذلك من الإِجحاف بالمال وإِضاعته [١] .

وروي أَن الآية نزلت بسبب أَن ثابت بن قيس بن شماس حصل غلة له فقال : «والله لا جاءَني اليوم أَحد إلا أَطعمته» ، فأَمسى وليس عنده ثمرة فنزلت هذه الآية ، وقال أَبو العالية : كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد ثم تباروا فيه وأَسرفوا فنزلت الآية . ومن قال إنها منسوخة ترتب له النهي في وقت حكم الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

[حَمُولَةً] عطف على [جَنَّاتٍ مَعْرُوشَات] ، والتقدير : وأَنشأْنا من الأَنعام حَمولة ، والحَمولة : ما تَحَمَّل الأَثقالَ من الإبل والبقر

(١) الإسراف في النفقة : التبذير ، ويؤكد هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (المُعتدي في الصدقة كمانِعِها) ، وقصة ثابت بن قيس التي ذكرت على أنها سبب نزول الآية تؤيد ذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى).

عند مَن عادته أن يحمِلَ عليها ، والهاءُ في [حَمُولَةً] للمبالغة ، وقال الطبري : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه . والفَرْش : مالا يحمل ثقلا كالغنم وصغار البقر والإبل ، هذا هو المروي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وغيرهم ، يقال له : الفَرْش والفَريش ، وذهب بعض الناس إلى أن تسميته فرشاً إنما هي لوطاءته وأنه مما يمتهن ويتوطأ ويتمكن من التصرف فيه إذا قرب جسمه من الأرض

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الحَمولة : الإبل والخيل والبغال والحمير . ذكره الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية ، ولا مدخل في الآية لغير الأنعام ، وإنما خصت بالذكر من جهة ما شرعت فيها العرب .

وقوله تعالى : ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ نص إباحة وإزالة ما سنَّه الكفار من البحيرة والسائبة وغير ذلك ـ ثم تابع النهي عن تلك السنن بقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهي جمع خطوة[1] ، أي : لا تمشوا في طرقه المضلة ، وقد تقدم في سورة البقرة اختلاف

---

(١) جاء في (اللسان) : « الخُطوة بالضم : ما بيْن القدميْن والجمع خُطْوات وخُطُواتٌ وخُطى ـ والخَطْوة بالفتح : الفعل للمرة الواحدة ، والجمع خَطَوات بالتحريك وخِطاءٌ مثل رَكْوة وركاء » . وقال ابن خالويه في كتابه « الحجة في القراءات السبع » : « الخَطوة بفتح الخاء : الاسم ، وبضمها ، قدرُ ما بيْن قدميك » .

القراء في خطوات [(١)] ، ومن شاذّها قراءة علي رضي الله عنه ، والأعرج ، وعمرو بن عبيد [خُطُؤَات] بضم الخاء والطاء وبالهمزة ، قال أبو الفتح : وذلك جمع خطأة من الخطإ، ومن الشاذ قراءة أبي السمال : [خطوات] بالواو دون همزة ، وهو جمع خُطْوة ، وهي ذرع ما بين قدمي الماشية ، ثم علَّل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم .

وقوله تعالى : [ثَمَانِيَةَ] اختلف في نصبها ــ فقال الأخفش عليٌّ بن سليمان : بفعل مضمر تقديره : كلوا لحم ثمانية أزواج ، فحذف الفعل والمضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : نصب على البدل من [ما] في قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ، وقيل : نصبت على الحال ، وقيل : نصبت على البدل من قوله تعالى : ﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ . وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية . وقال الكسائي : نَصَبَهَا [أَنْشَأَ] . والزوج : الذَّكر ، والزوج : الأُنثى ، كل واحد منهما زوج صاحبه ، وهي أربعة أنواع فتجيءُ ثمانية أزواج .

والضأْن : جمع ضائِنَة وضائِن ، وقرأ طلحة بن مصرف ، وعيسى بن عمر ، والحسن : [مِنَ الضَّأَنِ] بفتح الهمزة ، وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [ومِنَ الْمَعْزِ] بسكون العين ، وهو

---

(١) وذلك عند تفسير الآية رقم (١٦٨) من سورة (البقرة) وهي قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

جمع ماعز وماعزة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [ومِنَ الْمَعَزِ] بفتح العين . فضان ومعْز كراكب وركْب وتاجر وتجْر ، وضان ومعَز كخادم وخَدم ونحوه . وقرأ أبان بن عثمان : [مِنَ الضَّأْن اثْنَانِ] على الابتداء والخبر المقدم ، ويقال في جمع ماعز : مَعْزٌ ومَعَزٌ ومَعيز ومِعْزَى وأُمْعُوز (١).

وقوله تعالى : ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ ، هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله ، أي : لابُدَّ أن يكون حرَّم الذَّكَرين فيلزمكم تحريم جميع الذكور ، أو الأُنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث ، ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ فيلزمكم تحريم الجميع ، وأنتم لم تلتزموا شيئاً مِمَّا يوجبه هذا التقسيم ، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ .

ثم أتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله تعالى : [نَبِّئُوني] أخبروني [بِعِلْمٍ] أي من جهة نبوءَة أو كتاب من كتب الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، و[إِنْ] شرط وجوابه في [نَبِّئُوني] ، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت [إِنْ] لا يظهر لها عمل في الماضي ، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقدم الجواب .

---

(١) ويجمع كذلك على مَوَاعِز ومِعَازٌ ، قال القطامي :

فَصَلَّيْنَا بِهِمْ وسَعَى سِوَانَا ... إلَى الْبَقَرِ الْمُسَيَّبِ والْمِعَازِ

ومن الشواهد على مجيء مَعيز قول امرئ القيس :

وَيَمْنَحُهَا بَنو شَمَجَى بن جَرْمٍ ... مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الْحَنَانِ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) ﴾

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله سبحانه : ﴿مِن الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ، وكأنه قال : أأنتم الذين تدعون أن الله حرَّم خصائص من هذه الأَنعام ، فلا يخلو تحريمه من أَن يكون في الذكرين أَو في الأُنثيين أَو فيما اشتملت عليه أَرحام الأُنثيين ، لكنه لم يحرم لا هذا ولا هذا فلم يبق إلا أَنه لم يقع تحريم .

و قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ . الآية استفهام على جهة التوبيخ ، إذ لم يبق لهم الادعاءُ المحال والتقول أَنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا .

و [شُهَدَاءَ] جمع شهيد ، ثم تضمن قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذكرَ حال مفتري الكذب على الله وتقريرَ إِفراط ظلمه . وقال السدي : كان الذين سيَّبوا وبحَّروا يقولون : الله أَمرنا بهذا ، ثم بين تعالى سوءَ مقصدهم بالافتراءِ ، لأَنه لو افترى أَحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إذا قصد بها إِضلال أُمة . وقد يحتمل أَن تكون اللام في [لِيُضِلَّ] لام صيرورة .

ثم جزم الحكْمَ لا ربَّ غيره بأنه لا يهدي القوم الظالمين ، أي : لا يرشدهم ، وهذا عموم في الظاهر ، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع من أن يهدي ظَلَمة كثيرة بالتوبة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

هذا أمر من الله عزّ وجلّ بأن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أُوحي إليه ، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيءٌ محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . فإن هذه وإن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أن تلحق بالمذكيات لأنها بأسباب وليست حتف الأنف (١) . فلما بيّن النص إلحاقها بالميتة كان زيادة في المحرمات ، ثم نزل النص على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم الحمر بوحي غير معجز ، وبتحريم كل ذي ناب من السباع ، فهذه كلها زيادات في التحريم ، ولفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها صالحة أن تنتهي

(١) يقال : مات حتف أنفه وحتف أنفيْه : مات على فراشه بلا ضرب ولا قتل ، وقد يقال : مات حتف فيه ، وذلك أن العرب كانت تتخيل أن المرء إذا قتل خرج روحه من مقتله ، فإذا مات بلا قتل فقد خرج روحه من أنفه أو من فيه . (المعجم الوسيط)

بالشيءِ المذكور إلى غاية المنع والحظر ، وصالحة بحسب اللغة أَن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها ، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأَولين وأَجمع عليه الكل منهم ولم تضطرب فيه أَلفاظ الأَحاديث وأَمضاه الناس على أَذْلاله[١] وجب بالشرع أَن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحق بالخنزير والميتة ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة أَلفاظ الحديث واختلفت الأُمة فيه مع علمهم بالأَحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام : (كلُّ ذي ناب من السِّباع حرام) [٢] وقد ورد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أَكل كلِّ ذي ناب من السباع [٣] ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز – لهذه الوجوه – لمن ينظر أَن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها . وما اقترنت به قرينة التأْويل كتحريمه عليه الصلاة والسلام لحوم الحمر الإِنسيَّة فتأَول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأَنها نجس ، وتأَول بعضهم ذلك لئلا تفنى حمولة الناس ، وتأَول بعضهم التحريم المحض ،

(١) يقال : أَجْرِ الأمور على أَذْلالها ، وإن قضاء الله ماض على أَذْلاله ، ودَعْه على أَذْلاله ، أي : كما هو – وفي حديث ابن مسعود : (ما من شيءٍ من كتاب الله إلا وقد جاء على أَذْلاله) . والمعنى في ذلك كله أن الأمور جاءت سهلة على مجاريها ومسالكها . ومفرد أَذْلال : ذِل بكسر الذال يقال : الزم ذِلَّ الطريق ، أي السهل المعبد منه ، ولذلك قيل : طريق مُذَلَّل ، أي مُعَبَّد . (أساس البلاغة)

(٢) رواه الإمام أحمد ولفظه : (أَكْلُ كُلِّ ذي ناب من السباع حرام) .

(٣) أخرجه مسلم ، والبخاري ، والترمذي ، وأبو داود في سننه ، ولفظه كما في مسلم : (عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع) ، وفي رواية (وعن كل ذي مخلب من الطير) .

وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهة أو نحوها .

وروي عن ابن عامر أنه قرأ [فيما أَوْحَى إِلَيَّ] بفتح الهمزة والحاء ، وقرأ جمهور الناس : [يَطْعَمه] . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي : [يَطَّعِمُه] بتشديد الطاء وكسر العين . وقرأ محمد بن الحنفية ، وعائشة ، وأصحاب عبد الله : [طَعِمَه] بفعل ماض . وقرأ نافع ، والكسائي ، وأبو عمرو ، وعاصم : [إِلَّا أَنْ يَكُون] بالياء على تقدير : إلا أن يكون المطعوم . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، وأبو عمرو أيضاً : [إِلَّا أَن تَكُونَ] بالتاء من فوق [مَيْتَةً] على تقدير : إلا أن تكون المطعومة . وقرأ ابن عامر وحده — وذكرها مكي عن أبي جعفر — : [إِلَّا أَن تَكُونَ] بالتاء [مِيْتةٌ] بالرفع على أن تجعل [تَكون] بمعنى (تقع) ، ويحتاج — على هذه القراءة — أن يعطف [دَماً] على موضع [أَن تكون] لأنها في موضع نصب بالاستثناء . والمسفوح : الجاري الذي يسيل ، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا فرقاً بين القليل والكثير ، والمسفوح : السائل من الدم والدمع ونحوه ، ومنه قول الشاعر — وهو طرفة — :

إِذَا ما عادَهُ مِنَّـــا نِساءٌ   سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِن بَعْدِ الرَّنِين[1]

---

(١) البيت في ديوانه (طبعة ليدن سنة ١٩١٣) وفيه : (منها) بدلا من (مِنَّا) و (صفحن) بدلا من (سفحن) ، ومعنى (سَفَحْن) أرقْن ، والرنين : البكاءُ بصوت . والحديث عن رجل طعنه بالرمح طعنة قوية وكان يحاول أن يقوم منها فلا يستطيع ، وإذا ما عاده النساء بكين عليه بصوت مرتفع وسفحن الدمع حزناً عليه .

وقول امرئ القيس :

وإِنَّ شِفائي عَبْرَةٌ إنْ سَفَحْتُها وهَلْ عندَ رسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ[١]

فالدمُ المختلط باللحم والدمُ الخارج من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال ، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفو عنه ، وقيل لأَبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال : إنما حرَّم الله المسفوح ، وقالت نحوه عائشة وغيرها ، وعليه إجماع العلماء ، وقيل : الدمُ حرام لأَنه إذا زايل فقد انسفح .

والرجس : النَّتن والحرام ، يوصف بذلك الأَجرام والمعاني كما قال عليه الصلاة والسلام : (دعوها فإِنها مُنْتنة)[٢] الحديث . فكذلك قيل في الأَزلام رجس . والرجس أَيضاً : العذاب لغة بمعنى الرجز ، وقوله تعالى : ﴿أَوْ فِسْقاً﴾ يريد ذبائحهم التي يختصون بها أَصنامهم .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ الآية ، أَباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي ، واختلاف الناس فيم ذا ؟ ـ فقالت فرقة :

(١) العَبْرَةُ : الدَّمْعَة ، وسَفَحْتُها : أَرَقْتُها ، ودَرَسَ : عفَا وذهب أَثرُه . ومِنْ مُعَوَّل : مِنْ مَبْكىً ، مأخوذ من العويل وهو الصياح عند البكاء ، وقد يكون المعنى : مِنْ أَمْرٍ يُعَوَّل عليه ، أي يُعتمد عليه .

(٢) الحديث رواه البخاري في تفسير سورة المنافقين ، وكذلك الترمذي ، ورواه مسلم في البر ، ورواه الإمام أحمد ، ولفظه كما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : (كنا في غزاة . فكَسَع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فسمع ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : : ما بال دعوى جاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال : دعوها فإنها منتنة ... إلخ الحديث وهو طويل) . ـ ومعنى (كَسَع) ضربه بيده في دبره ، ومعنى (مُنْتِنَة) مذمومة في الشرع مُجْتَنَبةٌ مكروهة كما يُجْتنب الشيءُ النَّتِن . (عن ابن الأثير في النهاية) .

دون أن يبغي الإنسان في أكله فيأكل فوق ما يقيم رمقه وينتهي إلى حد الشبع وفوقه . وقالت فرقة : بل دون أن يبغي في أن يكون سفره في قطع طريق أو قتل نفس ، أو يكون تصرفه في معصية ، فإن ذلك لا رخصة له ، وأما من لم يكن بهذه الأحوال فاضطر فله أن يشبع ويتزود ، وهذا مشهور قول مالك بن أنس رحمه الله ، وقال بالأول الذي هو الاقتصار على سدّ الرمق عبد المالك بن حبيب رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إباحة تعطيها قوة اللفظ [1] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

لمَّا ذكر الله تعالى ما حرَّم على أُمة محمد صلى الله عليه وسلم أَعقب ذلك بذكر ما حرَّم على اليهود لِمَا في ذلك من تكذيبهم في قولهم : إن الله لم يحرم علينا شيئاً ، وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

---

(١) اختلف العلماء في الآية الكريمة: ﴿قُلْ لا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إليّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ...﴾ أهي محكمة أم منسوخة ؟ فقيل : هي محكمة ، وعلى هذا فلا شيء محرم من الحيوان إلا فيها ، وليس هذا مذهب الجمهور ، وقيل : هي منسوخة بآية المائدة : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ﴾ وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط ، وقيل : جميع ما حرم داخل في الاستثناء هنا سواء أكان بنص القرآن أو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالاشتراك في العلّة وهي الرجسية .

وقد تقدم القول في سورة البقرة في [هادوا] ومعنى تسميتهم يهودا .

و ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ يراد به الإبل والنعام والأَوز ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأَصابع وله ظفر . وقال أَبو زيد : «المراد الإبل خاصة» . وضعف هذا التخصيص . وذكر النقاش عن ثعلب أَن كل مالا يصيد فهو ذو ظفر ، وما يصيد فهو ذو مخلب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

«وهذا غير مطرد لأَن الأَسد ذو ظفر»[١].

وقرأَ جمهور الناس : [ظُفُر] بضم الظاء والفاء ، وقرأَ الحسن والأَعرج [ظُفْر] بسكون الفاء ، وقرأَ أَبو السمال قعنب [ظِفْر] بكسر الظاء وسكون الفاء .

وأَخبرنا الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إسرائيل ، وهي الشروب[٢] ، والكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية .

واختلف العلماءُ في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود – فحكى ابن المنذر في «الأَشراف» عن مالك وغيره منع أَكل الشحم من ذبائح اليهود ، وهو ظاهر «المدونة» .

---

(١) هذه العبارة كما يفهم من الكلام هنا منسوبة لابن عطية ، لكن أبا حيان في البحر المحيط نسبها للنقاش .

(٢) الشُرُوب : جمع ثَرْبٍ وهو شحم رقيق يُغَشِّي الكَرِشَ والأمعاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على القول في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[1] بأنه المطعوم من ذبائحهم ، وأما مالا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدم في ذبائح المسلمين ، وعلى هذا القول يجيءُ قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأرنب : إنه لا يُؤْكل .

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون تحريم ، وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أن يجعل قوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[1] يراد به الذبائح ، فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإباحة، وهذا قول ضعيف لأنه جرَّد لفظه [طَعَام] من معنى أن تكون «مطعوما» لأهل الكتاب وخلَّصها لمعنى «الذبح» ، وذلك حرجٌ لا يتوجه .

وأما الطريق[2] فحرمه قوم ، وكرهه قوم ، وأباحه قوم ، وحلله مالك في «المدونة» ثم رجع إلى منعه . وقال ابن حبيب : ما كان

(١) من الآية (٥) من سورة (المائدة) .

(٢) الطَّريق : من قولهم : طرَّقت المرأة والناقة : نَشِبَ ولدها في بطنها ولم يسهل خروجه ، قال أوس بن حجر :

لَهَا صَرْخَةٌ ثمَّ إسْكَاتَةٌ   كما طرَّقت بنفاسٍ بِكْرُ

وقال الليث : كل حامل تُطَرِّق إذا خرج من الولد نصفه ثم نَشِبَ فيقال : طَرَّقت ثم خلصت .

محرماً عليهم وعَلِمْنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم ، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب ونحوه ، قال السدي ، وأبو صالح : الأَلَيَات[١] مما حملت ظهورهما . [أَوِ الْحَوَايَا] قال : هو جمع حَوِيَّة على وزن فعيلة ، فوزن (حَوَايَا) على هذا فعائل كسفينة وسفائن . وقيل : هو جمع حاوية على وزن فاعلة ، ف (حَوَايَا) على هذا فواعل كضاربة وضوارب . وقيل : جمع حاوياءُ فوزنها على هذا أَيضاً فواعل كقاصعاءٍ وقواصع ، وأَما الحوايا على الوزن الأَول فأَصلها حَوَائِـي فقلبت الياءُ الأَخيرة أَلفاً فانْفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياءً ، وأَما على الوزنين الأَخيرين فأَصل [حَوَايَا] حواوي ، وبدلت الواو الثانية همزة . والحويَّة : ما تَحَوَّى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما . وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن عباس ، والسدي ، وابن زيد : [الْحَوايا] : المباعر[٢] ، وقال بعضهم : هي المرابط التي تكون فيها الأَمعاءُ وهي بنات اللبن[٣] .

---

(١) جمع أَلْيَة بفتح الهمزة وهي العجيزة للإنسان وغيره ، أَلْيَة الشاة وأَلْيَة الإنسان ، وفي الحديث (كانوا يَجْتَبُّونَ أَلَيَاتِ الغَنَم أَحْيَاءً) . وقيل: الأَلْيَةُ : هي ما ركب العجز من اللحم والشَّحْم . (اللسان) .

(٢) جمع مَبْعَر ، سمي بذلك لاجتماع البعْر فيه ، والبَعْر هو الزِّبل .

(٣) يريد : خزائن اللبن ومصادره التي يتجمع فيها قبل الحلب .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد في سائر الشخص .

و [الْحَوَايَا] معطوف على [ما] في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾، فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناء . وقال الكسائي : [الْحَوَايَا] معطوف على (الظهور) كأنه قال : إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وقال بعض الناس : [الْحَوَايَا] معطوف على (الشحوم) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا تدخل [الحوايا] في التحريم ، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه .(١)

وقوله تعالى : ﴿ذٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ . [ذَلِكَ] في موضع رفع ، و﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم واستعصائهم على الأنبياء ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم : «ما حرّم الله علينا شيئاً وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرّم على نفسه» ويتضمن إدحاض قولهم وَرَدَّه عليهم .

---

(١) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم علّق عليه بقوله : « ولم يبين دفع اللفظ والمعنى لهذا القول » مما يوحي بعدم الموافقة على كلام ابن عطية .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

يريد : فإن كذبوك فيما أَخبرت به أَن الله حرمه عليهم وقالوا : لم يحرم الله علينا شيئاً ، وإنما حرمنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه . قال السدي : وهذه كانت مقالتهم ، فقل يا محمد على جهة التعجب من حالهم والتعظيم لِفِرْيَتهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت : ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ، إذْ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جُرمكم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كما تقول عند روْية معصية أَو أَمر مبغي : ما أَحلم الله ، وأَنت تريد : لإمهاله على مثل ذلك . ففي قوله : ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان .

ثم أَعقب هذه المقالة بِوَعِيدٍ في قوله تعالى : ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فكأَنه قال : ولا تغتروا أَيضاً بسعة رحمته فإن له بأْساً لا يُردُّ عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفِعٌ حُكْمُه بالقتال . وأَخبر الله عزَّ وجلَّ

نبيه عليه الصلاة والسلام أن المشركين سيَحْتَجُّونَ لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأشياء بإمهال الله تعالى وتقريره حالهم ، وأنه لو شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبيَّنَ أن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه لأنَّا نحن نقول : إن الله عزَّ وجلَّ لو شاء ما أشركوا ، ولكنه عزَّ وجلَّ شاء إشراكهم ، وأقدرهم على اكتساب الإشراك والمعاصي ومحبته[1] والاشتغال به ، ثم علق العقاب والثواب على تلك الأشياء والاكتسابات وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن في قوله تعالى : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] ، ونحو ذلك . ويلزمهم على احتجاجهم أن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً ، إذْ كلها لو شاء الله لم تكن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال بعض المفسرين : إنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاء . وهذا ضعيف .

وتعلَّقت المعتزلة بهذه الآية فقالت : إن الله قد ذمّ لهم هذه المقالة ، وإنما ذمَّها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله تعالى ، بل هو خلق لهم .

---

(١) الضمير في (محبته) يعود على (الإشراك) .

(٢) تكررت في الآيتين (٨٢) و (٩٥) من سورة (التوبة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس الأمر على ما قالوا ، وإنما ذم الله تعالى ظن المشركين أنما شاءَ الله لا يقع عليه عقاب ، وأما أنه ذمَّ قولهم : «لولا المشيئة لم نكفر» ، فَلَا .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ، وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام ، كأنه قال : سيقول المشركون كذا وكذا ، وليس في ذلك حجة لهم ، ولا شيءَ يقتضي تكذيبك ، ولكن كذلك كذب الذين من قبلهم بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم .

وفي قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وعيد بيِّن ، وليس في الآية ردٌّ منصوص على قولهم :﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ ، وإنما تُرِك الردُّ عليهم مقدرا في الكلام لوضوحه وبيانه . وقوله تعالى : ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المرفوع في [أَشْرَكْنَا] ، والعطف على الضمير المرفوع لا يردُّه قياس ، بخلاف المنصوب ، لكن سيبويه قد قبح العطف على الضمير المرفوع ، ووَجْه قبحه أنه لما بني الفعل صار كحرف من الفعل فَقَبُح العطف عليه لشبهه بالحرف ، وذلك كقولك : «قمت وزيد» ، لأَن تأْكيده فيه يبين معنى الاسمية ويذهب عنه شبه الحرف ، وحسن عند سيبويه العطف في قوله تعالى : ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ لما طال الكلام بِ [لَا] فكأَن معنى الاسمية اتضح واقتضت [لَا] ما يعطف بعدها [1] .

---

(١) البصريون لا يجيزون العطف على الضمير المرفوع إلا بالفصل ، وقد جاء الفصل هنا بـ (لا) ويستثنون من ذلك الشعر فيجيزون فيه ذلك بدون فصل ، أما الكوفيون فيجيزون ذلك=

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ الآية . المعنى : قل يا محمد للكفرة : هل عندكم من علم من قِبَلِ الله فتبينوه حتى تقوم به الحجة . و [مِنْ] في قوله تعالى : [مِنْ عِلْمٍ] زائدة مؤكدة ، وجاءت زيادتها لأَن الاستفهام داخل في غير الواجب . ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أَي : لا شيءَ عندكم إلا الظن ، وهو أَكذب الحديث .

وقرأَ جمهور الناس : [تَتَّبِعون] على المخاطبة ، وقرأَ إبراهيم النخعي ، وابن وثاب : [إِنْ يَتَّبعون] بالياءِ حكاية عنهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهي قراءَة شاذة يضعفها قوله تعالى : [وَإِنْ أَنتُمْ] ، و [تَخْرُصُونَ] معناه : تقدرون وتظنون وترجمون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ثم أَعقب تعالى أَمره نبيَّه صلى الله عليه وسلم بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأَمره إياه بأَن يقول مبيِّناً مفصحاً : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ

= في كل الأحوال وهو عندهم فصيح ، وقد جاء الفصل في سورة النحل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنَا ﴾ فقال سبحانه [مِنْ دُونِهِ] ، وقال [نَحْنُ] فأَكَّد بالضمير . قاله أبو حيان في البحر المحيط»

الْبَالِغَةُ﴾ ، يريد : البالغة غاية المقصد في الأَمر الذي يحتج فيه ، ثم أَعلم بأَنه لو شاءَ لهدى العالم بأَسره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم : إن الهداية والإِيمان إنما هي من العبد لا من الله ، فإن قالوا : معنى [لَهَدَاكُمْ] لاضطركم إلى الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أَن الإِيمان الذي يريده الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد ، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده .

و (هَلُمَّ) معناها : هات ، وهي حينئذ متعدية ، وقد تكون بمعنى : أَقْبِل فهي حينئذ لا تتعدى ، وبعض العرب يجعلها إسماً للفعل ك (رويدك) فيخاطب بها الواحد والجميع والمذكر والمؤنث على حدّ واحد ، وبعض العرب يجعلها فعلا فيركب عليها الضمائر فيقول : هلُمّ يا زيد ، وهلُمُّوا أَيها الناس ، وهلُمِّي يا هند ، ونحو هذا ، وذكر اللغتين أَبو علي في الأَغفال ، وقال أَبو عبيدة : اللغة الأُولى لأَهل العالية ، واللغة الثانية لأَهل نجد ، وقال سيبويه والخليل : أَصلها : هالُمّ ، وقال بعضهم : أَصلها : هالْمُمْ وحذفت الأَلف لالتقاءِ الساكنين فجاءَ هلْمُم ، فحذف من قال أَصلها : هالُمّ ، وأَدغم من قال أَصلها هالْمُمْ على غير قياس .

ومعنى هذه الآية : قل هاتوا شهداءَكم على تحريم الله ما زعمتم أَنه حرَّمه ، ثم قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي:

فإن افترى لهم أحد وزوّر شهادة أو خبرا عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم . وفي قوله تعالى : ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾[1] يريد : لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على أقوالهم ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على نعت كما تقول : جاءني زيد الكريم والعاقل ، هذا مذهب معظم الناس . وقال النقاش : نزلت في الدهرية من الزنادقة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أنداداً يُسوونهم به ، وإن كانت في الزنادقة فعَدْلُهم غير هـذا .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

هذا أمر من الله عزّ وجلّ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر .

(١) العطف في هذه الآية يدل على مغايرة الذوات . ويحتمل أن يكون بسبب تغاير الصفات والموصوف واحد ، وهو رأي أكثر الناس .

و [تَعَالَوا] معناه : أَقْبِلُوا ، وأَصله من العلوّ ، فكأَن الدعاءَ لما كان أَمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعوّ[1] ، وتعالى هو مطاوع عالى ، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل .

و [أَتْلُ] معناه : أَسْرد وأَنص من التلاوة التي هي إتباع بعض الحروف بعضاً ، و [مَا] نصب بقوله تعالى : [أَتْلُ] ، وهي بمعنى الذي ، وقال الزجاج : يجوز أَن يكون قوله تعالى [أَتْلُ] معلَّقاً عن العمل و [مَا] نصب بـ [حَرَّم] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قَلِقٌ .

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ يصح أَن تكون في موضع رفع بالابتداء والتقدير : الأَمر أَن ، أَو : ذلك أَن . ويصح أَن تكون في موضع نصب على البدل من [مَا] ، قاله مكي وغيره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى يبطله فتأَمله .

ويصح أَن تكون مفعولا من أَجله ، والتقدير : إرادة أَن لا تشركوا به شيئاً ، إلا أَن هذا التقدير يُخرج ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ من المتلُوِّ ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات .

---

(١) قال ابن الشجري : « جعلوا التقدم ضرباً من العلوّ والارتفاع لأن المأمور بالتقدم في أصل وضع الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له : تعال ، أي ارفع شخصك بالقيام وتقدم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي » ، قارن هذا بالتعليل الذي ذكره ابن عطية .

و [تُشْرِكُوا] يصح أن يكون منصوباً بـ [أَنْ] ، ويتوجه أن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود . و (أَنْ) قد توصل بما نصبته ، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأمر والنهي ، و [شَيْئاً] عام يراد به كل معبود من دون الله .

و [إِحْسَاناً] نصب على المصدر ، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

والمحرمات تنفكُّ من هذه المذكورات بالمعنى وهي : الإشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس .

وقال كعب الأحبار : هذه الآيات مفتتح التوراة (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى آخر الآية . وقال ابن عباس : هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملَّة ، وقد قيل : إنها العشر الكلمات المنزَّلة على موسى عليه السلام .

وإن اعترض من قال إنَّ [تُشْرِكوا] منصوب بـ [أَنْ] بعطف المجزومات عليه فذلك موجود في كلام العرب ، وأنشد الطبري حجة لذلك :

حَجَّ وأَوْصَى بِسُلَيْمى الأَعْبُدا أَنْ لا تَرى ولَا تُكَلِّمْ أَحَداً
ولا يَزَلْ شَرابُها مُبَرَّدَا (١)

(١) هذه الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز ، ولم نعثر فيما لدينا من المراجع على قائلها ، والشاهد فيها أن (لا) في قوله : (أن لا ترى) نافية ومع ذلك فقد عطف الشاعر عليها الفعل مجزوماً بلا الناهية في قوله : (ولا تُكَلِّمْ) وفي قوله : (ولا يَزَلْ) .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الآية ؛ نهيٌ عن عادة العرب في وأدِ البنات ، والولد يعُمّ الذكر والأُنثى من البنين . والإملاق : الفقر وعدم المال . قاله ابن عباس وغيره ، يقال: أَمْلق الرجل إذا افتقر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يكون معناه : أَمْلَق أي : لم يبق له إلا الْمَلَق ، كما قالوا : أَتْرَبَ إذا لم يبق له إلا التُّراب ، وأَرْمَلَ إذا لم يبق له إلا الرمل . والْمَلَق : الحجارة السود واحدته : مَلَقَة ، وذَكَرَ منذر بن سعيد [1] أن الإملاق : الإنفاق ، ويقال : أَمْلَق ماله بمعنى أنفقه ، وذُكِرَ أن عَلِيًّا قال لامرأة : أَمْلقي من مالك ما شئْتِ ، وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق ، وحكى أيضاً النقاشُ عن مُؤَرِّجٍ أنه قال : الإملاق : الجوع بلغة لخم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي . و [ظَهَرَ] و [بَطَنَ] حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء ، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات ، فقال السدي ، وابن

---

(١) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْزى القرطبي — أبو الحكم البلوطي — قاضي قضاة الأندلس في عصره ، كان بصيراً بالجدل منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام ، له كتب في القرآن والسُّنة منها : « أحكام القرآن » و « الإبانة عن حقائق أصول الديانة » — و « الناسخ والمنسوخ » . (الكامل لابن الأثير . ونفح الطيب ، وبغية الملتمس) .

عباس رضي الله عنهما : [مَا ظَهَرَ] هو زنى الحوانيت الشهير ، و [مَا بَطَن] هو متخذات الأخدان ، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرَّم الله الجميع ، وقال مجاهد : [ما ظَهَرَ] هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك ، و [ما بَطَنَ] هو الزنى ، إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة ، بل هو دعوى مجردة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة ، ومعنى الآية : ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب قتلها ، وقد بيَّنته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنى بعد الإحصان والحرابة وما تشعب من ذلك .

و [ذَلِكُمْ] إشارة إلى هذه المحرمات ، والوصيَّة : الأمر المؤكد المقرر ، ومنه قول الشاعر :

أَجِدَّكَ لمْ تَسْمَعْ وَصاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الإلٰه حِينَ أَوْصَى وأَشْهَدَا (١)

وقوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ] ترَجٍّ بالإضافة إلينا ، أي من سمع هذه الوصيَّة ترجَّى وقوع أثر العقل بعدها وتمييز المنافع والمضار في الدين .

---

(١) البيت لميمون بن قيس الأعشى ، وهو من قصيدته المعروفة الّتي قالها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ ما عَادَ السَّلِيمَ المُسَهَّدَا

وقوله : (أَجِدَّك) معناه : أهذا جِدٌّ منك ؟ والوَصَاةُ والوصيَّة : ما يُوصى به ويُطْلَب تنفيذه على جهة الفرض والتأكيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف ، وفيه سدّ الذريعة ، ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه . قال مجاهد : التي هي أحسن : التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به ، فالأَحسن – إذا ثمر مال اليتيم – أَلَّا يأْخذ منه نفقة ولا أُجرة ولا غيرها . ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأَن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر ، فالأَحسن أَن ينظر ويأْكل بالمعروف . قاله ابن زيد .

والأَشُدّ : جمع شَدٍّ ، وجمع شدَّةٍ[1] ، وهو هنا الحزم والنظر في الأُمور وحسن التصرف فيها .

---

(١) الأَشُدّ : مبلغ الرجل في الحنكة والمعرفة ، قال أبو عبيد : واحدها شدّ في القياس ولم أسمع لها بواحدة ، وقال سيبويه : واحدها شِدَّة كنِعْمَة وأَنْعُم ، وقال ابن جني : إنه جمع لا واحد له من لفظه ، وقال السيرافي : القياس : شَدٌّ وأَشُدّ مثل قَدٌّ وأَقُدّ . (عن لسان العرب) .

وقد قيل : إن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأَشُدّ كما قال سُحَيْم بن وثيل :

أَخُو خمسينَ مُجْتَمِعٌ أَشُدِّي ونجّذني مُداوَرَةُ الشُّؤون

ولكن هذا المعنى لا يستقيم هنا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس هذا بالأَشُدّ المقرون ببلوغ الأَربعين ، بل هذا يكون مع صغر السنّ في ناس كثير ، وتلك الأَشد هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون ، وقال ربيعة ، والشعبي ، ومالك فيما روي عنه ، وأَبو حنيفة : بلوغ الأَشد : البلوغ مع أَلَّا يثبت سفه ، وقال السدي : الأَشُدّ : ثلاثون سنة ، وقالت فرقة : ثلاثة وثلاثون سنة ، وحكى الزجاج عن فرقة : ثماني عشرة سنة وضعَّفه ورجح البلوغ مع الرشد ، وحكى النقاش أَن الأَشد هنا من خمس عشرة إلى ثلاثين . والفقه مارجَّح الزجاج وهو قول مالك رحمه الله : الرشد وزوال السَّفَه مع البلوغ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا أَصح الأَقوال وأَليقها بهذا الموضع .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ والْمِيزَانَ﴾ الآية أَمر بالاعتدال في الأَخذ والإِعطاءِ ، والقسط : العدل ، وقوله سبحانه : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقتضي أَن هذه الأَوامر إِنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز ، لا أَنه مُطالب بغاية العدل في نفس الشيءِ المتصرف فيه . قال الطبري : لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائداً يتكلف أَيضاً مثل ذلك ؛ رفع الله عزَّ وجلَّ الأَمر بالمعادلة حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك ، أي : ولو كان ميل الحق على قراباتكم .

وقوله تعالى : ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ﴾ يحتمل أن يراد جميع ما عهده الله إلى عباده ، ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين ويضاف إلى ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به. وقوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ] ترَجٍّ بحسبنا .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [تَذَّكَّرُون] بتشديد الذال والكاف جميعاً ، وكذلك [يَذَّكَّرون] و [يَذَّكَّر الإِنْسَانُ] [١] وما جرى من ذلك مشدَّدا كله ، وقرأ نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر ، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إلا قوله تعالى: ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ﴾ فإنهم خففوها ، وروى أبان ، وحفص عن عاصم [تَذْكُرون] خفيفة الذال في كل القرآن ، وقرأ حمزة والكسائي : [تَذَكَّرون] بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاء وإذا كان بالياء قرآه بالتشديد ، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان : [لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُر] [٢] بسكون الذال وتخفيف الكاف ، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة (مريم) : ﴿أَوَ لا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ .

(٢) من قوله تعالى في الآية : (٦٢) من سورة (الفرقان): ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بجملته . وقال الطبري : الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : [وَأَنَّ هَذَا] بفتح الهمزة وتشديد النون [صِراطِـي] ساكن الياء ، وقرأ حمزة والكسائي : [وَإِنَّ] بكسر الألف وتشديد النون ، وقرأ عبد الله بن أبي إسحٰق ، وابن عامر من السبعة : [وأَنْ] بفتح الهمزة وسكون النون [صراطيَ] مفتوح الياء ، فأَمَّا مَن فتح الأَلف فالمعنى عنده كأَنه قال : «ولأَن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»[١] ، أَي : «اتبعوه لكونه كذا» ، وتكون الواو ــ على هذا ــ إنما عطفت جملة على جملة ، ويصح غير هذا أَن يعطف على ﴿أَنْ لا تُشْرِكُوا﴾ ، وكأَن المحرم من هذا اتباع السبل والتنكيب عن الصراط الأَقوم . ومَن قرأَ بتخفيف النون عطف على قوله تعالى : ﴿أَنْ لا تُشْرِكُوا﴾ ، ومذهب سيبويه أَنها المخففة من الثقيلة ، وأَن التقدير : «وأَنه هذا صراطي» . ومَن قرأَ بكسر الأَلف وتشديد

(١) ومثلها قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ﴾ أي : لا تدعوا مع الله أحداً لأن المساجد لله .

النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول ، وفي مصحف ابن مسعود : «وهذا صراطي» بحذف «أن» .

وقال ابن مسعود : إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتتشعب منه طرق ، فمن سلك الجادَّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار (١) ، وقال أيضاً : خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطا ، فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً ، فقال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية تَعُمّ أهل الأهواءِ والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوءِ المعتقد .

وتقدم القول في [ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ] وفي قوله : [لَعَلَّكُمْ] ، ومن حيث كانت المحرمات الأُول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءَت

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أبان . (تفسير القرطبي) .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه — عن ابن مسعود . ونصه : «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السُّبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . وأخرج أحمد،وابن ماجه ، وغيرهما مثله عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور) .

العبارة : [لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] ، والمحرمات الأُخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر جاءت العبارة : [لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] ، ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى جاءت العبارة : [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

[ثُمَّ] في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أُمر به محمد صلى الله عليه وسلم ، كأَنه قال : «ثم مما وصيناه أَنا آتينا موسى الكتاب» ، ويدعو إلى ذلك أَن موسى عليه السلام متقدم في الزمان على محمد صلى الله عليه وسلم وتلاوته ما حرَّم الله .[1] و [ٱلْكِتَابَ] : التوراة ، و [تَمَاماً] نصب على المصدر .

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ مُخْتَلف في معناه ـ فقالت فرقة : [الَّذِي] بمعنى : الَّذين ، و [أَحْسَنَ] فعل ماض صلة (الذين) ، وكأَن الكلام : «وآتينا موسى الكتاب تفضلا على المحسنين من أَهل ملَّته

(١) هذا تعليل ابن عطية لاستعمال « ثم » التي تفيد الترتيب والتراخي في هذا الموضع ، وهناك آراءٌ كثيرة ذكرها أبو حيان في « البحر المحيط » ثم قال : « وهذه الأقوال كلها مُتَكَلَّفَة ، والذي ينبغي أن يُذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهملة » . وخلاصة تعليل ابن عطية أن « ثُمَّ » هنا لترتيب القول لا لترتيب الزمن والمهلة فيه .

وإتماماً للنعمة عندهم » . هذا تأْويل مجاهد ، وفي مصحف عبد الله : «تماماً على الَّذين أَحْسَنوا» فهذا يؤيد ذلك التأْويل . وقالت فرقة : [الَّذي] غير موصولة والمعنى : «تماماً على ما أَحْسَن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأُمور نبوته» ، يريد موسى عليه السلام ، وهذا تأْويل الربيع وقتادة ، وقالت فرقة : المعنى : [تَمَاماً] أَي تفضُّلا وإكمالا على الذي أَحسن الله فيه إلى عباده من النبوات والنعم وغير ذلك ، فـ [الَّذي] أَيضاً في هذا التأْويل غير موصولة ، وهذا تأْويل ابن زيد .

وقرأَ يحيى بن يَعْمر ، وابن أَبي إسحٰق : ﴿تَماماً عَلَى الَّذي أَحْسَنُ﴾ بضم النون ، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : «على الذي هو أَحسن» . وضعَّف أَبو الفتح هذه القراءَة لقبح حذف المبتدإ العائد . وقال بعض نحويي الكوفة : يصح أَن يكون [أَحسن] صفة لِـ [الَّذي] من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الأَلف واللام ، كما تقول العرب : «مررتُ بالذي خير منك ، » ولا يجوز «بالذي عالم» ، وخطَّأَ الزجاج هذا القول الكوفي ، و [تَفْصيلاً] يريد : بياناً وتقسيماً . و [لَعَلَّهُمْ] ترَجٍّ بالإضافة إلى البشَر ، و [بِلِقَاءِ رَبِّهم] أَي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأَنبياء صلوات الله عليهم ، إذ لا تلزمه العقول بذواتها ، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

[هَذَا] إشارة إلى القرآن ، و [مُبَارَكٌ] [١] وصف بما فيه من التوسعات وإزالة أَحكام الجاهلية وتحريماتها ، وجمع كلمة العرب ووَحدَة أَيدي متَّبعيه ، وفتْح الله على المؤمنين به ، ومعناه : مُنَمًّى خيره مُكَثَّر ، والبَرَكة : الزيادة والنمو . و [فَاتَّبِعوهُ] دعاءٌ إلى الدين ، [وَاتَّقُوا] الأَظهر فيه أنه أَمر بالتقوى العامة في جميع الأَشياءِ بقرينة قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

و [أَنْ] من قوله تعالى : [أَنْ تَقُولُوا] في موضع نصب ، والعامل فيه [أَنْزَلْنَاهُ] ، والتقدير : «وهذا كتاب أَنزلناه كراهية أَنْ» ،

(١) قال أبو حيان في «البحر» : «[أَنْزَلْنَاهُ] و [مُبَارَكٌ] صفتان لـ [كِتَاب]، وكان الوصف بالإنزال آكد من الوصف بالبركة فقدم ، لأن الكلام مع من ينكر رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وينكر إنزال الكتب الإلهية وكونه مباركاً عليهم هو وصف حاصل لهم منه متراخٍ عن الإنزال ، فلذلك تأخر الوصف بالبركة وتقدم الوصف بالإنزال ، وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة [أَنْزَلْنَا] أولى من الوصف بالاسم [مُبارَك] لما يدل عليه الإسناد إلى الله تبارك وتعالى من التعظيم والتشريف ، وليس ذلك في الاسم لو كان التركيب (مُنَزَّل) أو (مُنَزَّلٌ مِنَّا) . (البحر ٤ـ٢٥٦) .

وهذا أَصح الأَقوال وأضبطها للمعنى المقصود ، وقيل : العامل في [أَنْ] قوله تعالى : [وَاتَّقُوا] فكأَنه قال : «واتقوا أَن تقولوا» ، وهذا تأْويل يتخرج على معنى : واتقوا أَن تقولوا كذا لأَنه لا حجة لكم فيه ، ولكن يعرض فيه قَلَق لقوله تعالى أَثناءَ ذلك : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ، وفي التأْويل الأَول يتّسق نظم الآية .

والطائفتان : اليهود والنصارى بإجماع من المتأَولين ، والدراسة : القراءَة والتعلم بها ، و [إِنْ] في قوله تعالى : [وَإِنْ كُنَّا] مخففة من الثقيلة ، واللام في قوله تعالى : [لَغَافِلِينَ] لام توكيد . هذا مذهب البصريين ، وحكى سيبويه عن بعض العرب أَنهم يخففونها ويُبقونها على عملها ، ومنه قراءَة بعض أَهل المدينة : [وإِنْ كُلاًّ][1] ، وأَما المشهور فإِنها إِذا خففت ترجع حرف ابتداءٍ ولا تعمل . وأَما على مذهب الكوفيين ف [إِنْ] في هذه الآية بمعنى (ما) النافية ، واللام بمعنى (إلا) ، فكأَنه قال : «وما كنا عن دراستهم إِلَّا غافلين» .[2]

---

(١) من الآية (١١١) من سورة (هود) وهي قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

(٢) قال الزمخشري : [وَإِنْ كُنَّا] هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والأصل : «وإن كنا عن دراستهم غافلين» على أن الهاء ضمير . واعترض على ذلك أبو حيان في «البحر المحيط» بما يفند كلامه فارجع إليه إن شئت ، وقال قطرب في مثل هذا التركيب : «(إنْ) بمعنى (قد) واللام زائدة» وكأن الكلام ــ على قوله ــ : «وقد كنا عن دراستهم غافلين» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب ، فكأنه قال : وهذا القرآن يا معشر العرب أُنزل حجة عليكم لئلا تقولوا : إنما أُنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا ، ونحن لم نعرف ذلك ، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم .

وقوله تعالى : [أَوْ تَقُولُوا] جملة معطوفة على الجملة الأُولى ، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أُنزلت على غيرهم ، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع ، وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم ، فقيل لهم : قد جاءكم بيان من الله وهدى ورحمة .

ولما تقرر أن البيِّنة قد جاءت والحجة قد قامت حَسُن - بعد ذلك - أن يقع التقرير بقوله تعالى : فَمَنْ أشد ظلماً ممن كذب بهذه الآيات البيِّنات .

[وَصَدَفَ] معناه : حاد وراغ وأعرض . وقرأ يحيى بن وثاب ، وابن أبي عبلة : [كَذَبَ] بتخفيف الذال . والجمهور [كذَّب] بتشديد الذال ، و [سَنَجْزِي الَّذينَ] وعيد ، وقرأت فرقة [يَصْدِفُونَ] بكسر الدال ، وقرأت فرقة [يصْدُفون] بضم الدال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

الضمير في [يَنْظُرُونَ] هو للطائفة التي قيل لها قَبْلُ: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ، وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم ، و [يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون . و [ٱلْمَلَائِكَةُ] هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح ، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج . ويحتمل أن يريد الملائكة الذين يتصرفون في قيام الساعة ، وقرأ حمزة والكسائي : [إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ] بالياء ، وقرأ الباقون : [تَأْتِيَهُمْ] بالتاء من فوق .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الطبري : لموقف الحساب يوم القيامة ، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين . وحكى الزجّاج أن المراد بقوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي العذاب الذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاءُ من عباده كالصيحات والرجفات والخسف ونحوه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الكلام على كل تأْويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره : أمر ربك ، أو بطش ربك ، أو حساب ربك ، وإلا فالإتْيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى ، ألا ترى أن الله تعالى يقول :

﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[1] ، فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ، أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراط الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله ، لكن لما قال بعد ذلك : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾ وبيَّنَت الآثار الصحاح في البخاري ومسلم أن الآية التي معها هذا الشرط هي طلوع الشمس من المغرب قَوي أن الإشارة بقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من مغربها . وقال بهذا التأويل مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم ، ويقوى أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة الإنسان عند الموت أو ما يكون في مثابتها لمن لم يغرغر ، ففي الحديث أن توبة العبد تقبل ما لم يغرغر[2] ، وهذا إجماع لأن من غرغر وعاين فهو في عداد الموتى ، وكون المرء في هذه الحالة من آيات الله تعالى ، وهذا على من يرى الملائكة المتصرفين في قيام الساعة .

---

(١) من الآية (٢) من سورة (الحشر) .

(٢) الحديث بلفظ (إن الله عزَّ وجلَّ ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر) أخرجه الترمذي في الدعوات ، وابن ماجة في الزهد ، والإمام أحمد في أكثر من موضع . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) . ومعنى يغرغر : تبلغ روحه رأس حلقه . قاله القرطبي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأَحوال لا يخلون منها ، كأَنه قال : هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أَشد العذاب ، والأَخذات المعهودة لله عزَّ وجلَّ ، أَو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويصح أَن يريد بقوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يقطع بوقوعه من أَشراط الساعة ، ثم خصص – بعد ذلك – بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترفع التوبة معها . وقد بيَّنت الأَحاديث أَنها طلوع الشمس من مغربها(١) .

وقرأَ زهير الفُرْقِي(٢) : [يَوْمُ يَأْتِي] بالرفع ، وهو على الابتداء والخبر في الجملة التي هي : [لَا يَنْفَعُ] إلى آخر الآية ، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام ، وقرأَ ابن سيرين ، وعبد الله بن عمرو ، وأَبو العالية : [لَا تَنْفَعُ] بتاءٍ ، وأُنث الإِيمان لما أُضيف إلى مؤَنث ، أَو لما نُزِّل منزلة التوبة ، وقال جمهور أَهل التأْويل كما تقدم :

(١) منها ما رواه أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه – عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قال : (طلوع الشمس من مغربها) ، وأخرج مثله الطبراني ، وابن عدي ، وابن مردويه – عن أبي هريرة ، والأحاديث في ذلك كثيرة .

(٢) زهير الفُرقي بضم الفاء وسكون الراء – يعرف بالنحوي ، وقيل له : الفرقي لأنه كان يتاجر إلى ناحية فُرْقب ، له اختيار في القراءة وكان في زمن عاصم . مات سنة ١٥٦ ، وقيل : ١٥٥ (راجع طبقات القراء) .

الآية التي لا تنفع التوبة من الشِّرك أَو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب . وروي عن ابن مسعود أَنها إحدى ثلاث ، إما طلوع الشمس من مغربها ، وإما خروج الدابة ، وإما خروج يأْجوج ومأْجوج [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا فيه نظر لأَن الأَحاديث تردُّه وتُخصِّص الشمس ، ورُوي في الحديث (أَن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش وتستأْذن فيؤذن لها في الطلوع من المشرق ، وحتى إذا أَراد الله عزَّ وجلَّ سدَّ باب التوبة أَمرها بالطلوع من مغربها) [٢] . قال ابن مسعود وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : (فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين) [٣] ، ويقوي النظر أَيضاً أَن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة .

---

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ إذا خرجْن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدجّال ودابة الأرض) .

(٢) أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، ومسلم ، وعبد بن حميد ، وغيرهم — عن عبد الله ابن عمرو قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها ، ثم قال عبد الله — وكان قد قرأ الكتب — وأظن أولهما خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وذلك أنها كلما خرجت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع — إلى آخر الحديث وهو طويل . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والطبراني — عن ابن مسعود . (الدر المنثور) .

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ يريد جميع أعمال البر فرضها ونفلها ، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين ، كما أن قوله تبارك وتعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ هو للكفار . والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين . وقرأ أبو هريرة : «أَوْ كسبَتْ في إيمانِهَا صالحاً»

وقوله تعالى : [قُلِ ٱنْتَظِرُوا] الآية يتضمن الوعيد ، أي : فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أخبر به .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قال ابن عباس ، والصحابة ، وقتادة : المراد بـ [ٱلَّذين] اليهود والنصارى ، أي : فرقوا دين إبراهيم الحنيفية . وأُضيف الدين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد ، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه . ووصفهم بالشِّيع إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات ، ففي الآية حض لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم على الائتلاف وقلة الاختلاف . وقال الأَحوص[1] وأُم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : الآية في أهل البدع والأَهواء والفتن ومن جرى

(١) الأحوص بن مسعود بن كعب بن عامر بن عديّ الأنصاري أخو حُويّصة ومحيّصة ، ذكره العدوي في أنساب الأنصار ، وقال : شهد أُحداً وما بعدها ، استدركه ابن فتحون . وهناك الأحوص بن عبد بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . مختلف في صحبته . والأقرب إلى الصواب أن المراد هو الأول . (الإصابة) .

مجراهم من أُمة محمد عليه الصلاة والسلام ، أَي : فرقوا دين الإِسلام . وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وحمزة ، والكسائي : [فارقُوا] ومعناه : تركوا ، ثم بيَّن قوله : [وَكَانُوا شِيَعاً] أَنهم فرقوه أَيضاً ، والشِّيَع : جمع شيعة وهي الفرقة على مقصد ما يتشايعون عليه .

وقوله تعالى : ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أَي : لا تشفع لهم ، ولا لهم بك تعلق ، وهذا على الإِطلاق في الكفار ، وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع ، لأَنهم لهم حظ في تفريق الدين .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض ، والقرينة المتقدمة تقتضي أَن [أَمْرهم إلى الله] فيه وعيد ، كما أَن القرينة في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾(١) تعطي أَن في ذلك الأَمر رجاءً كأَنه قال : «وأَمره في إقبال وإلى خير» .

وقرأَ النَّخَعي ، والأَعمش ، وأَبو صالح : [فَرَقوا] بتخفيف الراء ، وقال السدي : هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كلام غير متقن ، فإِن الآية خبر لا يدخله نسخ ، ولكنها تضمنت بالمعنى أَمراً بالموادعة فيشبه أَن يقال : إِن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أُخر .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ الآية . قال أَبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : هذه الآية نزلت في الأَعراب الذين

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة) .

آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر ، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم ، للحسنة سبعمائة [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأْويل يحتاج إلى سند يقطع العذر .

وقالت فرقة : هذه الآية لجميع الأُمة ، أي أَن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاءُ [٢] ، وقد يزيد أيضاً على بعض الأَعمال كنفقة الجهاد ، وقال ابن مسعود ، ومجاهد ، والقاسم بن أَبي بزة ، وغيرهم : الحسنة ها هنا : لا إِلٰه إِلَّا الله ، والسيئة : الكفر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه هي الغاية من الطرفين .

وقالت فرقة : ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات ، وهذا هو الظاهر . وأَنث لفظ الْعَشْر لأَن الأَمثال ها هنا بالمعنى حسنات .

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ قال : إنما هي للأعراب ومضعَّفة للمهاجرين بسبعمائة ضعف ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مثله ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وغيرهم عن ابن عمر .

(٢) يؤيد هذا ما أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه : (من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيِّئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله إلا هالك) . (الدر المنثور) .

ويحتمل أن الأَمثال أُنث لما أُضيف إلى مؤنث وهو الضمير ، كما قال الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ أَعَالِيهَا مرُّ الرِّياح النواسِمُ (١)

فأَنث .

وقرأَ الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش ، ويعقوب : [فَلَهُ عشْرٌ] بالتنوين [أَمْثَالُهَا] بالرفع (٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (الأَعمال ستَّةٌ : مُوجِبَةٌ وموجِبَةٌ ، ومُضَعَّفَةٌ ومُضَعَّفَة ، ومِثْلٌ ومِثْلٌ . فلا إلٰه إلا الله توجب الجنة ، والشرك يوجب النار ، ونفقة الجهاد تضعف سبعمائة ضعف ، والنفقة على الأَهل حسنتها بعشرة ، والسيئة جزاؤُها مثلها ، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها)(٣) .

---

(١) البيت لذي الرمّة ، وهو في وصف نساء ، يقول : إذا مشين اهتززن في مشيتهن وتثنَّين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت — قال المهدوي : «كثيراً ما يؤنثون فعلَ المضاف المذكَّر إذا كانت إضافته إلى مؤنث وكان المضاف بعض المضاف إليه ، أو منه ، أو به ، وعليه قول ذي الرمَّة : «مَشَيْنَ — البيت» ، فقد أنَّث المرَّ لأنه مضاف إلى الرياح وهي مؤنثة إذ كان المرُّ من الرياح» .

(٢) وهذا على أن [أمْثَالُها] صفة لـ [عَشْرٌ] المنونة .

(٣) الأحاديث التي تؤكد أن الحسنة بعشر أمثالها كثيرة ومروية في الصحاح من كتب السُّنَّة ، أما الحديث الذي ذكره ابن عطية رحمه الله هنا ، فقد رواه ابن جرير الطبري عن قتادة ، ولفظه ، (الأعمال ستَّةٌ : موجبةٌ وموجبةٌ ، ومُضَعَّفَةٌ وَمُضَعَّفَةٌ ومثْلٌ ومثلٌ ، فأمَّا الموجبتان : فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقي الله مشركاً به دخل النار ، وأما المضَعَّف والمضَعَّف : فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمائة ضعف ، ونفقته على أهل بيته=

وقوله تعالى : ﴿لا يُظْلَمُونَ﴾ أي : لا يوضع في جزائهم شيءٌ في غير موضعه ، وتقدير الآية : من جاء بالحسنة فله ثواب عشر أَمثالها ، والمماثلة بين الحسنة والثواب مترتبة إذا تدبرت . وقال الطبري : قوله : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ الآية ، يريد : من الذين فرقوا دينهم ، أي : من جاء مؤْمناً فله الجنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم[1] أَليق باللفظ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيه عليه الصلاة والسلام بالإِعلان بشريعته ونبذ ما سواها من أَضاليلهم ، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحُسْن والفضل والاستقامة .

= عشر أمثالها ، وأما مِثْلٌ ومِثْلٌ : فإذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة) ــ وأخرج مثله أحمد ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن خريم بن فاتك ، وفيه : (الناس أربعة والأعمال ستة) ... الخ . (عن تفسير الطبري ، والدر المنثور) .

(١) هكذا في الأصول ، ولعل الصواب : في جميع العاملين ، أو في العالمين .

و [هَدَاني] معناه : أَرشدني بخلق الهدى في قلبي . والربُّ : المالك ، ولفظه مصدر ، من قولك : ربَّه يربُّه ، وإنما هو مثل عدْل ورضا في أَنه مصدر وصف به ، وأَصله ذو الربّ ، ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه فقيل : الربّ . والصراط : الطريق . و [ديناً] منصوب بـ (هَدَاني) المقدر الذي يدل عليه [هداني] الأَول ، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أَن يحتاج إلى إضمار إلى ، إذ (هدى) يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجرِّ ، فهو فعل متردد ، وقيل : نَصَب [ديناً] فعلٌ مضمر تقديره : عرفني دينا . وقيل : تقديره : فاتبعوا دينا ، أَو فالزموا دينا . وقيل : نصب على البدل من [صِراط] على الموضع ؛ لأَن تقديره : هداني ربي صراطاً مستقيماً . و [قِيَماً] نعت للدين ، ومعناه : مستقيماً معتدلا .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو : [قَيِّماً] بفتح القاف وكسر الياءِ وشدها ، وأَصله : قَيْوِم عللت كتعليل سيِّد وميِّت . وقرأَ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [قِيَماً] بكسر القاف وفتح الياءِ على وزن فِعَل ، وكان الأَصل أَن يجيءَ فيه (قِوَما) كعِوَض وحِوَل إلا أَنه شذَّ كشذوذ قولهم : جياد في جمع جواد وثِيَرَة في جمع ثَوْر .

و [مِلَّة] بدل من الدين ، والمِلَّة : الشريعة ، و [حَنِيفاً] نصب على الحال من [إبْراهِيمَ] والحَنَف في كلام العرب : الميْل ، وقد يكون المَيْل إلى فساد كحنف الرجل . وكقوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ

مُوصٍ حَنَفاً﴾[١] على قراءة من قرأ بالحاءِ غير المنقوطة ، ونحو ذلك . وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه الصلاة والسلام : (الحنيفية السمحة)[٢] ، الدين الحنيف ، ونحو ذلك ، وقال ابن قتيبة : الحنف: الاستقامة[٣] ، وإنما سمي الأَحنف في الرجل على جهة التفاؤُل له . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي للنقيصة عنه صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية . أَمر من الله عزّ وجلّ أَن يعلن بأَن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها ، وتصرفه مدة حياته ، وحاله من الإِخلاص والإِيمان عند مماته إنما هو لله عزّ وجلّ ، وإرادة وجْهه وطلب رضاه ، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤْمنين التأَسي به حتّى يلتزموا في جميع أَعمالهم قصد وجه الله عزّ وجلّ . ويحتمل أَن يريد بهذه المقالة أَن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عزّ وجلّ يصرفه في جميع ذلك كيف يشاءُ ، وأَنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم ، ويكون قوله تعالى : ﴿بِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ على هذا التأْويل راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فقط ، أَو راجعاً إلى القول الأَول ، وعلى التأْويل الأَول ، يرجع إلى

---

(١) من الآية (١٨٢) من سورة (البقرة) : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَو إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ .

(٢) من قوله صلى الله عليه وسلم : (أَحبُّ الدين إلى الله الحنيفيّة السَّمْحَة) ـ (البخاري في كتاب الإيمان) ، والطبراني في الكبير ، والترمذي في المناقب ، وكذلك رواه الإمام أحمد في مسنده وأيضاً روى الإمام أحمد : (ولكنّي بعثت بالحنيفية السمحة) .

(٣) والأحنف : المستقيم ، وعليه قول الشاعر :

تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا طريقٌ لا يَجُوزُ بِكُمْ حَنِيفُ

جميع ما ذكر من صلاة وغيرها ، أي : أُمرتُ بأَن أَقصد وجه الله عزَّ وجلَّ في ذلك وأَن أَلتزم العمل .

وقرأَ جمهور الناس : [وَنُسُكِي] بضم السين ، وقرأَ أَبو حيوة ، والحسن بإِسكان السِّين ، وقالت فرقة : النسك : في هذه الآية الذبائح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويُحَسِّن تخصيصَ الذبيحة بالذكر في هذه الآية أَنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة ، وقالت فرقة : النُّسك في هذه الآية : جميع أَعمال الطاعات ، من قولك : نَسَك فلان فهو ناسِكٌ إِذا تعبَّد [(١)] .

وقرأَ السبعة سوى نافع : [وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي] بفتح الياءِ من [مَحْيَايَ] وسكونها من [مَمَاتي] ، وقرأَ نافع وحده : [وَمَحْيَايْ] بسكون الياءِ ، قال أَبو علي الفارسي : وهي شاذة في القياس لأَنها جمعت بين ساكنين ، وشاذة في الاستعمال ، ووَجْهُها أَنه قد سمع من العرب : «الْتَقَتْ حَلْقَتا البِطان» [(٢)] ، و «لفلان ثلثا الْمال» [(٣)] ،

---

(١) في (اللسان) : «سئل ثعلب عن الناسك ما هو ؟ فقال : مأخوذ من النسيكة وهو سبيكة الفضة المصفَّاة ، كأنه خلَّص نفسه وصفَّاها لله عزَّ وجلَّ» .

(٢) يقولون : البِطان للقَتَبِ هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير ، وفيه حلقتان، فإذا التقتا فقد بلغ الشَّدُّ غايته ، يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية . «مجمع الأمثال ــ للميداني».

(٣) قال النحاس : لم يجز أحدٌ من النحويين التقاء الساكنين إلا يونس ، وإنما أجازه لأن قبله ألفاً ، والمدَّة التي فيها تقوم مقام الحركة ، وقد أجاز يونس أيضاً : «اضربانْ زيدا» لوجود الألف قبل النون الساكنة . ومن قرأ بقراءة نافع وأراد أن يسلم من اللحن وقف على [مَحْيَايْ] فيكون غير لاحن عند جميع النحويين . «راجع القرطبي» .

وروى أَبو خليد عن نافع [وَمَحْيَايِ] بكسر الياءِ ، وقرأَ ابن أَبي إِسحٰق ، وعيسى ، والجحدري : [ومَحْيَيَّ] ، وهذه لغة هذيل ، ومنه قول أَبي ذؤيب :

سَبَقُوا هَوَيَّ واعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ فتَصَرَّعَوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(١)

وقرأَ عيسى بن عمر [صَلاتِيَ ونُسُكِيَ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ] بفتح الياءِ فيهن ، وروي ذلك عن عاصم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي : من هذه الأُمَّة ، وقال النقاش : من أَهل مكة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى واحد ، بل الأَول أَعم وأَحسن . وقرأَت فرقة [وَأَنَا] بإِشباع الأَلف ، وجمهور القراءِ على القراءَة [وَأَنَا] دون إِشباع . وهذا كله في الوصل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وترْك الإِشباع أَحسن لأَنها أَلف وقف فإِذا اتصل الكلام استغني عنها لاسيما إِذا وَلِيَتْها همزة .

---

(١) هَوَيَّ : يريد هَوَايَ ، أي : ماتوا قبلي وكنت أريد أن أموت قبلهم ، وأعنقوا لهواهم : جعلهم كأنهم هوَوْا الذهاب إلى الموت لسرعتهم في الذهاب إليها ، وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْهَا . والرواية (فتَخَرَّموا) بدلا من (فتصرعوا) ومعنى تَخَرَّموا أُخذوا واحداً واحداً . والهذليون يقولون : محْيَيَّ ، وعَصَيَّ ، وهَوَيَّ ، وهُدَيَّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفل لك بكل تِبَاعَةٍ تتوقعها في دنياك وآخرتك ، فنزلت هذه الآية . وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ .

و [أَبْغِي] معناه : أَطلب ، فكأَنه قال : أَفيحْسُن عندكم أَن أَطلب إِلٰهاً غير الله الذي هو ربُّ كل شيءٍ ؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم ، لأَن الأَمر ليس كما تظنونه ، وإنما كَسْبُ كل نفس من الشر والإِثم عليها وحدها ، [وَلَا تَزِرُ] أَيْ : لا تحمل [وَازِرَةٌ] أَي : حاملةٌ حِمْلَ أُخرى وثقلها . والوِزْرُ أَصله الثِّقْل ثم استعمل في الإِثم لأَنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة ، يقال منه : وزَر الرَّجل يَزِرُ فهو وازِرٌ وَوَزِرٌ يَوْزَرُ فهو مَوْزورٌ .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تهديد ووعيد [فَيُنَبِّئُكُمْ] أَي : فيُعلمكم أَن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع الحق . وقوله

تبارك وتعالى : ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد ـ على ما حكى بعض المتأولين ـ : من أمري في قول بعضكم : هو ساحر ، وبعضكم : هو شاعر ، وبعضكم : افتراه ، وبعضكم : اكتتبه ، ونحو هذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل يحسُن في هذا الموضع وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك .

و [خَلَائِفَ] جمع خليفة ، أي : يخلف بعضكم بعضا .(1)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يتصور في جميع الأُمم وسائر أصناف الناس ، لأَن مَن أَتى خليفةٌ لمن مضى ، ولكنه يحسُن في أُمة محمد صلى الله عليه وسلم أَن يُسَمَّى أَهلها بجملتهم خلائف للأُمم ، وليس لهم من يخلفهم لأَنهم آخر الأُمم وعليهم قيام الساعة .

وروى الحسن بن أَبي الحسن أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (توفون سبعين أُمة أَنتم خيرها وأَكرمها على الله) ويروى : (أَنتم آخرها وأَكرمها على الله) .

---

(1) قال الشَّمَّاخ :

تُصِيبُهُم وتُخْطِئُني المنَايَــــا   وَأَخْلُفُ في رُبوع عن رُبُــــوع

وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ لفظ عام في المال والجاه والقوة وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك ، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء .

ولما أخبر عزَّ وجلَّ بهذا ففسح للناس ميدان العمل ، وحضَّهم على الاستباق إلى الخير توعَّد ووَعَدَ تخويفاً منه وترجيةً فقال : ﴿إنَّ ربَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وسرعة عقابه إما بأَخَذَاتِه في الدنيا ، وإما بعقاب الآخرة ، وحسُن أَن يوصف عقاب الآخرة بـ [سَرِيعُ] لما كان متحققاً مضمون الإتيان والوقوع ، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به [1] ، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترجيةٌ لمن أذنب وأراد التوبة ، وهذا في كتاب الله تبارك وتعالى كثير ، اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله سبحانه وتعالى بعباده .

كمل تفسير سورة الأنعام والله المستعان
وهو حسبي ونعم الوكيل

---

(١) وعلى هذا قوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من الآية (٧٧) من سورة (النحل) . وقوله تعالى : ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ الآيتان : (٦ ، ٧) من سورة (المعارج) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

تفسير سورة الأعراف

وهي مكية كلها ، قاله الضحاك وغيره . وقال مقاتل : هي مكية إلا قوله تبارك وتعالى : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإن هذه الآيات مدنية[1] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾

تقدم القول في تفسير الحروف المقطعة التي في أوائل السور وذكر اختلاف المتأولين فيها ، ويختص هذا الموضع زائداً على تلك الأقوال

---

(١) روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق .

بما قاله السدي : إن [الٓمٓصٓ] هجاء اسم الله تبارك وتعالى هو المصور ، وبقول زيد بن علي : إن معناه : أنا الله الفاصل .

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية . قال الفراءُ وغيره : [كِتابٌ] رفع على الخبر للحروف ، كأنه قال : هذه الحروف كتاب أُنزل إليك ، وردَّ الزَّجاج على هذا القول بما لا طائل فيه . وقال غيره : [كِتَابٌ] رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هذا كتاب ، و [أُنْزِلَ إِلَيْكَ] في موضع الصفة لـ [كِتَاب] .

ثم نُهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يُبرم أو يستصحب من هذا الكتاب أو بسبب من أسبابه حرجاً ، ولفظ النهي هو للحرج ومعناه للنبي عليه الصلاة والسلام . وأصل الحرج الضيق ، ومنه الْحَرَجَة : الشجر الملتف الذي قد تضايق[1] . والحرج ها هنا يعم الشكَّ والخوف والهمَّ وكل ما يضيق الصدر ، وبحسب سبب الحرج يفسَّر الحَرَج ها هنا ، وتفسيره بالشَّكِّ قلِق ، والضمير في [مِنْهُ] عائد على الكتاب ، أي : بسبب من أسبابه ، و [من] ها هنا لابتداءِ الغاية ، وقيل : يعود على التبليغ الذي يتضمَّنه معنى الآية ، وقيل : على الإنذار[2] .

(١) مثل الحَرَج الْحَرَاج ، ولما تُصُوِّر من اجتماع الشجر الضيق قيل للضيق حَرَج وللاثم حرج ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، وقال : ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ . (عن « المفردات في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني) .

(٢) في بعض النسخ : على الابتداء . ولا معنى لها هنا ، وجاز أن يعود على الإنذار المفهوم من [لِتُنْذِرَ] مع تأخرها لأن الإنذار نفسه مرتبط بالكتاب وهو سابق على الضمير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله ، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام [١] ، ولذلك قال بعض الناس : إن فيه تقديماً وتأخيراً . وقوله تعالى : [لِتُنْذِرَ] اللام متعلقة بـ [أُنْزِلَ] . وقوله تعالى : [وَذِكْرَى] معناه : تذكرة وإرْشاد ، و[ذِكْرَى] في موضع رفع عطفاً على قوله سبحانه : [كِتَابٌ] فالتقدير : هذه الحروف كتاب وذكرى . وقيل : رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب ، فالتقدير : هذه الحروف كتاب منَزَّل إليك وذكرى ، فهي عطف على (مُنَزَّل) داخلة في صفة الكتاب . وقيل : [ذِكْرَى] في موضع نصب بفعل مضمر تقديره : «لِتنذر بِهِ وتذكر ذكرى للمؤمنين» . وقيل : نصبها على المصدر . وقيل : [ذِكْرى] في موضع خفض عطفاً على قوله تعالى : [لِتُنْذِرَ] أي : لإنذارك وذكرى .

وقوله تعالى : ﴿آتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية . قال الطبري وحكاه : التقدير : قل اتبعوا ، فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم

---

(١) وسرُّ الاعتراض — كما قالوا — أن يكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وحسماً لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال للإنذار .

الذكر عليه . وقالت فرقة : قوله تعالى : [ٱتَّبِعُوا] أَمر يعُمّ النبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر أَن يكون أَمراً لجميع الناس ، أَي : اتَّبعوا ملَّة الإِسلام والقــرآن .

وقرأَ الجحدري [ابْتَغُوا مَا أُنْزِلَ] من الابتغاءِ ، وقرأَ مجاهد : [وَلَا تَبْتَغُوا] من الابتغاءِ أَيضاً ، وقوله تعالى : [أَوْلِيَاءَ] يريد كل ما عُبد واتُّبع من دون الله كالأَصنام والأَحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك ، والضمير في قوله تعالى : [مِنْ دُونِهِ] راجع إِلى [رَبِّكُمْ]، هذا أَظهر وجوهه وأَبينُها ، وقيل : يعود على [ما] من قوله : [اتَّبِعُوا مَا]، وقيل : يعود على الكتاب المتقدم الذكر ، و [قَليلاً] نعت لمصدر نصب بفعل مضمر ،وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده . قال الفارسي : و [مَا] في قوله تعالى : [ما تَذَكَّرُونَ] موصولة بالفعل وهي مصدرية . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم في رواية أَبي بكر : [تَذَّكَّرون] بتشديد الذال والكاف ، وقرأَ حمزة والكسائي ، وعاصم في رواية حفص : [تذَكَّرون] بتخفيف الذال وتشديد الكاف ، وقرأَ ابن عامر : [يَتَذَكَّرون] بالياءِ كناية عن غيب ، وروي عنه أَنه قرأَ : [تَتَذكَّرُون] بتاءَين على مخاطبة حاضرين .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

[كَمْ] في موضع رفع بالابتداء ، والخبر [أَهْلَكْنَاهَا] ، ويصح أن يكون الخبر في قوله تعالى : [فَجَاءَهَا] ، و [أَهْلَكْنَاهَا] صفة [1] ، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره : وكم أهلكنا من قرية أهلكناها . وقدر الفعل بعدها ـ وهي خبرية ـ تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل حال صدر الكلام . وقالت فرقة : المراد : وكم من أهل قرية ، وحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقام المضاف ، وقالت فرقة : إنما عبّر بالقرية لأنها أعظم في العقوبة إذ أهلك البشر وقريتهم ، وقد بيّن في آخر الآية بقوله سبحانه : [أَوْ هُمْ] أن البشر داخلون في الهلاك ، فالآية ـ على هذا التأويل ـ تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعاً . وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل .

والمراد بالآية التكثير ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿وكمْ مِنْ قَرْيَة أَهْلَكْناهُمْ فَجَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ ، وقوله تعالى : [فجَاءَهَا] يقتضي ظاهره

(١) قيل : إن الفاء تمنع من ذلك . ذكره في إعراب القرآن للعكبري ، وقال الفراءُ : الفاء بمعنى الواو ، وقيل : المعنى : وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فَاسْتَعِذْ بالله ﴾ أي : إذا أردت قراءة القرآن ، وقيل : التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع ، وقيل غير ذلك . والله أعلم بالصواب .

أن المجيءَ بعد الإهلاكِ وذلك مستحيل ، فلم يبق إلا أن يُعدل عن ظاهر هذا التعقيب ، فقيل : الفاءُ قد تجيءُ بمنزلة الواو ولا تعطي رتبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقيل : عبَّر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك ، قال مكي في المشكل : مثل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآن فَاسْتَعِذْ﴾[(1)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يَحتج به من قال : الفاءُ في هذه الآية لتعقيب القول . وقيل : المعنى : أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأْسنا بعد ذلك . وقال الفراءُ ـ وحكاه الطبري ـ : إنَّ الإهلاك هو مجيءُ البأْس ومجيءُ البأْس هو الإهلاك ، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة [(2)] . وقيل : إن الفاءَ لترتيب القول فقط ، فكأَنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أَهلكها ثم قال : فكان من أَمرها مجيءُ البأْس .

و [بَيَاتاً] نصب على المصدر في موضع الحال ، و [قَائِلُونَ] من القائلة ، وإنما خصَّ وقْتَيْ الدَّعَة والسكون لأَن مجيءَ العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيهما من البغت والفجأَة ، و [أَوْ] في هذا الموضع

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (النَّحْل) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

(٢) وذلك كما تقول : « شتمني فأَساءَ ، وأساءَ فشتمني » لأن الإساءة والشتم شيءٌ واحد .

كما تقول : الناس في فلان صنفان حامدٌ أو ذام ، فكأنه قال : جاءهم بأْسنا فرقتين بائتين أو قائلين ، وهذا هو الذي يسمى اللف ، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة . والبأْس : العذاب . وقيل : المراد : أَوْ وَهُم قائلون ، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو ، وهذا تكلف لأَن معنى اللف باق .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا كانَ دعْوَاهُمْ﴾ الآية . تَبيَّن في هذه الآية غاية البيان أَن المراد في الآية قبلها أَهل القرى . والدعوى في كلام العرب لمعنيين : أَحدهما : الدعاءُ ، قال الخليل : تقول : اللهم أَشركنا في صالح دعوى المسلمين ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾(1) ومنه قول الشاعر :

وإنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي بِدَعْوَاكِ منْ مذْلٍ بها فَيَهُونُ (2)

والثاني الادّعاءُ ، قال الطبري : هي في هذا الموضع بمعنى الدعاءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتوجه أَيضاً أَن يكون بمعنى الادعاءِ ، لأَن من ناله مكروه أَو حَزَبه حادث فمن شأْنه أَنْ يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاءِ

(1) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (الأنبياء) : ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ .

(2) مَذِلَتْ رجْلُه بكسر الذال : خَدِرَتْ ، والمصدر مذَل ومذْل ، والبيت في (اللسان) غير منسوب . والرواية فيه (بذكْراكِ) بدلا من (بدعْواكِ) ، وفيه أيضاً (فَتَهونُ) بالتاء بدلا من (فَيَهُونُ) بالياء ، والبيت أيضاً في الطبري » بنفس رواية ابن عطية وهو غير منسوب .

المذكورين في هذه الآية ، ومن شأنه أيضاً أن يدّعي معاذير وأشياء تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه ، فيتجه أن يكون هؤلاء بحال من يدعى معاذير ونحوها ، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوى ثم استثنى من غير الأول كأنه قال : لم يكن دعاءً أو ادعاءً إلا الإقرار والاعتراف ، أي : هذا كان بدل الدعاءِ والادعاءِ .

وتحتمل الآية أن يكون المعنى : فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف ، ونحو من الآية قول الشاعر :

وَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا   قُتَيْبَةَ إِلَّا عَضُّهَا بِالأَبَاهِمِ [١]

واعترافهم وقولهم إنا كنا ظالمين هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم ، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها ، وروى ابن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : (ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من أنفسهم) [٢] ، وفسَّر عبد الملك ابن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية . و [دَعْوَاهُمْ] خبر [كَانَ] واسمها [إِلَّا أَنْ قَالُوا] ، وقيل بالعكس .

---

(١) البيت للفرزدق ، وقد ذكر في (اللسان) بلفظ : « فَقَد شهدت » ، والأباهم هي الأباهيم ، جمع إبهام ، والإبْهام من الأصابع : العظمى مؤنثة ، وحكى اللحياني أنها تذكر وتؤنَّث ، وقال : الأباهم بحذف اليـــاء لأن القصيدة ليست مردفة ، والفرزدق يذم قيساً التي لم تفعل شيئاً في نصرة قتيبة إلا عضها على أباهيمها من الذل والقهر .

(٢) الحديث في « الجامع الصغير » بلفظ : (لَنْ يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم) — رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقـــد رمز له بأنه (حَسَن) . وكذلك ذكره ابن الأثـــير في « النهاية» ثم فسَّر يُعذِروا فقال : « يقال: أعذَرَ فلان من نفسه إذا أمكن منها ، يعني أنهم لا يَهلِكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبُهم فيستوجبون العقوبة ، ويكون لمن يُعذبهم عذرٌ ».

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وعيد من الله عزَّ وجلَّ لجميع العالم ، أخبر أَنه يسأَل الأُمم أَجمع عما بلغ إِليهم عنه وعن جميع أَعمالهم ، ويسأَل النبيين عما بلَّغُوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد نُفي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي . وقد أُثبت في آياتٍ كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير ، فإِن الله قد أَحاط علماً بكل ذلك قبل السؤال ، فأَما الأَنبياءُ والمؤْمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة ، وأَما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً ، فمن أَنكر منهم قص عليه بعلم ، وقرأَ ابن مسعود : «فَلَنَسْأَلَنَّ ٱلَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قبلكَ رُسُلنا وَلَنَسْأَلَنَّ المرْسَلين» .

وقوله تعالى : [فَلَنَقُصَّنَّ] أَي : فَلَنَسْرُدَنَّ [عَلَيْهِمْ] أَعمالهم قصة قصة [بِعِلْمٍ] أَي : بحقيقة ويقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يشبه أَن يكون الكلام هنا استعارة إِذ كل شيءٍ فيه مقيد .

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أَي : ما كنا مَنْ لا يعلم جميع تصرفاتهم كالغائب عن الشيءِ الذي لا يعرف له حالا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

[الْوَزْنُ] : مصدر وزَنَ يزِنُ ، ورفعه بالابتداءِ ، و [الْحَقُّ] خبره . و [يَوْمَئِذٍ] ظرف منتصب بـ [الْوَزْن] ، ويصح أَن يكون [يَوْمَئِذٍ] خبر الابتداءِ ، و [الْحَقُّ] نعت لـ [الْوَزْن] ، والتقدير : الوزنُ الحقُّ ثابتٌ أَو ظاهر يومئذ . و [يَوْمَئِذٍ] إشارة إلى يوم القيامة والفصل بين الخلائق .

واختلف الناس في معنى الوزن والموازين ـ فقالت فرقة : إن الله عزَّ وجلَّ أَراد أَن يعلّم عباده أَن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غايةِ التحرير ونهاية العدل ، فمثّل لهم في ذلك بالوزن والميزان إذ لا يعرف البشر أَمراً أَكثر تحريراً منه ، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان كما استعار ذلك أَبو طالب في قوله :

بِميزَانِ قِسْطٍ لا يَخسُّ شعيرة ... لهُ حاكِمٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عائِلِ (١)

ورُوي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما ، وكذلك استعير ـ على قولهم ـ الثقل والخفة (٢) لكثرة الحسنات وقلتها .

(١) لا يَخِسُّ : لا يقلُّ ولا ينقص ، والشعيرة : العلامَةُ ، ويقال على الميزان : نقص أو زاد ، يصفه بالعدالة الكاملة فهو لا يميل عن الحدّ الصحيح علامة واحدة . والشاهد هو أن لفظة ميزان يراد بها العدالة .

(٢) يريد الثقل والخفة في قوله تعالى في بقية الآية : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ .

وقال جمهور الأُمة : إن الله عز وجلّ أَراد أَن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأَمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أَفهامهم ، فميزان القيامة له عمود وكفَّتان على هيئة موازين الدنيا ، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام » (١) ، وقالوا : هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يردُّه نظر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أَصح من الأَول من ثلاث جهات ـ أَولها : أَن ظواهر كتاب الله عزَّ وجلَّ تقتضيه ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينطق به ، من ذلك قوله لبعض الصحابة ـ وقد قال له : يا رسول الله ، أَين أَجدك في يوم القيامة ؟ ـ فقال : (اطلبني عند الحوض ، فإن لم تجدني فعند الميزان) (٢) . ولو لم يكن الميزان مرئياً محسوساً لَمَا أَحاله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطلب عنده . وجِهَة أُخرى أَن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيءٌ منه ولا تختل صحته ، وإذا كان الأَمر كذلك فلِمَ نخرج من حقيقة الأَمر إلى مجازه دون علَّة ؟ وجِهَةٌ ثالثة وهي أَن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يُعرف إلَّا سمعاً ، وإن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أَقوال الملحدة والزنادقة في أَن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إنما هي أَلفاظ يراد بها غير الظاهر .

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، واللالكائي . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي وحسَّنه ، والبيهقي في البعث ـ عن أنس ـ وفيه أن الذي سأل الرسول صلى الله عليه وسلم هو أنس . (الدر المنثور) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فينبغي أن يجرى في هذه الألفاظ إلى حملها على حقائقها .

وأما الثقل والخفة فإن الآثار تظاهرت بأن صحائف الحسنات والسيئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلا وخفة على نحو إحداثه ذلك في جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت نزول الوحي عليه ، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أنه قال : (كنت أكتب حتى نزلت [غيْرُ أُولي الضَّرَرِ][١] وفخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي حتى كادت أن ترض فخذي)[٢] ، وفي الحديث (أنه كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله للثقل الحادث فيه) . ولابد لنا أن نعلم أن الثقل الحادث مع الحسنات إنما يتعلق بجسم ، إذ العَرَض لا يقوم بِعَرَض[٣] ، فجائز أن يحدث الثقل في الصحائف وهو أقربها إلى الظن ، وجائز أن يحدث في ذلك من الأجسام المجاورة لتلك الحال ، وإلى حدوثه في الصحائف ذهب أبو المعالي ، ورُويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئته وطوله وأحواله لم تصح بالإسناد ، فلم نر للإطالة بها وجها[٤] .

(١) من قوله تعالى في الآية (٩٥) من سورة (النساء) : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ والْمُجَاهِدونَ في سَبِيلِ اللهِ﴾ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة ، وكتاب الجهاد ، ورواه الترمذي والنسائي ، ولفظه كما في البخاري : (أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن تَرُضَّ فخذي) .

(٣) العَرَض في اللغة ما يطرأ ويزول ، وفي علم المنطق — وهو المراد هنا — ما قام بغيره ، « ضد الجوهر » كالبياض والسواد ، والطول والقِصر .

(٤) هـذا يؤكد ما ذكرناه كثيراً من رغبة ابن عطية عن الأخبار التي لايصح سندها عنده مخالفاً بذلك ما ساد التفاسير الأخرى .

وقال الحسن فيما روي عنه : بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزاناً على حدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول مردود والناس على خلافه ، وإنما لكل أحد وَزْن يختص به والميزان واحد ، ورُوي عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَن الموازينَ الحسناتُ نفسها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موزونات كثيرة فكأَنه أَراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان .

و [الْمُفْلِحُونَ] في اللغة : المدركون لبغيتهم ، الناجحون في طلبهم ، ومنه قول عبيد :

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْـ ـفِ وَقَدْ يُخْـدَعُ الأَرِيبُ (١)

فأَما قول الشاعر :

. . . . والْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ (٢)

فقد قيل : إنه بمعنى البقاء .

---

(١) رواه صاحب (اللسان) : «فقد يُبْلَغ بالنَّوْك» . ونقل عن التهذيب معناه : «عش بما شئت من عقل وحُمْق ، فقد يُرزق الأحمق ويحرم العاقل» ، هذا وقد سبق أن ذكر ابن عطية هذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ الآية (٢١) من سورة الأنعام صفحة ١٥٦ من هذا الجزء .

(٢) هذا عجز بيت قاله الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع السَّعْدِيُّ ، والبيت بتمامه كما ذكره ابن منظور في (اللسان) :

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَـهْ والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَـهْ

قال : وأصل الفلاح : البقاءُ ، والمعنى : ليس مع كرِّ الليل والنهار بقاءٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والبقاءُ : بلوغ بغية ، فالمعنيان متقاربان ، ووزن الله أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياء وجلائلها نظيرُ كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك ، ونظيرُ استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً ، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولابُدَّ[1] . فإن قال قائل : كيف تثقل موازين العصاة من المؤمنين بالتوحيد ويصحُّ لهم حكم الفلاح ثم تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاءٌ لا محالة ؟ ـ فقالت طائفة : إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار ، ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة ، وأيضاً فمعرفة العاصي أنه غير مخلَّد فلاح وإن تقدَّمه شقاءٌ على جهة التأْديب .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ الآية . المعنى : من خَفَّت كفة حسناته فشالت . و ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة . وقوله تعالى : [بِمَا كَانُوا] أي جزاءً بذلك ،

---

(١) روى الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، واللالكائي ، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يصاح برجل من أُمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجلٍّ منها مدّ البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظَلَمَكَ كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذرٌ أوْ حسنةٌ ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تُظْلَم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة . ولا يثقل مع اسم الله شيء) . (الدر المنثور ٣ــ٧٠)

كما تقول : أكرمتك بما أكرمتني ، و [ما] في هذا الموضع مصدرية ، والآيات هنا : البراهين والأوامر والنواهي ، و [يَظْلِمُونَ] أي يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

الخطاب لجميع الناس ، والمراد أن النوع بجملته مُمَكَّن في الأرض ، والمعايش : جمع معيشة وهي لفظة تعُمُّ المأكول الذي يعاش به والتحرّف الذي يؤدي إليه . وقرأ الجمهور : [مَعَايِش] بكسر الياء دون همز ، وقرأ الأعرج وغيره : [معائش] بالهمز كمدائن وسفائن ، ورواه خارجة عن نافع [(١)] ، وروي عن ورش [مَعَايْش] بسكون الياء ، فمن

---

(١) قال في (اللسان) : «وأكثر القراء على ترك الهمز في معايش إلا ما روي عن نافع فإنه همزها ، وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ» ، وذكروا أن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة مثل صحيفة وصحائف ، فأما معايشُ فمن العيْش فالياء أصلية» .

وقال أبو حيان في (البحر المحيط) بعد أن نقل الرواية عن الأعرج وغيره : «وليس بالقياس لكنهم رَوَوْهُ وهم ثقات فوجب قبوله» ثم نقل كلام الزجاج والمازني وغيرهما في إثبات خطأ هذه القراءة وعقب على ذلك بقوله : «ولسنا متعبّدين بأقوال نحاة البصرة» . (البحر المحيط ٤–٢٧١) .

قرأ [مَعايِشَ] بتصحيح الياء فهو الأَصوب لأَنها جمع معْيِشة[١] وزنها مَفْعِلة . ويحتمل أَن تكون مفعُلة بضم العين ، قالهما سيبويه ، وقال الفراءُ : مفعَلة بفتح العيْن ، فالياءُ في معيشة أَصلية ، وأُعلَّت لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياء أَي في المتحرك والساكن ، وصُححت معايش في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ ، ولأَن التكسير معنى لا يكون في الفعل وإنما تختص به الأَسماءُ ، ومن قرأَ [معايْش] فعَلَى التخفيف من (معايِش) ، ومن قرأَ [معائش] فأَعلها فذلك غلط ، وأَما توجيهه فعَلَى تشبيه الأَصل بالزائد لأَن (معيشة) تشبه في اللَّفظ (صحيفة) ، فكما يقال : صحائف قيل : معائش ، وإنما همزت ياءُ (صحائف) ونظائرها مما الياءُ فيه زائدة لأَنها لا أَصل لها في الحركة ، وإنما وزنها فعيلة ساكنة ، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بُدّلت بأَجلد منها .

و [قَليلا] نصب بِـ [تَشْكُرُونَ] ، ويحتمل أَن تكون [ما] زائدة ، ويحتمل أَن تكون مع الفعل بتأْويل المصدر ، و [قَليلاً] نعت لمصدر محذوف تقديره : شكراً قليلا شكرُكم ، أَو : شكراً قليلا تشكرون .

---

(١) أصل مَعيشَة : مَعْيِشَة بكسر الياء أو بضمها كما قال سيبويه ، وقال الفراء : بفتحها ، واللغويون يصوبون كلام سيبويه ويقولون : إن كلام الفراء خطأ ، ويقولون في تعليل ذلك : إن كان أصلها مَعْيِشة بكسر الياء فقد نقلت الكسرة إلى الساكن قبلها وهو العين ، وإن كان أصلها مَعْيُشة بضم الياء فقد استثقلت الضمة على الياء فقلبت كسرة ثم نقلت إلى الساكن قبلها ، لكن إذا كانت في الأصل بالفتح مَعْيَشة فليس هناك ثقل في الفتحة فلا سبيل إلى قلبها كسرة . (انظر حاشية الجمل) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الآية . هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجيب من غريب الصنعة وإسداءِ النعمة ، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم ، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر ، وإلا فلم يُعَرَّ المخلوق قط من صورة .

واضطرب الناس في ترتيب هذه الآية لأَن ظاهرها يقتضي أَن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أَن يسجدوا ، وقد صححت الشريعة أَن الأَمر لم يكن كذلك ـ فقالت فرقة : المراد بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدم بنفسه وإن كان الخطاب لِبَنِيه ، وذلك لما كان سببَ وجود بنيه فما فعل فيه صحَّ مع تجوز أَن يقال : إنه فعل في بنيه ، وقال مجاهد : المعنى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أَمثال الذرِّ في صورة البشر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويترتب في هذين القولين أَن تكون [ثُمَّ] على بابها في الترتيب والمهلـــة .

وقال عكرمة والأَعمش : المراد : خلقناكم في ظهور الآباءِ وصورناكم في بطون الأُمهات . وقال ابن عباس والربيع بن أَنس : أَمَّا [خَلَقْنَاكُمْ] فآدم ، وأَمَّا [صَوَّرْنَاكُمْ] فذريته في بطون الأُمهات ، وقاله قتادة والضحاك . وقال معمر بن راشد عن بعض أَهل العلم : بل ذلك كله في بطون الأُمهات من خلق وتصوير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقالت هذه الفرقة : إن [ثُمَّ] لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في نفسها . وقال الأخفش : [ثُمَّ] في هذه الآية بمعنى الواو ، وردّ عليه نحويّو البصرة (١) .

وملائكة : وزونه إمَّا مَفَاعِلة وإما مَعَافِلة بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة . وهنالك ذكرنا هيئة السجود والمراد به ، ومعنى إبليس ، وكيف كان قبل المعصية ، وأما قوله تعالى في هذه الآية : [إلَّا إبْلِيسَ] فقال الزجاج : هو استثناءٌ ليس من الأول ، ولكن إبليس أُمر بالسجود بدليل قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ . وقال غير الزجاج : الاستثناءُ من الأول ، لأنا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال : إن إبليس لم يكن من الملائكة لوجب أن إبليس لم يؤمر بالسجود ، إلا أن يقول قائل هذه المقالة : إن أمر إبليس كان بوجه آخر غير قوله تعالى : [اسْجُدُوا] وذلك بيّن الضعف .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا] بضم الهاء ، وهي قراءة ضعيفة ، وَوَجْهُها أنه حذف همزة [اسْجُدُوا] وألقى حركتها

---

(١) وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون ، وقد عقب عليها القرطبي بقوله : «كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ يعني آدم ، وقال : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، ثم قال : ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي جعلنا نسله وذُرِّيَّته ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ، فآدم خلق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذرّيّته صوّروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء» .

على الهاءِ ، وذلك لا يَتَّجه لأَنها همزة محذوفة مع الهاء بحركة ، أيْ شيءٌ يلغى ، والإلغاء يكون في الوصل [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾

[مَا] استفهام والمقصود به التوبيخ والتقريع ، و (لا) في قوله تعالى : [أَلَّا] قيل : هي زائدة ، والمعنى : ما منعك أن تسجد ، وهي كـ (لا) في قول الشاعر :

أَبَى جودُهُ لا الْبُخْلَ فاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمْ مِنْ فَتًى لا يَمْنَعُ الجودَ نائِلُه [٢]

---

(١) جاء قوله تعالى : [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] في خمسة مواضع من القرآن الكريم — في البقرة . وفي الأعراف ، وفي الإسراء ، وفي الكهف ، وفي طه — والسبب في قراءة أبي جعفر استثقال الانتقال من الكسرة إلى الضمة إجراءً للكسرة اللازمة مجرى العارضة ، قاله ابن الجزري في كتابه « النشر في القراءات العشر » ، وقال : وذلك لغة أزد شنوءة .

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد قيل : (لا) زائدة كما زيدت في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأن المعنى : وحرام على قرية مهلكة رجوعهم ، وأما هذا البيت : (أبي جوده... الخ) ففيه آراء كثيرة منها أيضاً أن (لا) زائدة كما قال ابن =

وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت ، فقد قيل : (لا) فيه زائدة ، وقال الزجاج : مفعولة ، والبخل بدل منها ، وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاء أن الرواية فيه : (لا البُخْلِ) بخفض اللام ، لأن (لا) قد تتضمن جودًا إذا قالها في أمر يمنع الحقوق والبخل عن الواجبات .

ومن الأبيات التي جاءت (لا) فيها زائدة قول الشاعر :

أَفَمِنْكَ لا برْقٌ كأَنَّ وَميضَهُ غابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرامٌ مثقب [1]

وقيل في الآية : ليست (لا) زائدة ، وإنما المعنى : ما منعك فأحوجك إلى ألاَّ تسجد ؟ وقيل : لما كان [مَا مَنَعَكَ] بمعنى : مَنْ أَمَرَك ؟ ومن قال لك ؟ حَسُنَ أن يقول بعدها : أَلَّا تسجد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجملة هذا أن يقدر في الكلام فعل يحْسُن حمل النفي عليه كأنه قال : ما أحوجك أو حملك أو اضطرك ؟ وجواب إبليس اللعين ليس عما سئل عنه ، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه ،

= عطية ، وفي اللسان والصحاح (الجوع) وفي المحكم (الجوس) وهو الجوع ، وفي مغنى اللبيب (الجود) ، ولكن ذكر لفظ (قائلَه) بدلا من (نائلُه) على أن (قاتِلَه) مفعول أول للفعْل (يمنع) والجودَ مفعول ثان . قال الفارسي في الحجة : « قال أبو الحسن : فسَّرته العرب أبَى جودُه البخْلَ ، وجعلوا (لا) حشوا » .

(١) هذا البيت لساعدة الهذلي . قال الأصمعي : يريد : أمنك برق ؟ والوميض : اللمعان ، قال الليث : وقد يكون الوميض للنار ، وتسنَّمه : علاه ، والضِّرام : ما اشتعل من الحطب ، ويقال : ثقَبت النارُ : اتَّقدت .

فكأنه قال : منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين . ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا أسجد وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً ، يقول : إن النار أقوى من الطين ، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين ، وليس كذلك ، بل هما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق ، فلما ظن إبايس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلا على سكون الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين ، فأخطأ قياسه ، وذهب عليه أن الروح الذي نُفخ في آدم ليس من طين . قال الطبري : ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب ، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبّت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي كلام الطبري نظر ، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : أول من قاس إبليس ، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالقياس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال الطبري : يعني القياس الخطأ ، ولا دليل من لفظهما عليه ، ولا يتأول عليهما إنكار القياس ، وإنما خرج كلامهما نهياً عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم ، فَأَرَادا حمل النــاس على الجادّة .

وقوله تعالى : [فَاهْبِطْ مِنْهَا] الآية . أمر من الله عزَّ وجلَّ لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود ، فيظهر من هذا أنه أُهبط

أولا وأُخرج من الجنة وصار في السماءِ لأَن الأَخبار تظاهرت أَنه أَغوى آدم وحوّاءَ من خارج الجنة ، ثم أُمر آخراً بالهبوط من السماءِ مع آدم وحواء والحية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله بحسب أَلفاظ القصة والله أَعلم .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ معناه : فما يصح لك ولا يتم ، وليس يقتضي هذا أَن التكبر له في غيرها على ما ذهب إليه بعض المعترضين ، فقد تضمنت الآية أَن الله أَخبر إِبليس أَن الكبرياءَ لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياءِ في كل موضع ، وأَما لو أَخذنا [فَمَا يَكُونُ] على معنى : فما يحسُن وما يجْمُل كما تقول للرجل : ما كان لك أَلَّا تصل قرابتك لفَتَر معنى الإِغلاظ على إِبليس .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصَى بها وهي الكبرياءُ ، فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأَمله ، والصَّغار : الذُّل ، قاله السُّدي .

ثم سأَل إِبليس ربّه أَن يؤخره إِلى يوم البعث ، طمع أَلَّا يموت إِذ علم أَن الموت ينقطع بعد البعث . ومعنى [أَنْظِرْنِي] أَخِّرني . فأَعطاه الله النَّظِرَةَ إِلى يوم الوقت المعلوم ، فقال أَكثر الناس : الوقت المعلوم : هو النفخة الأُولى في الصور التي يصعق لها من في السموات ومن في الأَرض من المخلوقين . وقالت فرقة : بل أَحاله على وقت معلوم

عنده عزَّ وجلَّ يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعيّن له ذلك ، وإنما تركه في عماءِ الجهل به ليغمه ذلك ما عاش .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال بعض أهل هذه المقالة : إن إبليس قتلته الملائكة يوم بدر ، ورَوَوْا في ذلك أثراً ضعيفاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول من هذه الأقوال أصحُّ وأشهر في الشرع .

ومعنى [مِنَ الْمُنْظَرِينَ] : من الطائفة التي تأخرت أعمارها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها ، فقد عمَّ تلك الطائفة إنظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر .

وقوله : [فَبِمَا] يحتمل أن يريد به القسم كما تقول : فبالله لأفعلنَّ [1] ، ويحتمل أن يريد به معنى المجازاة كما تقول : فبإكرامك يا زيد لأكرمنك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أليق المعاني بالقصة .

ويحتمل أن يريد : فمع إغوائك لي ومع ما أنا عليه من سوءِ الحال لأتجلدنَّ ولأقعدنَّ ، ولا يعرض لمعنى المجازاة . ويحتمل أن يريد بقوله :

---

(١) دليل هذا قوله في سورة (ص) : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكأن إبليس أعظم قدر إغواءِ الله إياه لأن فيها تسليطاً على العباد فأقسم به إعظاماً لِقَدْره عنده .

[فَبِمَا] الاستفهام عن السبب في إغوائه ، ثم قطع ذلك وابتدأ الإخبار عن قعوده لهم ، وبهذا فسَّر الطبري أثناء لفظه . و [أَغْوَيْتَنِي] قال الجمهور : معناه : أضللتني ، من الغيّ ، وعلى هذا المعنى قال محمد ابن كعب القرظي – فيما حكى الطبري – : قاتل الله القدرية ، لَإِبْليسُ أعلم بالله منهم ، يريد في أنه علم أن الله يهدي ويضل . وقال الحسن : [أَغْوَيْتَنِي] لعنتني ، وقيل : معناه : خيَّبتني (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله تفسير بأشياء لزمت إغواءه .

وقالت فرقة : [أَغْوَيْتَنِي] معناه : أهلكتني ، حكى ذلك الطبري ، وقال : هو من قولك : غَوِي الفصيل يَغْوَى غَوًى إذا انقطع عنه اللبن فمات . وأنشد :

مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فصيلُها ... بِرازِئِها دَرًّا ولا ميِّتٍ غَوًى (٢)

قال : وقد حكي عن بعض طيء : أصبح فلانٌ غاوياً ، أي مريضاً .

---

(١) ومنه قول المرقش :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمد الناسُ أمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغيِّ لائما

أي : ومن يَخِب . وغَوِي من باب فرح – ويأتي من باب ضرب .

(٢) هذا البيت في (اللسان – غوى) قال : وغَوِيَ الفصيل والسخلة يَغْوى غَوىً فهو غو : بَشِم من اللبن وفسد جوفه ، وقيل : هو أن يمتنع من الرضاع فلا يروى حتى يهزل ويضرٌ به الجوع ويموت هزالا ،أو يكاد يهلك . وقال : يصف في هذا البيت قوساً بقوله : (معطفة) يعني القوسَ وسهماً رمي به عنها ، وهذا من اللغز ، وقال ابن قتيبة في كتابه (المعاني الكبير ص ١٠٤٧) أنشد ابن الأعرابي لعامر المجنون : معطفة الأذناب ... يريد القوس ، وفصيلها السهم .

وقوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ يريد : على صراطك ، وفي صراطك ، وحذف كما يفعل في الظروف ، ونحوه قول الشاعر :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيهِ كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ [1]

وقال مجاهد : ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد به الحق . وقال عون بن عبد الله : يريد طريق مكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تخصيص ضعيف ، وإنما المعنى : لأتعرضنَّ لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلأصدَّنَّهم عنه ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، نهاه عن الإسلام وقال : تترك دين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، فنهاه عن الهجرة وقال : تَدَع أهلك وبلدك ؟ فعصاه فهاجر ، فنهاه عن الجهاد وقال : تُقتل وتترك ولدك ؟ فعصاه فجاهد فله الجنة).[2] الحديث .

---

(١) البيت لساعدة بن جُؤْية الهُذَلي ، وهو من شواهد النحويين (الخزانة للبغدادي ١-٤٧٤) والشاهد فيه قوله : «عَسَل الطريق» إذ يريد : في الطريق ، والشاعر يصف في البيت رمحاً فيقول : إنه ليّن الهزّ ويُشبه في حال هزّه أو اضطرابه في نفسه عَسَلان الثعلب في سيره . وعَسَلان الثعلب (بالتحريك) سيْرٌ سريع فيه اضطراب واهتزاز ، واللّدن في اللغة : الناعم الليّن . (عن شرح الشواهد) — والشاعر : مخضرم أسلم وليست له صحبة .

(٢) الحديث في ابن كثير ، وذكره الألوسي أيضاً بكامله ، وقد أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن سَبرة بن أبي فاكه ، وفي آخر الحديث كما رواه الإمام أحمد : (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عزّ وجلّ أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو رفصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة) . (مسند الإمام أحمد ٣-٤٨٣) . ط دار صادر بيروت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذا توكيد من إبليس في أنه يجِدُّ في إغواءِ بني آدم ، وهذا لم يكن حتى علم إبليس أن الله يجعل في الأَرض خليفة وعلم أنه آدم ، وإلَّا فلا طريق له إلى عِلْم أنسال آدم من أَلفاظ هذه الآيات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومقصد هذه الآية أَن إبليس أَخبر عن نفسه أَنه يأْتي لإضلال ابن آدم من كل جهة ، وعلى كل طريق ، يفسد عليه ما أَمكنه من معتقده ، وينسيه صالح أَعمال الآخرة ، ويغريه بقبيح أَعمال الدنيا ، فعبر عن ذلك بأَلفاظ تقتضي الإحاطة بهم ، وفي اللفظ تَجَوُّز ، وهذا قول جماعة من المفسرين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه : أَراد بقوله : «مِنْ بَيْن أَيْديهم» الآخرة ، «ومِنْ خَلْفهم» الدنيا ، «وَعَنْ أَيْمَانهم» الحق ، «وعَنْ شَمَائِلهم» الباطل . وقال ابن عباس أَيضاً فيما روي عنه : «مِنْ بيْن أَيديهم» هي الدنيا ، «ومِنْ خَلْفهم» هي الآخرة ، «وعَنْ أَيْمَانهم» الحسنات ، «وعَنْ شَمائلهم» السيئات . وقال مجاهد :

«مِنْ بيْنَ أَيْديهم» «وعَنْ أَيْمانهم» معناه : حيث يبصرون ، «وَمِنْ خَلْفِهم» «وعَنْ شَمَائِلِهم» حيث لا يبصرون.

وقوله : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أخبر أن سعايته تفعل ذلك ظَنًّا منه وتوهُّماً في خلقة آدم حين رأى خلقته من أشياء مختلفة ، فعلم أنه ستكون لهم شِيَمٌ تقتضي طاعته كالغلِّ والحسد والشهوات ونحو ذلك ، قال ابن عباس ، وقتادة : إلَّا أن إبليس لم يقل إنه يأْتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومنّه . وما ظنّه إبليس صدقه الله عزَّ وجلَّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّه فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فجعل أكثر العالم كفرة ، وَيُبَيِّنُهُ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث : (يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : يا آدم ، أخرج بعث النار ، فيقول : ياربّ وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وواحد إلى الجنة) ، ونحوه مما يخص أُمة محمد عليه الصلاه والسلام ، (ما أنتم في الأُمم إلَّا كالشعرة البيضاء في الثور الأَسود)[2] .

(١) الآية (٢٠) من سورة (سبإ) .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والإمام البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي كتاب الإيمان ، ويفهم من كلام ابن عطية أنهما حديثان ، ولكنهما حديث واحد ، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عزّ وجلّ يومَ القيامة : يا آدم ، فيقول : لبَّيْك ربنا وسعْدَيْك ،=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله : (كالشعرة) يحتمل أن يريد شعرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يردُّه . ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس ، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أنبتت في خلال سواده شعرة بيضاءُ ، ويحتمل أن يريد اللمعة من الشعر الأبيض وهذا فيه بعد . وقوله [شاكِرِين] معناه : مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ الضمير في [مِنْها] عائد على الجنة ، و [مَذْءُوماً] معناه : معيباً ، يقال : ذأمه إذا عابه ، ومنه الذأم وهو العيب ، وفي المثل : «لن تعدم الحسناءُ ذاما» (١)

= فيُنادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذُرِّيتك بعثا إلى النار ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف أُراه قال : تسعمائة وتسعةً وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد وتَرى النَّاس سُكارى وما هُمْ بِسُكارى ولكنَّ عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعةً وتسعين ومنكم واحدٌ ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنَّة ، فكبَّرنا ، ثم قال : ثُلُث أهل الجنَّة فكبَّرنا ، ثم قال : شَطْر أهل الجنَّة فكبَّرنا) .

(١) المثل كما جاء في «مجمع الأمثال للميداني» هو : (لا تعدَمُ الحسناءُ ذاماً) — قال : الذَّام والذَّيْم : العيب . ومثله : العاب والعيْبُ في الوزن ، وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حُبيّ بنت مالك بن عمرو العدوانية ، وكانت من أجمل النساء ، فسمع بجمالها ملك غسّان فخطبها إلى أبيها وحكّمه في مهرها وسأله تعجيلها ، فلما عزم الأمر قالت أمها لتُبَّاعها : إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هَنَة ، فإذا أردْتُنَّ إدخالها على زوجها فطيِّبْنَها بما في أصدافها ، فلما كان الوقت أعجلهن زوجها فأغْفَلْنَ تَطْييبَها ، فلما أصبح قيل له: كيف وجدت أهلك طروقتك البارحة ؟ فقال : ما رأيتُ كالليلة قط لولا رُوَيْحة أنكرتُها ، فقالت وهي من خلف الستر : لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً» فأرسلتها مثلا .

أي عيباً ، وسهلت فيه الهمزة ، ومنه قول قيْل حمير : أردت أن تذمه فمدهته ، يريد : فمدحته ، وحكى الطبريُّ أنه يروى هذا البيت :

صَحبْتُكَ إذْ عَيْني عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فلَمَّا انجَلَتْ قطَّعْتُ نَفْسي أذيمها (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والرواية المشهورة ألومها . ومن المشاهد في اللفظ قول الكميت :

وهُمُ الأقْرَبُونَ مِنْ كُلِّ خَيْـــــر وهُمُ الأَبْعَـــدُون مِنْ كُلِّ ذام

ومن الشاهد في [مَدْحوراً] قول الشاعر :

وَدَحَرْتُ بني الحصيب إلى قُدَيْـد وقَدْ كانوا ذَوي أَشَرٍ وفخـر (٢)

وقرأ الزهري ، وأبو جعفر ، والأعمش في هذه الآية : [مَذوماً] على التسهيل . و [مَدْحُوراً] معناه : مقْصِيًّا مُبعدا ــ وقرأت فرقة : [لَمَنْ تَبِعَكَ] بفتح اللام وهي على هذه لامُ القسم المخرجةُ الكلامُ من الشك إلى القسم ، وقرأ عاصم الجحدري ، والأعمش : [لِمَن تَبِعَكَ] بكسر اللام ، والمعنى : لأجل من تبعك لأملأن جهنم منكم أجمعين ، فأدخله في الوعيد معهم بحكم هذه الكاف في [مِنْكُمْ] .

---

(١) البيت في (اللســان ــ غشا) ــ قــال : أنشد ابن بري للحــارث بن خالد المخزومي ، وذكر : « ألومهـا » بدلا من « أذيمهـا » . وهذا ما عقّب به ابن عطية على رواية الطبري للبيت .

(٢) دحره : أبعده وطرده ، وقُدَيْد : مكان ، والأشَر : البطر والكبرياء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

إذا أُمر الإنسان بشيءٍ هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيئته . وقوله تعالى لآدم [اسْكُنْ] هو من هذا الباب . وأكَّد الضمير الذي في قوله : [اسْكُنْ] بقوله : [أَنْتَ] وحينئذ جاز العطف عليه وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب ، والعطف على الضمير الملفوظ به لا يجوز إلا بعد تأْكيده كقولك : قمتَ أَنت وزيد ، لأَن الضمير بمنزلة حرف من الفعل ، وهذا الضمير الذي في [اسْكُن] أَضعف من الملفوظ به فأَحرى أَلَّا يصح العطف عليه إلا بعد التأْكيد .

وقوله تعالى : [فَكُلَا] هو من (أَكَلَ) ، فأَصله أُوكُلا فحذفت فاءُ الفعل لاجتماع المثلين ، واستغني عن الأُخرى لما تحرَّك ما بعدها ، وحسُن أَيضاً حذف فاءُ الفعل لأَنهم استثقلوا الحركة على حرف علة ، وهذا باب كل فِعْل أَوله همزة ووزنه فَعَل كأُخذ وأمر ونحوه ، وكان القياس أَلا تحذف فاءُ الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا [(١)] .

ويقال : قرب يقرب . و [هَذِهِ الشَّجَرَةَ] الظاهر أَنه أَشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأَرادها ، ويحتمل أَن يشير إلى شجرة معينة

(١) قال في (اللسان) : «وقد أُخْرِج على الأصل فقيل : أُوكُلْ ، وكذلك القول في خُذْ ومُرْ» .

وهو يريد النوع بجملته ، وعبَّر باسم الواحدة كما تقول : أَصاب الناس الدينار والدرهم ، وأَنت تريد النوع .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى الاحتمالين فآدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه ، قاله جمهور المتأَولين ، وبذلك أَغواه إبليس لعنه الله بقوله : إنك لم تُنْه إلَّا لئلا تخلد أَو تكون ملكاً ، فيبطل بهذا قول من قال : إن آدم إنما أَخطأَ متأَولا بأَن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأَكل من النوع فلم يعذر بالخطإِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك أَن القائل إنما يفرض آدم معتقداً أَن النهي إنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد : إنك لم تُنْه إلَّا لئلا تخلد ، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه ؟ ولا فرق بين أَكله ما يعتقد أَنه لم يُنْه عنه وبين أَكله سائر المباحات له .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والهاءُ الأَخيرة في [هَذِهِ] بدل من الياءِ في (هذي) أُبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاءً حملاً على الوقف ، وليس في الكلام هاءُ تأْنيث قبلها كسرة إلَّا هذه . وقرأَ ابن محيصن : [هَذِي ٱلشَّجَرَةَ] على الأَصل . وقوله تعالى : [فَتَكُونا] نصب في جواب النهي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتعلق الناس بهذه الآية في مسألة الحظر والإباحة ، وذلك أن مسألة الحظر والإباحة تكلّم الناس فيها على ضربين : فأما الفقهاءُ فدعاهم إلى الكلام فيها أنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عزَّ وجلَّ ولا في سنة نبيّه ولا في إجماع ، ويعتم وجه استقرائها من أحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها ، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أي جهة يحملها من الإجازة والمنع ، فقال بعضهم : إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر ، ونأْخذ فيه بالشدة ، ونستبرئ لأَنفسنا ، إذ الله عزَّ وجلَّ قد بيّن لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه ، وأحل ما أَراد تحليله ، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد فاجترامنا نحن عليه لا تقتضيه الشريعة . وقال بعضهم : بل نحملها على الإباحة لأَن الله عزَّ وجلَّ قد أكمل لنا ديننا وحرَّم علينا ما شاء تحريمه ، ولم يهمل النص على نازلة إلّا وقد تركها في جملة المباح ، وبعيد أَن يريد في شيءٍ التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في عمى الجهالة به ، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأَ الحظر . وقال بعضهم : بل نحمل ذلك على الوقف أَبداً ولا نحكم فيه بحظر ولا إباحة ، بل نطلب فيه النظر والقياس أَبداً ، وذلك لأَنا نجد الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه : «حرّم عليكم» في مواضع ، ويقول : «أُحِلَّ لكم» في مواضع ، فدلَّ ذلك على أَن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر ، إمَّا مخصوصاً بها ، وإما

مشتملا عليها وعلى غيرها ، ولو كانت الأَشياءُ على الحظر لما قال في شيءٍ: «حُرِّم عليكم» ، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيءٍ: «أُحِلَّ لَكُمْ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا أَبين الأَقوال ، ولم يتعرض الفقهاءُ في هذه المسأَلة إلى النظر في تحسين العقل وتقبيحه ، وإنما تمسكوا في أَقوالهم هذه بأَسباب الشريعة ، وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها .

وأَما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم : إن العقل يحسّن ويقبّح – نظروا في المسأَلة من هذه الجهة فقالوا : نفرض زمناً لا شرع فيه ، أَو رجلاً نشأَ في بريّة ولم يُحِسَّ قط بشرع ولا بأَمر ولا بنهي ، أَو نقدر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأَرض قد تُرك وعقله قبل أَن يُؤمر ويُنهى . كيف كانت الأَشياءُ عليه ؟ أَو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين ؟ فقال بعضهم : الذي يحْسُن في العقل أَن تكون محظورة كلها حتى يرد الإِذن باستباحتها ، وذلك أَن استباحتها تَعَدٍّ على ملك الغير ، وإذا قبُح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أَعظم حرمة ، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناءِ التنفس والحركة من هذا الحظ وقالوا : إن هذه لا يمكن غيرها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويمكن أَن يقدر الاضطرار إليها إباحة لها . وقال بعضهم : بل يحسُنُ في العقل أَن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر

عليه فيه كالاستظلال بالجدران ونحوه مباح ، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالى ووجوده أجوز ، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ويتعلق بحقه شيءٌ من ذلك .

وقال أهل الحق والسُّنة في هذا النحْو من النظر : بل الأَمر في نفسه على الوقف ، ولا يوجب العقل تحسيناً ولا تقبيحاً بمجرده يُدان بِهِ ، ولا يتَّجه حكم الحسَنِ والقبيح إلا بالشرع . وقال بعضهم : والعقل لم يخْلُ قط من شرْع ، فلا معنى للخوض في هذه المسأَلة ولا لفَرْض مالا يقع ، وذهبوا إلى الاحتجاج بأَن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأَوامر والنواهي في الجنة بقوله تعالى له حين جرى الرُّوح في جسده فعطس : قل الحمد لله يا آدم ، وبقوله : اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا . وقال القاضي الباقلاني في «التقريب والإرشاد» : إن الفقهاءَ الذين قالوا بالحظر والاباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم ، ولكنهم رأَوا كلاماً مُلَفَّقاً مُمَوَّهاً فاستحسنوه دون أَن يشعروا بما يؤول إليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقبيحه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا الكلام حمل على فقهاءِ الشرع واستقصار لهم ، والصواب أَلَّا يُظَنَّ بهم هذا الخلل ، وإنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإباحة من الشرع ، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أَنَّهم يدفعون الحق في أَن العقل لا يُحَسِّن ولا يُقَبّح دون الشرع

وقد تقدم في البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

الوسوسة : الحديث في خفاءٍ همساً وسراراً من الصوت ، والوَسْواس : صوت الحَلْي[١] فشبه الهمس به ، وسمي إلقاءُ الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إذ هي أبلغ السرار وأخفاه ، هذا في حال الشيطان معنا الآن ، وأما مع آدم فممكن أن تكون وسوسة بمجاورة خفية ، أو بإلقاءٍ في نفس ، ومن ذلك قول رؤبة :

وَسْوَسَ يدعو جاهداً ربَّ الفلق[٢]

فهذه عبارة عن كلام خفي ، والشيطان يراد به إبليس نفسه . واختلف نَقَلَة القصص في صورة وسوسته[٣] ، فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحيَّة مستَخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة . وروي أن آدم

(١) قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْي وَسْواساً إذا انْصَرَفَتْ   كما اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٍ زَجِلُ

(٢) هذا البيت من أرجوزة رؤبة المطوّلة في وصف المفازة . والبيت في وصف صيَّادٍ ، والرواية في (اللسان – والتاج – والطبري) « يدعو مخلصاً » بدلا من « جاهداً » ، وفي بعض النسخ « جاهراً » بالراء ، والمعنى : لـمّا أحس بالصيد وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبـة .

(٣) هذه العبارة توحي بأن ابن عطية لا يقبل هذه القصص كما حكيت ، وتحمل معنى الشك في صحتها ، وهو مذهب التزمه في تفسيره نحو الإسرائيليات ، فإما أن يتجاهلها ، وإما أن يشير إلى بعضها مع إظهار رفضه لها .

وحواء كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما . وروي أن الله تعالى أقدره على الإلقاء في نَفْسَيْهما فأغواهما وهو في الأرض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف يرده لفظ القرآن .

واللام في قوله تعالى : [لِيُبْدِيَ] هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة [١] ، وهذا بحسب آدم وحواء ، وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويمكن أن تكون لام كي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتها وإلقائها في العقوبة غير المخصوصة [٢] ، و [مَا وُورِيَ] معناه : ما سُتر ، من قولك : وارَى يوارِي إذا ستر ، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد ، ويمكن أن تقدر من اثنين لأن الشيء الذي يواري هو أيضاً من جهة . وقرأ ابن وثَّاب : [ما وُرِيَ] بواو واحدة . وقال قوم : إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول يوهنه التصريف .

---

(١) وهي في هذا كاللام في قوله تعالى في الآية (٨) من سورة (القصص) : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ .

(٢) يمكن أن تفهم هذه العبارة على أن اللام هي لام (كي) وأن إبليس كان يقصد فعلا كشف السوأة منهما وعلى هذا فكلمة (غير) تكون زائدة من النساخ ، فالعقوبة إذن مخصوصة — ويمكن أن يكون قصد أن يقعا في الخطأ وأن تحل بهما أي عقوبة فتكون كلمة (غير) سليمة في موقعها لأنه قصد إيقاعهما في عقوبة — أي عقوبة .

والسوأة : الفرج والدُّبر ، ويشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوءُ . وقرأ مجاهد والحسن : [مِنْ سَوَّتِهِمَا] بالإفراد وتسهيل الهمزة وشدّ الواو . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ، والحسن ، والزهري : [مِن سَوَّاتِهِمَا] بتسهيل الهمزة وتشديد الواو ، وحكاها سيبويه لغة ، قال أبو الفتح : وَوَجْهها حذف الهمزة وإلقاءُ حركتها على الواو فيقولون : سوَة ، ومنهم من يُشدِّدُ الواو ، وقالت طائفة : إن هذه العبارة إنما قصد بها أنها كشفت لهما معانيهما وما يسوؤُهما ولم يقصد بها العورة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول كان اللفظ يحتمله إلا أن ذكر خصف الورق يردُّه ، إلَّا أن يقدر الضمير في [عليْهِمَا] عائد على بدنيهما إذ تمزقت عنهما ثياب الجنة فيصح القول المذكور .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مَانَهَاكُمَا﴾ الآية ، هذا القول الذي حكي عن إبليس يدخله من هذا التأْويل ما دخل الوسوسة ، فممكن أن يقول هذا مخاطبة وحواراً ، وممكن أن يقوله إلقاءً في النفس ووحياً .

و [إلَّا أَنْ] تقديره عند سيبويه والبصريين : إلَّا كراهية أن . وتقديره عند الكوفيين : إلَّا أن لا ، على إضمار (لا) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُرَجّح قولُ البصريين أن إضمار الأَسماءِ أحسن من إضمار الحروف .

وقرأ جمهور الناس : [مَلَكَيْنِ] بفتح اللام ، وقرأ ابن عباس ، ويحيي بن كثير ، والضحاك : [مَلِكَيْنِ] بكسر اللام ، ويؤيد هذه

القراءة قوله تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[(١)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال بعض الناس : يخرج من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر ، وهي مسألة اختلف الناس فيها ، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة ، والفضل بيد الله ، وقال ابن فُورَك : لا حجَّة في هذه الآية لأنه يحتمل أن يريد مَلَكَيْن في ألَّا تكون لهما شهوة في طعام .[(٢)]

[وَقَاسَمَهُمَا] أي حلف لهما بالله ، وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقَسَم وتقريره ، وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد ، ومثله قولُ الهُزَلِيِّ:

وَقَاسَمَهُمَا بالله جَهْداً لأَنْتُم ... أَلَذُّ من السَّلْوى إذا ما نَشُورُهَا[(٣)]

وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره : ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف حانثاً ، فقال بعض العلماء : خدع الشيطان آدم بالله عزَّ وجلَّ فانخدع ، ونحن من خدعنا بالله عزَّ وجلَّ انخدعنا له ، ورُوي نحوه عن قتادة .

---

(١) من الآية (١٢٠) من سورة (طه) . ﴿قَالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ .

(٢) قال النحاس: فضَّل الله الملائكة بهذه الآية ، وبقوله سبحانه : ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وبقوله : ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ . وقال الحسن : فضلهم بالصور والأجنحة والكرامة ، وقيل : فضلهم بالطاعة وترك المعصية ــ واختار ابن عباس ، والزجاج ، وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين . وأنكر أبو عمرو بن العلاء قراءة كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم مَلِك فيصيرا مَلِكَيْن .

(٣) البيت لخالد بن زهير كما قال صاحب (اللسان ــ سلا) . والسَّلْوى : العسل ، وشارَ العَسَل : اجتناه وأخذه من خليَّته . قال الزجَّاج : أخطأ خالد ، إنما السلوى طائر ، وقال الفارسي يرد على الزَّجاج : السلوى : كل ما سلاك ، وقيل للعسل : سلوى لأنه يسلِّيك بحلاوته ، وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤنة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة .

واللام في قوله تعالى : [لَكُمَا] متعلقة بـ [النَّاصِحِينَ] ، فقال بعض الناس ، مكي وغيره : ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنى (الذي) ، لأنها إذا كانت بمعنى (الذي) كان قوله تبارك وتعالى : [لَكُمَا] داخلا في الصلة فلا يجوز تقديمه ، وأظن أن أبا علي الفارسي خرَّج جواز تقديمه وهي بمعنى (الذي) ، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى (الذي) كانت اللام في قوله [لَكُمَا] متعلقة بمحذوف تقديره : إني ناصحٌ لكما من الناصحين . وقال أبو العالية في بعض القراءة : «وقاسَمَهُما باللهِ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يريد : فغرهما بقوله وخدعهما بمكره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلِّي آخر من هُوَّة بحبل قد أَرَمَّ(١) ، أو بسبب ضعيف يغتر به ، فإذا تدلَّى به وتُورِك عليه

(١) هكذا في الأصول (أرَمَّ) ــ والذي في المعاجم : رمَّ الحَبْلُ : تقَطَّع ، والرِّمَّةُ والرُّمَّة : قطعة من الحبل بالية ، وبه سمّى غَيْلان العدوي الشاعر لقوله في وصف رأس الوَتِد : (فيه بقايا رُمَّة التَّقْليد) ، ولم نجد في المعاجم (أرَمَّ) بمعنى (رَمَّ) فانظر لعلَّ الهمزة زائدة من النساخ ، ولعلَّها تكون عربية في مراجع لم نعثر عليها .

انقطع به فهلك ، فَيُشَبَّه الذي يُغَرُّ بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يُدَلَّى في هُوَّة بسبب ضعيف .

وعلق حكم العقوبة بالذَّوق [١] إذ هو أول الأَكل وبه يرتكب النَّهي ، وفي آية أُخرى : ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [٢] .

وقوله تعالى : [بَدَتْ] ، قيل : تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تَبَرِّياً منهما ، وقال وهب بن مُنبِّه : كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور ، قال ابن عباس وقتادة : كان عليهما ظفرٌ كاسٍ[٣] فلما عصيا تقلَّص عنهما فبدت سوآتهما وبقي منه على الأَصابع قدر ما يتذكَّران به المعصية فيجددان الندم .

[وَطَفِقَا] معناه : أَخذا وجعلا ، وهو فعل لا يختص بوقت كبَاتَ وظَلَّ ، و [يخصِفَانِ] معناه : يلصقانها ويضمان بعضها إلى بعض ، والمِخْصَفُ : الإِشْفَى [٤] ، والخصف : ضم الورق بعضه إلى بعض

---

(١) الذَّوْق : مصدر ذاقَ الشيء يذوقُه ذوقاً وذَوَاقاً ومَذَاقاً — أما قولُنا : تَذَوَّقْتُه فمعناه : ذقْتُه شيئاً بعد شيء ، وقال ابن الأعرابي : الذَّوْقُ يكون بالفم وبغير الفم وعليه قوله تعالى : ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِها﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الكَرِيم﴾ ، ومنه الحديث الشريف : (حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك) . (اللسان والتاج) .

(٢) من الآية (١٢١) من سورة (طه) .

(٣) قيل : كان يُغطي جسم كلٌّ منهما غطاءٌ كاملا ظفر كالذي ترى بقيته الآن على أطراف الأصابع .

(٤) الإشْفَى : مِخْرزُ الإسكافِ ، وجمعه : أشافٍ ، ويُسَمَّى أيضاً : المِثْقَب .

أَشْبه بالْخَرْزِ منه بالخياطة . وقرأ جمهور الناس : [يَخْصِفَانِ] من خصَفَ ، وقرأ عبد الله بن بريدة : [يَخَصِّفَان][١] بِشد الصاد ، وقرأ الزُّهري : [يُخْصِفَان] من أخصف ، وقرأ الحسن فيما روي عنه محبوب : [يَخَصِّفَان] بفتح الياءِ والخاءِ وكسر الصاد وشدها[٢] ، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب ، وأَصلها «يَخْتَصفان» ، كما تقول : سمعت الحديث واستمعته . فأُدغمت التاءُ في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاءِ ، وكذلك الأَصل في القراءَة بكسر الخاءِ بعد هذه ، لكن لما سكنت التاءُ وأُدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاءُ على عرف التقاءِ الساكنين ، وقرأ الحسن ، والأَعرج ، ومجاهد [يَخِصِّفَان] بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وكسر الصاد وشدها ، وقد تقدم تعليلها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الورق الذي خصف منه ورق التين ، (وروى أُبي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأَنه نخلة سموق ، فلما واقع المعصية وبدت له حالُه فرَّ على وجهه فأَخذت شجرة بشعر رأْسه يقال إنها الزيتونة ، فقال لها : أَرسليني ، فقالت : ما أَنا بمرسلتك ، فناداه رَبُّه : أَمِني تفرُّ يا آدم ؟ قال : لا يا رب ولكني استحيتك ، قال :

---

(١) الأصل : يَخْتَصفان ، فأُلقيت حركة التاء (الفتحة) على الخاء .

(٢) هذه قراءة الحسن فيما رواه عنه محبوب ، والقراءة المشهورة عنه بكسر الخاء وهي موافقة لقراءة الأعرج ومجاهد .

أما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عمّا حرمت عليك ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأَرض ثم لا تنال العيش إلَّا كدّاً)[١] .

وقوله تعالى : [وَنَادَاهُمَا] الآية ، قال الجمهور : إن هذا النداء نداءُ وحي بواسطة ، ويؤيد ذلك أنا نتلقى من الشرع أن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام ، وأَيضاً ففي حديث الشفاعة أَنَّ بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة : أَنت خصك الله بكلامه واصطفاك برسالته ، اذهب فاشفع للناس) ،[٢] وهذا ظاهره أنه مخصص ، وقالت فرقة : بل هو نداءُ تكليم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة [٣] أَن رســول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم فقــال : (نبي

(١) رواه ابن جرير ، وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً ، وأخرجه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أُبي بن كعب ، وأخرج مثله عبد الرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما . (ابن كثير) .

(٢) حديث الشفاعة ثابت في الصحاح ، وقد رواه البخاري كاملا في تفسير سورة الإسراء ، وفي كتاب التوحيد ، وفي مواضع أخرى كثيرة ، ولفظه عن موسى : (فيأتون موسى ، فيقولون: يا موسى ، أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك...) الخ ، كذلك رواه مسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي في التفسير ، وابن ماجة في الزهد ، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده .

(٣) اسمه أحمد بن زهير بن حرب بن شداد النسائي البغدادي ، مؤرخ ، من حفاظ الحديث ، كان ثقة راوية للأدب ، بصيراً بأيام الناس ، له مذهب ، ونُسب إلى القول بالقدر ، أصلُه من نَسَا ، ومولده ووفاته ببغداد . من تصانيفه « التاريخ الكبير » (الأعلام) .

مكلَّم)[١]، وأيضاً فإن موسى خصص بين البشر الساكنين في الأَرض، وأما آدم إذ كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأَرض، فليس في تكليمه ما يُفْسِدُ تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أَنه نداءُ وحي اشتراك حواءَ فيه، ولم يُرْوَ قط أَن الله عزَّ وجل كلم حواءَ، ويتأَول قوله عليه الصلاة والسلام: (نبي مُكَلَّم) أَنه بمعنى موصل إليه كلام الله تبارك وتعالى.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ سؤال تقرير يتضمن التوبيخ، وقوله تعالى: [تِلْكُمَا] يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أَنه إنما أَشار إلى شخص شجرة ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[٢]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه، وقرأَ أُبي بن كعب: «أَلَمْ تُنْهَيَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة وقيلَ لَكُمَا»؟ وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ اعتراف من آدم وحواءَ عليهما السلام، وطلب للتوبة والستر والتَّغَمُّد بالرحمة، فَطلَبَ آدمُ هذا وطَلَبَ إبليس النظرة، ولم يطلب التوبة فَوُكِلَ إلى رأْيه، قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تَلَقَّى آدم من ربّه.

---

(١) الحديث مروي في مسند الإمام أحمد في ثلاثة مواضع كما جاء في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي».

(٢) من الآية (١١٧) من سورة (طه).

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

المخاطبة بقوله تعالى : [اهْبِطُوا] قال أَبو صالح ، والسدي ، والطبري ، وغيرهم : هي لآدم وحواءَ وإبليس والحيَّة . وقالت فرقة : هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت ، فإن قيل : خاطبهم وأَمرهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأَن الأَمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على المأْمور بعد وجوده وصحَّ معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك ، وأَما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم ، ولا يتعلق بهم من الأَمر به شيءٌ ، وأَما قوله تعالى في آية أُخرى : [ٱهْبِطَا][1] فهي مخاطبة لآدم وإبليس بدليل بيانه العداوة بينهما .

---

(١) في الآية (١٢٣) من سورة (طه) ، ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...﴾ .

و [عَدُوٌّ] فرد بمعنى الجمع ، تقول : قومٌ عدوٌّ وقومٌ صديقٌ ، ومنه قول الشاعر :

لَعَمْري لَئِنْ كنْتُمْ عَلَى النَّأْيِ والْغنى بكُمْ مِثْلُ ما بي إِنَّكُمْ لَصَديقُ (١)

وعداوة الحيات معروفة ، وروى قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ما سَالَمْنَاهُنَّ منذ حاربناهن) (٢) ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «من تركهن فليس منا» ، وقالت عائشة رضي الله عنها : «من ترك حيَّة خشية من ثأْرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق (٣) ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام : (إنَّ جنًّا بالمدينة قد أسلموا ، فمن رأى من

---

(١) البيت في (اللسان — صدق) ، وفيه «على النأي والنَّوَى» بدلا من «على النأي والغنى» ، ولم ينسبه ، بل قال : «وقد يكون الصديق جمعاً ، وفي التنزيل : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ألا تراه عطفه على الجمع ؟» ، ثم قال : «وقال آخر في جمع المذكر : «لعمري ... البيت» . وقد أجاب ابن عطية عن سؤال هو : كيف قال : (عَدُوٌّ) ولم يقل أعداء ، وجوابه أنه يفرد في موضع الجمع كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ بمعنى : أعداء . ويمكن أن يجاب بأن بعضاً وكلا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى . قال تعالى : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ على اللفظ ، وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ على المعنى . والجوابان في تفسير القرطبي .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده — عن أبي هريرة ج ٢ ص ٢٤٧ — وفي آخره (يعني الحيات) .

(٣) رواه مسلم ، ومالك في الموطأ — عن أبي السَّائب مولى هشام بن زهرة وقد دخل على أبي سعيد الخدري فوجده يصلي ، وبينما هو في انتظار فراغه إذا بحيَّة في ناحية البيت ... الخ. وفيه قصة الفتى التي يشير إليها ابن عطية .

هذه الحيات شيئاً في بيته فَلْيُحَرِّج عليه ثلاثاً ، فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر) [(١)] .

وقوله تعالى : [مُسْتَقَرٌّ] لفظ عام لِزَمن الحياة ولِزَمَن الإقامة في القبور ، وبزمن الحياة فسَّر أَبو العالية وقال : هي كقوله تبارك وتعالى : ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً﴾[(٢)] ، وبالإقامة في القبور فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما ، واللفظ يَعُمّهما ، فهي كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾[(٣)] ، وأَما المتاع فهو بحسب شخص شخص في زمن الحياة ، اللَّهم إلا أَن تقدر سكنى القبر متاعاً بوجه مّا ، والمتاع : التَمَتُّعْ والنَّيْل من الفوائد ، و [إِلَى حِينٍ] هو بحسب الجملة : قيام الساعة ، وبحسب مفرد مفرد : بلوغ الأَجل والموت . والحِينُ في كلام العرب : الوقتُ غير مُعَيَّن[(٤)] .

---

(١) روى مثله الإمام أحمد في مسنده — ج ٣ ص ٢٧ . ولفظه : عن أبي سعيد الخدري قال : وجد رجل في منزله حية فأخذ رمحه فشكها فيه ، فلم تمت الحيَّة حتى مات الرجل ، فأُخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إن معكم عوامر فإذا رأيتم منهم شيئاً فحرّجوا عليه ثلاثاً ، فإن رأيتموه بعد ذلك فاقتلوه) . ومعنى «حرِّجوا هو أن يقول للحية : أنت في حرَج ، أي في ضيق إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نُضيِّق عليك بالتتبع والطرد والقتل — قاله ابن الأثير — في كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» .

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (البقرة) .

(٣) الآيتان (٢٥ ، ٢٦) من سورة (المرسلات) .

(٤) يكون الحين بمعنى المُدَّة كقوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ ، وبمعنى الساعة كقوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ﴾ ، قيل : وبمعنى السَّنَة كقوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وقيل في هذه الآية : إنه بمعنى : كلما حان موعد الإثمار . قال الأزهري: الحين : اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت .

ورُوِيَ أَن آدم عليه السلام أُهبط بالهند ، وحواءَ بجُدَّة ، وتمناها بمِنى ، وعرف حقيقة أَمرها بعرفة ، ولقيها بجَمْع[(١)] ، وأُهبط إبليس بمَيْسان[(٢)] ، وقيل : بالبصرة ، وقيل : بمصر - فباض فيها وفرخ . قال ابن عمر رضي الله عنهما : وبسط إبليس فيها عبقريه ، وذكر صالح مولى التؤمة قال : في بعض الكتب : لما أُهبط إبليس قال : ربّ أَين مسكني ؟ قال : مسكنك الحمام ، ومجلسك الأَسواقُ ، ولهوك المزامير ، وطعامك ما لم يذكر عليه اسمي ، وشرابك المسكر ، ورسلك الشهوات ، وحبائلك النساءُ . وأُهبطت الحيَّة بأَصبهان ، ورُوي أَنها كانت ذات قوائم كالبعير فعوقبت بأَن رُدَّت تنساب على بطنها .

ورُوي أَن آدم لما أُهبط إلى شقاء الدنيا علم صنعة الحديد ، ثم علم الحرث فحرث وسقى وحصد وذرا وطحن وعجن وخبز وطبخ وأَكل فلم يبلغ إلى ذلك حتى بلغ من الجهد ما شاءَ الله ، ورُوي أَن حواءَ قيل لها : يا حواءُ ، كما دميت الشجرة تدمين في كل شهر ، وأَنت لا تحملين إلا كرهاً ولا تضعين إلا كرهاً ، قال : فَرَنَّت عند ذلك ، فقيل لها : الرَّنَّة عليك وعلى ولدك[(٣)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذه القصة من الأَنباءِ كثير ، اختصرتها إذ لا يقتضيها اللفظ .

---

(١) هو المزدلفة ، أو موضع فيها . وأيام منى تسمى : أيام جَمْع ، ويوم عرفة يسمى : يومَ جَمْعْ .

(٢) مَيْسان بفتح الميم وسكون الياء : كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط ، ومركزها مَيْسان أيضاً .

(٣) رَنَّ : صوّتَ وصاح ، والرَّنَّة : الصوت الحزين عند الغناء أو البكاء .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية . حكم من الله عزَّ وجلَّ أمضاه وجعله حتماً في رقاب العبادِ ، يحيَوْن في الأَرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياءً ، كما أنشأً أوَّل خلق يُعيده .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : [تُخْرَجُونَ] بضم التاء وفتح الراء هنا وفي الروم (١) ، وكذلك حيث تكرر (٢) إلا في الروم ﴿إِذْ أَنْتُمْ تخرُجُونَ﴾ (٣) ، وفي سأل سَائِلٌ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾ (٤) فإن هذين بفتح التاء والياء وضم الراء ولم يختلف الناس فيهما . وقرأ حمزة ، والكسائي في الأَعراف : ﴿وَمِنْهَا تَخْرجونَ﴾ بفتح التاء وضم الراء ، وفتح ابن عامر التاءَ في الأَعراف وضمَّها في الباقي .

وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية . هذا خطاب لجميع الأُمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام ، والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرى في طوافه بالبيت ، ذكر النقاش ثقيفاً وخُزاعة وبني عامر بن

---

(١) في الآية (١٩) من سورة (الروم) وهي قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ .

(٢) تكرر في الآية (١١) من سورة (الزخرف) : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ، وفي الآية (٣٥) من سورة (الجاثية) : ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، وتكرر أيضاً في (الروم) مرة ثانية ، وفي (المعارج) ، ولكن القراءة فيهما بفتح التاء والياء وضم الراء دون اختلاف كما ذكر ابن عطية .

(٣) في الآية رقم (٢٥) .

(٤) في الآية رقم (٤٣) . (راجع في هذه القراءات كتاب : « النشر في القراءات العشر » لابن الجزري . وكتاب : « الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه) .

صَعصَعَة وبني مُدْلج وعامر والحارث ابنيْ عبد مناف فإنها كانت عادتهم رجالاً ونساءً ، وذلك غاية العار والعصيان ، قال مجاهد : ففيهم نزلت هذه الأربع الآيات .

وقوله تعالى : [أَنْزَلْنَا] يحتمل أن يريد التدرُّج ، أي : لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يُلْبس قال عن اللباس : أنزلنا ، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً :

أَقْبلَ في الْمُسْتَنِّ من سَحَابِه أَسْنِمَةُ الآبَالِ في رَبَابِه [(١)]

أَي : بالمال . ويحتمل أن يريد : «خلقنا» فجاءت العبارة بـ [أَنْزَلْنَا] كقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ﴾ [(٢)] وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [(٣)] ، وأيضاً فخلْق الله عزَّ وجلَّ وأفعاله إنما هي من علوٍّ في القدر والمنزلة . و[لِبَاساً] عام في جميع ما يُلْبس ، و [يُوَارِي] يستر ، وفي حرف أُبي : «سوآتكم وزينة ولبس

---

(١) قال المبرد في «الكامل» : قال الراجز يصف غيماً :

أَقْبلَ في المسْتَنّ من ربَابِه أَسْنِمةُ الآبَال في سَحَابِه

والمسْتَنُّ : المضطرب ، يقال : اسْتَنَّ السراب : اضطرب كأنه يسيل . والرَّباب : السحاب الأبيض واحدته : ربابة . والآبال : جمع الإبل – ومعنى البيت أن ذلك السحاب جاء مضطرباً في السماء كأنه يسيل بالماء ، وهذا السحاب ينزل بالمطر فينبت ما تأكله الإبل فتكثر الشحوم في أسنمتها . فالمطر سبب النبات والنبات سبب الشحم في الأسنمة فكأن الأسنمة متجمعة في هذا السحاب الذي نزل منه المطر .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الحديد) .

(٣) من الآية (٦) من سورة (الزُّمَر) .

التقوى» ، وفي مصحف ابن مسعود : «ولباسُ التقوى خيرٌ ، ذلِكُمْ» ، ويروى عنه : «ذلك» ، وسقطت «ذلك» الأُولى . وقرأ سكن النحوي : «ولَبُوسُ التقوى» بالواو مرفوعة السين . وقرأ الجمهور من الناس : [وَريشاً] ، وقرأ الحسن ، وَزِرُّ بنُ حُبَيْش[١] ، وعاصم فيما رَوى عنه أبو عمرو أيضاً ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، وأبو رجاءٍ ، وزيد بن عليّ ، وعلي بن الحسين ، وقتادة : [وَرِيَاشاً] ؛ قال أبو الفتح : وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال أبو حاتم : رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهة العيش ووجود الملبس والتمتع ، وفسَّره قومٌ بالأثاث ، وفسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بالمال ، وكذلك قال السُّدي والضحاك ، وقال ابن زيد : الريش : الجَمال ، وقيل : الرياش : جمع ريش ، كبيرٍ وبيار وذيب وذياب ولِصْبٍ ولِصَابٍ[٢] وشِعْب وشعاب ، وقيل : الرياش : مصدر من أَراشه الله يَرِيشه إذا أنعم عليه ، والريش مصدر أيضاً من ذلك ، وفي الحديث : (رجل راشه الله مالاً)[٣]

---

(١) زرُّ بن حُبَيْش بن حباشة بن أوس الأسدي ، من جلة التابعين ، أدرك الجاهلية والإسلام ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، كان عالماً بالقرآن فاضلا ، وكان ابن مسعود يسأله عن العربية ، عاش مائة وعشرين ومات بدير الجماجم . (الإصابة – وحلية الأولياء) .

(٢) اللِّصْب بكسر اللام : كل مضيق في الجبل أو الوادي جمعه لُصُوبٌ ولِصَاب .

(٣) قال في «النهاية» : ومنه الحديث : (إن رجلا راشه الله مالا) أي : أعطاه . ومنه حديث أبي بكر والنَّسَّابة :

الرَّائشونَ وليْسَ يُعْرَفُ رائِشٌ والقائِلونَ هَلُمَّ لِلأضْيافِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن هذا كله من معنى ريش الطائر وريش السهم ، إذ هو لباسه وسُتْرَتُه وعونه على النفوذ ، وراشَ الله مأخوذ من ذلك ، ألا ترى أنها تُقرن بِبَرى ، ومن ذلك قول الشاعر :

فرِشْني بخَيْرٍ طالَمَا قَدْ بريْتَنِي وخَيْرُ الْمَوَالي مَنْ يَريشُ ولا يَبْري[1]

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي : [وَلِبَاسَ] بالنصب عطفاً على ما تقدم ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة : [وَلِبَاسُ] بالرفع ـ فقيل : هو خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : وهو لباس ، وقيل : هو مبتدأٌ و [ذَلِكَ] مبتدأٌ آخر و [خَيْرٌ] خبر [ذَلِكَ] والجملة خبر الأول ، وقيل : هو مبتدأٌ و [خَيْرٌ] خبره و [ذَلِكَ] بدلٌ أو عطف بيان أو صفة ، وهذا أنبل الأقوال ، ذكره أبو علي في الحجة .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ إشارة إلى جميع ما أنزل من اللباس والريش ، وحكى النقاش أن الإشارة إلى [لِبَاسُ التَّقْوَى] أي هو في العبد آيةٌ أي علامةٌ وأمارة من الله أنه قد رضي عنه ورحمه ، و [لَعَلَّهُمْ] ترَجٍّ بحسبهم ومبلغهم من المعرفة . وقال ابن جريج :

---

(١) نسب صاحب (اللسان) البيت لعُمَيْر بن حبَّاب ، لكن معلقه نقل عن شارح القاموس أن البيت لسُوَيْد الأنصاري ، ثم قال صاحبُ (اللسان) : «الرِّيشُ والرياش : الخِصب والمعاشُ والمالُ والأثاث واللباسُ الحسن الفاخر» ، ولكن الذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش هو ما ستر من ثياب أو معيشة ، وقد أنشد سيبويه :

فَريشي مِنْكُمُ وهَوَايَ مَعَكُم وإنْ كانَتْ زيارَتُنَا لِمامَا

أمَّا بَرَى فهو من قولهم : بَرَى السفر والجوع الإنسان والبعير : هَزَلَه ، فالشاعر يطلب من ممدوحه أن يُنْعم عليه بالخصب والخير إذ طالما أصابه بالهزال والضعف .

[لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى] : الإيمان ـ وقال معبد الجهني :[1] هو الحياءُ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو العمل الصالح ، وقال أيضاً : هو السَّمْت الحسن في الوجه ، وقاله عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر ، وقال عروة بن الزبير : هو خشية الله ، وقال ابن زيد : هو ستر العورة والسمت الحسن في الدنيا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [لِبَاسُ التَّقْوَى] : العفة ، وقال زيد بن علي : [لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى] السلاح وآلة الجهاد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها مثل وهي من لباس التقوى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي في قوله ذلك لأن الأسماءَ توصف بمعنى الإشارة كما تقول : جاءَني زيد هذا ، كأَنك قلت : جاءَني زيد المشار إليه ، فعلى هذا الحدّ توصف الأَسماءُ بالمبهمات ، وأَما قوله فيه : عطف بيان أَو بدل ، فهما واحد في اللفظ ، وإنما الفرق بينهما في المعنى والمقصد ، وذلك أَنك تريد في البدل كأَنك أَزلت الأَول وأَعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل ، وتريد في عطف البيان كأَنك أَبقيت الأَول ثم ثنيته بعينه في ذكر الثاني ، وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في مسأَلة النداءِ إذا قلت : يا عبد الله زيد ، فالبدل

(٢) هو معبد بن خالد الجُهَنِيّ أبو زرعة ، صحابي من القادة ، أسلم قديماً ، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جُهَيْنَة يوم فتح مكة ، وكان يلزم البادية ، عاش بضعاً وثمانين سنة . (الإصابة) .

في هذه المسألة هو على هذا الحد برفع (زيد) لأنك تقدر إزالة (عبد الله) وإضافة (يا) إلى (زيد)، ولو عطفت عطف البيان لقلت: يا عبد الله زيد، لأنك أردت بيانه ولم تقدر إزالة الأول، وينشد هذا البيت:

إنِّي وأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سطـــراً   لَقَائِلٌ: يا نصْرُ نَصْراً نَصْراً (١)

ونصرٌ الأَول على عطف البيان والثاني على البدل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذه المخاطبة لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً، فقيل: كان ذلك من عادة

---

(١) الرجز لرُؤْبة في نصر بن سيّار أمير خراسان، وكان للأمير حاجب يدعى نصراً — ويروى البيت برفع (نصر) الثانية — وفي إعراب كل من نصر الثانية والثالثة وجوه كثيرة يمكنك الرجوع إليها في حاشية الأمير (٢—٥١) والخزانة (١—٣٢٠)، وسيبويه (١—٣٠٤)، والسيوطي (٢٧٤). وقد ذكر النحاة فروقاً بين عطف البيان والبدل من أهمها أنّ العطف ليس في نيّة إحلاله محلّ الأول بخلاف البدل فهو في نيّة إحلاله محل الأول. ولكن هناك اتجاهاً واضحاً بمخالفة الرأي القائل بوجود هذه الفروق، يقول شارح الكافية الأستاذ محمد بن حسن الرضي: «أنا إلى الآن لم يظهر لي فرقٌ جليٌّ بين بدل الكل من الكل وعطف البيان، بل ما أرى عطف البيان إلا البدل كما هو ظاهر كلام سيبويه» (راجع الصبان في باب عطف البيان). وعلى كل فهذه مسألة نحوية لا تؤثر قليلا ولا كثيراً في بلاغة الكتاب العزيز، وغفر الله لشيوخنا الذين أكثروا من أمثالها في التفسير.

قريش ، وقال قتادة والضحاك : كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن ، وقيل : كانت العرب تطوف عراة إلا الحُمْس وهم قريش ومن والاها [١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الصحيح ، لأَن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سننا عظموا بها حرمتهم كانت هذه من ذلك ، فكان العربي إما أَن يعيره أَحد من الحُمْسِ ثوباً فيطوف به ، وإما أَن يطوف في ثيابه ثم يلقيها ، وتمادى الأَمر حتى صار عند العرب قُرْبة ، فكانت العرب تقول : نطوف عراة كما خرجنا من بطون أُمهاتنا ، ولا نطوف في ثياب قد تدنَّسنا فيها بالذنوب ، ومن طاف في ثيابه فكانت سُنَّتهم كما ذكرنا أَن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها ، وتسمى تلك الثياب اللَّقَى ، ومنه قول الشاعر :

كفَى حَزَناً كَرِّي عَلَيْه كأَنَّــــه ... لَقًى بَيْن أَيْدي الطَّائِفينَ حَرِيمُ [٢]

وكانت المرأَة تطوف عريانة حتى كانت إحداهن تقول :

الْيَوْمَ يَبْدو بَعْضُه أَوْ كُلُّـــــــه ... فَما بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّـــــهُ [٣]

---

(١) قال القرطبي : « الحُمْس : قريشٌ وما ولدت » ، قارن هذا بما قاله ابن عطية : « ومن والاها » .

(٢) اللَّقَى : ما طُرح وتُرك لهوانه ، وجمعه : أَلقـــاء ، قاله الجوهري واستشهد عليه بقول الشاعر :

فَلَيْتَكَ حالَ الْبَحْرُ دونَكَ كُلُّهُ ... وكنْتَ لقىً تجْري عليكَ السَّوائِلُ

ذكر ذلك صاحب اللسان. ولم نعثر على نسبة هذا البيت الذي ذكره ابن عطية فيما لدينا من المراجع.

(٣) قائلة هذا البيت هي ضُبَاعَةُ بنْتُ عامر بن قُرْط ، قال ذلك القاضي عياض ،=

فنهى الله عزَّ وجلَّ عن جميع ذلك ، ونودي بمكة في سنة تسع : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

والفتنة في هذه الآية : الاستهواءُ والغَلَبة على النفس ، وظاهر قوله تعالى : [لَا يَفْتِنَنَّكُمُ] نهي الشيطان ، والمعنى نَهْيُهم أَنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأَمره كما قالوا : «لا أَرينَّك ها هنا» ، فظاهر اللفظ نهي المتكلم نفسه ، ومعناه نهي الآخر عن الإقامة بحيث يراه . وأَضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس وذلك تجوّز بسبب أَنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له ، ويقال : أَب[1] ، وللأُم : أَبة . وعلى هذا قيل : أَبَوَان . و [يَنْزِعُ] في موضع الحال من الضمير في [أَخْرَجَ] .

وتقدم الخلاف في اللباس من قول من قال : الأَظفار ، ومن قال : النور ، ومن قال : ثياب الجنة ، وقال مجاهد : هي استعارة ، وإنما أَراد لبسة التقى المنزلة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

= وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة وتقول : من يُعيرني تِطْوَافاً تجعله على فرجها ، وتقول :

اليومَ يبْدو بعضُهُ أَوْ كُلُّــــهُ ... ومَا بَدَا منْهُ فَلَا أُحِلُّــــهُ

فنزلت هذه الآية : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والتِّطْوَاف بكسر التاء ، كما قال في القرطبي .

(١) أَبٌ أصله : أبوٌ لأن جمعه آباءٌ مثل قَفاً وأقفاء . ويقال : هما أبواه لأبيه وأُمّه ، وجائز في الشعر هما أباه ، وكذلك : رأيت أَبَيْه — واللغة العالية : رأيتُ أبويه . (عن المعاجم).

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾ الآية . زيادة في التحذير وإعلام أَن الله عزَّ وجلَّ قد مكَّن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر ، وبحسب ذلك يجب أَن يكون التحذر بطاعة الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والشيطان موجود قد قررته الشريعة ، وهو جسم ، [وقَبِيلُهُ] يريد : نوعه وصنفه وذريته . و [حَيْثُ] مبنية على الضم ، ومن العرب من يبنيها على الفتح ، وذلك لأَنها تدل على موضع بعينه ، قال الزجاج : ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إليه ، قال أَبو علي : هذا غير مستقيم ، وليست (حيثُ) بموصولة إذ ليس ثمَّ عائد كما في الموصولات ، وهي مضافة إلى ما بعدها .

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَنه صير الشياطين أَولياءَ ، أَي صحابة ومُداخلين إلى الكفرة الذين لا إيمان لهم ، وذكر الزهراوي أَن «جَعَلَ» هنا بمعنى وصف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهي نزعة اعتزالية .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ وما بعده داخل في صفة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالاً للمُوَبَّخين إذ أَشبه فعلهم فعل الممثل بهم . ويصح أَن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءَ إخبار عن كفار العرب .

والفاحشة في هذه الآية ــ وإن كان اللفظ عاماً ــ هي كشف العورة عند الطواف ، فقد رُوي عن الزهري أَنه قال : في ذلك نزلت هذه الآيات ،

وقاله ابن عباس ومجاهد ، وكان قول بعض الكفار : إن الله أمر بهذه السُّنن التي لنا وشرعها فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ إنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ، ثم وبخهم على كذبهم ، ووقفهم على قولهم مالا علم لهم به ولا رواية لهم فيه ، بل هو دعوى واختلاق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تضمن قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَقْسِطوا[1] ، ولذلك عطف عليه قوله تعالى : [وَأَقِيمُوا] حملا على المعنى . والقسْط : العدل والحق ، واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ـ فقيل : أراد إلى الكعبة ، قاله مجاهد ، والسدي ، والمقصد ـ على هذا ـ شرع القبلة والأمر بالتزامها . وقيل : أراد الأمر

---

(١) من الفوائد ما ذكره أبو حيان في « البحر » من أن المصدر قد ينحل لأن والفعل الماضي نحو : عجبت من قيام زيد وخرج ، أي : من أن قام وخرج ، وقد ينحل لأن والفعل المضارع نحو : « لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عيْني » أى : لأن ألبسَ وتقرَّ عيني ، كذلك ينحل لأن والفعل الأمر مثل هذه الآية : ﴿قلْ أمَرَ رَبِّي بالقسْطِ وأقيمُوا﴾ أي : بأن أقسطوا وأقيموا ، ومن الجائز أن توصل (أن) بفعل الأمر فيقال : كتبت إليه بأن قم . ولم يقبل الزمخشري هذا الكلام فقال إن الآية على تقدير قل ، يعني وقل أقيموا .

بإحضار النِّيَّة لله في كل صلاة والقصد نحوه كما تقول : وجهت وجهي لله ؛ قاله الربيع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة ، بل هو المقصد والمنزع .

وقيل : المراد بهذا اللفظ إباحة الصلاة في كل موضع من الأَرض ، أَي : حيثما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إقامة وجوهكم فيه لله عزَّ وجلَّ . قال قوم : سببُها أن قوماً كانوا لا يصلُّون إلا في مساجدهم في قبلتهم ، فإذا حضرت الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلوا فيها . وقوله تعالى : [مُخْلِصِينَ] حال من الضمير في [وَٱدْعُوهُ] ، و [الدِّينَ] مفعول بِـ [مُخْلِصِينَ] .

وقال الحسن بن أَبي الحسن ، وقتادة ، وابن عباس ، ومجاهد : المراد بقوله تبارك وتعالى : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بالبعث ، أَي : كما أَوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت ، فالوقف على هذا التأْويل – على [تَعُودُونَ] . و [فَرِيقاً] نصب بـ [هَدَى] ، والثاني منصوب بفعل تقديره : وعذب فريقاً أَو أَضل فريقاً حق عليهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ، وأَبو العالية ، ومحمد بن كعب ، ومجاهد أَيضاً ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وجابر بن عبد الله ، وروي معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم : المراد بقوله تعالى ﴿كَمَا

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الإعلام بأَن أَهل الشقاءِ والكفر في الدنيا الذين كتب عليهم هم أَهل الشقاءِ في الآخرة ، وأَهل السعادة والإِيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أَهلها في الآخرة ، لا يتبدل من الأُمور التي أَحكمها ودبَّرها وأَنفذها شيءُ ، فالوقف — في هذا التأْويل — على قوله : [تَعُودُونَ] غير حسن ، و [فَرِيقاً] — على هذا التأْويل — نصب على الحال ، والثاني عطف على الأَول . وفي قراءَة أُبي بن كعب : «تعودون فَريقَيْن فَريقاً هَدى وفَريقاً حقَّ عَلَيْهم الضَّلالةُ» .

والضمير في [إِنَّهُمُ] عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة . و [أَوْلِيَاءَ] معناه : أَنصاراً وأَصحاباً وإِخواناً ، [وَيحْسَبُونَ] معناه : يظنون ، يقال : حَسِبْتُ أَحْسَبَ حِسْبَاناً ومَحْسِبَةً . (١)

قال الطبري : وهذه الآية دليل على خطإٍ قول من زعم أَن الله تعالى لا يُعذِّب أَحداً على معصية ارتكبها أَو ضلالة اعتقدها إلا أَن يأْتيها على علم منه بموضع الصواب .

وقرأَ العباس بن الفضل ، وسهل بن شعيب ، وعيسى بن عمر : [أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا] بفتح الأَلف (٢) .

---

(١) اللغويون يقولون : حَسَبَ المالَ ونحوه : عدَّه ، والمصدرُ : حِسَاباً وحُسْباناً . وحسِب الشيءَ كائناً يحسِبُه ويحسَبُه بمعنى : ظنَّه ، والكسر في المضارع أجود اللغتين ، والمصدر : حِسْبَاناً ومحْسِبَة (بالفتح والكسر) . (عن : التهذيب — واللسان — والمعجم الوسيط).

(٢) أي بمعنى : لأنهم اتخذوا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا خطاب عام لجميع العالم ، وأُمروا بهذه الأَشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها .

والزينة ها هنا الثياب الساترة ، قاله مجاهد والسدي ، وقال طاوس : الشملة [1] من الزينة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يَقْصد به مستعملُه الخيلاءَ .

و ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند كل موضع سجود ، فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها ، هذا هو مهم الأَمر ، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها ، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك ، وذكر مكي حديثاً أَن معنى [خُذُوا زِينَتَكُمْ] صلُّوا في النعال ، وما أَحسبه يصح .

---

(١) الشملة : شُقة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك [١] في أيام الموسم ، قاله السدي وابن زيد ، وتدخل مع ذلك أيضاً البَحيرةُ والسائبة ونحو ذلك ، وقد نصَّ على ذلك قتادة وقال : إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله : ﴿وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه : ولا تُفْرطوا ، قال أَهل التأْويل : يريد : ولا تُسرفوا بأَن تحرموا على أَنفسكم ما لم يحرِّم الله عزَّ وجلَّ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الحلال سرف ، إنما السرف في ارتكاب المعاصي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريد : في الحلال القصد ، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً ، فمن تلبَّس بفعل حرام فتأَول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجَّه النهي عليه . ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأَوساط الأُمور فحسن ، وإن أَفْرط حتَّى دخل الضرر حصل أَيضاً من المسرفين وتوجَّه النهي عليه ، مثل ذلك أَن يُفرط إنسان في شراءِ ثياب ونحوها ويستنفذ في ذلك جُلَّ ماله ، أَو يُعطي ماله أَجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه ، فالله عزَّ وجلَّ لا يحب شيئاً من هذا ، وقد نهت الشريعة عنه ، ولذلك وقف النبي صلى الله عليه وسلم بالموصي عند الثلث ، وقال بعض العلماء : لو حط الناس إلى الربع لقول النبي

---

(١) الوَدَك : الدَّسم ، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه ، وشحم الألية والجنبين في الخروف والعجل .

عليه الصلاة والسلام : (والثلث كثير) [١] ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : أَحل الله الأَكل والشرب مالم يكن سرفاً أَو مَخيلة .

وأَمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يسأَلهم عمَّن حرَّم ما أَحل الله على جهة التوبيخ والتقرير ، وليس يقتضي هذا السؤال جواباً ، وإنما المراد منه التوقيف على سوءِ الفعل . وذكر بعض الناس أَن السؤال والجواب جاءَا في هذه الآية من جهة واحدة وتخبل قوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواباً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا نظر فاسد ، فليس ذلك بجواب السؤال ، ولا يقتضي هذا النوع من الأَسئلة جواباً ، و [زِينَةَ اللهِ] هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلوّ في الأَرض كالمال والبنين ،وهي الزينة التي فضل الشرع عليها.

وقوله تعالى : ﴿وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ قال الجمهور : يريد المحَلَّلات. وقال الشافعي وغيره : يريد : المسْتَلَذَّات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

إِلَّا أَن ذلك ولابد يشترط فيه أَن يكون من الحلال ، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول : هي من الخبائث محرمة .

(١) عن سعــد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليــه وسلم عاده في مرضه فسأله سعد عما يوصي به . . . إلى أن قـال : (والثلث كثير) . والحديث رواه البخاري في الجنـائز والوصايا وغيرهما ، ورواه مسلم في الوصية وغيرها ، والنسائي في الجنائز ، وابن ماجة في الوصايا .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ . قرأ نافع وحده [خَالِصَةٌ] بالرفع ، والباقون [خَالِصَةً] بالنصب ، والآية تتأول على معنيين .

أحدهما : أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا ، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون . فقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ [آمَنُوا] ، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير فإنه قال : قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها ، وقوله : [خَالِصَةٌ] بالرفع خبر [هِيَ] و [لِلَّذِينَ] تبيين للخلوص ، ويصح أن يكون [خَالِصةٌ] خبراً بعد خبر ، و [يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ] يريد به وقت الحساب ، وقرأ قتادة والكسائي : «قُلْ هِيَ لِمَنْ آمَنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا» .

والمعنى الثاني : هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم ، وهي يوم القيامة خالصة لهم ، أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة . وهذا قول ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، وابن زيد . فقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ـ على هذا التأويل ـ متعلق بالمحذوف المقدر في قوله سبحانه : [لِلَّذِين آمَنُوا] كأنه قال : هي خالصة أو مشتركة أو ثابتة في الحياة الدنيا للذين آمنوا ، و[خَالِصَةٌ] بالرفع خبر بعد خبر ، أو خبر ابتداءٍ مقدر تقديره : وهي خالصة يوم القيامة ، و [يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ] يراد به استمرار الكون في الجنة . وأما من نصب [خَالِصَةً] فعلى الحال

من الذكر الذي في قوله تعالى : [لِلَّذِين آمَنُوا] والتقدير : هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم ، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله سبحانه : [لِلَّذِينَ]. وقال أبو علي في «الحجّة» : ويصح أن يتعلق قوله تعالى : ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقوله : [حَرَّمَ] ولا يصح أن يتعلق بـ [زِينَة] لأنها مصدرٌ قد وصف ، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى : ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ ، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جـــدا كما جازَ في قوله تعــالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[1] ، فقوله تعالى : ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على [كَسَبُوا] داخلٌ في الصِّلة ، والتعلُّق بـ [أَخْرَجَ] هو قول الأخفش ، ويصحُّ أن يتعلق بقوله : [وَالطَّيِّبَاتِ] ، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى : [مِنَ الرِّزْقِ] ، ويصح أن يتعلق بقوله : [آمَنُوا] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الأخير هو أصح الأقوال على التأويل الأول فيما رتبناه هنا ، وأما على التأويل الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقات التي ذكر أبو علي[2] ، وإنما يظهر أن يتعلق بالمحذوف المقدر في قوله: [لِلَّذِينَ آمَنُوا] .

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (يونس) .

(٢) يظهر من كلام ابن عطية هنا أنه لا يوافق تماماً على آراء أبي علي ، والحقيقة أن هذه الآراء لا يصح أن تذكر في مقام تفسير القرآن ، وقد اعترض عليها أبو حيان في «البحر» فقال : «وتقادير أبي علي والأخفش فيها تفكيك للكلام ، وسلوك به غير ما تقتضيه الفصاحة، =

وقوله تعالى : [كَذَٰلِكَ] تقدير الكلام ، أي : كما فصلنا هذه الأشياء المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات ، أي نُبَيِّن الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به ، و [نُفَصِّلُ] معناه : نُقسم ونُبين لأن بيان الأمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

لما تقدم إنكار ما حرَّمه الكفار بآرائهم اتبعه ذكر ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ وتقديره :

= وهي تقادير أعجمية بعيدة عن البلاغة لا تناسب في كتاب الله ، بل لو قدرت في شعر الشنفري ما ناسبت ، والنحاةُ الصِّرْفُ غير الأدباء بمعزل عن إدراك الفصاحة ، وأما تشبيه ذلك بقوله : ﴿ والَّذِينَ كَسَبُوا ﴾ فليس ما قاله بمتعين فيه ، بل ولا ظاهر ، بل قوله : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها ﴾ هو خبر عن النهي ، أي : جزاءُ سيئة منهم بمثلها ، وحذف (منهم) لدلالة المعنى عليه ، كما حذف من قولهم : السمن مَنَوان بدرهم ، أي منوان منه ، وقوله : ﴿ وتَرْهقهم ذلة ﴾ معطوف على ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها ﴾ وسيأتي » .

و [ٱلْفَوَاحِشَ] ما فحش وشنع ، وأصلُه من القبح في المنظر ، ومنه قول امرئ القيس :

وجيد كَجيدِ الريم ليْسَ بِفَاحِشٍ إذا هِيَ نَصَّتْـهُ ولا بِمُعَطَّلِ[١]

ثم استعمل فيما ساءَ من الخُلُق وألفاظ الحرج والرفث ، ومنه الحديث : «ليس بفاحش» في صفة النبي صلى الله عليه وسلم [٢] ، ومنه قوله لسَلَمَة بن سلامة بن وقش : (أفحشت على الرجل) في حديث السير ، ومنه قوله الحَزين[٣] في كُثَيِّر عزَّة :

* قَصيرُ القميص فاحِشٌ عنْدَ بَيْتِهِ *

وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس ، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع ، والفاحش كذلك ، فقوله تعالى هنا : [ٱلْفَوَاحِشَ] إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في

(١) الريم : الظبي الخالص البياض ، ونصَّته : أظهرته ومدَّته ، معطّل : خال من الحُلِيّ ووسائل الجمال — يصف جيدها بالجمال فهو طويل طولا معتدلا ليس بالفاحش الزائد على الحد ، وليس بالخالي من مظاهر الحسن وعلاماته .

(٢) روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحِشاً ولا مُتَفحِّشاً ، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) . (كتاب بدء الخلْق — باب : صفة النبي صلى الله عليه وسلم) ورواه الإمام أحمد ج ٢ صفحات ١٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، وكذلك في ج ٦ ، ورواه مسلم في الفضائل ، والترمذي في البرِّ .

(٣) الحَزين الكناني هو عمرو بن عبيد بن وهيب بن أبي الشعثاء — من بني كنانة ، من أهل المدينة ، لم يخدم الخلفاء ولم يكن يريم الحجاز إلا نادراً ، عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ومات حوالي سنة ١١٠ هـ ، قال عنه الأصفهاني : « مطبوع ، ليس في فحول طبقته ، وكان هجاءً ، خبيث اللسان ، ساقطاً ، وكان يوري في معاني أعظم فحشاً ولو ظلم المهجوَّ ظلماً كبيراً » ، ويظهر ذلك في وصفه لقميص كثير الذي استشهد به ابن عطية على معنى كلمة (فاحش) .

مواضع أُخر ، فكل ما حرَّمه الشرع فهو فاحشٌ وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يَجْمع النوعَ كلَّه ، لأَنه تقسيم لا يخرج عنه شيءٌ ، وهو لفظ عام في جميع الفواحش . وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأَن قال : ما ظَهَرَ : الطواف عرياناً ، والبواطن : الزنى ، وقيل غير هذا مما يأْتي على طريق المثال ، و [مَا] بدل من [ٱلْفَوَاحِشَ] وهو بدل بعض من كلٍّ ، ومجموع القسمين يأْتي بدل الشيء من الشيء وهو هو .

والإِثم أَيضاً لفظ عام لجميع الأَفعال والأَقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض الناس : هي الخمر ، واحتج على ذلك بقول الشاعر :

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى طَارَ عَقـــلي . . . . (١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول مردود لأَن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحد لأَن جماعة من الصحابة اصطحبوها يومَ

(١) هذا صدر بيت ــ وعجزه :

. . . . كذَاكَ الإثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

وقد روي : (حتى ضَلَّ ، وحتى زلَّ) بدلا من : (حتى ضَلَّ) ، ومثله في إطلاق الإثم على الخمر قول الآخر :

نشْرَبُ الإثْمَ بالصُّوَاع جِهَاراً وتَرَى المَسْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارا

أُحد وماتوا شهداءَ وهي في أجوافهم ، وأيضاً فبيت الشعر يقال : إنه مصنوع مختلق ، وإن صحّ فهو على حذف مضاف[١] ، وكان ظاهر القرآن ـ على هذا القول ـ أن تحريم الخمر من قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[٢] وهو في هذه الآية قد حُرِّم فيأْتي من هذا أَن الخمر إِثْمٌ والإِثم مُحَرَّم فالخمر محرَّمةٌ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولكن لا يصح هذا لأَن قوله : ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ محتمل أَن يُراد به أَنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراءِ وقتل النفس وغير ذلك آثام فكأَنه قال : في الخمر هذه الآثام ، أَي : هي بسببها ومعها ، وهذه الأَشياءُ مُحرَّمة لا محالة ، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياسُ الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه ، ويعضد هذا أَنَّا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله تعالى : ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ ، وفي بعض الأَحاديث : فتركها قوم للإِثم الذي فيها وشربها قوم للمنافع ، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونُصوص الأَحاديث والإِجماع .

والبغي : التعدي وتجاوز الحدِّ ، كان الإِنسان مبتدئاً بذلك أَو منتصراً ، فإِذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ ، وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان ، وليس يتصور بغي بحق ، لأَن ما كان بِحَقٍّ فلا يُسمى بغياً .

(١) تقديره : موجب الإثم .
(٢) الآية (٢١٩) من سورة (البقرة) .

﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ المراد بها الأَصنام والأَوثان وكل ما عُبِد من دون الله ، والسلطان : البرهان والحجة . ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ من أَنه حرَّم البَحيرة والسائبة ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية ، يتضمن الوعيد والتهديد ، والمعنى : ولكل أُمَّةٍ ، أَي : فِرْقة وجماعة ، (وَهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس) أَجلٌ مؤقت لمجيءِ العذاب إذا كفروا وخالفوا أَمر ربهم ، فأَنتم أَيتها الأُمة كذلك ، قاله الطبري وغيره . وقرأَ الحسن : ﴿فَإِذَا جاءَ آجالُهُم﴾ بالجمع ، وهي قراءَة ابن سيرين ، قال أَبو الفتح : هذا هو الأَظهر لأَن لكل إنسان أَجلاً . فأَما الإِفراد فلأَنه جنس . وإضافته إلى الجماعة حسنت الإِفراد ، ومثله قول الشاعر :

. . . . في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقدْ شجِينا [1]

وقوله تعالى : [سَاعَةً] لفظ عُيِّن به الجزءُ القليل من الزمن [2] ، والمراد جميع أَجزائه ، أَي : لا يستأْخرون ساعة ولا أَقل منها ولا أَكثر ، وهذا نحو قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[3] فإِنما هي عبارة يقام الجزءُ فيها مقام الكل .

---

(١) البيت بتمامه :

لا تُنْكروا الْقَتْلَ وقدْ سُبينَـــا في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقدْ شَجينَـا

أراد : في حلوقكم بدليل قوله : وقد شجينا ــ لأن الشجا هو ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه ــ فضمير الجماعة في (شَجينا) يدل على أن المراد الحلوق بالجمع .

(٢) نقل أبو حيان هذه العبارة عن ابن عطية بلفظ : « لفظٌ عُنِيَ به الجزءُ القليل من الزمن » ــ فتأمل .

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (النساء) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(١) تعارض ، لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا والوعيد بمعاجلةٍ إن كفروا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والحق مذهب أهل السُّنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم ، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل ، وذلك هو أجله المحتوم ، ومنهم من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم ، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها ، فكأنه يقول : فإن آمنتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر ، وإن كفرتم علمنا أنكم ممن قُضى له بالأجل المعجل والكفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا الحد هو دعاءُ محمد عليه الصلاة والسلام إلى طريق الجنة وقد علم أن منهم من يكفر فيدخل النار ، وكذلك هو أمر الأسير يقال له : إما أن تؤمن فتترك وإلا قتلت .

وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية . الخطاب في هذه الآية لجميع العالم ، و (إن) الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة ، ولذلك جاز دخول

(١) تكررت في الآية (١٠) من سورة (إبراهيم) : ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ، وفي الآية (٤) من سورة (نوح) : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ .

النون الثقيلة على الفعل ، وإذا لم تكن (ما) لم يجز دخول النون الثقيلة . وقرأ أُبي بن كعب ، والأعرج : [تَأْتِيَنَّكُمْ] على لفظ الرسل ، وجاء [يَقُصُّونَ] على المعنى ، وكان هذا الخطاب لجميع الأُمم قديمها وحديثها هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه الصلاة والسلام أَن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأَه ، و [يَأْتِيَنَّكُمْ] مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أَن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوي الإشارة بصحة النُّبُوَّة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية . وأسند الطبري إلى أَبي سيَّار السلمي قال : إن الله تعالى جعل آدم وذريته في كفة فقال : ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية ، قال : ثم نظر إلى الرسل فقال : ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ﴾[١] ، ثم بثهم[٢] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا محالة أَن هذه المخاطبة في الأَزل ، وقيل : المراد بالرسل محمد عليه الصلاة والسلام .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

من حيث لا نبي بعده ، فكأَن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير ، إذ غيرهم لم ينله الخطاب ، ذكره النقاش . و [يَقُصُّونَ]

(١) الآيتان (٥١ ، ٥٢) من سورة (المؤمنون) .
(٢) يفهم من (الدر المنثور) أنَّ أحداً غير ابن جرير الطبري لم يخرج هذا الخبر .

معناه : يسردون ويوردون ، والآيات لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترن بالأنبياء . وقوله تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ يصح أن تكون (من) شرطية وجوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ، وهذه الجملة هي في جواب الشرط الأول الذي هو : ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ، ويصحُّ أن تكون (من) في قوله : ﴿فَمَنِ ٱتَّقَى﴾ موصولة ، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿فَمَنِ ٱتَّقَى﴾ ، والقسم الثاني : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ، وجاء هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فكأنه قال : إن أتتكم الرسل فالمتقون لا خوف عليهم ، والمكذبون أصحاب النار ، أي : هذا هو الثمرة وفائدة الرسالة . ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أي : ليس ثمَّ نفع للمفتري ولا غرض دنيوي ، فالآية تبرية للنبي صلى الله عليه وسلم من الافتراء ، وتوبيخ للمفترين من الكفار ، و (لا) في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس . وقرأ ابن محيصن : ﴿فَلَا خوْفُ﴾ دون تنوين ، ووجهه إمَّا أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وإمَّا حملا على حذفه مع (لا) ، وهي تبرية ناصبة ، فشبه حالة الرفع في البناء بحالة النصب . وقيل : إن المراد : فلا الخوف ، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاءُ على حالها لتدل على المحذوف ، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكارها ، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور ، والحزن لما مضى .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ هذه حالتان تعم[١] جميع من يصدُّ عن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إمَّا أَن يكذب بحسب اعتقاده ، وإمَّا أَن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو الكفر عناداً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

هذه آية وعيد واستفهام على جهة التقرير ، أي : لا أَحد أظلم منه ، و [افترى] معناه : اختلق ، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها ، أي : كيف يجعلون الرسل مفترين ولا أَحد أَظلم ممن افترى ولا حظ للرسُل إلا أَن يُرْحَم من اهتدى ويُعَذَّبَ من كفر ـ فهي أَيضاً مشيرة بالمعنى إلى كل مفْتَر ، إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا : ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ .

(١) هكذا في الأصول التي بين أيدينا ، ونظن أن فيها خطأ من النساخ ، وقد نقل أبو حيان في « البحر » العبارة باللفظ الآتي : « هاتان حالتان تعم جميع ... الخ » ــ ويمكن فهمها على أنه يقرر أن في الآية حالتين ... ثم يشير إلى الآية بقوله : « تعم » .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إشارةٌ إلى جميع الكفرة . وقوله تعالى : [مِنَ ٱلْكِتَابِ] قال الحسن ، والسدي ، وأبو صالح : معناه : من المقرر في اللوح المحفوظ ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم فيه العذاب والسخط . وقال ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد : قوله : [مِنَ ٱلْكِتَابِ] يريد : من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن المَلَك يأتي إذا خُلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقيّ أو سعيد (١) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك : الكتاب يُرادُ به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر ، فينال هؤلاء نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي . وقال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد ، والضحاك : [مِنَ ٱلْكِتَابِ] يراد به : من القرآن ، وحظهم فيه أن وجوههم تسود يوم القيامة ، وقال الربيع بن أنس ،

(١) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد . وكتاب بدء الخلق ، ورواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، ورواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه كما جاء في البخاري : (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : إن أحدكم يُجْمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علَقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملَكاً فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقيَ أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعملُ حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابُه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعملُ حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة) .

ومحمد بن كعب ، وابن زيد : المعني بالنصيب ما سبق لهم في أُم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا . ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله تعالى بعد ذلك : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي : عند انقضاءِ ذلك ، فكأَن معنى الآية على هذا التـأْويل : أُولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما كُتب لهم حتّى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم . وهذا في تـأْويل جماعة في مجيءِ الرسل للتوفي ، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم . وقالت فرقة : [رُسُلُنَا] يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة ، و [يَتَوَفَّوْنَهُمْ] معناه : يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويترتب هـذا التـأْويل مع التـأْويلات المتقدمة في قوله تعالى : ﴿نَصِيبَهُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ لأَن النصيب على تلك التـأْويلات إنما ينالهم في الآخرة وقد قضي مجيء رسل الموت . وقوله تعالى حكاية عن الرسل : ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُون﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي ، وهو إشارة إلى الأَصنام والأَوثان وكل ما عُبد من دون الله ، و [تَدْعونَ] معناه : تعبدون وتؤملون ، وقولهم : [ضَلُّوا] معناه : هلكوا وتلفوا وفُقدوا ، ثم ابتدأَ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه : ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ، وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] ،

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام) : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلا أَنْ قَالُوا واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ .

واجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة ، أو في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا ، وفي حال كذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب ، وعبَّر عن (يقول) بـ [قَالَ] لتحقق وقوع ذلك وصدق القصة . وهذا كثير .

وقوله تعالى : [في أُمَمٍ] متعلق بِـ [ٱدْخُلُوا] ، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره : كائنين أو ثابتين في أُمم فيكون في موضع الحال من الضمير في [ٱدْخُلُوا] ، وقيل : [في] بمعنى (مع) ، وقيل : هي على بابها وهو أصوب [1] . وقوله : [قَدْ خَلَتْ] صفة لِـ [أُمَمٍ] ، وقوله : [في النَّارِ] يصح تعلقه بـ [ٱدْخُلُوا] ، ويصح أن يتعلق بـ [أُمَمٍ] أي : في أُمم ثابتة أو مستقرة ، ويصح تعلقه بالذكر الذي في [خَلَتْ] ، ومعنى [قَدْ خَلَتْ] على هذا التعلُّق ، أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن

(١) ويكون المعنى : ادخلوا في جملتهم .

وعرفها فيما تطاول من الآباد ، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها : فيمن مات من الناس ، أي صاروا إلى خلاءٍ من الأَرض ، وعلى التعليقين الأَولين لقوله : [فِي ٱلنَّارِ] فإنما [خَلَتْ] حكاية عن حال الدنيا ، أي : ادخلوا في النار في جملة الأُمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة . وقدم ذكر [ٱلْجِنِّ] لأَنهم أعرق في الكفر ، وإبليس أَصل الضلال والإغواء ، وهذه الآية نصٌّ في أَن كفرة الجن في النار ، والذي يقتضيه النظر أَن مؤمنيهم في الجنة لأَنهم عقلاءُ مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا ، وقد بوَّب البخاري رحمه الله (باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم) ، وذكر عبد الجليل أَن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم ، وذكر في ذلك حديثاً مجهولا ، وما أُراه يصح ، والله أَعلم .

والأُخوَّة في هذه الآية أُخوَّة الملَّة والشريعة ، قال السدي : يتلاعن آخرها وأَولها .

و [ٱدَّارَكُوا] معناه : تلاحقوا ، ووزنه تفاعلوا ، أَصله : تداركوا أُدْغم فجلبت أَلف الوصل ، وقرأَ أَبو عمرو [إِدَّاركوا] بقطع أَلف الوصل ، قال أَبو الفتح : هذا مشكل ولا يسوغ أَن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيءُ شاذًّا في ضرورة الشعر[1] ، وفي الاسم أَيضاً ، لكنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتدأ فقطع ، وقرأَ مجاهد بقطع الأَلف وسكون الدال [إِدْرَكُوا] بفتح الراءِ وبحذف الأَلف بعد الدال بمعنى :

---

(٢) ومثال ذلك قول الشاعر :

يا نَفْسُ صَبْراً كلُّ حَيٍّ لاقي ... وكُلُّ إثْنَيْنِ إلى افْتِرَاقِ

أدرك بعضهم بعضاً . وقرأ حميد : [أُدْرِكُوا] بضم الهمزة وكسر الراءِ أي : أُدخلوا في أدراكها ، وقال مكي في قراءة مجاهد : إنها [ادَّرَكُوا] بشد الدال المفتوحة وفتح الراءِ ، قال : وأصله (إذْ تَركوا) وزنها افتعلوا ، وقرأ ابن مسعود والأعمش : [تَدَارَكُوا] ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ الجمهور : [حَتَّى إِذَ ٱدَّارَكُوا] بحذف ألف (إذا) لالتقاءِ الساكنين (١)

وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ معناه : قالت الأُمة الأَخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسُنَناً كاذبة مستعملة للأُولى التي شرَّعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلالات ابتداءً : ربنا هؤلاءِ طرقوا طرق الضلال وسبَّبوا ضلالنا فآتهم عذاباً مضاعفاً ، أي ثانياً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومُسَبِّبون لكفرنا ، وتقول : ضاعفت كذا إذا جعلته مثل الأَول . واللام في قوله تعالى : [لِأُولاهمْ] كأَنها لام سبب ، إذ القول إنما هو للربِّ . ثم قال عز وجلَّ مخبراً لهم : [لِكلٍّ ضِعْفٌ] أي : العذاب مشدد على الأَول والآخر ﴿وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي : المقادير وصور التضعيف ، وهذا ردٌّ لكلام هؤلاءِ إذ ليس لهم كرامة فيظهر إسعافهم .

وأما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه حاصل ، وأَنَّ كل مَنْ سنَّ كفراً أو معصية فعليه كفل من جهة كل من عمل بذلك بعده ، ومنه حديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من داعٍ دعا إلى ضلالة إلا كان عليه

---

(١) في القرطبي أن هذه قراءة مجاهد وحميد بن قيس لكنه أضاف إلى حذف ألف (إذا) حذف الألف التي بعد الدال .

وِزْرُهُ وَوِزْرُ من اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً...)[١] الحديث . ذكره الليث بن سعد في آخر الجزء الرابع من حديثه ، وذكره مالك في الموطأ غير مسند موصل ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (ما تُقتل نَسَمَةٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأَول كِفل منها)[٢] ، أما إن هؤلاء عينوا في دعائهم الضِّعف ، وقد يكون الكفل أَقل أَو أَكثر . وعن ابن مسعود أَن الضعف ها هنا : الأَفاعي والحيات .

وقرأ جميع السبعة غير عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه : ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء ، ويحتمل ذلك أَن يكون مخاطبة لهذه الأُمة الأَخيرة متصلة بقوله تبارك وتعالى لهم : ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ ، ويحتمل أَن يكون مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته ، وقرأ عاصم وحده في رواية أَبي بكر : ﴿وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ، وروى حفص عن عاصم مثل قراءة الجماعة ، وهذه مخاطبة لأُمة محمد عليه الصلاة والسلام وإخبارٌ عن الأُمة الأَخيرة التي طلبت أَن يشدد العذاب على أُولاها ، ويحتمل أَن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة (كُل) أَي: لا يعلم أَحد منهم قدر ما أُعد لهم من عذاب الله .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ الآية ، المعنى : وقالت الأُمة الأُولى المبتدعة للأُمة الأَخيرة المتَّبِعة : أَنتم لا فضل

---

(١) الحديث رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارمي ، ورواه الإمام أحمد — عن المنذر بن جرير ، ولفظه كما في الإمام أحمد : (من سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيءٌ ، ومن سنَّ في الإسلام سنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم من شيء).

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وكذلك رواه الإمام أحمد ولفظه فيه عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل) .

لكم علينا ، ولم تزدجروا حين جاءتكم النُّذر والرسل ، بل دمتم في كفركم ، وتركتم النظر ، واستوت حالنا وحالكم ، فذوقوا العذاب باجترامكم . هذا قول السدي وأبو مجلز وغيرهما ، فقوله [فَذُوقُوا] — على هذا — من كلام الأُمة المتقدمة للأُمة المتأخرة ، وقيل : قوله [فذُوقُوا] هو من كلام الله عزّ وجلّ لجميعهم . وقال مجاهد : ومعنى قوله تبارك وتعالى : [مِنْ فضْلٍ] أي من التخفيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

معناه أنه لما قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قال الأولون للآخرين : لم تبلغوا أملا في أن يكون عذابكم أخف من عذابنا ، ولا فضلتم بالإسعاف والنص عليه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

هذه الآية عامّة في جميع الكفرة قديمِهم وحديثِهم . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : [لا تُفَتَّح] بضم التاءِ الأُولى وتشديد الثانية ، وقرأ أبو عمرو [تُفْتَح] بضم التاءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الثانية ، وقرأ حمزة والكسائي [يُفْتَح] بالياءِ من أسفل وتخفيف التاءِ ، وقرأ

أَبو حيوة ، وأَبو إبراهيم [يُفَتَّح] بالياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ التاءِ . ومعنى الآية : لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاءٌ فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إذ ليست بلازمة في الآية ، ولِلِينِ أَسانيدها أَيضاً .

ثم نفى الله عزَّ وجلَّ عنهم دخول الجنة وعلَّق كونَه بكَوْنِ محالٍ لا يكونُ ، وهو أَن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط ، والجمل كما عُهِدَ والسمُّ كما عُهد . وقرأَ جمهور المسلمين : [الجَمَلُ] واحد الجمال ، وقال الحسن : هو الجمل الذي يقوم بالمِرْبَد[1] ، ومرة لما أَكثروا عليه قال : هو الأَشتر وهو الجمل بالفارسية ، ومرة قال : هو الجمل ولد الناقة ، وقاله ابن مسعود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتياب السائلين لاشك باللفظة من أَجل القراءات المختلفة . وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أَنه كان يقرأُ : «حتى يلِـجَ الجَمَلُ الأَصفر» . وقرأَ أَبو السمال : [الجمْل] بسكون الميم . وقرأَ ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن جبير ، والشعبي ، ومالك بن الشخير ، وأَبو رجاء : [الجُمَّل] بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة . وقرأَ سالم الأَفطس ،

---

(١) المِرْبَد : موقف الإبل ومحبسها ، وبه سُمِّي مِرْبَد البصرة ، كان سوقاً للإبل ، وكان الشعراء يجتمعون به . وجمعه : مرابد . عن (المعجم الوسيط) .

وابن خير ، وابن عامر أيضاً : [الجُمَل] بتخفيف الميم من (الجُمل) وقالوا : هو حبل السفن ، وروى الكسائي أن الذي روى تثقيل الميم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعجمياً فشدد الميم لعجمته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما على القراءة المذكورة ، وقرأ سعيد بن جبير فيما روي عنه : [الجُمْل] بضم الجيم وسكون الميم ، وقرأ ابن عباس أيضاً : [الجُمُل] بضم الجيم والميم .

والسَّمُّ : الثقب من الإبرة وغيرها ، ويقال : سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وكسرها وضمها . وقرأ الجمهور بفتح السين ، وقرأ ابن سيرين بضمها ، وقرأ أبو حيوة بضمها وبكسرها ، وروي عنه الوجهان[1] ، والخِياط والمِخْيطُ : الإبرة ، وقرأ ابن مسعود : ﴿في سَمِّ المِخْيَط﴾ بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء ، وقرأ طلحة : ﴿في سَمِّ المَخِيطِ﴾ بفتح الميم ، وكذلك أُبي على هذه الصفة ، وبمثل هذا الحتم وغيره يجزى الكفرة وأهل الجرائم على الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مِن جَهَنَّم مِهَادٌ﴾ المعنى أن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه ، وهي لهم غواش : جمع غاشية ، وهي

---

(١) من السَّم بمعنى الثقب قول الفرزدق :

فتَنَفَّسْتُ عنْ سَمَّيْهِ حتّى تَنَفَّسَا وقلْتُ لهُ لا تَخْشَ شَيْئاً ورائيا

يعني بِسَمَّيْه ثقبيْ أنفه .

ما يغشى الإنسان أي يغطِّيه ويستره من جهة فوق ، قال الضحاك : المهاد : الفراش ، والغواشي : اللحف . ودخل التنوين في (غواشٍ) عند سيبويه لنقصانه عن بناءِ مفاعل ، فلما زال البناءُ المانع من الصرف بأن حذفت الياءُ حذفاً لا للالتقاءِ ، بل كما حذفت من قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[١] ، ﴿ذَلِكَ مَاكُنَّا نَبْغِ﴾[٢] ومن قول الشاعر :

. . . . .ثُمَّ لا يفْرِ [٣]

زال الامتناع[٤] ، وهذا كقولهم : ذُلْذلٌ بالتنوين وهم يريدون الذلاذل[٥] لما زال البناءُ . قال الزجاج : والتنوين في (غواش) عند سيبويه عِوَضٌ من الياءِ المنقوصة ، وردَّ أبو علي أن يكون هذا هو مذهب سيبويه ، ويجوز الوقف بياءٍ وبغير ياءٍ والاختيار بغير ياءٍ .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية . هذه آية وعْد مُخْبِرَةٌ أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها ، ثم اعترض أثناءَ القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراضٍ يخفف الشرط ويرجِّي في رحمة الله ويُعلم أن دينه يُسر .

---

(١) الآية (٤) من سورة (الفجر) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٦٤) من سورة (الكهف) : ﴿قَالَ ذلِكَ مَاكُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ .

(٣) هذا آخر جزء من بيت لزهير ، والبيت بتمامه :

ولأنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القَوْم يَخْلُق ثُمَّ لا يَفْر

أي : تُنَفِّذ ما تعزم عليه وتقدّره . قال في (اللسان) : وهو مثل ، ويقال للشجاع : ما يفري فريَّه أحد ، لكن البيت في اللسان (يفري) بالياء .

(٤) جواب (لمّا) في قول المؤلف : (فلما زال) .

(٥) في (اللسان) : ذلاذل القميص : ما يلي الأرض من أسافله ، الواحد ذُلْذُلٌ مثلُ قُمْقُم وقَمَاقم .

وهذه الآية نصٌّ في أَن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيءٌ لا يطاق . وقد تقدم القول في جواز تكليف مالا يطاق وفي وقوعه بمُغْن عن الإعادة .

والوُسْع معناه : الطاقة ، وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا إِخبار من الله عزَّ وجلَّ أَنه يُنَقِّي قلوب ساكني الجنة من الغلِّ والحقد ، وذلك أَن صاحب الغلِّ متعذب به ولا عذاب في الجنة ، وورد في الحديث : (الغِلُّ على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله تبارك وتعالى من قلوب المؤمنين) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا الحديث إذا حُمل على حقيقته أَن الله عزَّ وجلَّ يخلق جوهراً يجعله حيث يرى كمبارك الإبل لأَن الغِلَّ عرض لا يقوم بنفسه ، وإِن قيل : إِن هذه استعارة وعبَّر عن سقوطه عن نفوسهم فهذه الأَلفاظ على جهة التمثيل ، كما تقول : فلان إِذا دخل على الأَمير ترك نخوته بالباب ملقاة ، فله وجه ، والأَول أَصوب وأَجرى مع الشرع في أَشياءَ كثيرة مثل قوله عليه الصلاة والسلام : (يُؤتى بالموت يوم القيامة

كأنه كبش فيذبح)[١] وغير ذلك ، وروى الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : «فينا والله أهل بدر نزلت : ﴿وَنَزَعْنَا مَافي صُدُورِهِمْ مِن غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[٢]» ، وروي عنه أيضاً أنه قال : «فينا والله نزلت : ﴿وَنَزَعْنَا مَافي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[٣]» ، وذكر قتادة أن علياً قال : «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَافي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو المعنى الصحيح ، فإن الآية عامة في أهل الجنة ، والغِلُّ : الحقد والإحنة الخفية في النفس ، وجمعه : غِلال ، ومنه الغلول أَخْذ في خفاءٍ ، ومنه الانغلال في الشيء ، ومنه المغلُّ بالأمانة ، ومنه قول علقمة بن عبدة :

سُلَّاءَةً كعَصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لَهَا ذُو فَيْئَةٍ ، مِنْ نَوَى قُرَّانَ مَعْجُومُ[٤]

---

(١) حديث ذبح الموت سبق تخريجه ، ونصُّه كما رواه الدارمي في سننه : (عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يؤْتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يأهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يأهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ويقال : خلود ولا موت) . (٢٩/٢ — ط . دار الفكر)

(٢) الآية (٤٧) من سورة (الحجر) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ — عن علي بن أبي طالب . (الدر المنثور) .

(٤) البيت لعلقمة في وصف فرس — والسُّلاءُ بالضم ممدود : شوكُ النخل — على وزن قُرّاء — واحدته : سُلاءة وسَلاَّ النخلة والعسيب سلاً : نزع سُــلاءهما يريد أن الفرس =

وقوله تعالى : ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ بيّنٌ لأَن ما كان لاطئاً بالأَرض فهو تحت ما كان منتصباً آخذاً في سماءٍ ، و [هَدَانَا] بمعنى أَرشدنا ، والإِشارة بـ [هَذَا] تَتَّجه أَن تكون إِلى الإِيمان والأَعمال الصالحة المؤدية إِلى دخول الجنة ، ويحتمل أَن تكون إِلى الجنة نفسها ، أَي : أَرشدنا إِلى طرقها ، ولكل واحد من الوجهين أَمثلةٌ في القرآن . وقرأَ ابن عامر وحده : ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بسقوط الواو من قوله عزَّ وجلَّ : [وَمَا كُنَّا] ، وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام ، قال أَبو علي : وجه سقوط الواو أَن الكلام متصل مرتبط بما قبله .

ولما رأَوا ما جاءَت به الأَنبياءُ عن الله تبارك وتعالى ، وعاينوا إِنجاز المواعيد قالوا : ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ، فقضوا بأَن ذلك حقٌّ قضاءَ من يُحِسُّ ، وكانوا في الدنيا يقضون بأَن ذلك حقٌّ قضاءَ من يستدلُّ . [وَنُودُوا] أَي : قيل لهم بصياحٍ ، وهذا النداءُ من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ ، و [أَنْ] يحتمل أَن تكون مفسَّرة لمعنى النداءِ بمعنى (أَي) ، ويحتمل أَن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير

= ملساءَ كالعسيب الذي نزع شوكه . والنَّهْدِيُّ : الشيخ المُسِنُّ ، وغُلَّ لها هو من قولهم : غَلَلْتُ للناقة إِذا خلطت لها العَلَف ، والغليل هو النَّوى تخلطه بالقَت وتعلفه الناقة ، وذوفيئة : ذو عَوْدَة ورجْعَة . وقُرَّان : قرية باليمامة كثيرة النخل ومن ثَمَّ يكثر بها النوى الذي ينتفع به في علف الإِبل والخيل ، ومعجوم : يريد أنه قد عضه ليعلم مقدار صلابته ، أو اختبره بيده ليعرف ذلك ، فهو يشبه الفرس في ضمورها ونعومة جسمها بعصا الشيخ التي نزع شوكها فصارت ناعمة ملساء ، وهي تأكل من نوى قُرَّان المعروف فيعطيها قوة وصلابة في جِسْمها . والشاهد في قوله : (غُلَّ لها) ، أي خلط لها ودس في الطعام فاختلط به وانغَلَّ فيه .

مستتر تقديره : أَنه تلكم الجنة ، ونحو هذا قول الأَعشى :

فِي فِتيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِموا أَنْ هالِكٌ كلُّ مَن يَحْفَى ويَنْتَعِلُ (١)

تقديره : أَنه هالك . ومنه قول الآخر :

أُكَاشِرُهُ وأَعْلَمُ أَنْ كِلانَـــــا على ما ساءَ صاحِبَهُ حريص (٢)

و ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ابتداءٌ وصفة ، و [أُورِثْتُمُوهَا] الخبر ، و [تِلْكُمُ] إشارة فيها غيبة ، فإمَّا لأَنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإِشارة إلى تلك ، أَي : تلكم هذه الجنة وحذفت (هذه) ، وإما قبل الدخول ، وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها ، فكل غائب عن منزله .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله ، لكن بقرينة رحمته وتغمده ، والأَعمال أَمارة من الله وطريق

---

(١) قائل البيت أبو بصير الأعشى ميمون بن قيس ، وهو في القصيدة السادسة من ديوانه المطبوع بالقاهرة بشرح د. محمد حسين ، والشاعر يصف في البيت ندامائه على الشراب . وقوله : (من يحفى) يريد به عامة العرب ، ويريد بقوله : (وينتعل) من يلبس النعال — يعني السادة والشرفاء . يقول : إن الموت لا يفرق بين الفقراء والأغنياء ، والشاهد فيه أنَّ (أنْ) في أول الشطر الثاني مخففة من الثقيلة لأنه سبقها فعل من أفعال اليقين هو (علم) ، وليست هي أنْ المصدرية لأنه لا يسبقها يقين ولا شبهه ، وقد استشهد سيبويه بالبيت في الكتاب (١—٢٨٢ ، ٤٤٠ — ٤٨٠) وعلق عليه بقوله «كأنه قال : إنَّه هالك ، ثم قال : ومثل ذلك : أول ما أقول أنْ باسم الله ، كأنه قال : أول ما أقوله أنَّه باسم الله » .

(٢) هذا البيت أيضاً من شواهد سيبويه على أنَّ (أنَّ) المثقلة قد تخفف ويكون اسمها ضميراً . وقال الأعلم في التعليق على البيت : « الشاهد في حذف الضمير من (أنْ) وابتداء ما بعدها على نية إثبات الضمير ، ومعنى أكاشره : أضاحكه ، ويقال : كشَّر عن نابه : إذا كشف عنه » .

إلى قوة الرجاءِ ، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالى ، والقسم فيها على قدر العمل ، و (أُورثتم) مشيرة إلى الأَقسام . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : [أُورِثْتُمُوهَا] وكذلك في الزخرف ، وقرأَ أَبو عمرو ، والكسائي وحمزة : [أُورتُّموها] بإدغام الثاءِ في التاءِ ، وكذلك في الزخرف . (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عما يكون منهم ، وعبَّر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية ، وهذا حسن فيما تحقق وقوعه ، وهذا النداءُ من أَهل الجنة لأَهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب ، وهو بأَن يشرفوا عليهم ، ويخلق الإدراك في الأَسماع والأَبصار . وقرأَ جمهور الناس : [نَعَم] بفتح العيْن ، وقرأَ الكسائي : [نَعِم] بكسر العين ،

(١) في قوله تعالى في الآية (٧٢) : ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وقد قال الإمام ابن خالويه في كتابه : « الحجة في القراءات السبع » : « فالحجة لمن أدْغَم : مقاربة الثاء للتاء في المخرج ، والحجة لمن أظهر : أن الحرفين مهموسان فإذا أدغما خفيا فضَعُفا ، فلذلك حَسُن الإظهارُ فيهما » .

ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأها ابن وثاب ، والأَعمش ، قال الأَخفش : هما لغتان ، ولم يَحْكِ سيبويه الكسر وقال : نعم : عِدَةٌ وتصديق أي : مرة هذا ومرة هذا . وفي كتاب أَبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال : ما كنت أَسمع أَشياخ قريش يقولون إلا (نعِم) بكسر العين ، ثم فقدتها بعده . وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أَنت تزعمُ أَنك نبي ؟ قال : نعِم . «بكسر العين» ، وفيه عن أَبي عثمان الهندي قال : سأَل عمر رضي الله عنه عن شيءٍ فقالوا : نَعَم ، فقال عمر : النَّعَم : الإبل والشاءُ ، قالوا : نعِم بكسر العيْن ، قال أَبو حاتم : وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرميْن .(١)

وقوله تعالى : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ الآية . قال أَبو علي الفارسي ، والطبري ، وغيرهما : [أَذَّنَ مُؤَذِّن] بمعنى : أَعلم مُعْلم ، قال سيبويه : أَذنت : إعلام بتصويت ، وقرأَ ابن كثير في رواية قُنبل ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم : [أَنْ لَعْنَةُ اللهِ] بتخفيف (أَنْ) من الثقيلة

(١) جميع الشواهد التي ذكرها ابن عطية نقلا عن كتاب «أبي حاتم» مذكورة في (اللسان) — وفيه : «ونَعَمْ ونَعِمْ : كقولك : بَلَى إلا أن نَعِم في جواب الواجب ، وهي موقوفة الآخر لأنها حرف جاء لمعنى» ، ونقل عن الأزهري قوله : «وقد يكون نَعِم تصديقاً ويكون عِدَةً ، وربَّما ناقض بَلَى إذا قال : ليس لك عندي وديعة ، فتقول : نَعَم تصديق لَهُ وبَلَى تكذيب» — ثم قال : «واشتق ابن جني (نعم) من النعمة ، وذلك أن (نعم) أشرف الجوابين ، وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد ، و (لا) بضدها» .

ورفع (اللعنة) ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وابن كثير في رواية البزي وشبل : [أَنَّ لَعْنَةَ] بتشقيل (أَنَّ) ونصب (اللعنة)، وكلُّهم قرأ التي في النـور : [أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ] ، و [وأَنَّ غَضَبَ اللهِ] بتشديد النون ، غير نافع فإنه قرأهما : [أَنْ لَعْنة] و [وأَنْ غَضب الله] مخففتين ، وروى عصمة عن الأعمش : [مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ إِنَّ] بكسر الألف على إضمار قال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لما كان الأذان قولاً . والظالمون في هذه الآية : الكافرون .

ثم ابتدأ صفتهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله : ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ، و [يَصُدُّون] معناه : يعرضون ، والسبيل : الطريق والمنهج ، ويذكر ويؤنث ، وتأْنيثها أكثر ، [وَيَبْغُونَهَا] معناه : يطلبونها أَو يطلبون لها ، فإن قدرت يطلبونها ف [عِوَجاً] نصب على الحال ، ويصحُّ أَن يكون من الضمير العائد على (السبيل) ، أَي : معوجة ، ويصح أن يكون من ضمير الجماعة في [يَبْغُونهَا] أَي : مُعْوَجِّين ، وإن قدرت [يَبْغُونَهَا] : يطلبون لها وهو ظاهر تأْويل الطبري رحمه الله ، ف [عِوَجاً] مفعول (يبغون) ، والعِوَج بكسر العيْن في الأُمور والمعاني ، والعَوَج بفتح العين في الأَجرام والمتنصبات .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [وَبَيْنَهُمَا] عائد على الجنة والنار ، ويحتمل على الجمعين إذْ يتضمنهما قوله تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ﴾ ، والحجاب : هو السور الذي ذكره الله عزّ وجلّ في قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴾[١] قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : الأَعراف : حجاب بين الجنة والنار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : هو تلٌّ بين الجنة والنار ، وذكر الزهراوي حديثاً أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أُحُداً جبل يُحبنا ونُحبه ، وإنه يقوم يوم القيامة يمثل[٢] بين الجنة والنار يحتبس عليه أَقوامٌ يعرفون كُلاًّ بسيماهم ، هم إن شاءَ الله من أَهل الجنة)[٣] ،

(١) من الآية (١٣) من سورة (الحديد) .

(٢) نقل البحر هذه الكلمة في الحبر (ممثّل) بميمين . يقال : مثل الرجل بين يدي فلان : قام بين يديه منتصباً .

(٣) الجزء الأول من الحديث وهو : (إن أُحدا جبل يحبنا ونحبه) ثابت في الصحيحين . عن أنس رضي الله عنه ، وقد رمز له في « الجامع الصغير » بأنه صحيح . ثم ذكر رواية أخرى فيها زيادة غير الزيادة المذكورة هنا ورمز لها بالضعف بعد أن نسبها لابن ماجة . أما الزيادة التي ذكرها ابن عطية هنا فلم نعثر على تخريج لها .

وذَكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أُحُداً على ركن من أَركان الجنة) . والأَعراف : جمع عُرْف وهو المرتفع من الأَرض ، ومنه قول الشاعر :

كُلٌّ كنَازٍ لَحْمُهُ نِيَافُ كالجَبَلِ الْمُوفي على الأَعراف[1]

ومنه قول الشماخ :

وَظلَّتْ بأَعْرافٍ تَعالى كَأَنها رِماحٌ نحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيح راكزُ[2]

ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك لِعُلُوِّهما ، وقال السدي : سمّي الأَعراف أَعرافاً لأَن أَصحابه يعرفون الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عجمة ، وإنما المراد بأَعراف ذلك الحجاب أَعاليه .

(١) ذكر صاحب (اللسان) هذا البيت في (نَيَفَ) شاهداً على أن النّياف : الطويل في ارتفاع ، ولم ينسبه ، لكنه ذكر لفظ (كالعَلَم (بدلا من (كالجبل) . يقال : قصرٌ نياف ، وناقةٌ نياف ، قال ابن بري : وحقُّ النياف أن يذكر في (نَوَف) لأنه واويّ وقلبت الواو ياءً على جهة التخفيف مثل : صوان وصيان وطوال وطيال . والكِنَازُ: الناقة الصلبة اللحم ، والجمع كُنُزٌ مثل كتاب وكُتب ، وكل مكتنز مجتمع ، والمُوفي : المُشْرِف ، والأعراف : جمع عُرف بضم العيْن وهو كل عالٍ مرتفع ، وهو أيضاً أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار .

(٢) البيت في ديوان الشماخ بن ضرار مع اختلاف في بعض الألفاظ (طبع القاهرة — السعادة ١٣٢٧ هـ) . ونَحاها : وجّهَها — وَوِجْهة الريح : جِهتُها ، وراكز : اسم فاعل من ركز رمحه في الأرض إذا غرزه — يصف الحُمُر بأنها ظَلّت واقفة بأعالي التلال كأنها رماح مركوزة في الأرض في جهة الريح .

وقوله تعالى : [رِجَالٌ] . قال أَبو مجلز لاحق بن حميد : هم الملائكة ، ولفظة (رجال) مستعارة لهم لما كانوا في تماثيل رجال ، وهم ذكور ليسوا بإناث [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد سمّى الله رجالاً في الجن .

وقال الجمهور : هم رجال من البشر ، ثم اختلفوا ــ فقال مجاهد : هم قوم صالحون فقهاءُ علماءُ ، وحكى الزهراوي أَنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأَعمالهم وهم في كل أُمة ، وقاله الزجاج ، وقال قوم : هم أَنبياء ، وقال المهدوي : هم الشهداء ، وقال شرحبيل بن سعد : هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم ، وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأَنه تعادل عقوقهم واستشهادهم [٢] ، وقال ابن مسعود ، والشعبي ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عباس ، وابن جبير ، والضحاك : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

---

(١) قال الطبري : « واضح أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى له ، والصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره » . (تفسير الطبري ٨ــ١٩٤)

(٢) روى الطبري هذا الحديث عن طريقين ــ عن رجل من بني هلال أن أباه أخبره ــ وعن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه ــ ولفظه في الرواية الثانية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : (قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقع في مسند خيثمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رَجَحَت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة [١] دخل الجنة ، ومن رَجَحَت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار ، قيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أُولئك أَصحاب الأَعراف لم يدخلوها وهم يطمعون) [٢] ، وقال حذيفة بن اليمان : هم قوم أَبطأَت بهم صغارهم إلى آخر الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللازم من الآية أَن على أَعراف ذلك السور – أَو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاءَ الله تعالى – رجالاً من أَهل الجنة يتأَخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين .

و ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ أَي بعلامتهم ، وهي بياض الوجوه وحسنها في أَهل الجنة ، وسوادها وقُبحها في أَهل النار إلى غير ذلك في حيّز هؤلاءِ وحيّز هؤلاءِ . والسِّيما : العلامة ، وهو من وَسَمَ ، وفيه

(١) الصُّؤَابة : بَيْضَة القَمل ، جمعه صُؤَابٌ وصِئْبان . (المعجم الوسيط) .

(٢) وأخرجه أبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر – عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور) .

قلب ، يقال : سيما مقصور ، وسيماء ممدود ، وسيمِيَاء بكسر الميم وزيادة ياءٍ[(١)] ،فوزنها عفلا مع كونها من وسم . وقيل : هي من سَوَم إذا علم فوزنها ـ على هذا ـ فعلا . ونداؤُهم أَصحابَ الجنة يحتمل أَن يكون وأَصحابُ الجنة لم يدخلوها بعد ، فيكون أَيضاً قوله : ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ محتملاً أَن يعني به أَهل الجنة ، وهو تأْويل أَبي مجلز إذ جعل أَصحاب الأَعراف ملائكة ، ومحتملا أَن يعني به أَهل الأَعراف . ويحتمل أَن يكون نداؤُهم أَهلَ الجنة بالسلام وهم قد دخلوها فلا يحتمل حينئذ قوله تعالى : ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إلا أَهل الأَعراف فقط ، وهو تأْويل السدي ، وقتادة ، وابن مسعود ، والحسن . وقال : والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا الخير أَراده لهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَظهر الأَليق ، ولا نظر لأَحد مع قول النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ هي جملة مقطوعة ، أَخبر أَنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها ، فكأَن الجملة حال من الضمير في [وَنَادَوْا] . وقرأَ أَبو رقيش النحوي : ﴿لمْ يَدخلوها وهُمْ طَامعونَ﴾ ، وقرأَ إيادُ بن لقيط : «وهم ساخطون» ، وذكر بعض الناس قولاً وهو أَن يقدر قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير

(١) وتكون على وزن كبرياء ، وعليها جاء قول الشاعر :

غُلامٌ رماهُ اللهُ بالحُسْنِ إذْ رَمَى لهُ سِيمياء لا تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

الجماعة في [يَدْخُلُوهَا] ، ويكون المعنى : لم يدخلوها في حال طمع بها ، بل كانوا في حال يأْس وخوف ، لكنهم عمَّهم عفو الله عزَّ وجلَّ . وقال ابن مسعود : إنما طمع أَصحاب الأَعراف لأَن النور الذي كان في أَيديهم لم يُطفأْ حين يُطفأُ كل ما بأَيدي المنافقين .

والضمير في [أَبْصَارُهُم] عائد على أَصحاب الأَعراف ، فهم يسلِّمون على أَصحاب الجنة ، وإذا نظروا إلى النار وأَهلها دعوا الله في التخليص منها ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من العلماءِ . وقال أَبو مجلز : الضمير لأَهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد . وقوله تعالى : [صُرِفَتْ] معطية ما هنالك من هول المطلع . وقوله تعالى : [رِجَالاً] يريد من أَهل النار ، ويحتمل أَن يكون هذا النداءُ وأَهل النار في النار ، فتكون معرفتهم بعلامات مُعَرِّفة بأَنهم أُولئك الذين عرفوا في الدنيا . ويحتمل أَن يكون النداءُ وهم يُحملون إلى النار ، فتكون السيما التي عرفوا بها أَنهم أَهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق . وقال أَبو مجلز : الملائكة تنادي رجالاً في النار ، وقال غيره : بل الآدميون ينادون أَهل النار ، وقيل : إن [ما] في قوله تعالى : [مَا أَغْنى] استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ ، وقيل : [ما] نافية ، والأَول أَصوب . و [جَمْعُكُمْ] لفظ يعم جميع الأَجناد والخول وجمع المال ، لأَن المراد بالرجال أَنهم جبارون ملوك يُقَرَّرون يوم القيامة على معنى الإِهانة والخزي ، و [ما] الثانية مصدرية . وقرأَت فرقة : [تَسْتَكْثِرُونَ] بالثاء مثلثة من الكثرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قال أَبو مجلز : أَهل الأَعراف هم الملائكة وهم القائلون : [أَهَؤُلَاءِ] إشارة إلى أَهل الجنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكذلك يجيءُ قول من قال : أَهل الأَعراف أَنبياءُ وشهداءُ .

وقال غيره : أَهل الأَعراف بشر مذنبون ، وقوله تبارك وتعالى : [أَهَؤُلاءِ] من كلام ملَك بأَمر الله عزَّ وجلَّ إشارة إلى أَهل الأَعراف ومخاطبة لأَهل النار ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما . وقال النقاش : لمَّا وبَّخهم بقولهم : ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أَقسم أَهل النار أَن أَهل الأَعراف داخلون النار معهم ، فنادتهم الملائكة : [أَهَؤُلَاءِ] ، ثم نادت أَصحاب الأَعراف : ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ . وقال بعض المتأَولين : الإشارة بـ (هؤلاءِ) إلى أَهل الجنة ، والمخاطبون هم أَهل الأَعراف ، والذين خوطبوا هم أَهل النار ، والمعنى : أَهؤلاءِ الضعفاءُ في الدنيا الذين

حلفتم أَن الله لا يعبأ بهم قيل لهم : ادخلوا الجنة ؟ وقد تقدم ما قال النقاش من أَن القَسَم هو في الآخرة على أَهل الأَعراف .

وقرأَ الحسن ، وابن هرمز : ﴿أَدْخِلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ بفتح الأَلف وكسر الخاءِ بمعنى : أَدخِلوا أَنفسكم ، أَو على أَن تكون مخاطبة للملائكة ، ثم ترجع المخاطبة بعْدُ إلى البشر في [علَيْكُم] . وقرأَ عكرمة مولى ابن عباس : ﴿دخَلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ على الإِخبار بفعل ماض . وقرأَ طلحة ابن مصرف ، وابن وثاب ، والنَّخَعي : ﴿أُدْخِلُوا ٱلْجَنَّة﴾ خبر مبني للمفعول .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وترتيب كل قراءَة من هذه على الأَقوال في المخاطِب والمخاطَب بقوله تعالى : [أَهَؤُلَاءِ] ممكن بِأَيْسَر تناول فاختصرته إيجازاً ، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره .

وقوله تعالى : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ معناه: لا تخافون ما يأْتي ولا تحزنون على ما فات . وذكر الطبري من طريق حذيفة أَن أَهل الأَعراف يرغبون في الشفاعة فيأْتون آدم فيدفعهم إلى نوح ، ثم يتدافعهم الأَنبياءُ عليهم السلام حتى يأْتوا محمداً صلى الله عليه وسلم لِيَشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمَّون مساكين الجنة [1] . قال سالم مولى أَبي حذيفة : ليت أَني من أَهل الأَعراف .

(١) حديث حذيفة طويل ورواه الطبري كاملا فارجع إليه إن شئت في تفسير الطبري . (٨–١٩٩ ، ٢٠٠) .

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية . لفظة النداءِ تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم ، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بُعد السفل من العلوّ ، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر ، ورُوي أن ذلك النداءَ هو عند اطلاع أهل الجنة عليهم ، و [أَنْ] في قوله تعالى : [أَنْ أَفِيضُوا] مفسِّرة بمعنى أي ، وفاض الماءُ إذا سال وانماع ، وأفاضه غيره · وقوله تعالى : ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى الطعام ، قاله السدي ، فيقول لهم أهل الجنة : إن الله حرَّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأشنع على الكافرين في هذه المقاله أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزى وأنكى للنفس ، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تبارك وتعالى . وذكر الزهراوي أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أفضل الصدقة بالماءِ)(١) يعني عند الحاجة إليه

---

(١) لفظه في « الجامع الصغير » : (أفضل الصدقة سقي الماء) ، رواه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه — ورمز له الإمام السيوطي بالصحة .

إذ هو ألذ مشروب وأنعشها للنفس . واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له : أيَّ الأَشربة تحب ؟ فقال : أهونها موجوداً وأعزها مفقوداً . فقال مصعب : يا غلام ، هات الماءَ .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾ الآية ، أُضيف الدين إليهم من حيث قبولهم أن يلتزموه ، إذ هو دين الله من حيث أَمَرَ بِهِ ، ودين جميع الناس من حيث أُمِرُوا به . ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة ، ويكون ابتداءُ كلام الله تعالى من قوله : [فَالْيَوْمَ] ، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عزَّ وجلَّ ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً﴾ أي بالإعراض والاستهزاءِ لمن يدعوهم إلى الإسلام ، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى ، ويحتمل أن يكون اللفظ من الغَرِّ وهو ملْءُ الفم[١] . أي : أشبعتهم وأبطرتهم .

وأما قوله : ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ فهو من إخبار الله عزَّ وجلَّ عما يفعل بهم ، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك ، أي نتركهم في العذاب

(١) يقال : غرَّ الطائرُ فرخَه غرّاً وغِراراً : أطعمه بمنقاره . (المعجم الوسيط) .

كما تركوا النظر للقاءِ هذا اليوم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من المفسرين . قال قتادة : نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر ، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب . وقوله تعالى : [وَمَا كَانُوا] عطف على [ما] من قوله : [كَمَا نَسُوا] ، ويحتمل أَن تقدر [مَا] الثانية زائدة ، ويكون قوله تعالى : [وكَانُوا] عطفاً على قوله : [نَسُوا] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية ، ذكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم ، واللام في قوله سبحانه : [لَقَدْ] لام قَسَم ، والضمير في [جِئْنَاهُمْ] لمن تقدم ذكره ، وقال يحيى بن سلام : تمَّ الكلام في [يَجْحَدُونَ] ، وهذا الضمير لمكذبي محمد صلى الله عليه وسلم ابتداءُ كلام آخر ، والمراد بالكتاب القرآن العزيز .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنَزَّلة على تأْويل من يرى الضمير في [جِئْنَاهُمْ] لمن تقدم ذكره . وقرأَ جمهور الناس : [فَصَّلْنَاهُ] من تفصيل الآيات وتبْيينِهَا ، وقرأَ ابن محيصن : [فَضَّلْنَاهُ] بضادٍ منقوطة . و [عَلَى عِلْم] معناه : عن بصيرة واستحقاق لذلك . وقوله تعالى : [هُدىً وَرَحْمَةً] مصدران في موضع الحال .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

[يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون ، والتأْويل – في هذا الموضع – بمعنى المآل والعاقبة ، قاله قتادة ، ومجاهد ، وغيرهما . وقال ابن عباس : [تَأْوِيلَه] : مآله يوم القيامة . وقال السدي : ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضاً ، والمراد : هل ينتظر هؤلاءِ الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه ، وهم يعتقدون مآله جميلا لهم ، فأَخبر الله أَن مآله يوم يأْتي يقع معه ندمهم ، ويقولون تأَسفاً على ما فاتهم من الإِيمان : لقد صدقت الرسل وجاؤُوا بالحق ، فالتأْويل – على هذا – مأْخوذ من آل يؤول . وقال الخطابي : أَوَّلت الشيءَ : رددتُه إلى أَوله ، فاللفظة مأْخوذة من الأَول ، حكاه النقاش .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد قيل : أَوَّلت معناه : طلبت أَوّل الوجوه والمعاني .

و [نَسُوهُ] في الآية ، يحسن أَن يكون النسيان من أَول الآية بمعنى الترك ، ويُقِرُّون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه . وقرأَت فرقة : [أَوْ نَردُّ] برفع الفعل على تقدير : أَو هل نردُّ ، وبنصب [فَنَعْمَلَ] في جواب هذا الاستفهام الأَخير . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ] بالرفع فيهما على عطف [نعْمَلُ] ، وقرأَ ابن أَبي إسحق ، وأَبو حيوة : [أَوْ نُرَدَّ فَنعملَ] . ونصب (نردّ) في هذه القراءة إما على العطف على قوله [فَيَشْفَعُوا] ، وإما بما حكاه الفراءُ من أَنَّ [أَوْ] تكون بمعنى (حتّى) كنحو قول امرئ القيس :

. . . . أَوْ نموتَ فَنُعْذَرَا[1]

ويجيءُ المعنى : إن الشفاعة تكون في أَن يُرَدُّوا . ثم أَخبر تعالى عن خسارتهم أَنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأَصنام آلهة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ ٱلذِي خَلقَ السَّمٰواتِ وَٱلأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية . خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله ،

(١) قصة الرحلة التي قام بها امرؤ القيس لاسترداد الملك والأخذ بالثأر من قتلة أبيه معروفة ، وقد رحل إلى قيصر ملك الروم للاستعانة به ، وفي تصويره لهذا يقول :

بكَى صاحِبي لمَّا رأى الدَّرْبَ دونَهُ ... وأَيْقَنَ أنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فقُلْتُ لهُ لاتبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا ... نحاول مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

والفراءُ يرى أن (أَوْ) في قوله : «أو نموت فنعذرا» بمعنى «حتّى» . وصاحبه هو عمرو بن قُمَيْئَة اليَشْكُري .

والرَّبُّ أَصله في اللغة : المصلح من ربَّ يرُبُّ ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تبارك وتعالى المالك والسَّيِّد وغير ذلك من استعمالات العرب ، ولا يقال : الرَّبّ مُعَرَّفاً إلا لله ، وإنما يقال في البشر بإضافة . وروى بكار بن الشقير : [إنَّ رَبَّكُمُ اللهَ] بنصب الهاء . وقوله تعالى : ﴿في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أَنَّ اليوم كأَلف سنة ، وهذا كله والساعة اليسيرة سواءٌ في قدرة الله تعالى ، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عزَّ وجلَّ بعلمه كسائر أَحوال الشرائع ، وما ذهب إليه مَنْ أَراد أَن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تَخَرُّصٌ . وجاءَ في التفسير وفي الأَحاديث أَن الله ابتدأَ الخلق يوم الأَحد ، وكملت المخلوقات يوم الجمعة ، ثم بقي دون خلق يوم السبت ، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها ، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره ، ولليهود لعنهم الله تبارك وتعالى في هذا كلام سوءٍ تعالى الله عما يصفون [1] .

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج [2] ، وفي كتاب «الدلائل»

---

(١) كلام ابن عطية هذا يوحي بأنه يحمل اليهود مسئولية هذه الأقاصيص والأخبار التي تنتشر في التفاسير عن موضوع راحة الله يوم السبت مثلا ، وأنه لا يطمئن إلى هذه الأخبار .

(٢) هو الإمام الأشهر مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ، الحافظ ، المحدث ، أشهر كتبه « صحيح مسلم » وهو أحد الصحيحيْن اللذيْن أجمعت الأمة عليهما ، وقد شرحه كثيرون ، وله غيره « المسند الكبير » ، و « الجامع » و « الطبقات » و « أوهام المحدثين » وغيرها ، ولد في نيسابور وتوفي ودفن بها بعد أن طاف في البلاد العربية ، والحديث الذي يشير إليه القرطبي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، والنسائي من غير وجه عن حجاج عن أبي جريج ، وهو بطوله في « تفسير ابن كثير » ولكن فيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : ﴿في سِتَّةِ أيَّام﴾ ، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً ، والله أعلم .

لثابت السرقسطي[١] أَن الله تعالى خلق التربة يوم السبت ، وذكره مكي في الهداية .

وقوله تعالى : ﴿ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ معناه عند أَبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين : الملك والسلطان ، وخصَّ العرش بالذكر تشريفاً له إِذ هو أَعظم المخلوقات ، وقال سفيان الثوري : فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والعرش مخلوق معيَّن ، جسم مّا ، هذا الذي قررته الشريعة ، وبلغني عن أَبي الفضل بن النحوي أَنه قال : العرش : مصدر عَرَش يعرش عرشاً ، والمراد بقوله : ﴿ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خروجٌ كثيرٌ عما فُهم من العرش في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : [يُغْشي] من أَغشى ، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر ، وحمزة ، والكسائي : [يُغَشِّي] بالتشديد من غشَّى ، وهما طريقتان في تعدية غشى إِلى مفعول ثان ، وقرأَ حميد : [يَغْشَى] بفتح الياء

---

(١) هو ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرّف السرقسطي ، من حفاظ الحديث ، أكمل كتاب « الدلائل » الذي كان ابنه القاسم قد بدأه ، وهو في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث ، توفي في سرقسطة وله من العمر نحو ٩٥ عاماً . (تذكرة الحفاظ — الأعلام) .

والشين ونصب [اللَّيْلَ] ورفع [النَّهَار] ، كذا قال أَبو الفتح ، وقال أَبو عمرو الداني برفع [اللَّيْل] ونصب [النَّهَارَ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَبو الفتح أَثبت [١] .

و [حَثِيثاً] معناه : سريعاً ، و [يَطْلُبُهُ حَثِيثاً] حال من [اللَّيل] بحسب اللفظ على قراءة الجماعة ، ومن [النَّهار] بحسب المعنى ، وأَما على قراءة حميد فمن [النَّهار] في الوجهين ، ويحتمل أَن يكون حالا منهما [٢] ، ومثله قوله تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [٣] ، فيصح أَن يكون [تحْمِلُهُ] حالاً منها ، وأَن يكون حالاً منه ، وأَن يكون حالاً منهما . و [مُسَخَّرَاتٍ] في موضع الحال ، وقرأَ ابن عامر وحده من السبعة : ﴿والشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع في جميعها ، ونصب الباقون هذه الحروف كلها ، وقرأَ أَبان بن تغلب : [وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقمَرَ] بالنصب ، ﴿وَٱلنجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع .

و [أَلَا] استفتاح كلام فاستفتح بها في هذا الموضع . هذا الخبر الصادق المرشد .

---

(١) علَّق أبو حيان في «البحر المحيط» على رأي ابن عطية هذا بقوله : «وهذا الذي قاله من أن أبا الفتح أثبت كلاماً لا يصح ، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات فضلا عن النحاة . هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظ من العربية ، والذي نقله أبو عمرو عن حميد أمكن من حيث المعنى» ثم دلل على ذلك .

(٢) يعني من (الليل) ومن (النهار) معاً .

(٣) من الآية (٢٧) من سورة (مريم) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأخذ المفسرون [ٱلْخَلْق] بمعنى المخلوقات ، أي : هي له كلها وملكه واختراعه ، وأَخذوا [الأَمر] مصدراً من أَمَرَ يأْمُر ، وعلى هذا قال النقاش وغيره : إنَّ الآية تردُّ على القائلين بخلق القرآن لأَنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الأَمر ، إذ [الأَمر] كلامه عزَّ وجلَّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَن تؤخذ لفظة [ٱلْخَلْق] على المصدر من خَلق يخلُق خلقاً ، أَي : له هذه الصفة إذ هو الموجد للأَشياءِ بعد العدم ، ويؤخذ [الأَمر] على أَنه واحد الأُمور إلَّا أَنه يدل على الجنس فيكون بمنزلة قوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[1] ، وبمنزلة قوله تعالى : ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾[2] ، فإذا أُخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسأَلة الكلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولما تقدم في الآية [خَلَق] و [بِأَمْرِهِ] تأَكد في آخرها أَن له الخلق والأَمر المصدرين حسب تقدمهما ، وكيفما تأَولت الآية فالجميع لله ، وأَسند الطبري إلى النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (من زعم أَن الله تبارك وتعالى جعل لأَحد من العباد شيئاً من الأَمر فقد كفر بما أَنزل الله

(١) من الآية (١٢٣) من سورة (هود) .

(٢) تكررت في الآيات (٢١٠) من سورة (البقرة) . والآية (١٠٩) من سورة (آل عمران)، والآية (٤٤) من سورة (الأنفال) ، والآية (٧٦) من سورة (الحج) ، والآية (٤) من سورة (فاطر) ، والآية (٥) من سورة (الحديد) .

لقوله تبارك وتعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾)[1] . قال النقاش : ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً في جميعها أنه مخلوق ، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق . وقال الشعبي : [ٱلْخَلْقُ] عبارة عن الدنيا ، و [ٱلْأَمْرُ] عبارة عن الآخرة . و [تَبَارَكَ] لا يتصرف في كلام العرب ، لا يقال منه (يتبارك) ، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلة ذلك أن (تبارك) لمّا لم يوصف بها غير الله تعالى لم تقتض مستقبلا ، إذ الله قد تبارك في الأزل ، وقد غلط بها أبو علي القالي فقيل له : كيف المستقبل من (تبارك) ؟ فقال : (يتبارك) ، فوقف على أن العرب لم تقله . والربُّ : السيِّد المصلح ، و [ٱلْعَالَمِينَ] جمع عالَم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ ﴾

هذا أمر بالدعاء وتعبُّد به ، ثم قرن عزَّ وجلَّ بالأمْر به صفات تَحْسُن معه[2] .

(١) أخرجه ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه ــ وكانت له صحبة ــ وفي صدره زيادة ذكرها في (الدر المنثور) وهي أيضاً في تفسير ابن جرير ، وهي : (من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه قلّ شكره وحبط عمله . ومن زعم ...) الخ .

(٢) وهي الخشوع والاستكانة والتّضرُّع .

وقوله تعالى : [تَضَرُّعاً] معناه : بخشوع واستكانة ، والتَّضرُّع لفظة تقتضي الجهر لأَن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أَعضاء تقترن بالطلب . [وَخُفْيَةً] يريد في النفس خاصة ، وقد أَثنى الله عزَّ وجلَّ على ذلك في قوله : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (١) ونحو هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (خَيْر الذِّكْر الخَفيُّ) (٢) ، والشريعة مقررة أَن السرّ فيما لم يعترض من أَعمال البر أَعظم أَجراً من الجهر ، وتأَول بعض العلماءِ التضرع والخفية في معنى السرّ جميعاً ، فكأَن التضرع فعل للقلب ، ذكر هذا المعنى الحسن بن أَبي الحسن وقال : «لقد أَدركنا أَقواماً ما كان على الأَرض عملٌ يقدرون أَن يكون سرًّا فيكون جهراً أَبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاءِ فلا يُسمع لهم صوت ، إنْ هو إِلا الهمس بينهم وبين ربهم ، وذلك أَن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ ، وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ .» وقال الزجاج : [ٱدْعُوا رَبَّكُمْ] معناه : اعبدوا ربكم ، [تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً] أَي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب .

---

(١) من الآية (٣) من سورة (مريم).

(٢) رواه في الجامع الصغير : (خَيْرُ الذكر الخفي ، وخير الرزق ما يكفي) ، وقال : «رواه الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في شعب الإيمان» . ورمز له الإمام السيوطي بالصحة .

وقرأ جميع السبعة : [وَخُفْيَةً] بضم الخاء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر - هنا وفي الأنعام - : [وَخِفْيَةً] بكسرها ، وهما لغتان ، وقد قيل : إن خِفية بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة ، ويظهر ذلك من كلام أبي علي . وقرأت فرقة : [وخيفَةً] من الخوف ، أي : ادعوه باستكانة وخوف ، ذكرها ابن سيدة في المحكم ولم ينسبها ، وقال أبو حاتم : قرأها الأعمش فيما زعموا .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يريد : في الدعاء وإن كان اللفظ عاماً ، فإلى هذا هي الإشارة ، والاعتداءُ في الدعاءِ على وجوه ، منها الجهر الكثير والصياح كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم - وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير - : (أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) (١) ، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط ، ومنها أن يدعو طالباً معصية ، وغير ذلك ، وفي هذه الأمثلة كفاية . وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِين﴾ ، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر ، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سيكون أقوام يعتدون

(١) الحديث في الصحيحين - عن أبي موسى الأشعري . وفي آخره (إن الذي تدعون سميع قريب) - (ذكره ابن كثير) .

في الدعاءِ ، وحسب المرءِ أَن يقول : اللَّهم إِني أَسأَلك الجنة وما قرَّب إِليها من قول وعمل ، وأَعوذ بك من النار وما قرَّب إِليها من قول وعمل)(١)

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية . أَلفاظ عامة تتضمن كل إِفساد قلَّ أَو كثر بعد إِصلاح قلَّ أَو كثر . والقصد بالنهي هو على العموم ، وتخصيص شيءٍ دون شيءٍ في هذا تحَكُّم إِلا أَن يقال على وجهة المثال . قال الضحاك : معناه : لا تُعَوِّرُوا(٢) الماءَ المعين ، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً ، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأَرض ، وقد قيل : تجارة الحكام من الفساد في الأَرض ، وقال بعض الناس : المراد : ولا تشركوا في الأَرض بعد أَن أَصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقائل هذه المقالة قصد إِلى أَكبر فساد بعد أَعظم صلاح فخصه بالذكر .

وقوله تعالى : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أَمر بأَن يكون الإِنسان في حالة ترقب وتحزن(٣) وتأْميل لله عزَّ وجلَّ حتى يكون الرجاءُ والخوف

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ورواه أبو داود — عن سعد ، ورواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مغفل — مع اختلاف يسير في الألفاظ ، وفي رواية أحمد عن سعد أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحواً من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (سيكون ...) الخ الحديث . ذكر ذلك ابن كثير ، ورمز له في الجامع الصغير بالصحة .

(٢) هو من قولهم : عوَّرت عيونَ الماءِ إذا دفَنْتها وسَدَدْتها — قاله شمَّر كما في (اللسان) . وقال أيضاً : « وفي حديث علي : أمره أن يُعَوِّر آبار بدر ، أي يدفنها ويَطُمَّها » . ويمكن أن يكون بالغين المعجمة من (أغْوَرَ) بهمزة التعدية . (اللسان) .

(٣) يقال : تحزَّن عليه وله بمعنى تَوَجَّع » . (المعجم الوسيط) . وفي نسخة : « ترقب وتخوف وتأميل » — وهي عبارة القرطبي .

كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة ، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان ، وقد قال كثير من العلماء : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاءَ طول الحياة فإذا جاءَ الموت غلب الرجاء ، وقد رأى كثير من العلماءِ أن يكون الخوف أغلب على المرءِ بكثير ، وهذا كله احتياط ، ومنه تمني الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة ، وتمني سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون .

ثم آنس قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، فإنها آية وعْد فيها تقييد بقوله : [مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ] . واختلف الناس في وجه حذف التاءِ من [قَرِيبٌ] في صفة الرحمة على أقوال ــ منها أنه على جهة النسب ، أي : ذات قرب . ومنها أنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جرت مجرى : كفٌ خضيب ، ولِحْيةٌ دهين . ومنها أنها بمعنى مذكَّر فذُكِّرَ الوصفُ لذلك . واختلف أهل هذا القول في تقدير المذكَّر الذي هي بدل منه ــ فقالت فرقة : الغفران والعفو . وقالت فرقة: المطر ، وقيل غير ذلك . وقال الفراءُ : «لفظة القرب إذا استعملت في النَّسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاءٍ ولابُدّ ، وإذا استعملت في قرب المسافة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أَو الزمن [1] ــ فقد تجيءُ مع المؤنث بتاءٍ ، وقد تجيءُ بغير تاءٍ ،

(١) يعني أن ابن عطية يضيف إلى كلام الفراء عن [قريب] إذا استعملت في قرب المسافة ــ يضيف أيضاً : قرب الزمن .

وهذا منه ، ومن هذا قول الشاعر :

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَــــةٌ فَتدنو ولا عَفْراءَ منْكَ بعيدُ [1]

فجمع في هذا البيت بين الوجهين.»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا قول الفراءِ في كتابه ، وقد مرَّ في بعض كتب المفسِّرين مقَيَّداً [2] ، وردَّ الزجاج على هذا القول [3] . وقال أبو عبيدة : [قَرِيبٌ] في الآية ليس بصفة للرَّحمة ، وإنما هو ظَرف لها وموضع ، فيجيءُ هكذا في المؤنث والاثنين والجمع ، وكذلك (بعيد) ، فإذا جعلوها صفة

---

(١) رواية اللسان (ولم ينسبه) :

لَيَالِيَ لا عَفْرَاءُ منْكَ بعيدةٌ فتَسْلَى ، ولا عَفْرَاءُ منْكَ قَرِيبُ

ورأيُ الفراءِ هذا نقله الجوهري ، وذكر غيره أنه استشهد أيضاً بقوله تعالى : ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ . وقيل أيضاً : هذا هو كلام العرب ، قال امرؤ القيس :

لَهُ الوَيْلُ إنْ أَمْسَى ولا أمَّ هاشم قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابنَةُ يَشْكُرَا

(٢) كلمة (مقيَّداً) هنا قلقة ، والصواب ما جاء في عبارة «البحر المحيط» (مُغَيَّرًا) بمعنى أنه مرَّ في بعض التفاسير مُغَيَّرًا .

(٣) قال الزجاج ردّاً على الفراء : هذا خطأ ، لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما - «عن القرطبي والبحر» ، ونلاحظ أن الزجاج لم يذكر حجة وإنما يريد إجراء القاعدة على أصولها . وقال الأخفش : يجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث ، وأنشد :

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَـــــا ولا أرْض أبْقَلَ إبْقَالَهَـــــا

بمعنى (مُقَرَّبة) قالوا : قريبة وقريبتان وقريبات.(١) وذكر الطبري أَن قوله تعالى : [قَرِيبٌ] إنما يراد به مقاربة الأَرواح للأَجساد ، أي : عند ذلك تنالهم الرحمة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذه آية اعتبار واستدلال ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو [الرِّيَاحَ] بالجمع [نُشُراً] بضم النون والشين ، قال أَبو حاتم : وهي قراءة الحسن ، وأَبي عبد الرحمن ، وأَبي رجاءٍ . واختلف عنهم الأَعرج ، وأَبو جعفر ، وعيسى بن عمر ، وأَبو يحيى ، وأَبو نوفل الأَعرابيين . وقرأَ ابن كثير : [الرِّيحَ] واحدة [نُشُرا] بضمهما أَيضاً . وقرأَ ابن عامر : [الرِّياحَ] جمعاً [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين ، قال أَبو حاتم : ورويت عن الحسن ، وأَبي عبد الرحمن ، وأَبي رجاءٍ ، وقتادة . وأَبي عمرو . وقرأَ حمزة ، والكسائي : [الريحَ] واحدة [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين ، قال أَبو حاتم : وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وزرٌّ بن حبيش ، وابن وثاب ، وإبراهيم ،

---

(١) قال علي بن سليمان : وهذا خطأ ، ولو كان كما قال لكان [قريب] منصوباً . ورد عليه أبو حيان في « البحر » بأنه يمكن الاتساع في الظرف .

وطلحة ، والأَعمش ، ومسروق بن الأَجدع . وقرأَ ابن جني قراءَة مسروق : [نَشَراً] بفتح النون والشين . وقرأَ عاصم : [الرِّياح] جماعة [بُشْراً] بالباءِ المضمومة والشين الساكنة ، وروي عنه : [بُشُراً] بضم الباءِ والشين ، وقرأَ بها ابن عباس ، والسلمي ، وابن أَبي عبلة . وقرأَ محمد بن السميفع ، وأَبو قُطَيْب : [بُشْرَى] على وزن فُعْلَى بضم الباءِ ، ورويت عن أَبي يحيى ، وابن نوفل . وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي : [بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين . قال الزهراوي : ورويت هذه عن عاصم .

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أَسعد ، وذلك أَن (الرياح) حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [١] ، وقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿اللهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ [٣] ، وأَكثر ذكر (الريح) مفردة إنما هو بقرينة عذاب كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [٤] وقوله : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [٥] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [٦] نَحَا هذا المنحى يحي بن يَعْمر ، وأَبو عمرو بن العلاءِ ، وعاصم .

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (الروم) .
(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر) .
(٣) من الآية (٤٨) من سورة (الروم) .
(٤) الآية (٤١) من سورة (الذّاريات) .
(٥) الآية (٦) من سورة (الحاقة) .
(٦) من الآية (٢٤) من سورة (الأحقاف) .

وفي الحديث أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الرِّيح يقول : (اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) [١]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى في هذا كله بيِّن ، وذلك أَن ريح السُّقْيا والمطر إنما هي منتشرة ليِّنة تجيءُ من ها هنا ومن ها هنا وتتفرق ، فيحسن من حيث هي منفصلة الأَجزاءِ متغايرة المهب يسيراً أَن يقال لها : رياح ، وتوصف بالكثرة ، وأَمَّا ريح الصرِّ والعذاب فهي عاصفة صَرْصَر جسد واحد ، شديدة المَرّ ، مُهْلِكَة بقوتها وبما تحمله أَحياناً من الصرّ المحرق ، فيَحْسُنُ من حيث هي شديدة الاتصال أَن تُسمى ريحاً مفردة ، وكذلك أُفردت الريح في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢] من حيث جري السفن إنما تجري بريح متصلة كأَنها شيءٌ واحد فأُفردت لذلك ، ووصفت بالطيب لإزالة الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة ، وكذلك ريحُ سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأَمره أَو تعصف في قفوله وهي متصلة [٣] . وبعد ، فمن قرأَ هذه الآية : [الرِّيحَ] بالإِفراد فإنما يريد به اسم الجنس ، وأَيضاً فتقييدها بـ [بُشْراً] يزيل الاشتراك .

---

(١) قارن هـذا بما رواه الإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تبارك وتعالى ، وسَلُوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وتعوذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) ، لتعلم أن الفكرة ليست قاعدة ، وإنما لكل حديث أسبابه وظروفه .

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (يونس) .

(٣) ريح سليمان عليه السلام هي الّتي قال الله تعالى فيها في الآية (٣٦) من سورة (ص) : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ، وإذاً فلكل تعبير دواعيه .

والإرسال في الريح هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإسالة ، ومنه الحديث : (فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أَجود بالخير من الريح المرسلة)(١) . والريح تجمع في القليل : أَرواح ، وفي الكثير : رياح ، لأَن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياءً للكسر الذي قبلها ، وكذلك في الجمع الكثير ، وصحت في القليل لأَنه لاشيءَ فيه يوجب الإِعلال .

وأَما [نُشُراً] بضم النون والشين فيحتمل أَن يكون جمع ناشر على النسب ، أَي ذات نشر من الطي ، أَو نشور من الحياة ، ويحتمل [نُشُراً] أَن يكون جمع (نَشُور) بفتح النون وضم الشين ، كرسول ورُسل ، وصبور وصُبر ، وشكور وشُكر ، ويحتمل [نُشُراً] أَن يكون كالمفعول بمعنى منشور ، كركوب بمعنى مركوب ، ويحتمل أَن يكون من أَبنية اسم الفاعل لأَنها تنشر السحاب ، وأَما مثال الأَول في قولنا : ناشر ونُشُر فشاهد وشُهُد ونازل ونُزُل ، كما قال الشاعر :

. . . . أَوْ تَنْزِلونَ فَإِنَّا مَعْشَـرٌ نُزُلُ(٢)

---

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارمي ، ورواه الإمام أحمد في أماكن كثيرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما جاء في مسند الإمام أحمد (١–٢٨٨) : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، قال : فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة) .

(٢) البيت للأعشى من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مرتَحِـــلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَداعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟

وهو بتمامه :

قالوا الرُّكُوبَ فَقُلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَـا أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُـــزُلُ

وَقَاتلٌ وقُتْلٌ ، ومنه قول الأَعشي :

. . . . إنَّا لِأَمثالِكُمْ ياقَوْمَنَا قُتــــل(١)

وأَمَّا من قرأَ : [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين فإنما خفف الشين من قوله : نُشُرا ، ومن قرأَ : [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر في موضع الحال من الريح ، ويحتمل في المعنى أَن يراد به النشر الذي هو خلاف الطيّ ، وكل بقاء الريح بدون هبوب طيّ ، ويحتمل أَن يكون من النَّشْر الذي هو الإحياءُ كما قال الأَعشي :

. . . . يَا عَجَبَـا لِلْمَيِّتِ النَّاشِــرِ(٢)

وأَما من قرأَ : [نَشَراً] بفتح النون والشين – وهي قراءَة شاذة – فهو اسمٌ وهو على النسب ، قال أَبو الفتح : أَي ذوات نَشَر ، والنَّشَر : أَن تنتشر الغنم بالليل فترعى ، فشبه السحاب في انتشاره وعمومه بذلك .

وأَمَّا : [بُشُراً] بضم الباءِ والشين فجمع بشير ، كَنَذِير ونُذُر ، و [بُشْراً] بسكون الشين مخفف منه ، و [بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين مصدر ، و [بُشْرى] مصدرٌ أَيضاً في موضع الحال . والرحمة في هذه الآية : المطر ، و [بَيْنَ يَدَيْ] أَي أَمام رحمته وقُدَّامها ، وهي هنا استعارة ، وهي حقيقة فيما بين يدي الإنسان من الأَجرام .

---

(١) البيت من نفس القصيدة الّتي منها الشاهد السابق ، وهو بتمامه :

كَلا ، زَعَمْتُمْ بِأَنَّا لا نُقَاتِلُكُمْ إنَّا لأَمْثَالِكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتُلُ

(٢) هذا عجز بيت وصدره :

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوا . . . .

وهو من قصيدة للأعشى يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح ابن الطفيل في المنافرة الّتي جرت بينهما .

و [أَقَلَّتْ] معناه : رفَعت من الأَرض واسْتَقَلَّت بها ، ومنه القِلَّة ، وكأَن المُقِلَّ يرى ما يرفع قليلا إذا قدر عليه ، و [ثِقَالا] معناه : من الماءِ ، والعرب تصف السحاب بالثِّقل والدَّلْح ، ومنه قول قيس ابن الخطيم :

بِأَحْسَنَ مِنْهَــا وَلا مُزْنَــة دَلُوح تكَشَّفُ أَدْجَانُهَــا (١)

والرِّيح تسوق السحاب من ورائها فهو سوق حقيقة ، والضمير في [سُقْنَاهُ] عائد على السحاب ، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله تعالى من حيث هو إنعام . وصفة البلد بالموت استعارة بسبب شعثه وحدوبته وتصويح نباته . وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم ، والأَعمش : [لِبَلَدٍ مَيْتٍ] بسكون الياءِ ، وشدها الباقون . والضمير في قوله تعالى : [فَأَنْزَلْنَا بِهِ] يحتمل أَن يعود على السحاب أَي منه ، ويحتمل أَن يعود على البلد ، ويحتمل أَن يعود على الماءِ وهو أَظهرها .

وقال السدي في تفسير هذه الآية : إن الله تعالى يرسل الرياح فتأْتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماءِ والأَرض حيث يلتقيان

---

(١) يقال : دَلَح دلْحاً إذا مشى بِحِمْله غير منبسط الخطو لِثِقَله ، ودَلَحَتْ السحابة إذا أبطأت في مسيرها من كثرة الماء ، وفي الحديث : (كان النساءُ يدْلَحْنَ بالقِرَب على ظهورهن في الغزو) ، فمعنى قوله : مُزْنَة دَلُوح أي : مثقلة بالماء لكثرته فيها ، والأَدْجَان : جمع دجْن ، وهو أن يلبس الغيمُ الأرض وأقطارَ السماء . وقَيْسُ بنُ الخطيم شاعر مُكثر مُجيد حسن الديباجة ، وهو أشعر أهل المدينة في الجاهلية ، عرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فلم يسلم وأسلمت امرأته حواءُ بنت يزيد ، وأغراض شعره الفخر والحماسة والغزل وشيءٌ من الوصف فيه صور بدوية وصور حضرية . وقد قتل قيس بن الخطيم كما حكى ذلك صاحب الأغاني : (٣-١٠) . وكان مقتله قبل الهجرة .

فتخرجه من ثَمَّ ، ثُمَّ تنشره فتبسطه في السماءِ ، ثم تفتح أَبواب السماءِ فيسيل الماءُ على السحاب ، ثم تمطر السحاب بعد ذلك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يحتمل مقصدين : أَحدهما أَن يراد : كهذه القدرة العظيمة في إِنزال الماءِ وإِخراج الثمرات به من الأَرض المجدبة هي القدرة على إِحياءِ الموتى من الأَجداث ، وهذا مثالٌ لها . ويحتمل أَن يراد أَن هكذا يصنع بالأَموات من نزول المطر عليهم حتى يَحْيَوْا به ، فيكون الكلام خبراً لا مثلا ، وهذا التأْويل إِنما يستند إِلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه (أَن الناس إِذا ماتوا في النفخة الأُولى مُطِر عليهم مَطَرٌ من ماءٍ تحت العرش يقال له : ماءُ الحيوان ــ أَربعين سنة ، فينبتون كما ينبت الزرع ، فإِذا كملت أَجسادهم نفخ فيهم الروح ، ثم تلقى عليهم نومة فينامون ، فإِذا نفخ في الصور ثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم ، فيقولون : ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ؟ فيناديهم المنادي : ﴿هَذَا مَاوَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

---

(١) هذا الحديث رواه ابن جرير عن أبي هريرة ، ولكن أكثر المفسرين نقلوا قول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية وهو : « هذا مثل ضَرَبَه الله للمؤمن والكافر » ورَوَوا في ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثَل ما بعثني الله به من العلم والهُدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشْب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) . والآية رقم (٥٢) من سورة (يس) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ آية مُتَمِّمَة للمعنى الأول في الآية قبلها ، مُعرّفة بعادة الله تبارك وتعالى في إنبات الأرضين ، فمن أراد أن يجعلها مثالا لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب ، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد به ذلك ، والتمثيل بذلك حكاه الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي . وقال النحاس : هو مثال للفهيم وللبليد . والطيِّب هو الجيِّد التراب الكريم الأرض ، وخص بإذن ربِّه مدحاً وتشريفاً ، وهذا كما تقول لمن تغض عنه : «أنت كما شاء الله» ، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم ، ومن هذا قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [(١)] على بعض التأويلات . والخبيث هو السباخ ونحوها من رديء الأرض . وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، وعيسى بن عمر : [يُخْرِجُ نَبَاتَهُ] بضم الياء وكسر الراء ونصب التاء . والنَّكِدُ : العسير القليل ، ومنه قول الشاعر :

لا تُنْجِزُ الوَعْدَ إنْ وعَدْتَ وإنْ   أَعْطيْتَ أَعْطَيْتَ تافِهاً نَكِداً [(٢)]

ونكد الرجل إذا سأل إلحافاً وأخجل ، ومنه قول الشاعر :

وأَعْــطِ ما أَعْطَيْتَهُ طَيِّبَــا   لا خَيْرَ في المَنْكُودِ والنَّاكِدِ [(٣)]

---

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة) .

(٢) النَّكِد: العطاءُ القليل ، ونكِد عيشهم بكسر الكاف ينكد نكدا: اشتد ، ونكد الرجل : قلَّل العطاءَ أو لم يعط البتة . (اللسان) .

(٣) البيت في اللسان غير منسوب — قال : والنُّكْد والنَّكْد (بضم النون وفتحها) : قلّة العطاء وأن لا يهنأه من يُعطاهُ ، ونَكَدَه ما سألَه يَنْكُدُه نكْدا : لم يُعْطه منه إلا أقلَّهُ ، أنشد ابن الأعرابي :

مِنَ البيضِ تُرْغينا سُقَـاط حَديثِها   وَتَنْكُدُنَـا لَهْوَ الحَديثِ المُمَنَّـع

تُرْغينا : تُعطينا منه ما ليس بصريح .

وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة : [نَكِداً] بفتح النون وكسر الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف : [نَكْدا] بتخفيف الكاف وفتح النون ، وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع : [نَكَداً] بفتح النون والكاف ، وقال الزجاج : وهي قراءة أهل المدينة .

﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أي : هكذا نبين الأُمور . و [يَشْكُرُونَ] معناه : يؤمنون بآلاءِ الله ويُثْنون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

اللام لام القسم ، قال الطبري : أَقسم الله تبارك وتعالى أنه أَرسل نوحاً . وقالت فرقة مِنَ المفسرين : سمِّي نوحاً لأَنه كان ينوح على نفسه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

قال سيبويه : نوح ولوط وهود أَسماءٌ أَعجمية إلا أَنها حقيقة فلذلك صرفت . وهذه نِذَارة من نوح لقومه ، دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة : ودا وسواعا ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر . وقرأ الكسائي وحده [غيْرِه] بالكسر من الراءِ على النعت

لِـ [إلَـهٍ] ، وهي قراءة يحيي بن وثاب ، والأَعمش ، وأَبي جعفر ، وقرأَ الباقون : [غيْرُهُ] بالرفع ، وقرأَ حمزة والكسائي : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللهِ﴾[1] خفضاً ، وقرأَ الباقون : [غَيْرُ اللهِ] رفعاً ، والرفع في قراءة الجماعة هنا على البدل من قوله من [إلٰهٍ] ، لأَن موضع قوله : [مِنْ إلٰهٍ] رفع ، وهو الذي رجح الفارسيُّ . ويجوز أَن يكون نعتاً على الموضع لأَن التقدير : مالكم إلٰه غيره ، أَو يقدر (غيْر) ب (إلَّا) فيعرب بإعراب ما يقع بعد (إلَّا) ، وقرأَ عيسى بن عمر : [غيرَه] بنصب الراءِ على الاستثناءِ ، قال أَبو حاتم : وذلك ضعيف من أَجل النفي المتقدم . وقوله تعالى : [عَذاب] يحتمل أَن يريد به عذاب الدنيا ، ويحتمل أَن يريد به عذاب الآخرة .

و [ٱلْمَلَأُ] الجماعة الشريفة ، قال الطبري : لا امرأَة فيهم ، وحكاه النقاش عن ثعلب في : الملأ ، والرَّهْط ، والنَّفَر . والقوم . وقيل : هم مأْخوذون من أَنهم يملؤون النفس والعين ، ويحتمل أَن يكون من أَنهم إذا تمالؤوا على أَمْر تَـمَّ ، وقال سلَمة بن سلامة بن وقش الأَنصاري عند قفول رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر : «إنما قتلنا عجائز صُلْعاً» ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أُولئك الملَأُ من قريش لو حَضرتَ أَفعالهم لاحتقرت فِعْلَك) . والملَأُ ، صفة غالبة وجمعه أَملاءٌ ، وليس من باب (رهْط) وإن كانا اسمين للجمع ، لأَن (رهْط) لا واحد له من لفظه ، و (ملأٌ) يوجد من لفظه (مالئ) . قال أَحمد

(١) من الآية (٣) من سورة (فاطر) .

ابن يحيى : المالئ : الرجل الجليل الذي يملأُ العيْن بِجُهْرَتِه (١) ، فيجيءُ كعازب وخادم ورائح فإن أسماءَ جموعها : عَزَبٌ وخَدَمٌ ورَوَحٌ ، وإن كانت اللفظة من «تَمَالأَ القوم على كذا» فهي مفارقة باب (رهْط) ، ومنه قول علي رضي الله عنه : «ما قتلت عثمان ولا مالأْتُ في دمه» ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (الملَؤُ) بواو ، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقولهم : [لَنَرَاكَ] يحتمل أن يُجعل من رؤْية البصر ، ويحتمل من رؤْية القلب وهو الأظهر ، و [في ضَلال] أي في إتلاف وجهالة بما تسلك. وقوله لهم جواباً عن هذا : ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ مبالغة في حُسْن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم ، وتَنَاوُلٌ رفيق وسَعَة صدر حسبما يقتضيه خلق النُّبُوَّة ، وقوله : [وَلكِنِي رَسُولٌ] تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونُقَدّر - ولابدَّ - أن نوحاً عليه السلام وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة ، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يُعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو : [أُبَلِّغُكُمْ] بشد اللام وفتح الباء ، وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام ، وقوله صلى الله عليه وسلم :

(١) من قولهم : جَهَرَ الشيءُ فلاناً : عظم في عينه وراعَه جمالُه وهيئتُه ، وفي حديث علي رضي الله عنه في صفته صلى الله عليه وسلم : (لم يكن قصيراً ولا طويلا ، وهو إلى الطول أقرب ، من رآه جَهَرَه) . «المعجم الوسيط»

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ وإن كان لفظاً عامًّا في كل مَا عَلِمَه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم ، لاسيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأُمة عذبت ، فاللفظ مضمن الوعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * ﴾

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة ، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال ، هذا هو الظاهر من قصتهم ، وقوله تعالى : [عَلَى] قيل : هي بمعنى (مع) ، وقيل : هو على حذف مضاف تقديره : على لسان رجل منكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون المجيءُ بنفسه في هذا الموضع يصل بـ (عَلَى) إذ كل ما يأْتي من الله تبارك وتعالى فله حكم النزول ، فكأَن [جَاءَكُم] معناه : نزل ، فحسُن معه أن يقال : [عَلَى رَجُلٍ] ، واللام في [لِيُنْذِرَكُمْ] لام كي ، وقوله تعالى : [وَلَعَلَّكُمْ] ترجٍّ بحسب حال نوح ومعتقده ، لأَن هذا الخبر إنما هو من تلقاءِ نوح عليه السلام .

وقوله تعالى : [فَكَذَّبُوهُ] الآية . أخبر الله عنهم أنهم بعد تلطُّفه بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة ، وهي الفُلْك ، والفُلْكُ للجمع والمفرد ، وليس على حدّ جُنُب ونحوه ، لكن[1] فُلْك للواحد كُسِّر على فُلْك للجميع ، فضمةُ الفاء في الواحد ليست هي في الجمع ، وفُعْل بناءُ تكسير مثل : أَسَد وأُسد ، ويدل على ذلك قولهم في التثنية : فُلْكَان[2]

وفي التفسير : إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلا ، وقيل : ثمانون ، وقيل : عشرة ، فهم أولاده : يافث وسام وحام ، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي وغيره :« إن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام » ، وقال الزهري في كتاب النقاش : وفي القرآن : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[3] .

---

(١) لعلّ الصواب (لأن) بدلا من (لكن) فتأمل المعنى .

(٢) جاء في (اللسان) : « الفُلْك بالضم : السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع ، فإن شئت جعلته من باب جُنُب ، وإن شئت من باب دِلاص وهِجان ، وهذا الوجه الأخير هو مذهب سيبويه أعني أن تكون ضمة الفاء من الواحد بمنزلة ضمة باء بُرْد وخاء خُرْج ، وضمة الفاء في الجمع بمنزلة ضمة حاء حُمْر وصاد صُفْر جمع أحمر وأصفر » ، ثم نقل عن الجوهري قوله : و « إنّ فُعْلاً وفَعَلاً يشتركان في الشيء الواحد مثل العُرْب والعَرَب والعُجْم والعَجَم ، ثم جاز أن يجمع فَعَل على فُعْل مثل أسَد وأُسْد ، ولم يمتنع أن يُجْمع فُعْل على فُعْل » .

(٣) من الآية (٣) من سورة (الإسراء).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين – حسب الخلاف – حَفَدة لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث ، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل – وقد روي ذلك – وإلّا لكان بين الحديث والآية تعارض .

وقوله تعالى : [كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا] يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات ، وقوله : [عَمِينَ] وزنه فعين وهو جمع عَم وزنه فَعٍ ، ويريد عمى البصائر ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نوحاً عليه السلام بعث ابن أربعين سنة ، قال ابن الكلبي : بعد آدم بثمانمائة سنة ، وجاء بتحريم البنات والأخوات والأُمهات والخالات والعمات وقال وهب بن مُنَبِّه : بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة ، وقيل : بعث ابن ثلاثمائة سنة ، وقيل : ابن خمسين سنة ، ورُوي أنه عمّر بعد الغرق ستِّين سنة ، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة سنة من عمره صلى الله عليه وسلم ، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس ، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه ، وذلك يجتمع أن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

[عاد] اسم الحيّ ، و [أَخاهُم] نصب بـ [أَرْسَلْنا] فهو معطوف على (نوح) . وهذه أيضاً نِذارَةٌ من هود عليه السلام لقومه ، وتقدم الخلاف في قراءة [غَيْرِه] ، وقوله [أَفَلَا تَتَّقُونَ] استعطاف إلى التقى والإيمان .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الآية ، تقدم القول في مثل هذه المقالة آنفاً ، والسفاهة : مصدر عبّر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة ، والسَّفَهُ في الثوب خِفَّة نسجه ، ومنه قول الشـاعر :

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّتْ رِماحٌ تَسَفَّهَتْ أَعاليها مرُّ الرِّياح النَّوَاسِـم [1]

وقولهم : [لَنَظُنُّكَ] هو ظن على بابه لأَنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص ، وتقدم الخلاف في قراءة : [أُبَلِّغُكُمْ] ، وقوله تعالى : [أَمِينٌ] يحتمل أَن يريد : على الوحي والذكر النازل من قِبَلِ الله

(١) سبق لابن عطية رحمه الله أن استشهد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ ، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً ﴾ . والبيت لذي الرمة ، وأصل السفه : الخفة ، وتسفَّهت الريح الغصون : حركتها واستخفتها .

عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أن يريد أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم ، والعرب تقول :« فلانٌ لِفُلانٍ ناصح الجيب (١) أمين الغيب » ، ويحتمل أن يريد به : أمين من الأَمن ، أَي : جهتي ذات أَمْن من الكذب والغِش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قد تقدم القول في مثل [أَوَعَجِبْتُمْ] . والذكر : لفظ عام للمواعظ والأَوامر والنواهي . وقوله تعالى : [وَٱذْكُرُوا] الآية ، تعديد للنعم عليهم . و [خُلَفَاءَ] جمع خليف ، كظريف وظرفاء ، وخليفة جمعه خلائف ، والعرب تقول : خليفة وخليف ، وأَنشد أَبو علي :

فَإِنْ يَزُلْ زائِلٌ يُوجَدْ خليفَتُهُ وَمَا خَلِيفُ أَبي وَهْبٍ بِمَوْجود (٢)

قال السُّدّي وابن إسحق : والمعنى : جعلكم سكان الأَرض بعد قوم نوح .

---

(١) يقال : ناصِحُ الجيْبِ بمعنى : نَقِيُّ القَلْبِ لا غِشّ فيه (المعجم الوسيط) .

(٢) البيت لأوس بن حجر ، وقد أنشده أبو حاتم في مقام ما ذكره من أن خلائف تأتي على لفظ خليفة ، وقالوا : إن فَعيلة (خَليفة) لا تجمع على فُعَلاء (خُلفاء) فجمعها فَعَائل (خَلائف) ، ولفظ البيت في اللسان :

إنَّ مِنَ الحَيِّ مَوْجُوداً خَليفَتُهُ وما خَليفُ أبي وَهْبٍ بِمَوْجُودِ

وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي في الْخِلْقة ، والْبَصْطة : الكمال في الطول والعرض ، وقيل : زادكم على أهل عصركم ، قال الطبري : المعنى : زادكم على قوم نوح ، وقاله قتادة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم ، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم ، وروي أن طول الرجل منهم كان مائة ذراع ، وطول أقصرهم ستين ، ونحو هذا .

والآلاءُ : جمع إِلًى على مثال مِعًى ، وأنشد الزجاج :

أَبْيَضُ لا يَرْهَبُ الْهُزالَ ولا يَقْطَع رِحْماً ولا يَخُون إِلَى[1]

وقيل : واحد الآلاءِ أَلًى على مثال : قَفًى ، وقيل : واحدها : أَلَى على مثال : حَسَا وهي النعمة والمِنَّةُ . و [تفلِحُونَ] معناه : تدركون البُغية والآمال .

قال الطبري : وعادٌ هؤلاءِ فيما حدّث ابن إسحٰق من ولد عاد ابن إرم بن عَوص بن سام بن نوح ، وكانت مساكنهم الشِّحْر[2] من أرض اليمن وما إلى حضرموت إلى عُمان . وقال السُّدّي : وكانوا بالأحقاف وهي الرمال ، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردَّها الله صحارى ، وقال علي بن أبي طالب : إن قبر هود عليه السلام هنالك

---

(١) البيت للأعشى كما قال في (اللسان) . وفيه : « الآلاءُ : النِّعَم واحدها أَلىً بالفتح ، وإِلْيٌ وإِلىً ، قال الجوهري : قد تكسر وتكتب بالياءِ مثال مِعىً وأمعاء » . « وقال ابن سيدة في هذا البيت : يجوز أن يكون (إِلَى) هنا واحد آلاءٍ » . ا هـ — عن اللسان —

(٢) بكسر الشين المشددة وسكون الخاءِ : ساحل اليمن ممتداً إلى حضرموت .

في كثيب أحمر يخالطه مَدَرَة ذاتُ أراك وسِدْر[١] ، وكانو اقد فشوا في جميع الأَرض ، وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس ، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة ، وكانوا أَصحاب أَوثان منها ما يسمى صداءُ ، ومنها صمودا ، ومنها الهبا [٢] ، فبعث الله إليهم هوداً من أَفضلهم وأَوسطهم نسباً فدعاهم إلى توحيد الله وإلى ترك الظلم . قال ابن إسحٰق : لم يأْمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعتَوْا ، واستمر ذلك منهم إلى أَن أَراد الله إنفاذ أَمره ، فأَمسك عنهم المطر ثلاث سنين فشقوا بذلك ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا هَمَّهم أَمْرٌ فزعوا إلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له ، مؤمنهم وكافرهم ، وأَهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمى معاوية ابن بكر ، فاجتمعت عاد على أَن تجهز منهم وفداً إلى مكة يستسقون الله لهم ، فبعثوا قَيْل بن عَيْر ، ولقيم بن هزال ، وعقيل بن ضد ابن عاد الأَكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، ، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه ، وجُلْهمة بن الخيبري في سبعين رجلا من قومهم ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم ، فأَنزلهم وأَقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية ، فلما رأى معاوية طول إقامتهم وقد بعثتهم عادٌ للغوث أَشفق

(١) المَدَرَة بفتحات : واحدة المَدَر وهو الطّين اللَّزج المتماسك ـ والأراك واحدتُه أَراكة : نبات شجيريٌّ من الفصيلة الأراكية كثير الفروع ، خوّار العود ، متقابل الأوراق ، له ثمار حمر دكناء تؤكل ، ينبت في البلاد الحارة ، والسِّدر : شجر النبق واحدته سِدْرة . عن (المعجم الوسيط) .

(٢) هكذا في الأصول ، ولكن في القرطبي والبحر : الهباءُ بالياء وهمزة بعد الألف .

على عادٍ ، وكان ابن أُختهم كلهدة بنت الخيبري جُلْهمة ، وقال : هلك أخوالي ، وشقَّ عليه أن يأْمر أَضيافه بالانصراف عنه ، فشكا ذلك إلى القيْنَتيْن ، فقالتا له : اصنع شعراً نغني به عسى أن نُنَبِّههم ، فقال :

أَلَا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُسْقِينَا غمامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عاد إنَّ عَادًا ... قَدَ امْسُوا لا يُبِينُونَ الكلامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بهِ الشَّيْخَ الكَبِيرَ ولا الْغُلامَا
وقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُم بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عيامَى
وَإِنَّ الْوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جِهَاراً ... ولا يَخْشَى لِعَادِيٍّ سهَامَا
وَأَنْتُمْ ها هُنَا فيما اشْتَهَيْتُمْ ... نَهارُكمْ ولَيْلُكمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وفْدُكُمْ مِن وفْدِ قَوْمْ ... ولا لُقُّوا التَّحِيَّةَ والسَّلامَا [1]

فغنَّت به الجرادتان ، فلماَّ سمعه القوم قال بعضهم : يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حلَّ بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعلَّ الله يغيثهم ، فخرجوا لذلك ، فقال لهم مرثد بن سعد : إنكم والله ما تُسْقون بدعائكم ، ولكنكم إن أَطعتم نبيكم وآمنتم به سقيتم ، وأَظهر إيمانه يومئذ فخالفه الوفد ، وقالوا لمعاوية بن بكر وأَبيه بكر : احبسا عنَّا مرثدا

---

(١) هذه الأبيات مذكورة في كتاب « عرائس المجالس » المشهور بقصص الأنبياء للمفسر أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفي سنة ٤٢٧ هـ — وكذلك مذكورة في تفسير الطبري كما ذكر ابن عطية ، وعلى غير عادته ذكرها لكنه أوجز فيها هي والقصة مع ما ذكره في آخرها مما يوحي بأنه يشك فيها .

ولا يدخل معنا الحرم فإنه قد اتَّبع هوداً ، ومضوا إلى مكة فاستسقى قَيْل بن عير وقال : يا إلٰهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فإنا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السحاب : يا قَيْلُ اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب ، فقال قَيْل : قد اخترت السوداء فإنها أكثرها ماءً ، فنودي : اخترت رماداً رِمْدَدَا[1] ، لا تبقي من عادٍ أحداً ، لا والداً ولا ولدا ، إلَّا جعلتهم هُمَّدَا ، وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قَيْل إلى عادٍ حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له : المغيث ، فلما رأوْها قالوا : هذا عارضٌ مُمْطرنا حتى عرفَت أنها ريحٌ امرأَةٌ من عادٍ يقال لها : مَهْدَد ، فصاحت وصعقت ، فلما أفاقت قيل لها : ما رأيت ؟ قالت : رأيت ريحاً كشهب النار أمامها رجال يقودونها ، فسخَّرها الله عليهم ثمانية أيام حسوماً وسبع ليال ، والحسوم : الدائمة ، فلم تدع من عادٍ أحداً إلا هلك ، فاعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبه من الريح إلَّا ما يلتذ به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قصص وقع في تفسير الطبري مطولا ، وفيه اختلاف ، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز ، وفي خبرهم أن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الظعينة[2] عليها المرأة حتى تلقيها في البحر ، وفي خبرهم أن أقوياءهم كان أحدهم يسُدّ بنفسه مهبّ الريح حتى

---

(١) الرماد الرِّمْدَدُ : المتناهي في الاحتراق والدقة . (النهاية) – لابن الأثير .
(٢) الظَّعينةُ : الراحلة يرتحل عليها ، والهودج – (المعجم الوسيط) .

تغلبه فتلقيه في البحر فيقوم آخر مكانه حتى هلك الجميع . وقال زيد ابن أسلم : بلغني أن ضبعاً ربت أولادها في حِجاج[١] عين رجل منهم ، وفي خبرهم أن الله بعث ـ لما هلكت عاد ـ طيراً ـ وقيل : أُسْداً ـ فنقلت جيفهم حتى طرحتهم في البحر ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[٢] . وفي بعض ما روي من شأنهم أن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم فذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٣] ، ورُوي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا ، فالله أعلم أيّ ذلك كان .

وقوله تعالى : [قَالُوا أَجِئْتَنَا] الآية ، ظاهر قولهم وحده أنّهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإلٰه الخالق المبدع ، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم : [لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ] أي على قولك يا هود . والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عبّاد الأوثان كلهم ، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإربد بن ربيعة ، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود ، وقولهم : [فَأْتِنَا] تصميم على التكذيب ، واحتقار لأمر النبوة ، واستعجال للعقوبة ، وتمكن قولهم : [تَعِدُنَا] لما كان هذا الوعد مصرّحاً به في الشر ، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لم يَجِئْ إلّا في خير .

---

(١) الحِجَاج (بفتح الحاء وكسرها) عظم الحاجب ، وجمعه : أحجّة (المعجم الوسيط).

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف) : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

(٣) من الآية (٦) من سورة (الحاقة) : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

أَعلمهم بأَن القضاءَ قد نفذ ، وحلَّ عليهم الرجز وهو السخط والعذاب ، يقال : رجسٌ ورجزٌ بمعنى واحد ، قاله أَبو عمرو بن العلاءِ ، وقال الشاعر :

إِذَا سَنَــةٌ كانتْ بنَجْدٍ مُحِيطَةً فكانَ علَيْهِمْ رِجْسُها وعَذابُهَا (١)

وقد يأْتي الرجس أَيضاً بمعنى النَّتَن والقَذر ، ويقال في الرجيع : رِجْسٌ وركْزٌ ، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات ، أَي ينبغي أَن يجتنب كما يجتنب النتن ، ونحوه في المعنى قول النبي صلى الله

(١) السَّنَة : الجدب والقحط ، وتكون أيضاً الأرض المجدبة ، وأصلها : سنْهَة كَجَبْهَة حذفت لامها بعد نقل فتحتها إلى العين ، والجمع : سنوات وسنون ، ولم نعثر على نسبة هذا البيت فيما لدينا من المراجع .

عليه وسلم في خبر جَهْجَاه الغِفَاري وسنان بن وبرة الأَنصاريّ [١] حين دعَوَا بدعوى الجاهلية : (دَعُوهَا فَإِنها مُنْتنة) [٢] .

وقوله : ﴿أَتُجَادِلُونَنِي في أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ إنما يريد أَنهم يخاصمونه في أَن تُسَمى آلهة ، فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المُسَمَّيَات ، لكنه ورد في القرآن : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾ [٣] فهنا لا يريد إلا ذوات الأَصنام ، فالاسم يراد به المسمَّى نفسه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن رأَى أَن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أَنفس الأَصنام وعبادتها تأَول هذا التأْويل . والاسم يَرِدُ في كلام العرب بمعنى التسمية ، وهذا بابه الذي استعمله به النحويّون ، وقد يُرادُ به المسمَّى ويدل عليه ما قاربه من القول ، من ذلك قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [٤]

---

(١) جَهْجَاه بن سعيد – وقيل ابن قيس – الغفاري ، شهد بيعة الرضوان بالحديبية . وسِنَانُ بن وَبْر الأنصاري قال عنه الواقدي : « شهد غزوة المريسيع » – روى الشيخان من حديث جابر : كنَّا في غزاة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ... الحديث في نزول قوله تعالى : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأذلَّ ﴾ . ذكر ابن عبد البر أن المهاجري هو جَهْجَاه ، وأن الأنصاري هو سنان . وأن جهجاه هذا مات بعد عثمان بسنة – ذكره ابن السَّكَن .

(٢) هذا جزء من حديث رواه الشيخان ، وسببه هو ما ذكرناه في الهامش السابق .

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (يوسف) .

(٤) الآية (١) من سورة (الأعلى) .

على أَن هذا يُتـأَول ، ومنه قول لبيد :

إِلَى الْحَوْلِ ثـمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا . . . . (١)

على تـأْويلات في البيت ، وقد مضت المسأَلة في صدر الكتاب . والسلطان : البرهان ، وقوله : ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد .

والضمير في قوله تعالى : [فَأَنْجَيْنَاهُ] عائد على هود ، أَي أَخرجه الله تعالى سالماً ناجياً مع من اتَّبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله ، وخرج هود ومن آمن معه حتّى نزلوا مكة فأَقاموا بها حتّى ماتوا . [وَقَطَعْنَا دَابِرَ] استعارة تستعمل فيمن يُستأْصل بالهلاك ، والدابر : الذي يدبر القوم ويأْتي خلفهم ، فإِذا انتهى القطع والاستئصال إِلى ذلك لم يبق أَحد ، وقوله : [كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا] دالٌّ على المعجزة وإِن لم تتعين لها .

وقوله تعالى : [وَإِلَى ثَمُودَ] الآية ، هو ثمود بن غاثر بن إرم بن سام بن نوح أَخو جديس بن غاثر(٢) . وقرأَ يحي بن وثاب :

---

(١) البيت هو آخر أبيات قالها لبيد يخاطب ابنتيه حين حضرته الوفاة ، وأول هذه الأبيات :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرْ

إلى أن يقول :

فَقُومَا فَقُولا بالَّذي قَدْ عَلِمْتُمَا ... ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تَحْلِقَا شَعَرْ

وقُولا هُوَ الْمَرْءُ الَّذي لا خَلِيلَهُ ... أَضَاعَ ، ولا خَانَ الصَّديقَ ولا غَدَرْ

إلى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا ... ومن يبْكِ حَوْلا كاملا فَقَد اعْتَذَرْ

وقد قيل : لفظة اسم تعد مُقحمة هنا ، وقيل : السلام هو الله . وقيل : اسم هنا يراد به المسَمَّى ، والتعليقات على البيت كثيرة أوردها صاحب الخزانة .

(٢) في الطبري « عابر » بدلا « غاثر » .

[وَإِلَى ثَمُودٍ] بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن ، وصرْفه على اسم الحيّ ، وترك صرفه على اسم القبيلة . قاله الزجاج ، وقال الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ (١) . فالمعنى : وأَرسَلْنَا إلى ثمود أخاهم فهو عطف على نوح ، والأُخوة هنا أُخوة القرابة . وقال الزجاج : يحتمل أَن تكون أُخوة الآدمية وسمّي أَخاهم لما بعث إليهم وهم قوم عرب ، وهود وصالح عربيان ، وكذلك إسماعيل وشعيب ، كذا قال النقاش ، وفي أَمر إسماعيل عليه السلام نظر . وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، كذا ذكر مكي ، وقال وهب : بعثه الله حين راهق الحلم ، ولما هلك قومه ارتحل بمن آمن معه إلى مكة فأَقاموا بها حتّى ماتوا ، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله : [بَيِّنَةٌ] صفة حذف الموصوف وأُقيمت مقامه ، قال سيبويه : وذلك قبيح في النكرة أَن تحذف وتقام صفتها مقامها ، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأَخبار والأُمم زال القبح ، كما تقول : «جاءني عبد لبني فلان» وأَنت تريد : «جاءني رجل عبد» ، لأَن عبداً صفة ، فكذلك قوله هنا [بَيِّنَةٌ] ، المعنى : آية أَو حجة أَو موعظة بيِّنة . وقال بعض الناس : إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه ، وقالت فرقة وهي الجمهور : بل كانت مقترحـــــة .

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (هود).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم ، ورُوي أن بعضهم قال : يا صالح إن كنت صادقاً فادْعُ ربَّك يخرج لنا من هذه الهضبة – وفي بعض الروايات : من هذه الصخرة ، لصخرة بالحجر يقال لها الكاثبة – ناقةً عُشَرَاءَ[1] قال : فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة . وروي أنها كانت حاملاً فولدت سَقْبها المشهور[2] ، ورُوي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة ، ورُوي أن جملاً من جمال ثمود ضربها فولدت فصيلها المشهور ، وقيل «ناقة الله» تشريفاً لها وتخصيصاً ، وهي إضافة خلق إلى خالق . وقال الزجاج : وقيل : إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم ، وكانت الآية في شربها وحلبها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحكى النقاش عن الحسن أنه قال : هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب ، والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا. قال المفسرون وكان حلفاً عظيماً ، تأتي إلى الماء بين جبلين فيزحمانها من العظم ، وقاسمت ثمود في الماء يوماً بيوم ، فكانت ترِدُ يومها فتستوفي ماء بئر همشريا ويحلبونها ماشاؤوا من لبن ، ثم تمكث

---

(١) عُشَرَاء : بضم العين وفتح الشين ، وجمعها : عشارٌ – ومثلها نُفَساء . قال في المصباح : ولا ثالث لهما .

(٢) السَّقْب (بفتح وسكون) : ولد الناقة الذَّكر ساعة يولد .

يوماً وترد بعد ذلك غبًّا ، فاستمر ذلك ما شاءَ الله حتى ملّتها ثمود وقالوا : ما نصنع باللبن ؟ الماءُ أحب إلينا منه ، وكان سبب الملل فيما رُوي أنها كانت تصيف في بطن الوادي ، وادي الحجْر ، وتشتو في ظاهره ، فكانت مواشيهم تفر منها فتصيف في ظهر الوادي للقيظ وتشْتو في باطنه للزمهرير ، وفسدت لذلك ، فتمالؤوا على قتل الناقة ، فقال لهم صالح مرّة : إن هذا الشهر يولد فيه مواود يكون هلاكُكُم على يديه فولد لعشرة نفر أولاد فذبح تسعة أولادهم وبقي العاشر وهو سالف أبو قدار ، فنشأ قدار أحمر أزرق ، فكان التسعة إذا رأوه قالوا : لو عاش بنونا كانوا مثل هذا ، فأحفظهم أن قتلوا أولادهم بكلام صالح ، فأجمعوا على قتله ، فخرجوا وكمنوا في غار ليُبَيِّتُوه منه ، وتقاسموا ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ [١] فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله في كتابه [٢] ، وهم : قدار بن سالف ، ومصدّع ابن مهرّج ضمّا إلى نفسيهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة . وروي أن السبب في ذلك أن امرأتين من ثمود من أعداءِ صالح جعلتا لقدار ومصدّع أنفسهما وأموالهما على أن يعقرا الناقة ، وكانتا من أهل الجمال . وقيل : إن قدار شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماءً يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا

(١) من الآية (٤٩) من سورة (النمل)

(٢) أي في الآية الكريمة رقم (٤٨) من سورة (النّمل) : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

على عقرها حينئذ ، فخرجوا وجلسوا على طريقها ، وكمن لها قدار خلف صخرة ، فلما دنت رماها بالحربة فسقطت فنحرها ، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه . وفي بعض الروايات أنهم وجدوا الفصيل على رابية من الأرض فأرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماء فلم يقدروا عليه ، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تبارك وتعالى ، فأوحى الله إلى صالح أن مُرْهم فَلْيَتَمَتَّعُوا في دارهم ثلاثة أيام . وحكى النقاش عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى أنطق الفصيل فنادى : أين أُمي ؟ فقال لهم صالح : إن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر الناقة ، وروي أنها عقرت يوم الأربعاء ، وقال لهم صالح : تَحْمَرّ وجوهكم غداً وتَصفَر في الثاني وتَسْود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأحد ، فلما ظهرت العلامة التي قيلت لهم أيقنوا واستعدوا ولطخوا أبدانهم بالمن ، وحفروا القبور وتحنطوا فأخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القصص اقتضبته من كثير أورده الطبري رحمه الله رغبة الإيجاز .

وقال أبو موسى الأشعرى : أتيت بلاد ثمود فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً ،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبلاد ثمود هي بين الشام والمدينة ، وهي التي مرَّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين في غزوة تبوك فقال : (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم اعتجر بعمامته وأسرع السير صلى الله عليه وسلَّم)(١) ، وروي أن المسافة التي أهلكت الصيحة أَهْلَها هي ثمانية عشر ميلا ، وهي : بلاد الحجْر ومراتعها الجناب وحسمى إلى وادي القرى وما حوله . وقيل في قدار : إنه ولد زنى من رجل يقال له : ظبيان ، وولد على فراش سالف فنسب إليه ، ذكره قتادة وغيره . وذكر الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبر فقال : (أتعرفون ما هذا ؟ قالوا : لا ، قال : هذا قبر أبي رُغال الذي هو أبو ثقيف ، كان من ثمود فأصاب قومه البلاءُ وهو بالحرم فَسَلِمَ ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب) قال : فابتدر القوم بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن (٢) .

---

(١) الحديث رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه كما في البخاري — في غزوة تبوك — : (قال : لمَّا مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجْر قال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي) .

(٢) رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه عبد الرزاق عن اسماعيل بن أمية — مع اختلاف يسير في الألفاظ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الخبر يؤيد ما في السير من أن أبا رُغال هو دليل الفيل وحبيسه إلى مكة ، والله أعلم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

[بَوَّأَكُمْ] معناه : مَكَّنَكم ، وهي مستعملة في المكان وظروفه ، تقول : تبوأ فلان منزلا حسناً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾(١) ، وقال الأعشى :

فَما بَوَّأَ الرَّحْمٰنُ بيْتَكَ منْزِلا بشَرْقي أَجْيَادِ الصَّفا والمُحَرَّم(٢)

---

(١) من الآية (١٢١) من سورة (آل عمران) .

(٢) البيت من قصيدة يهجو بها الأعشى عمير بن عبد الله بن المنذر حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه ، ورواية الديوان :

وَمَا جَعَلَ الرَّحمنُ بَيْتَكَ في العُلا بأجْيَاد غربي الصَّفَا والمُحَرَّم

وفي اللسان والتاج :

ولا جَعَلَ الرحْمَنُ بيْتَكَ في الذُّرى بأجْيَاد غربي الصَّفَا والمحطَّم

قال القرطبي : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ في الأرْضِ ﴾ فيه محذوف تقديره : وبوأكم في الأرض منازل .

والقُصور : جمع قصْر ، وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأَرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود ، وقصرت عن الناس قصراً تاماً .

والنَّحْت : النَّجْر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وَتَنْحَتُونَ] بفتح الحاءِ ، وقرأ جمهور الناس بكسرها وبالتاءِ من فوق ، وقرأ ابن مصرف بالياءِ من أسفل وكسر الحاءِ ، وقرأ أبو مالك بالياءِ من أسفل وفتح الحاءِ ، وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم .

و [تَعْثَوْا] معناه : تفسدوا ، يقال : عثا يعثي ، وعثَا يَعْثُو ، وعَثِـيَ يَعْثى كنَسِـيَ يَنْسَى وعليها لفظ الآية ، وقرأ الأعمش : [تِعْثَوْا] بكسر التاءِ ، و [مُفْسِدِينَ] حال .

وتقدم القول في [ٱلْمَلأُ] ، وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع : [وَقَالَ ٱلْمَلأُ] بواو عطف ، وهي محذوفة عند الجميع . و [ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا] هم الأَشراف والعظماءُ الكفرة ، و [ٱسْتَكْبَرُوا] يحتمل أن يكون معناه : طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر ، أو يكون بمعنى كبِروا ، كبّرهم المال والجاه وأعظمهم ، فيكون ــ على هذا ــ كبِر واستكبر بمعنى كعجب واستعجب . والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد . والذين استضعفوا هم العامة والأَغْفال في الدنيا ، وهم أتباع الرسل .

وقولهم : [أَتَعْلَمونَ] استفهام على معنى الاستهزاءِ والاستخفاف ، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأَنَفَةُ الأَشرافَ على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى : [فَعَقَرُوا] يقتضي – بتشريكهم جميعاً في الضمير – أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق [١] ، وكذلك روي أن قدارا لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان ، فلما أجمعوا تعاطى فَعَقَرَ [٢] .

[وَعَتَوْا] معناه : خشنوا وصلبوا ولم يزعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم : ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ، وحسُن الوعد في هذا الموضع لما تقيّد بأنه عذاب .

---

(١) الإصفاق مصدر من أصفق ، ومعناه : أجمع القوم على أمر واحد .

(٢) العَقْر : الجرح ، وعَقَرْتُ الفرس : إذا ضربْتَ قوائمه بالسيف ، ومنه قول امرئ القيس :

تقولُ وقَدْ مَالَ الْغَبيطُ بنَا معاً   عقَرْتَ بَعيري يا امْرأَ الْقَيْسِ فانْزِلِ

قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: [إيتنا] بهمز وإشباع ضم، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياءٌ في اللفظ أبو عمرو والأعمش.

و [ٱلرَّجْفَةُ] ما تُؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد، ومنه قول خديجة رضي الله عنها: (فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم) يرجف فؤاده [(١)]. ومنه قول الأخطل:

إمَّا تَرَيْني حَنَاني الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ كالنَّسْرِ أَرْجُفُ والإِنْسَانُ ممدود [(٢)]

ومنه إرجاف النفوس لكريه الأخبار أي تحريكها، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل شيءٍ هائل الصوت، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجثموا على صدورهم، والجاثم اللاطئ بالأرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأرنب والطير، فإن جثومها على وجهها، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ الْمُنْتَأَى وَعَرَفْتُ مِنْهَا مَطَايَا الْقِدْرِ كالْحِدَإِ الْجُثُوم [(٣)]

---

(١) هذا جزء من حديث طويل في الصحاح من كتب السُّنة — ورواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها لا تنسب هذه العبارة إلى خديجة رضي الله عنها كما قال ابن عطية رحمه الله. بل تنسبها إلى من روى الحديث إذ يقول النَّصُّ في البخاري: (ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربُّك الأكرم، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زمِّلوني زمِّلوني فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع). (البخاري — باب كيف كان بدء الوحي).

(٢) البيت من قصيدة له يمدح بها يزيد بن معاوية، ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَفِي العَيْنَيْنِ تَسْهِيدُ وَاسْتَحْقَبَتْ لُبَّهُ فَالْقَلْبُ مَعْمُودُ

والرواية: (مهدود) بالهاء لا (ممدود) كما هي هنا، ولعل ذلك من خطأ النساخ.

(٣) قال جرير هذا البيت في قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك، والمُنْتَأَى: محفر النؤي، ومطايا القِدْر: الأثافي التي توضع القدر فوقها فتكون هي للقِدْر كالمطايا، والحِدَأ: جمع حِدَأة وهي طائر معروف بالخبث، وهو هنا يُشَبِّه الأثافيَّ بالحداء السواقط على الأرض.

وقال بعض المفسرين : معناه : حَمَماً محترقين كالرماد الجاثم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وحيث وجد الرماد الجاثم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل هموده وتفرقه ، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محرقة .

وأَخبر الله عزَّ وجلَّ بفعل صالح في توليه عنهم وقت عقرهم الناقة وقولهم : ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ، وذلك قبل نزول العذاب ، وكذلك رُوي أنه عليه الصلاة والسلام خرج من بين أَظهرهم قبل نزول العذاب ، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم ، وأَما لفظ الآية فيحتمل أَنه خاطبهم وهم موتى على جهة التفجُّع عليهم وذكر حالهم أَو غير ذلك كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أَهل قليب بدر ، قال الطبري : وقيل : لم تهلِك أُمة ونبيُّها معها ، ورُوي أنه ارتحل بمن معه حتى جاءَ مكة فأَقام بها حتى مات ، ولفظة (التَّوَلِّي) تقتضي اليأْس من خيرهم واليقين في إهلاكهم .

وقوله : ﴿لَا تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي ، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي يُنصح ، ولذلك تقول العرب : «أَمْرَ مُبكياتك لا أَمْرَ مضحكاتِك»[(١)] .

(١) أي : أطِـع أمْرَ من يأمرك بالصلاح وإن أبكاك لثقله عليك ، ولا تطع أمْرَ من يأمرك بالفساد وإن أضحكك لإعجابك به — يضرب في النهي عن اتباع الهوى ، وقيل : هو أنصح مثل قالته العرب ، وأصله أن غلاماً قال : أتيتُ خالاتي فأضحكنني وأمْرَحْنَني ، وأتيْتُ عَمَّاتي فَأَبْكَيْنَني وأحْزَنَّني فقيل له ذلك ، أي إن العمات أنْصح .
(عن المستقصى في أمثال العرب — للزمخشري) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

لوط عليه السلام بعثه الله إلى أُمة تسمّى سذوم[١] ، وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، ونصبه إما : [أَرْسَلْنَا] المتقدم في الأنبياء[٢] ، وإما بفعل مضمر تقديره : «واذكر لوطاً» ، واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع .

و [ٱلْفَاحِشَةَ] هنا : إتيان الرجال في الأدبار ، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتمل أن يراد بها : ما سبقكم إلى لزومها وتشهيرها ، ورُوي أنهم كانوا يأْتي

---

(١) بفتح السين وإعجام الذال ، أما المثل وهو «قاضي سدوم» فبالاعجام والإهمال ، وإن كان المشهور الإهمال .

(٢) يقصد الأنبياء الثلاثة الذين سبق الحديث عنهم ، وهم نوح وهود وصالح عليهم السلام ، وقد بدأ الكلام عنهم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ ، فبقية أسمائهم معطوفة على (نوح).

بعضهم بعضاً ، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباء ، قاله الحسن البصري ، قال عمرو بن دينار [١] : ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط ، وحكى النقاش : إن إبليس كان أصل عملهم إذ دعاهم إلى نفسه ، وقال بعض العلماء : عامل اللواط كالزاني ، وقال مالك رحمه الله وغيره : يُرْجَم ـ أُحصن أو لم يُحصن . وحرق أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلا يسمى الفجاءة حين عمِلَ عَمَلَ قوم لوط .

وقرأ نافع ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [إِنَّكُمْ] على الخبر كأنه فسَّر الفاحشة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ، وحمزة : [أَئِنَّكُمْ] باستفهام آخر ، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مُجْمل والثاني عن مفسَّر . إلا أن حمزة وعاصما قرآ بهمزتين ولم يهمز أبو عمرو وابن كثير إلا واحدة [٢] .

و [شَهْوَةً] نصب على المصدر من قولك : شهيتُ الشيء شهاة ، والمعنى : تدعون الغرض المقصود بالوطء وهو ابتغاءُ ما كتب الله من الولد وتنفردون بالشهوة فقط .

وقوله : [بَلْ أَنْتُمْ] إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرهم على المعصية وترْكٌ لذلك ، إلى الحُكْم عليهم بأنهم قد تجاوزوا الحدّ وارتكبوا الحظر ، والإسراف : الزيادة المفسدة .

---

(١) هو عمرو بن دينار الجُمَحي بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتي أهل مكة ، فارسي الأصل ، قال شُعبة : ما رأيت أثبت منه في الحديث ، وقال النسائي : ثقة ثبْتٌ ، واتهمه أهل المدينة بالتشيع والتحامل على الزبير ، ونَفَى الذهبي ذلك ، قال ابن المديني : له خمسمائة حديث . (تهذيب التهذيب ـ الأعلام) .

(٢) يعني الأولى مع تسهيل الثانية .

وقرأ الجمهور [جوابَ] بالنصب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن [جوابُ] بالرفع ، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة عقلية ، وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحت في قولهم : [أَخْرِجوهُمْ] وتعليلهم الإخراج بتطهير المخْرجين . والضمير عائد على لوط وقومه وإن كان لم يجر لهم ذكر فإن المعنى يقتضيهم . ورُوي أنه لم يكن معه غير ابنتيه ، وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه ، و [يَتَطَهَّرُونَ] معناه : يتَنَزَّهون عن حالنا وعادتنا . قال مجاهد : معناه : يتطهرون عن أدبار الرجال والنساء ، قال قتادة : عابوهم بغير عيب وذمُّوهم بغير ذم ، والخلاف في أهله حسبما تقدم .

واستثنى الله امرأة لوط من الناجين ، وأخبر أنها هلكت . والغابر : الباقي ، هذا المشهور في اللغة ، ومنه غُبَّرُ الحيض(١) كما قال أبو كبير الهذلي :

وَمُبَرَّإٍ منْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَــــةٍ وفَسَادِ مُرْضِعَـــةٍ وداءٍ مُغْيِلِ(٢)

---

(١) غُبَّر الحيض (بضم الغيْن وتشديد الباء المفتوحة) : بقية دم الحيض ، وضُبط بضم الغيْن وسكون الباء أيضاً .

(٢) أبو كبير الهذلي هو عامر بن الحُلَيْس ، وقوله : «ومُبَرَّإٍ» معطوف على «مَغْشَم» في البيت السابق حيث يقول :

وَلَقَدْ سَرَيْتُ عَلَى الظَّلام بِمِغْشَم . . . .

ومُغْيِل من قولهم : أغْيَلَتْ المرأةُ ولدها بمعنى (غَالَتْه) فهي : مُغْيِل وهو مُغْيَل ، والغيلة أن ترضع المرأة ولدها وهي حامل ، أو أن يأتيها زوجها وهي مرضع . (راجع اللسان والمعجم الوسيط) .

وغُبَّر اللبن في الضرع : بقيَّتُه ، فقال بعض المفسرين : كانت من الغابرين في العذاب والعقاب ، أي : مع الباقين ممن لم ينج ، وقال أبو عبيدة معمر : ذكرها الله بأنها كانت ممَّن أسنَّ وبقي من عصره إلى عصر غيره فكانت غابرة إلى أن هلكت مع قومها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأن قوله [إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ] اكتفي به في أنها لم تَنْج ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة ، والأول أظهر . وقد يجيءُ (الغابر) بمعنى الماضي ، وكذلك حكى أهل اللغة : غَبَر بمعنى مضى وبمعنى بقي وأما قول الأعشى :

عَضَّ بما أَبْقَى الْمَوَاسي لَـــهُ مِنْ أُمِّهِ في الزَّمَنِ الْغَـــابِرِ (١)

فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاءِ . ويحتمل أن يريد : في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين الذي هو غابر بعد الإبقاءِ . ويحتمل أن يُعَلَّق «في الزمن» بـ (عَضَّ) فيكون الغابر : الباقي على الإطلاق ، والأول أظهر .

---

(١) البيت من قصيدته التي يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل والتي مطلعها :

شَاقَتْكَ مِن قَتْلَةَ أَطْلالُهَـــا بِالشَّطِّ فَـالوتْر إلى حاجِـــر

والمواسي : جمع موسى (وهو المصنوع من الحديد وله شفرة حادة) والغابر : الماضي ، يقول له : إنه سيهجوه هجاءً مرّاً حين يبلغه سيجعله يعَضُّ بَظْرْ أُمه الذي أبقتـه المواسي عند عملية ختانها ــ ومعنى ذلك أن المهجو سيكون عاجزاً عن أن يفعل شيئاً بالهاجي له ، ولا يملك إلا الندم والحسرة فيعض بظر أُمه .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية نص على إمطار ، وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة ، وروي أن الله عزّ وجلّ بعث جبريل فاقتلعها بجناحه وهي ست مدن ، – وقيل : خمس ، وقيل : أربع – فرفعها حتى سمع أهل السماء نهاق الحمير وصراخ الديكة ، ثم عكسها وردّ أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض ، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة . وقالت امرأة لوط حين سمعت الرّجّة : واقوماه ، والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قيل في [مَدْيَن] إنه اسم بلَد وقُطْر ، وقيل : اسم قبيلة ، وقيل : هم من ولد مَدْيَن بن إبراهيم الخليل ، وروي أن لوط عليه السلام هو جد شعيب لأُمه ، وقال مكي : كان زوج بنت لوط . ومن رأى (مدين) اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي ، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرف .

وقوله : [أَخَاهُمْ] منصوب بقوله تعالى : [أَرْسَلْنَا] في أول القصص ، وهذا يؤيد أن [لُوطاً] به انتصب ، وأن اللفظ مستمر ، وهذه الأُخوة في القرابة ، وقد تقدم القول في [غَيْرُهُ] و [غَيْرَه] ، والبَيِّنَةُ إشارة إلى معجزته وإن كنا نحن لم يُنَص لنا عليها . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ آيَةٌ مِنْ ربكم﴾ مكان (بينة) .

وقوله : ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أمر لهم بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنى : في الأخذ والإعطاء ، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه ، و [تَبْخَسُوا] معناه : تظلموا ، ومنه قولهم : «تحسبها حمقاء وهي باخس[(١)]» أي ظالمة خادعة.

و [أَشْيَاءَهُمْ] يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكالُ أو يوزن .

وقوله تعالى : [وَلَا تُفْسِدُوا] لفظ عام لدقيق الفساد وجليله ، وكذلك الإصلاح عام ، والمفسرون نصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد ، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح . وقوله : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي نافع عند الله مُكْسِبٌ فوزَه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد ، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ الآية . قال السدي :

---

(١) المعنى : تظن أنك تخدعها لحمقها فإذا هي تخدعك وتهضمك - يُضْرب لِمَن يُظَنّ به الغباوة وهو فِطْنٌ واع .

هذا نهْيٌ عن العشَّارين (١) والمتقبلين (٢) ونحوه من أَخذ أَموال الناس بالباطل . والصراط : الطريق ، وذلك أَنهم كانوا يكثرون من هذا لأَنه من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن . وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : هو نهي عن السلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم ، وروى في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وما تقدم قبل من النهي في شأْن المال في الموازين والأَكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما ، وفي هذا كله تَوَعُّد للناس إن لم يتركوا أَموالهم (٤) .

---

(١) نصُّ العبارة في البحر : « قال السدي : هذا نهي العَشّارين والمُتَقَبِّلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل » — ومعنى ذلك أن كلمة (عن) زائدة من النُّسَّاخ . وأما العشَّارون فهو من قولهم : عَشَرْتُ مالَه أعشُره فأنا عاشر ، وعشَّرْته فأنا مُعَشِّر وعشَّارٌ — إذا أخذت عُشْرَه » فالعاشر أو المعشّر من يأخذ العُشْر من الأموال ، وفي الحديث : « إن لقيتم عاشراً فاقتُلُوه » أي : إن وجدتم من يأخذ العُشْر على ما كان يأخُذُه أهل الجاهلية مقيماً على دينه فاقتلوه ، لكفره ، أو لاستحلاله ذلك إن كان مسلماً وأخذه مستحيلا وتاركاً فرض الله وهو ربع العشر . (راجع النهاية في غريب الحديث والأثر — لابن الأثير) .

(٢) المتَقَبّلون : جمع متَقَبِّل وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطي ، فذلك الفضل ربا ، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (إيَّاكم والقَبَالات فإنها صغارٌ وفَضْلُها رباً) (النهاية — لابن الأثير) .

(٣) الحديث في تفسير الطبري ونصُّه : (أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقَّتْه ولا شيء إلا خرقته ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ ﴾ .

(٤) المراد : وفي هذا توعد للباخسين إن لم يتركوا للناس أموالهم . أو نحو هذا . والله أعلم .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي أيضاً : قوله تعالى : [وَلَا تَقْعُدُوا] نهي لهم عما كانوا يفعلونه من ردّ الناس عن شعيب ، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصُدُّونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما بعد هذا من ألفاظ الآية يشبه هذا القول .

وقوله تعالى : ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ﴾ الآية . المعنى : وتَفْتِنُون من آمن وتَصُدُّونه عن طريق الهدى وسبيل الله المفضية إلى رحمته . والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى ، وأن يعود على شعيب في قول من رأى أن القعود على الطرق للردّ عن شعيب ، وأن يعود على السبيل في لغة من يُذَكِّر السبيل .

وتقدم القول في مثل قوله تعالى : ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ في صدر السورة . قال أبو عبيدة ، والزجاج : كسر العيْن في المعاني وفتحها في الأَجرام .

ثم عدد عليهم نعم الله تبارك وتعالى وأنه كثَّرهم بعد قِلَّة ، وقيل : أغناهم بعد فقر ، فالمعنى ـ على هذا ـ إذ كنتم قليلا قدركم ، ثم حذَّرهم ومثَّل بمن امتحن من الأُمم السابقة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * ﴾

المعنى : وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم عليَّ ، وشعَّبْتُم بِكفْركم أَمْري فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أَيها الكفرة حتى يأْتي حكم الله بيني وبينكم .

وفي قوله تعالى : [فاصْبِرُوا] قوة التهديد والوعيد ، هذا ظاهر الكلام ، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار .

وحكى منذر بن سعيد[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن الخطاب بقوله : [فَاصْبِرُوا] للمؤمنين على معنى الوعد لهم ، وقاله مقاتل بن حيّان. قال النقاش : وقال مقاتل بن سليمان[2] : المعنى : فاصبروا يا معشر الكفار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول الجماعة .

(١) منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْزي القُرْطبي أبو الحكم البلُّوطي : قاضي قضاة الأندلس في عصره ، كان فقيهاً خطيباً شاعراً ، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر ، كان بصيراً بالجدل ، منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام ، له كتب في القرآن والسُّنة منها : «الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» و «الناسخ والمنسوخ» و «الإبانة عن حقائق أصول الديانة» (الأعلام) .

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي ، أبو الحسن ــ من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ ثم انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدَّث بها ، كان متروك الحديث ، من كتبه : «التفسير الكبير» و «نوادر التفسير» و «الردّ على القدرية» و «متشابه القرآن» ــ و «القراءات» ــ (الأعلام) .

انتهى الجزءُ الخامس بحمد الله وتوفيقه

ويليه الجزءُ السادس وأوله قوله تعالى :

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾

٤٣ رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
لسنة ١٩٨٢

فهرست الموضوعات

بقية تفسير سورة المائدة

الموضوع	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (لتجدنّ أشدّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) إلى آخر الآية ٨٣	١
قوله عزّ وجلّ : (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) إلى آخر الآية ٨٧	١٠
قوله عزّ وجلّ : (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) إلى آخر الآية ٨٩	١٤
قوله عزّ وجلّ : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) إلى آخر الآية ٩٢	٢٥
قوله عزّ وجلّ : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح) إلى آخر الآية ٩٤ ...	٣٠
قوله عزّ وجلّ : (يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرُم) إلى آخر الآية ٩٥ ...	٣٦
قوله عزّ وجلّ : (أُحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) إلى آخر الآية ٩٨...	٥٠
قوله عزّ وجلّ : (ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) إلى آخر الآية ١٠٢	٥٩
قوله عزّ وجلّ : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة) إلى آخر الآية ١٠٥	٦٨
قوله عزّ وجلّ : (يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية) إلى آخر الآية ١٠٧	٧٧
قوله عزّ وجلّ : (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) إلى آخر الآية ١٠٩ ...	٩٤
قوله عزّ وجلّ : (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتّي عليك وعلى والدتك) إلى آخر الآية ١١٠	٩٧
قوله عزّ وجلّ : (وإذ أوحيت إلى الحواريّن أن آمنوا بي وبرسولي) إلى آخر الآية ١١٣...	١٠٢
قوله عزّ وجلّ : (قال عيسى بن مريم اللّهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) إلى آخر الآية ١١٥	١٠٧
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله) إلى آخر الآية ١١٧	١١١
قوله عزّ وجلّ : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) إلى آخر الآية ١٢٠	١١٤

الموضوع — الصفحة

تفسير سورة الأنعام ١١٨

قوله عزّ وجلّ : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إلى آخر الآية ٢ ... ... ١٢٠

قوله عزّ وجلّ : (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) إلى آخر الآية ٥ ... ... ١٢٦

قوله عزّ وجلّ : (ألم يروْا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض) إلى إخر الآية ٦ ... ... ١٢٩

قوله عزّ وجلّ : (ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم) إلى آخر الآية ٩ ... ١٣١

قوله عزّ وجلّ : (ولقد استهزئ برسل من قبلك) إلى آخر الآية ١١ ... ... ١٣٤

قوله عزّ وجلّ : (قل لمن مافي السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة) إلى آخر الآية ١٢ ... ... ١٣٦

قوله عزّ وجلّ : (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض) إلى آخر الآية ١٦ ... ١٤١

قوله عزّ وجلّ : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) إلى آخر الآية ١٨ ... ١٤٥

قوله عزّ وجلّ : (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم) إلى آخر الآية ١٩ ... ... ١٤٩

قوله عزّ وجلّ : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) إلى آخر الآية ٢١ ... ١٥٤

قوله عزّ وجلّ : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم) إلى آخر الآية ٢٤ ... ... ١٥٦

قوله عزّ وجلّ : (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة) إلى آخر الآية ٢٥... ١٦١

قوله عزّ وجلّ : (وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) إلى آخر الآية ٢٧ ... ... ١٦٥

قوله عزّ وجلّ : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) إلى آخر الآية ٣٠ ... ... ١٧٠

قوله عزّ وجلّ : (قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله) إلى آخر الآية ٣١ ... ... ١٧٥

قوله عزّ وجلّ : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدّار الآخرة خير للذين يتقون) إلى آخر الآية ٣٣ ... ... ١٧٩

قوله عزّ وجلّ : (ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا) إلى آخر الآية ٣٥ ... ... ١٨٥

الموضوع	الصفحة
قوله عزّ وجل : (إنما يستجيب الذين يسمعون) إلى آخر الآية ٣٨	١٩٠
قوه عزّ وجلّ : (والذين كذّبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) إلى آخر الآية ٤١ ...	١٩٥
قوله عزّ وجلّ : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلّهم يتضرعون) إلى آخر الآية ٤٥	١٩٨
قوله عزّ وجلّ : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم) إلى آخر الآية ٤٩	٢٠٢
قوله عزّ وجلّ : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) إلى آخر الآية ٥١	٢٠٤
قوله عزّ وجلّ : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى آخر الآية ٥٣	٢٠٧
قوله عزّ وجلّ : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) إلى آخر الآية ٥٥...	٢١٣
قوله عزّ وجلّ : (قل إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إلى آخر الآية ٥٨...	٢١٧
قوله عزّ وجلّ : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى آخر الآية ٦٠	٢٢١
قوله عزّ وجلّ : (وهو القاهر فوق عباده) إلى آخر الآية ٦٢	٢٢٥
قوله عزّ وجلّ : (قل من ينجّيكم من ظلمات البر والبحر) إلى آخر الآية ٦٤	٢٢٧
قوله عزّ وجلّ : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) إلى آخر الآية ٦٧	٢٢٩
قوله عزّ وجلّ : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) إلى آخر الآية ٦٩	٢٣٣
قوله عزّ وجلّ : (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ٧٠	٢٣٧
قوله عزّ وجلّ : (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله) إلى آخر الآية ٧١	٢٤١
قوله عزّ وجلّ : (وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون) إلى آخر الآية ٧٣	٢٤٦
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) إلى آخر الآية ٧٥	٢٥١

الموضوع	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فلما جنّ عليه الليل رءا كوكباً قال هذا ربي) إلى آخر الآية ٧٧ ...	٢٥٧
قوله عزّ وجلّ : (فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي) إلى آخر الآية ٨٠	٢٦٣
قوله عزّ وجلّ : (وكيف أخاف ما أشركتم) إلى آخر الآية ٨٣	٢٦٦
قوله عزّ وجلّ : (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل) إلى آخر الآية ٨٦	٢٦٩
قوله عزّ وجلّ : (ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) إلى آخر الآية ٩٠	٢٧٣
قوله عزّ وجلّ : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) إلى آخر الآية ٩١	٢٧٩
قوله عزّ وجلّ : (وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) إلى آخر الآية ٩٢ ...	٢٨٣
قوله عزّ وجلّ : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أُوحي إلي ولم يوح إليه شيءٌ) إلى آخر الآية ٩٣	٢٨٥
قوله عزّ وجلّ : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) إلى آخر الآية ٩٤ ...	٢٨٩
قوله عزّ وجلّ : (إن الله فالق الحب والنوى) إلى آخر الآية ٩٦	٢٩٣
قوله عزّ وجلّ : (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) إلى آخر الآية ٩٨	٢٩٦
قوله عزّ وجلّ : (وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء) إلى آخر الآية ٩٩	٢٩٩
قوله عزّ وجلّ : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) إلى آخر الآية ١٠٢	٣٠٣
قوله عزّ وجلّ : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) إلى آخر الآية ١٠٥	٣٠٦
قوله عزّ وجلّ : (اتبع ما أُوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) إلى آخر الآية ١٠٨	٣١٢
قوله عزّ وجلّ : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) إلى آخر الآية ١١٠	٣١٤
قوله عزّ وجلّ : (ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) إلى آخر الآية ١١٢ ...	٣٢٠

الموضوع | الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) إلى آخر الآية ١١٤ ... ٣٢٤
قوله عزّ وجلّ : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) إلى آخر الآية ١١٧ ... ... ٣٢٧
قوله عزّ وجلّ : (فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) إلى آخر الآية ١١٩ ... ... ٣٣٠
قوله عزّ وجلّ : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) إلى آخر الآية ١٢٠ ... ... ٣٣٢
قوله عزّ وجلّ : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) إلى آخر الآية ١٢١ ... ... ٣٣٣
قوله عزّ وجلّ : (أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) إلى آخر الآية ١٢٣ ... ... ٣٣٦
قوله عزّ وجلّ : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله) إلى آخر الآية ١٢٥ ... ... ٣٣٩
قوله عزّ وجلّ : (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذّكّرون) إلى آخر الآية ١٢٧ ... ... ٣٤٦
قوله عزّ وجلّ : (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) إلى آخر الآية ١٢٩ ... ... ٣٤٧
قوله عزّ وجلّ : (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي) إلى آخر الآية ١٣٢ ... ... ٣٥٢
قوله عزّ وجلّ : (وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) إلى آخر الآية ١٣٥ ... ... ٣٥٤
قوله عزّ وجلّ : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) إلى آخر الآية ١٣٦ ... ٣٥٦
قوله عزّ وجلّ : (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤكم ليردوهم) إلى آخر الآية ١٣٧ ... ... ٣٥٩
قوله عزّ وجلّ : (وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) إلى آخر الآية ١٣٨ ... ... ٣٦٣
قوله عزّ وجلّ : (وقالوا مافي بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) إلى آخر الآية ١٣٩... ٣٦٥
قوله عزّ وجلّ : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) إلى آخر الآية ١٤١ ... ٣٦٨
قوله عزّ وجلّ : (ومن الأنعام حَمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله) إلى آخر الآية ١٤٣... ٣٧٢

الموضوع — الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءآلذكرين حرّم أم الأنثيين) إلى آخر الآية ١٤٤ ... ... ٣٧٦

قوله عزّ وجلّ : (قل لا أجد في ما أوحي إليّ مُحَرَّماً على طاعم يطعمه) إلى آخر الآية ١٤٥ ... ... ٣٧٧

قوله عزّ وجلّ : (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر) إلى آخر الآية ١٤٦ ... ... ٣٨١

قوله عزّ وجلّ : (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) إلى آخر الآية ١٤٨ ... ... ٣٨٦

قوله عزّ وجلّ : (قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) إلى آخر الآية ١٥٠ ... ٣٨٩

قوله عزّ وجلّ : (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) إلى آخر الآية ١٥١ ... ... ٣٩١

قوله عزّ وجلّ : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) إلى آخر الآية ١٥٢ ... ... ٣٩٦

قوله عزّ وجلّ : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله) إلى آخر الآية ١٥٣ ... ... ٣٩٩

قوله عزّ وجلّ : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء) إلى آخر الآية ١٥٤ ... ... ٤٠١

قوله عزّ وجلّ : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) إلى آخر الآية ١٥٧ ... ... ٤٠٣

قوله عزّ وجلّ : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) إلى آخر الآية ١٥٨ ... ... ٤٠٦

قوله عزّ وجلّ : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله) إلى آخر الآية ١٦٠ ... ... ٤١٠

قوله عزّ وجلّ : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) إلى آخر الآية ١٦٣ ... ... ٤١٤

قوله عزّ وجلّ : (قل أغير الله أبغي ربّاً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها) إلى آخر الآية ١٦٥ ... ... ٤١٩

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأعراف	٤٢٢
قوله عزّ وجلّ : (المص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به) إلى آخر الآية ٣	٤٢٢
قوله عزّ وجلّ : (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) إلى آخر الآية ٧	٤٢٦
قوله عزّ وجلّ : (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) إلى آخر الآية ٩	٤٣١
قوله عزّ وجلّ : (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) إلى آخر الآية ١١	٤٣٦
قوله عزّ وجلّ : (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) إلى آخر الآية ١٦	٤٤٠
قوله عزّ وجلّ : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) إلى آخر الآية ١٨	٤٤٧
قوله عزّ وجلّ : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى آخر الآية ١٩	٤٥١
قوله عزّ وجلّ : (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُري عنهما من سوآتهما) إلى آخر الآية ٢١	٤٥٦
قوله عزّ وجلّ : (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) إلى آخر الآية ٢٣	٤٦٠
قوله عزّ وجلّ : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) إلى آخر الآية ٢٦	٤٦٥
قوله عزّ وجلّ : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) إلى آخر الآية ٢٨	٤٧٤
قوله عزّ وجلّ : (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) إلى آخر الآية ٣٠	٤٧٨
قوله عزّ وجلّ : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) إلى آخر الآية ٣٢	٤٨١
قوله عزّ وجلّ : (قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) إلى آخر الآية ٣٦	٤٨٦

الموضوع	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) إلى آخر الآية ٣٧ ...	٤٩٤
قوله عزّ وجلّ : (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار) إلى آخر الآية ٣٩	٤٩٧
قوله عزّ وجلّ : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة) إلى آخر الآية ٤٢	٥٠١
قوله عزّ وجلّ : (ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار) إلى آخر الآية ٤٣	٥٠٥
قوله عزّ وجلّ : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) إلى آخر الآية ٤٥	٥٠٩
قوله عزّ وجلّ : (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) إلى آخر الآية ٤٨	٥١٢
قوله عزّ وجلّ : (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) إلى آخر الآية ٥٢	٥١٨
قوله عزّ وجلّ : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله) إلى آخر الآية ٥٤	٥٢٣
قوله عزّ وجلّ : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) إلى آخر الآية ٥٦ ...	٥٢٩
قوله عزّ وجلّ : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) إلى آخر الآية ٥٨ ...	٥٣٥
قوله عزّ وجلّ : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) إلى آخر الآية ٦٢	٥٤٣
قوله عزّ وجلّ : (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) إلى آخر الآية ٦٤	٥٤٦
قوله عزّ وجلّ : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) إلى آخر الآية ٦٨	٥٤٩
قوله عزّ وجلّ : (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) إلى آخر الآية ٧٠	٥٥٠
قوله عزّ وجلّ : (قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) إلى آخر الآية ٧٣ ...	٥٥٦
قوله عزّ وجلّ : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض) إلى آخر الآية ٧٦	٥٦٤

الموضوع	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) إلى آخر الآية ٧٩	٥٦٦
قوله عزّ وجلّ : (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) إلى آخر الآية ٨٤	٥٦٩
قوله عزّ وجلّ : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) إلى آخر الآية ٨٦	٥٧٣
قوله عزّ وجلّ : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به) إلى آخر الآية ٨٧ ...	٥٧٧

العلوم

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع